أكثر من
مليون قارئ
حول العالم

سيمين دانشور

المأساة الإيرانية

سووشون

ترجمها عن الفارسية
د. أحمد موسى

منشورات الربيع

kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
https://t.me/Bookkn
by: https://t.me/dl10d

مكتبة الحبر الإلكتروني
https://t.me/Bookkn
by. https://t.me/d110d

المأساة الإيرانية :سوشون

سيمين دانشور

ترجمة :احمد موسى

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة :

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

في ذكرى الحبيب،

الذي كان جلالَ حياتي،

وأقمتُ مأتمًا في رحيله.

سيمين

ولقد استمع ملكُ الأتراك لكلام الخصوم

فليستح من الله جرَّاء ظلامة دم «سياوش»

حافظ الشيرازي

1

كان ذلك اليوم يومَ حفل قران ابنة الحاكم. تشاور الخبازون فطبخوا «خبز حصى» لم ير مثلَه أحدٌ من قبل. كان الضيوف يتقاطرون جماعةً تلو أخرى على حجرة العقد لمشاهدة الخبز. بدورهما، السيدة زهراء ويوسف خان شاهدا الخبز عن كثب، لكن بمجرد ما وقعت عينا يوسف على الخبز حتى اندفع:

«عُجول، كيف يُقبّلون يد جلّادهم! يا للنعمة التي أُتلِفت، وفي أي وقت!».

لمّا سمع الضيوف، الذين كانوا بجوار الزوجين، كلام يوسف تقهقروا وجلسوا في الخلف، ثم لم يلبثوا أن غادروا حجرة العقد. حبستْ زَرِي ثناءها وأمسكت بيد يوسف، وقالت له بعينيها المُلتمستين:

«أستحلفك بالله لا تُرجف قلبي بكلامك في هذه الليلة بالذات».

ابتسم يوسف في وجه زوجته، وهو الذي طالما سعى للتبسُّم في وجهها؛ بشفتين وكأنَّ بهما سجافًا أو ثنية، وأسنان كانت ذات زمان تلمع بياضًا وباتت اليوم شديدة السَّواد بفعل دخان الشيشة. انصرف يوسف فيما ظلت زَرِي، على حالها، واقفةً ترنو إلى الخبز. انحنت وأزاحت جانبًا السُّفرةَ المُزركشة. كانوا قد ألصقوا دفتي الباب ببعضهما. وعلى أطراف السُّفرة وُضعت صواني البخور مع ورود وبوتقات ورسوم ليلى والمجنون. وفي الوسط، خبزٌ مُحمَّص بلون الورد. كُتب على سطح الخبز بخط منقوش محشو بالخشخاش: «هدية من تعاونية الخبّازين

إلى الحاكم العادل»، ونُقِّطت الحروف بالزعفران والحبَّة السوداء، كما كُتبت على حواشي الخبز كلمة «مبارك».

كانت زَرِي سادرة في التفكير: «في أي فرن طبخوه! وكيف خمّروه وهو بهذا الحجم؟ وما مقدار الدقيق الخالص الذي استهلكوه؟ وعلى قول يوسف «في أي وقت»؟! في الوقت الذي يمكن فيه إشباع عائلة بأكملها، في الليلة الواحدة، بهذا القرص من الخبز. في الوقت الذي يتطلب شراء خبز من المخابز وجود بطل خارق كـ «رُسْتَم»(34).

راج في المدينة، مؤخرًا، أنَّ الحاكم أراد أن يبثَّ الرعب في قلوب تعاونية الخبّازين فهمّ بطرح أحد الشطّار في تنّور أحد المخابز لأن كلَّ من أكل من خبزها أصابه ألم فظيع في بطنه وأخذ يتلوَّى كثعبان مجشوش الرأس ويقيء كالموبوء. قيل كأن خبز هذه المخبزة مُزج بمِداد أسود من شدة المرارة، لكن -على قول يوسف- ما ذنب الخبّازين إذا كانت مؤونة المدينة، بدءًا من الحبوب وحتى البصل، قد اقتنتها الجيوش الأجنبية؟!

والآن كيف ألتمسُ من أولئك الذين سمعوا كلام يوسف بأن يتصرفوا وكأنهم لم يسمعوا شيئًا بالمرة؟!».

بينما كانت مُنغمسةً في هذه الأفكار سمعتْ صوتًا يُحييها: «سلام». رفعت عينها عن الخبز ونظرت إلى السيدة الحكيمة التي كانت واقفةً بجانب سِرْجِنْت زينْگر. صافحت الاثنين. كلاهما كانا يعرفان

الفارسية لكن بصورة غير فصيحة.

«كيف يكون حال التوأمين؟» قالت السيدة الحكيمة، ثم أوضحت لسِرْجِنْت زينْگر:

«الأولاد الثلاثة يكونون من يدي».

«لم يكن لديّ شك» ردّ عليها سِرْجِنْت زينْگر، ثم سأل زَرِي:

«هل لهَّاية الطفل ما زالت كائنة؟».

ومن كثرة ما كرّر "يكون" و"كائنة" أصابه الضجر فرطن بإنجليزية لم تفهمها زَرِي لتشتّت انتباهها، وإن كانت درست في مدارس الإنجليز، وكان المرحوم أبوها من أمهر مدرّسي الإنجليزية في المدينة.

كانت زَرِي قد سمعت شيئًا لكنها لم تكن لتصدّق ما لم تر بأم عينها. فعلًا، لم يكن سِرْجِنْت زينْگر سوى "مِسْتِر زينْگر" السابق، مسؤول بيع ماكينات الخياطة ماركة "سنجر". قَدِمَ إلى مدينة شيراز قبل سبعة عشر عامًا على الأقل ولا يزال لا يُتقن الفارسية. كل من كان يقتني ماكينة "سنجر" كان يستفيد من عشر جلسات مجانية لتعليم الخياطة يُشرف عليها مِسْتِر زينْگر شخصيًّا، بقدّه وقامته الضخمة. كان، بهيكله السمين ذاك، يجلس خلف الماكينة ويُعلّم الفتيات تطريز الورود والشبكة وخياطة الثنيات. غريب أنَّ الضحك لم يكن يُغالبه. كانت البنات يتعلَّمن جيدًا. زَرِي أيضًا تعلَّمت. حين نشبت الحرب سمعت زَرِي أنَّ مِسْتِر زينْگر تزيّا، ذات ليلة، بزيّ الضباط وعلَّق الوشاح والنجمة. وهي ذي

الآن تراه بهذا اللباس الذي يواتيه بالفعل.

فكّرتْ: «كم من جهدٍ يلزم المرء كي يعيش في كذبةٍ لسبع عشرة سنة؛ عمله كذب ولباسه كذب وكله كذب! وكم كان ماهرًا في كذبه!». بأي حيلة أرغم أم زَرِي على شراء ماكينة الخياطة! وهي التي لم تكن تملك من متاع الدنيا سوى معاش الزوج. كان مِسْتِر زينْگر قد أقنعها بأنَّ الفتاة لن تحتاج شيئًا آخر لو امتلكت ماكينة "سنجر" في جهاز عُرسها. قال لها إنَّ مالكها نفسه يستطيع أن يكسب قوت يومه من هذه الماكينة. وقال لها أيضًا إنَّ جميع أعيان المدينة ونبلائها قد اقتنوا ماكينة "سنجر" لجهاز بناتهم، وأطلعها على دفتر يتضمن أسماء جميع الناس والشخصيات المرموقة في المدينة وعناوينهم.

التحق بهم ثلاثة ضباط أسكتلنديين يرتدون سراويل بها انكماشات وجوارب نسائية طويلة الساق. ثم جاء مَكْ مَاهُون، الذي كان صديقًا ليوسف، وكانت زَرِي قد رأته مرارًا. كان مَكْ مَاهُون مُراسلًا

عسكريًّا يحمل في يده آلة تصوير. طلب من زَرِي أن تشرح له بساط العقد، فشرحت كل شيء بإسهاب: مزهرية الورد والشمعدان والمرآة الفضية والشال والخاتم الملفوف في منديل كشميري والخبز والجبن والخضار والبخور... كما جُعل في طرفي السُّفرة مخروطان كبيران من السكر أُعدّا في مصنع السكر بـ"مَرْوْدَشْت" خصيصا لحفلة قران ابنة الحاكم. ألبسوا أحد المخروطين لباس العروس والآخر لباس العريس، ووضعوا على رأس المخروط

العريس قبعة أسطوانية. في ركن من الغرفة كانت توجد عربة أطفال، داخلها مُغلَّف بساتان زهري، ومترعة بقطع الحلوى والنقود. أماطتْ قطعة القماش المخملي عن سرج الحصان وقالت: «سوف تركب العروس على سرج الحصان كي تظل، دائمًا، ممتطية صهوة زوجها» فانفجر الجميع ضحكًا بينما انشغل مَكْ مَاهُون الإيرلندي بالتقاط الصور.

وقعت عينا زَرِي على ابنة الحاكم الصغيرة، كِيلان تَاج، وهي تشير إليها. استأذنت المحيطين بها وقصدت ابنة الحاكم. كانت فتاة ذات عينين عسليتين وشعر صاف أسمر منسدل على أعلى كتفيها. تنتعل جوربًا قصيرًا وترتدي تنورة تعلو ركبتيها. خمّنت زَرِي: «يجب أن تكون في سن ولدي خُسْرو، لا يتجاوز عمرها عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة... ». قالت كِيلان تاج:

«تقول لك أمي: رجاءً أقرضيني أقراطك ليزيِّنوا بها أذن العروس هذه الليلة، وغدًا في الصباح الباكر يرسلونها إليك إلى غاية باب بيتك... إنه خطأ السيدة عِزَّت الدولة التي أحضرت كبّة حرير أخضر وعلَّقتها على رقبة العروس. تقول إنَّ الأخضر يجلب البخت السعيد، لكن أختي لا تتزيَّن بأيِّ شيء أخضر يواتيها».

كانت تُجيب كطلَّاب المدارس تمامًا. انتابت زَرِي الدهشة كيف عرفوا بأقراطها الزمرّدية حتى يرسموا لها خطة! ومن ذا الذي يحمل همَّ تجانُس مظهر العروس وسط تلك الزحمة! لا شك أنَّ عِزَّت

الدولة هي من تقف وراء هذا الأمر، فهي بعينها الحولاء تعرف ما يملك أهالي المدينة جميعهم وما لا يملكون.

«إنها هدية ليلة زفافي... إنها تذكار حماتي... » قالت زَرِي بصوت مرتعش.

واستحضرت تلك الليلة في خدر البيت حينما علّق يوسف بيده الأقراط في أذنيها، وتعرّق وهو يبحث عن ثقبي أذن العروس وسط تلك الضجّة وأمام أعين نسوة المدينة المهرّجات اللواتي وجدن الفرصة سانحةً للتسلّي بموضوع ثقب الأذن ومنزل الوالد. اندفعت كِيلان تَاج على عَجَل:

«إنهم يرددون أغنية «مبارك». أسرعي، غدًا صباحًا... ».

نزعت زَرِي قرطيها وقالت: «احذري أن يسقطا»، رغم أنها كانت على يقين بأنها لن ترى قرطيها حتى ترى ظهر أذنيها، لكن هل كان بوسعها أن ترفض؟!

دلفت العروس إلى حجرة العقد وعِزَّت الدولة تمسك بذراعها. كيف لا وقد كانت تتحول، على الفور، إلى مستشارة عائلية لكل حاكم يدخل المدينة. كان يتعقّب خُطى العروس خمس صبيّات يرتدين ملابس منتفخة تشبه الدُّمى، كل واحدة منهن تحمل باقة ورد في يدها، وخمسة صِبية يرتدون بدلات وربطات عنق. كانت الحجرة مملوءة عن آخرها. صفقت النساء، وصفّق أيضًا الضباط الأجانب الذين كانوا لا يزالون حاضرين بالغرفة. فقد كان البروتوكول المُقام برمته من أجلهم، بيد أنه

كان في حكم مراسم العزاء بالنسبة لزَرِي... كانت تتعالى أهازيج «مبارك». امتطتْ العروس صهوة الجواد قبالةَ المرآة وراحت عِزَّت الدولة تفتّت قطع السكر فوق رأسها. خاطت امرأةٌ لسانَ رفاق العريس بإبرة وخيط أحمر، فأطلق الضباط الأجانب العنان لقهقهاتهم. دلفت إلى الحجرة خادمة سوداء تحمل موقدًا يعلو منه دخان البخور الفائح وكأنه جِنّي. لا مكان في الغرفة حتى لإبرة. فكَّرت زَرِي في نفسها: «الجميع ملتئم هنا: مرحب(33) وشِمر(32) ويزيد والإفرنجي وأشخاص زائدون، وهند آكلة الكبد... وآخر واحدة فضة(32*)» وفجأة انتبهت: «ها أنا الآن أُردِّد بدوري كلام يوسف... ».

كانت الصالة تعجّ بالفوضى والحرارة، ومليئة بروائح الأبخرة وعطر مسك الروم والقرنفل والدَّلبوث، وقد وُضعت في مزهريات فضية كبيرة وبُثَّت في الأرجاء، وكانت ماثلةً للعيان من بين تنانير السيدات. جلبوا الأزهار من حديقة "خليلي". لم تعرف زَرِي متى تفوّهت العروس بـ "موافقة".

أمسكت گِيلان تَاج بذراعها وهمست في أذنها: «أمي تشكرك، لقد... ».

واختفى باقي كلامها بين أصداء الزغاريد وصخب الموسيقى العسكرية التي عُزفت بعد أغنية "مبارك". وكأنهم كانوا يقرعون طبول الحرب. دخلت فردوس، زوجة بوّاب عِزَّت الدولة وشقّت طريقها حتى وصلت إلى السيدة وناولتها محفظتها، فأخرجت منها عِزَّت الدولة كيسًا مملوءًا بالحلوى والقطع

النقدية وراحت تنثرها على رأس العروس. وكيلا ينحني الضباط الأجانب والسيدة الحكيمة قامت بنفسها بوضع قطعة ذهبية في راحة كل واحد منهم. لم تكن زَرِي، قبل ذلك الوقت، قد انتبهت لوجود حميد خان بحجرة العقد، لكن بمجرد ما نطق لَمَحَته. قال موجِّهًا كلامه للضباط الأجانب:

«سلمت يدا أمي العزيزة على النقود... » والتفت ناحية زَرِي:

«السيدة زهراء، رجاءً ترجمي لهم!».

كان خطيبها السابق. سرحَ فِكرُها: «لقد أسأتَ التقدير. بمجرد أن قادت مُدرِّسة التاريخ جميع بنات الصف التاسع في المدرسة لزيارة بيتكم، بحجَّة التعرف على البيوت العتيقة، رحتَ تتصفَّح بنات الناس بعينيك الوقحتين وتُطلعنا على حمَّامكم وقاعة رياضتكم العتيقة، وشرعتَ تتبجَّح: جدي، مأمور الأمن الكبير، هو من بنى القاعة الزجاجية... وهو مَن نَقَشَ صورة الشاه لطفعلي خان(31) على المرآة... وكان هذا كافيًا لسبعة أصول من سلالتي... بعد ذلك، وبمنتهى قلّة الأدب، تبعتنا أمك يوم استحمامنا إلى حمَّام "شَابُورِي"، وفرضت نفسها علينا في حجرة استحمامنا الخاصة كي

تتلصّص على أجسادنا العارية بعينها الحولاء. ولكم كان بختي ميمونًا لأن يوسف تقدّم لخطبتي حينئذ! وإلَّا كانت أمي وأخي سيسقطان فريستين في فخّ حياتك الرغيدة».

بعد عقد القران تواصل الحفل في الحديقة وفي

الشُّرفة أمام البناية. أُضيئت جميع أشجار السَّرو ونخيل الزينة وأشجار النَّارَنج، كل شجرة بلون مُعيّن. الأشجار الكبيرة بمصابيح كبيرة، والأشجار الصغيرة بمصابيح صغيرة. تمامًا مثل النجوم. كان الماء ينسابُ من النافورة المُدرّجة من الطرفين. وُضع مصباح في وسط كل درجة على شكل وردة حمراء، فكان الماء يمرّ على الأضواء الحمراء ليصبّ في المسبح. وفُرش بساط البستان الكبير بسجاجيد استعدادًا للرقص. خمّنت زَرِي أنَّ أسلاك الكهرباء تمر، حتمًا، من تحت السجاجيد لتصل إلى مصابيح النافورة.

على امتداد محيط المسبح صُفّفت تواليًا: آنية صينية مملوءة بفاكهة منوَّعة، وثُريّا ثلاثية الفروع، وسلّة ورد. كانت شموع الثُّريّا مُتّقدة، وما إن يهبّ النسيم فيُطفئ إحداها حتى ينبري أحد الخدم من دون إبطاء لإيقادها بمشعل قصير القبضة.

أما الحاكم فكان رجلًا مربوع الكتف طويل القامة بشارب وشعر أبيضين. كان واقفًا جنب المسبح يُرحِّب بالضيوف القادمين لتوِّهم. كان آخر من وصل، عقيد إنجليزي ذو عينين فاجرتين. كان يُمسك بيد المدير الأسبق لمدرسة زَرِي وخلفهما جُنديان هنديان يحملان على بطنيهما سلة قرنفل مُصمَّمة على شكل سفينة، حتى إذا وصلا أمام الحاكم، وضعاها عند رجليه بجانب المسبح. لم ينتبه الحاكم للأزهار لأنه كان يُقبِّل يد سيدة إنجليزية. وكأن مدير المدرسة أشار إلى الأزهار فصافح

الحاكمُ العقيدَ، ثانيةً، ثم مدَّ يده نحو الجُنديين الهنديين فضربا رجليهما ببعض وأدَّيا التحية العسكرية ثم استدارا إلى الخلف وانصرفا، بينما كانت الفرقة الموسيقية العسكرية تؤدي معزوفةً.

بعد ذلك حضر المطربون. فأخذ "نعمت" يعزف على آلة القانون، وزميله صاحب الكرش المنتفخة يعزف على القيثارة، فيما يترنّم الغلام المُتنمّص بمقطوعة "گلم، گلم، گلابتون"(30) ويرقص. ثمّ

أدَّى أغنية "عزيزم برگ بيدي... برگ بيدي...". بعد ذلك بدأ عزف الإيقاع فهبَّت بضعُ نسوةٍ وبضعةُ رجال يرتدون ملابس مُعارَة من عشيرة "القَشْقَاي"(29)، وأدّوا رقصات تافهة بالمنديل والعصا. سبق لزَرِي أن رأت كل شيء مزوّرًا، لكنها لم تر في حياتها قطّ عشيرة «القَشْقَاي» مُزوَّرة.

حان دور المطربين المدعوّين من طهران خصيصا لإحياء حفل قران ابنة الحاكم. كانت كل الأصوات تصل إلى أذن زَرِي متداخلةً ومتشابكةً. حتى منظر أطباق الحلويات والأوعية المُترعة بالمكسَّرات، المبثوثة على الطاولات هنا وهناك، كان يُصيبها بالغثيان. خمَّنت للحظة؛ من المؤكد أنَّ الأولى بعثتها تعاونية الحلوانيين والثانية أرسلتها تعاونية تجار المكسّرات. أما كعكة العُرس ذات الطوابق الخمسة التي استوردوها بالطائرة فقد كانت هدية قائد أركان الجيوش الأجنبية. وضعوا الكعكة على طاولة في الشُّرفة. في الطابق الأخير من الكعكة صُنع عروسان من الحلوى يُمسكان بيد بعضهما ومن

خلفهما علم إنجلترا.

بصورة عامة، كان يُخيَّل للمرء وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًّا، خاصةً بوجود كل أولئك الضباط الأجانب بملابسهم الموشّاة بالأوشحة والنياشين، والضباط الأسكتلنديين بتنانيرهم المُنكمشة، وبضعة ضباط هنود معتمرين عمائم. ولولا أنَّ المرء لم يفرِّط في أقراطه لشبع فُرجة.

في البدء، رقص العروسان. كانت أذيال فستان العروس الطويلة تتجرجر على السجاد، مثل مُذنَّب، فتلمع أحجار فستانها وجواهره وترتره تحت ضوء المصباح، لكن لم يعد يُطوِّق رقبتَها لا كبَّةُ الحرير الأخضر ولا شبكةُ العروس، وحدها الأقراط ظلت في مكانها. رقص مع العروس، أولًا، العقيد الإنجليزي، وفي مرة أخرى، راقصها سِرْجِنْت زينْگَر الذي كانت تنزلق في حضنه مثل جراد صغير، ويبدو أنه داس على قدميها أكثر من مرة. بعد ذلك هبّ الضباط الأجانب صوب نساء أخريات. فراحت نسوة المدينة، بملابسهن مختلفة الألوان، يرقصن في أحضان ضباط غرباء، بينما جلس أزواجهن على الأرائك يتابعونهن بأعيُن فاحصة وكأنهم جالسون على الجمر. ربما كانوا مسرورين، وربما كانوا ثائرين، إذ ليس بوسع المرء أن ينفُذ إلى أعماق الآخرين. بعد

انتهاء الرقص أوصل الضباط السيدات إلى أماكنهن وكأنهن لم يكن بمقدورهن العودة بمفردهن. كان بعض الضباط يسوّون أقدامهم ويُقبّلون أيدي النساء، وحينذاك كان الأزواج ينطّون من أماكنهم ثم

يعودون إليها مثل زانة مطاطية أو ساعة منبِّه ضُبط جرسها. الوحيد الذي لم يرقص هو مَكْ مَاهُون إذ كان فقط يلتقط الصور.

تقدّم سِرْجِنْت زينْگر نحو زَرِي. سوّى قدميه حتى سُمعت طقطقة بوطه وأدى التحية وقال: «لنرقص». اعتذرتْ له. رفع زينْگر كتفيه ومضى نحو السيدة الحكيمة. تطلّعت زَرِي إلى زوجها الذي كان جالسًا في الناحية الأخرى. كانت عينا يوسف ترمُقانها؛ عيناه أشد صفاءً من سماء هذه الأيام الربيعية. غمزها غمزة انقبض لها صدرُها، وكأنَّ قطرة دمع كانت تتوارى، دائمًا، أسفل عيني يوسف وتبدو مثل الزمرّد النديّ، تمامًا مثل الزمرّد الذي يُزيّن قرطيها.

أحيانًا، كان العقيد وزينْگر، معًا أو على انفراد، يقتادان بعض الرجال إلى آخر الحديقة، ثم بعد بضع دقائق يعودون ويقصدون، رأسًا، البار ويتبادلون شرب النخب. لمحت زَرِي زينْگر وهو يهمس في أذن زوجها فنهض يوسف وقطعَ، بمعيّة زينْگر، طريق الحديقة بمحاذاة أشجار السَّرو والنَّارنج المتّقدة بمصابيحها، وقصدا أقصى الحديقة. بيدَ أنهما رجعا، على وجه السرعة، ولم يسيرا صوبَ البار. ولاحظتْ أنَّ سِرْجِنْت زينْگر أرسل إشارةً للعقيد الذي ألقى نظرات شزراء وانقبضت أساريره. جلس يوسف جنب زَرِي. كان وجهه قد اتّقد احمرارًا وشاربه الأشقر لا يكفّ عن الارتجاف.

«انهضي بلا ضجّة، لننصرف» قال لها يوسف.

أرسلت زَرِي شعرها ناحية أذن يوسف التي

بمحاذاتها، وقالت: «كما تريد».

كانت في حال الوقوف حينما انبعث أمامها مَكْ مَاهُون، والقدح بيده، فجلس بجوارهما. أمسك بيد يوسف. كانت عيناه تأبيان الانفتاح بسبب إفراطه في مشروب "جن" الكحولي. سأله بالإنجليزية:

«اشتبكْتَ ثانية مع "الخيّاط العام"؟».

نفث آهة ثم واصل:

«الأمر بالنسبة لكم غاية في التعقيد... رغم أنه لن يكون هيِّنًا بالنسبة لنا... هل راقك شِعري الذي قرأته لك أول السهرة؟ أليس كذلك؟ واللحظة، أفكر في قراءة شعر عن مدينتكم... ».

أشار إلى شطر الليمونة في قدحه وقال:

«الليمونة، بقشرها اللطيف والأخضر، اجتمعت في ذاتها كل روائح البرية الزكية... والسَّرو، بحريته واعتداله، أهم نباتات المدينة. وبالطبع، على الناس أن يشبهوا نباتات منطقتهم التي رأوا فيها النور؛ فيكونوا مهذّبين ومعتدلين. أرسلوني كي أسألك لمَ لستَ ظريفًا ومعتدلًا؟ أنا أؤدي مهمتي جيدًا، يوسف، مع أني طافح سكرًا! كم كنتَ رائعًا في أداء مهمتك، أيها الإيرلندي، أيها الشاعر المدمن على الخمر!».

خطف نظرة إلى زَرِي وقال: «في صحّتك!» ثم كرع كل ما في القدح ووضعه فارغًا على الطاولة وأردف:

«تعالَ بنا نجلس هنالك، على تلك الأريكة، بالقرب من سفينة الورد، تلك التي رست على ساحل النبات.

أنتِ أيضًا تعالي، يا زَرِي، فوجود امرأة حسناء مثير للحماسة دومًا. هذه السفينة الحربية المشحونة وردًا هي هدية من قائد أركان حربنا...».

«كم هو رائع. أين قدحي؟ زَرِي، املئي أقداحنا».

«نحن أبناء قبيلة واحدة. أليس كذلك؟ إيران وإيرلندا. كلاهما أرض الآريين. أنتم الأجداد ونحن الأحفاد! أيا أجدادنا القدماء... عونكم ومددكم! أيها الإيرلندي الكاثوليكي، يا ابن الملوك، أيا مدمن الخمر! أعلمُ أنَّك، ذات يوم سافل ماطر، سوف ترقد في حفرة وتسلّم الروح، أو تبحث في دار مسنّين عن عجوز تناديها "أمي! ".. لكن أمك التي جلبت لها ابنة الجيران كوب حليب ساخنًا... كانت منشغلة بحياكة جورب صوفي لوزي لابنها في الجبهة... مثل الذي أنتعل أنا. وأبوك، الذي كان مكلّفًا بصفَّارة الإنذار في نوبته الليلية، كان يعلم أنَّ الطائرات ستقصف حارتنا، وكان يعلم أنهم، الآن، يبيدون بيتنا عن بكرة أبيه، وكان يعلم أنَّ الأم منهمكة في حياكة جورب صوفي لابنها المرابط في جبهة الحرب. حين انتشلوها من تحت الأنقاض كان مِرْود الصوف لم يبرح يدها. والآن، كتب الوالد ورقة. كتب إنني آسف... آسف لـ... ».

«والآن أيتها العائلة الكاثوليكية سليلة الملوك... بهذا الاعتراف وبهذه الترهات... نهضتِ وهاجرتِ إلى لندن لأجل ماذا؟ لو أنك بقيت في إيرلندا وهاودت فقرها وفاقتها، وحرّرتها، لما تسببتِ لكل هؤلاء الضحايا في الهجرة. أتذكّرُ أنك، في بلاد

الغربة، كنتَ تنسج خيالات وأساطير عن إيرلندا، وتزهو بكثرة شعرائها، وكنت تئنّ لبلادك الفقيرة. أتذكَّرُ حين كنت تقول ليس في بلادنا شباب فاسدون فكان مخاطبوك يردّون: وهل يوجودون في بريطانيا؟ من كنتَ تخادع؟ أنت نسيت مدمني الخمر الإيرلنديين. نسيتَ أنَّ سفينة كانت تصل من بعيد، كل أسبوع، وكانت تشحن، بدل البضائع، فتيات وفتيان بلادك وتأخذهم إلى أمريكا. وهم أيضًا لم يكونوا يعلنون نقل منبوذيهم وصِفَاقهم إلى المستعمرات. تمامًا مثل "خيَّاطنا العام". لقد عاندك "الخيَّاط العام" يا يوسف، ولا يقدر أن يراك. وأنا نفس الشيء. لقد قلت، يوم أمس، للقنصل أن يشطّب عليك، لكن الخيَّاط العام لا يسمح بذلك... ».

رشف من قدحه ثمّ استرسل:

«بعض الناس يشبهون وردة نادرة، فيحسدهم الآخرون لأنهم يتوهمون أنَّ هذه الوردة النادرة تمتص طاقة الأرض بأكملها، وتبتلع سطوع الشمس وطراوة الهواء بالكامل، وتضيّق عليهم الفضاء، ولا تُبقي لهم شعاع شمس ولا ذرة أوكسجين، فيحسدونها ويتمنّون زوالها. إما أن تكون

مثلنا تمامًا أو لا تكون أصلًا. أنت شخص لا نظير له، تملك الوردة النادرة وتملك أيضًا الشوك الذي تخيف به البعوض، والعلف الطيب الذي تطعم به الحُمْلان الوديعة. الطّيب يكون، دومًا، الغصن الأطول والأكثر ثمارًا بين باقي أغصان الشجرة. والآن، هذه الشجرة الطويلة فطنة ويقظة وترى بكل وضوح. هم يقولون

لا تر ولا تسمع ولا تتفوّه. يرسلون في إثره الشاعر الإيرلندي المخمور على الدوام، الصحفي العسكري، كي يليّن عريكته. هذا الصحفي الذي يحمل ورقة أبيه في جيب سترته. إنها هنا، وقد كتب أبوه إنني آسف... آسف لـ... حسنًا، إذا لنت لهم قُضي عليك».

ارتشف جرعة أخرى، لم يعد يظهر من عينيه سوى خطٌّ رفيع. قال بحزن وكمد:

«أيا إيرلندا! أيا أرض أحفاد الآريين! أنا قلت شعرًا في شجرة يجب أن تنبت على ترابك. اسم هذه الشجرة "شجرة الاستقلال". يجب سقي هذه الشجرة بالدم بدل الماء، لأنها لو سقيت ماءً سوف تذبل. نعم يا يوسف، لقد صدقتَ، إذا كان الاستقلال مفيدًا لي فهو مفيد لك أيضًا. ولَكَم أفادتني تلك القصة التي رويتَها لي. قلتَ لقد جاء في أساطيركم ذكر لشجرة لو جفّفوا أوراقها واكتحلوا بمسحوقها لغدوْا لا مرئيين، وحينذاك لن يوقفهم أحد. ليت شجرة من هذه الأشجار كانت موجودة في إيرلندا وأخرى في مدينتك!».

صمت عن الكلام وأشعل سيجارة ثم أردف:

«كل هذه الثرثرة كي أجعلك سلسًا ليِّنًا. حين أخرجتُ ورقة والدي... إنني آسف... آسف لـ... جلستُ فكتبت قصة لتوأميك... لمينا. مينا ومرجان توأمان. لكن أين قصتي هذه؟ كنت قد وضعتها فوق رسالة والدي... أريد أن أصنع طائرة تلقي اللُّعبَ للأطفال... أو أصنع قصصًا جميلة... كان يا ما كان، كانت بنت صغيرة تدعى مينا، وكانت البنت

الوحيدة التي تبكي لأجل النجوم حينما لا تكون في السماء. لم أرَ في حياتي، قطّ، طفلًا يبكي لأجل النجوم. رأيت مينا فقط تبكي لأجلها. كانت في صغرها تحضنها أمها وتريها السماء وتقول: يا

قمرُ، تي تي... ورد، يا ورد... تعال وانفذ إلى صدر مينا... أو شيئًا مثل هذا. وهكذا صارت مينا عاشقة للسماء. والآن، في كل ليلة غائمة تبكي مينا لأجل النجوم. ليت خادمتهم تكنس السماء، إنها مستهترة، كل ما تقوم به بعثرة التراب هنا وهناك فوق السماء. لكن على الأقل، تظل بعض النجوم بادية في الليالي التي تكنس الخادمة. لكن آهٍ من كنس الأم، فإنها تنظف السماء وتجمع القمر وكل النجوم وتكبّها في كيس ثم تخيط فمه، وتضع الكيس في صوان وتقفل عليه. لكنّ مينا وجدت الحلّ، تواطأت مع أختها فسرقتا رزمة مفاتيح أمهما ونامتا والمفاتيح في حضنهما. لولا رزمة المفاتيح لما طرق النوم جفونهما في الليل. لم أرَ فتاة أخرى تفكّر في النجوم بهذا القدر ولم أرَ مدينة أخرى يمكن إخفاء النجوم في أَصْوِنتها... ».

ومرة أخرى ارتشف جرعة أخرى وعاد ليكمل:

«وصلتْ قصة مينا إلى نقطة النهاية... قل يا يوسف أحسنتَ. أُنظر إلى القصة التي صنعتُها من كلامك الذي صُغتَه –على قول توأميك- من بضع كلمات صادقة وأخرى كاذبة. وكأنَّ الناس في مدينتي يولدون شعراء! أترى أن الشعب الإيرلندي على نفس الشاكلة... » ولزم الصمت.

لم تعرف زَرِي من أين انبعث أخو زوجها، أبو

القاسم خان. استوى مَكْ مَاهُون واقفًا وأخذ قدحه وانصرف. وجلس جناب الأخ. رفَّت عيناه ثم تساءل:

«أتحتسون الويسكي؟».

«كلَّا، إنه نبيذ، أتريد أن أصبّ لك؟» أجابت زَرِي. قال جناب الأخ بهدوء:

«أخي، إنك عبثًا تعاند. أيًّا كان فهؤلاء ضيوفنا، لن يبقوا هنا إلى الأبد. إذا لم نعطهم عن طيب خاطر فسيأخذون قسرًا. لن تمنعهم أقفال مخازنك أو أختامها. ثمّ إنهم لا يأخذون بالمجّان، بل يدفعون المال. كلُّ ما كنتُ أدّخره في مخازني بعته بالجملة، وقد استلمت مُقدَّم ثمن الخضروات ولم تُزهر بعدُ. مهما يكن فهم أصحاب الأمر والنهي».

قال يوسف:

«أمر ضيافتهم المرفوضة ليس بالجديد، جناب الأخ... والأنكى من ذلك كله هو إحساس المهانة الذي لوّثكم جميعًا... لقد جعلوا منكم، في لمح البصر، دلّالين لهم، وخدمًا ومترجمين. إذن اتركوا واحدًا فقط يقف في وجوههم حتى يقولوا في سرّهم: في النهاية واجهَنا رجلٌ».

حان موعد العشاء فمضى الضيوف نحو البناية. تظاهرت زَرِي وزوجها وأخوه بالحركة لكنهم تلكؤوا عن الذهاب. التفت جناب الأخ ناحية زَرِي وأرمش وقال:

«زوجة أخي، أنت قولي شيئًا... أترين أنه يهين أخاه نهارًا جهارًا ؟».

«ماذا عساي أن أقول؟» ردّت زَرِي.

استدار جناب الأخ نحو يوسف نفسه قائلًا:

«يا روحي.. يا عزيزي، أنت شاب ولا تفهم. أنت بصلابة رأسك هذه، تلعب بروحك، وسوف تجلب المتاعب لنا جميعًا. هم، في النهاية، عليهم أن يطعموا هذا الجيش العرمرم، أنت نفسك تعلم أنه لا يمكن ترك مثل هذا الجيش جائعًا...».

«وهل يجوز ترك خُدَّامنا وأبناء وطننا جياعًا؟!» قال يوسف وألم مضن يعتصره.

«انظر يا عزيزي، لقد تماطلتَ، في السنة الماضية والتي قبلها، ولم تعط شيئًا، ومع ذلك تدبّرنا الأمر بنحو ما. لكن هذه السنة يستحيل، إنهم بحاجة إلى المؤونة والبنزين أكثر من المدفع والبندقية».

جاءت كِيلان تَاج صوبهم وقالت لهم: «أمي تدعوكم للعشاء».

انطلقوا. أسرَّ أبو القاسم خان لزَرِي:

«حذار من أن يركب رأسه فيتخلّف عن حفلهم عصر يوم غد. لقد دعوا خُسْرو أيضًا. سآتي أنا بنفسي لأوصلكم».

«غدًا ليلة الجمعة، أنت تعرف أنّني ملتزمة بنذر» قالت زَرِي.

رقَّت عينا أبو القاسم خان واندفع: «أتوسّل إليك، يا زوجة أخي!».

*

عادا إلى البيت فجلست زَرِي على السرير وخلعت

حذاءها فقط، بينما انشغل يوسف بتسوية سرواله على الفراش ليعلّقه على المشجب الخشبي. ارتدى بيجامة النوم وسار نحو الغرفة المجاورة التي يُفتح بابها على غرفة نومهما. كانت زَرِي تلمحه من مكانها الذي جلست فيه. وقف عند سرير التوأمين وراح يتملّاهما، ثم تقدَّم بحيث لم تعد زَرِي تراه لكنها كانت تعلم أنه يسوِّي ما تحت رأسيهما، وأنه سيلتقط رزمة مفاتيح زَرِي من وسط وسادتيهما. كانت تعلم أنه سيقبّلهما ويقول: «دميتايَ الفاتنتان..!». بعد ذلك سمعت صوت الباب. كانت تعلم أنَّ يوسف قد ذهب إلى غرفة خُسْرو... كانت تعلم أنه سيغطّي وجهه وسيقبِّل جبينه ويقول: «بنيَّ، إذا لم أستطع أنا فسوف تستطيع أنت. أنت أحبُّ إليّ من بؤبؤ عيني. في اليوم الذي لا أراك أكون كالطائر المذبوح» أو كلمات من هذا القبيل.

رجع يوسف إلى غرفة النوم. لم تبرح زَرِي مكانها على السرير. سألها: «ألا تريدين النوم؟» ثم ناولها رزمة المفاتيح وقال ضاحكًا: «عجبًا لهاتين الشقّيتين! إنهما مضحكتان. دميتان فاتنتان!». جلس بجانب زوجته: «بالطبع تريدينني أن أفتح أزرار ظهرك. معذرة فإني نسيت».

«ما أروع القصة التي كتبها مَكْ مَاهُون لهما!» قالت زَرِي من دون أن توليه ظهرها.

«هل فهمتِ القصة كاملة؟».

«أجل، لقد تعوّدتُ على لهجته الإيرلندية».

«أتعرفين ماذا قالت لي مينا اليوم؟ حين طوّحتُ

بها في الهواء واحتضنتها سألتني: بابا، هل أعطتك أمي نجمتين؟ إنني أراهما في عينيك».

ضحكت زَرِي وقالت:

«الطفلة صادقة. ثمة نجمتان تبرقان في أسفل عينيك. عيناك... ما شاء الله، كأنهما زمردتان... » ولم تكمل كلامها.

جاء يوسف زوجتَه من قِبَل ظهرها وشرع يفتح أزرار لباسها: «أوه.. كل هذه الأزرار.. لمَ ؟» ثم أردف:

«في أول الليلة، قلتُ لمَكْ مَاهُون كلامًا لو انتهى إلى مسامع زينْگر فأمري منته».

فتح الأزرار فسقط قميص زوجته حول خصرها، ثم بدأ يفكّ مشابك حمّالة النهدين. قال:

«قلت لمَكْ مَاهُون: بالطبع يا عزيزي، أبناء هذه المدينة يولدون شعراء لكنكم قتلتم شعرهم وخصَّيتم شجعانهم، ولم تُبقوا لهم حتى قدرة المقاومة كي ينشدوا ملحمة أو ينظموا قصيدًا... قلت له: لقد صنعتم أرضًا خالية من الأبطال، وحوّلتم المدينة إلى مقبرة أكثر المناطق نشاطًا فيها وحيوية حارة "مَرْدِسْتَان"».

فكّ مشابك حمّالة النهدين ووضع يديه على ثديي المرأة وقال:

«كم أشفقُ لحال نهديك، إنك تحكمين شدّهما!».

أحسّت زَرِي بآلام في ثدييها وبتورّم شديد في حلمتيها. وضع يوسف شفتيه على كتفها. كانتا ساخنتين.

«ألم يسأل أين تقع حارة مَرْدِسْتَان ؟» قالت زَرِي.

«بلى سأل فقلت له إنها ذات الحارة التي معظم قاطنيها من النساء المعدمات اللواتي يمرّرن معاشهن بالمساحيق التي يدهنّ بها وجوههن، وأنتم ترسلون في إثرهن الجنود الهنود. تجارتكم رابحة. قلت له إنكم قضيتم على الشعر، وبدلًا منه، تعلّم أصحاب العربات والعاهرات والخدم بضع كلمات إنجليزية. قال مَكْ مَاهُون لا تقل لي هذا الكلام، فأنا بالذات منزعج من هذه الحرب وساخط عليها».

قرّب يديه وراح يداعب شعر زوجته وأراد أن يقبّل صدغها فاستدارت وطوّقت رقبته وانهمرت دموعها. سألها يوسف مستغربًا:

«أتبكين بسببي؟ ليس بمقدوري أن أكون مثل بقية الناس وليس باستطاعتي أن أرى خُدَّامي جياعًا. لا يجب أن تخلو بلاد من رجال».

قالت زَرِي وهي تشهق بكاءً: «فليفعلوا ما يحلوا لهم لكن لا يحق لهم أن ينقلوا الحرب إلى عشّي. ما علاقتي أنا بالمدينة التي غدت وكأنها حارة "مَرْدِسْتَان"... مدينتي ومملكتي أنا هما بيتي هذا. لكنهم ينقلون الحرب إلى بيتي... ».

أمسك يوسف وجه زوجته بكلتا يديه وقبّل دموعها وقال: «انهضي واغسلي وجهك. ليس الوقت الآن مناسبًا لهذا الكلام. صرتِ مثل قناع على طين. قسمًا بالواحد الأحد أنك أجمل ألف مرة من هذه الأقنعة التي تصنعينها لنفسك. انهضي يا روحي فقد رغبت فيك».

أطفأت المرأة المصباح وهي تخلع ملابسها. لم ترغب في أن يرى يوسف، مجددًا، خريطة الجغرافيا –على قوله- على بطنها مع أنَّ يوسف كان، دومًا، يقبّل آثار الغُرَز ويقول: «تحمّلتِ كل هذه العذابات من أجلي أنا». إنها السيدة الحكيمة، تلك التي جعلت من بطنها سفرة مليئة بالترهّلات والغُرز.

آوت إلى الفراش، فلمّا احتكّت رجلا يوسف الدافئتان والمشعّرتان برجليها الباردتين، وداعب نهديها بيديه الكبيرتين، ونزل إلى أسفل، نسيت كل شيء: الأقراط وسِرْجِنْت زينْگر والسيدة

الحكيمة والعروس والموسيقى العسكرية والطبول... وحُوَل حفل القران وصُلعانه... نسيت كل شيء. غير أنَّ صوت خرير ماء هادئ منساب من نافورة يمرّ على ورود حمراء متَّقدة، ظلَّ ينفذ إلى أذنها، وظلَّت ترتسم أمام ناظريها سفينة مشحونة وردًا. لم تكن سفينة حربية بالمناسبة.

2

صباح يوم الخميس، استفاقت زَرِي من النوم باكرًا وخرجت من الغرفة بهدوء تام. وبعد أن نظّفت وجهها ورأسها دلفت إلى الصالة، وجلست إلى طاولة الإفطار التي تعدّها أخت زوجها والتي كانت جالسة خلف الغلَّاية. كانت التوأمان، مينا ومرجان، تشقشقان كعصفورتين وهما تحومان حول مائدة الفطور. من أجل ولادتهما وأخيهما خُسْرو كانت زَرِي قد نذرت التصدّق كل جمعة مساءً ببعض الخبز والتمر على السجناء ونزلاء دار المجانين. كانت زَرِي تعاني من عسر الولادة بسبب قوامها الرشيق وضيق تجويف حوضها. في كل ولادة، كانت تقرّر وضع حملها في البيت وتحجز، من أجل ذلك، موعدًا مع أمهر القابلات في المدينة، غير أنَّ عاقبة أمرها كانت تنتهي، من ناحية، إلى السيدة الحكيمة ومشفى "المرسلين"، ومن ناحية أخرى، إلى النذر والتوسل. والسيدة الحكيمة كانت يدها حاذقة بالمشرط، تقطع وتخيط. أثناء ولادتها خُسْرو، وبسبب الآلام المجنونة التي كابدتها، نذرت التصدّق بالخبز المطهو في البيت وبالتمر على المجانين. لكنها عادت للحمل بعد خمسة أعوام، بعد خوف ورعب، فنذرت، مسبّقًا، فعل الشيء نفسه مع السجناء.

سكبت العمَّة الشاي ووضعته أمام زَرِي وسألتها: «حسنًا، ما الأخبار؟».

«كان مكانك خاليًا، لكن النزاع شبَّ، من جديد، بين الحكومتين» قالت زَرِي.

«أنا أعرف جناب أخي، وأعرف يوسف أيضًا. أبو القاسم خان ليس نظيفًا، منذ أن حشا مخيِّلته بفكرة الوكالة غدا أكثر غموضًا» ردّت العمَّة.

اندفعت زَرِي: «انتزع مني وعدًا بأن أحضر، اليوم عصرًا، حفلة الأجانب، مهما كانت الظروف. لا أعرف ماذا سأفعل بشأن نذري؟».

«لا تحملي همّ نذرك. سألتمس من الحاج محمد رضا الصَّباغ أن يذهب إلى دار المجانين رفقة غلام. وأنا، من جهتي، سأذهب رفقة حسين آقا العطّار إلى السجن. لقد جاءت سكينة وأوقدت التَّنور، والعجين قد اختمر. مررت عليها بعد أداء صلاتي. هي الآن تقرص الخبز. أنت اذهبي، أختي، فأنا لا أحب أن يحدث شجار بين الإخوة».

دخل خُسْرو إلى الصالة. صفّقت مينا وقالت: «أخي، سيُركبني على الحصان. أليس كذلك، أخي؟». لم تكن تلفظ الكلمات بصورة صحيحة؛ تنطق السين شينًا، والكاف والگاف تاءً، والراء لامًا. وحتى مرجان، التي تصغر أختها بربع ساعة، كانت مقلِّدة لها وتابعة. ضمّت مرجان رجل خُسْرو إلى صدرها: «العب أنت معها أولًا ثم أنا. تمام؟».

«يجب أن أذهب إلى المدرسة الآن» قال خُسْرو بعد أن مرَّر يده، سريعًا، على رأس التوأمين وأذنهما. ثم جلس إلى الطاولة. سحبت مينا مفرش المائدة فاهتزّت الغلّاية وكادت تسقط أرضًا لولا السيدة فاطمة التي أمسكتها: «ما شاء الله عليهما، يجنِّنان الجنّ». ثم ناولت كل واحدة منهما مكعّب سكر. مدَّ

خُسْرو يده ناحية السُّكريَّة: «هل تأذنين لي أمي؟ سيُنَعِّلون "سَحَر" عصر هذا اليوم» ثم تناول من السُّكرية خمسة مكعّبات وأودعهن جيبه. أخذ الشاي من عمّته ثم التقط مكعَّبين آخرين ووضعهما في جيبه.

«هل ستشرب الشاي من دون سكر؟» سألته العمَّة.

«نعم، لقد تأخرت عن المدرسة» أجابها خُسْرو.

ناولته السيدة فاطمة مكعّبًا آخر: «على الأقل ضع مكعّب السكر هذا في فمك وأنت تشرب الشاي». فضحكت وقالت:

«أخذ جناب الأخ كيس سكّر وعشرين علبة شاي من خُدَّامه وأعطاها للسيد مطيع الدِّين. سمعتُ أيضًا أنه يصلّي خلفه، رجلٌ لم يعرف، في حياته، وجهة القبلة».

قال خُسْرو: «عمّتي العزيزة، أنا رأيت السيد مطيع الدِّين. رأيته يوم ذهبت مع غلام إلى بازار "وكيل" لنشتري السّرج والشّكيمة لـ"سَحَر". كان يركب حمارًا أبيض وقد أخرج يده من العباءة وأرسلها في الهواء... هكذا... » ثم أطلق يده في الهواء وأبقاها بعيدًا، مقلّدًا السيّد، وتزحزح على الكرسي وكأنه جالس على الحمار، واسترسل في الكلام: «فكان الناس، حين يعبرون من أمامه، يقبّلون يده ويمضون في حال سبيلهم. قبَّلت أنا وغلام أيضًا يده. لقد أحنى لي يده لأني لم أصل إليه على قدمي».

طُرق باب البستان. هاج قلب زَرِي وماج. من

دون شك، فقد أحضروا أقراطها من بيت الحاكم. لكن أَفي هذا الصباح الباكر؟ الشمس بالكاد طلعت. ذهبت إلى الشرفة فلمحت غلام، بقميصه وسرواله الداخليين، يخرج من الإصطبل في أقصى البستان. كان، كما العادة، يعتمر قبعته اللّبادية. كان غلام أصلع. فتحت الباب فاندسَّ أبو القاسم خان مثل غصن البَقَس. استغرقت زَرِي في التفكير: «هل سيرسلون الأقراط في وقت متأخر، ويكون يوسف قد صحا من النوم... يالسذاجتي! أي أقراط.. مواعيد عرقوب!».

عادت إلى الصالة ومكثت تنتظر. لمّا دخل جناب الأخ بادرته أخته: «ابن حلال! كنّا نتحدّث في سيرتك».

أرمش أبو القاسم خان وقال: «لا بُد أنك كنت تقولين إنه بفضل المساعي التي يبذلها سوف يصبح وكيلًا. سوف أصبح وكيلًا. لقد التقيت بالعقيد والقنصل، والحاكم أيضًا قطع لي وعدًا. وحده، السيِّد يعاندني؛ فتارة يثني عليّ فوق المنبر وتارة ينقض عهده».

«بالتأكيد لم يرتق السكر والشاي إلى مستوى هدية الكلام المعسول!» قالت السيدة فاطمة.

«أين ذهب تركيزك أيتها الأخت؟ أي سكّر وأي شاي؟» انفجر جناب الأخ معاتبًا، ثم أشار ناحية خُسْرو، فقالت العمَّة بهدوء:

«أنا أختكما الكبيرة، ويحق لي أن أنبَّهكما. الطريق التي تمضي فيها ليست سالكة. وخُسْرو أيضًا ليس

غريبًا».

رقَّت عينا جناب الأخ وقال حانقًا:

«وهل طريق أخيك الحبيب، يوسف، سالكة؟ يستلم من الحكومة كوبونات السكر والقماش بيد، ويسلِّمها للقرويّيين بيد أخرى؟ حسنًا، هو إنسان جاهل، لكن ما الربح الذي ستجنيه أنتِ من هذه التجارة؟ كلما ذهب إلى البادية أخذ الدواء للبدو. قسمًا بالله لو أغرقتَ هذه القرى بأدوية الدنيا كلها فلن تُداوى آلامُهم».

نهض خُسْرو وودَّع. سأل جناب الأخ: « أين هو الآن؟».

«لقد أفاق من النوم، إنه قادم إليك» ردّت زَرِي التي كانت منشغلة بإعداد شاي طازج.

اندفع جناب الأخ:

«نوم! نوم! في البادية أيضًا، إما نائم أو مُسجًّى وسط ناموسية يطالع كتابًا، بينما أقدامي، أنا، منفطرة، ووجهي غدا من لفع الحر أسود منكمشًا، لكنَّ المحترم غاصٌّ بين ثنايا الأوراق. عزيزي، على الرعيّة أن تهاب أسيادها. يجب أن تكون فوق الرعيّة كالفيّال. ينبغي حكم الرعيّة بالعصا والفلقة. قيل قديمًا: لا تُشْبِع بطون الرعيّة. إنه لا يأبه لشتاء ولا لصيف، عيناه مصوبتان نحو السماء، إذا لم تمطر يقيم مأتمًا، لكن ليس لأجله هو، بل لأجل القرويين والخرفان. وحين تنصحه وترشده يجيبك: الزرع للزارع ولو كان غاصبًا».

قالت العمَّة: «إنه ينال الأجر والثواب، إن لم يكسب

الدنيا فقد ربح آخرته. فضلًا عن ذلك، ما دخلك أنت به؟ إنه لا يعطي من مالك».

علا صهيل "سَحَر" من البستان. كانت زَرِي تعلم أنَّ خُسْرو سيمرّ على الإصطبل قبل الذهاب إلى المدرسة، وسيخرج سَحَر إلى البستان ويتركه هناك. حين سمع جناب الأخ صهيل سَحَر انتصب واقفًا وذهب خلف نافذة الصالة، ومن هناك ألقى نظرة على البستان:

«عجيب، كم صار جميلًا! إنه يلمع مثل الذهب! انظر كيف يتدحرج فوق الأعلاف! لقد وقف. عينان متباعدتان وجبهة عريضة. إنه يحرّك أذنيه إلى الأمام، ويرفع ذيله الأصفر، ورأسه أيضًا. إنه يقلّد أمه».

صهل سَحَر ثانية جذلًا. عاد أبو القاسم خان وجلس في مكانه.

«حمدًا لله أنَّ شيئًا في هذا البيت قد أعجبك ولم تسَفِّهه» قالت السيدة فاطمة وهي تستلّ آهة عميقة.

ضحك جناب الأخ:

«كل أعماله وفق الهوى. من الذي يربّي الخيول في هذا العصر والزمان؟! باستثناء أخي الذي يرعى ثلاثة أحصنة في الإصطبل». ثمّ قلّد يوسف:

«يروقني الذهاب إلى البادية ممتطيًا الحصان. فأنا أركب الأنثى البنيّة، وخادمي يمتطي الحصان الأحمر، والمُهر الأشقر يركبه خُسْرو».

دخل يوسف إلى الصالة. كان على كتفيه عباءة

رهيفة. سلَّم ثم حدج أخاه وبعده أخته بنظرة تشي بالتعجّب، وحدّق في زَرِي مستطلعًا. أومأت برأسها، فسألها:

«هل ذهب خُسْرو؟».

«أجل».

«أين مينا ومرجان؟».

اندفعت العمَّة: «ذهبتا عند سكينة للتفرّج على خَبزها، ولا بُد أنهما الآن تثرثران مثل الساحرة "وَرْوَرَة"».

جلس يوسف وتوجه إلى جناب الأخ يسأله: «هل حدث مكروه لا قدّر الله؟».

لم ينبس أبو القاسم خان بكلمة بل أخرج من جيبه كتيبًا ووضعه على الطاولة. طرفت عيناه وقال:

«احلف بهذا القرآن أنك ستأتي اليوم عصرًا، وأنك لن تتفوّه بكلماتك الهوجاء. إذا كنت لا تريد بيعهم فائض مؤونة قراك فلا تبع. لكن ليس من الضروري أن تقول لهم لا أبيعكم. أَنْظِرهم إلى وقت الحصاد. أنت سوف تنطلق بعد أيام إلى حقول الحصاد. قل لهم على عيني، سأبيعكم بعد جمع المحصول. لا تدري بما يأتي الغد. قد يُهزمون ويذهبون في داهية. يقال إنَّ هتلر يصنع قنبلة ستفني الدنيا... احلف الآن... ».

أرسل يوسف آهة وقال:

«لم أقل أني لن آتي عصرًا، ولا داعي لكي أحلف. أما عن خداعهم، فأنا رجل صادق ومستقيم، لا أكذب ولا أتزلّف ولو طار رأسي».

قال جناب الأخ:

«من أجلي أنا... لم أجرؤ على طلب ذلك من قبل، والآن أنا أطلب. المرحوم والدي أنفق على دراستك الكثير ولم ينفق عليّ شيئًا. وحين قسَّم تركته أعطى كلينا النصيب ذاته، هل اعترضتُ؟ ونصيب البنت، السيدة فاطمة، أيضًا انتهى إلى يدك. الآن، وقد ابتسم لي الحظ والبخت، فلا أقلَّ من

أن تساعدني حتى أقف على رجلي في هذه الدنيا.. لن أشتكي من أفعال الغرباء.. وقد صنع بي الأقارب ما صنعوا.. هيهات.. هيهات!».

تدخلت السيدة فاطمة: «يا جناب الأخ، ما أعلمُهُ أنا هو أنَّ أباك وجدَّك لم يقبلا بمنّةِ أحد من الناس؛ لا منّة الأجانب القذرين ولا منّة الأقارب المبتدئين... الحاج المرحوم لم يخلع عمامته من رأسه، حتى آخر يوم في عمره، وقضى حياته منعزلًا في بيته. في ذلك المجلس... نسيت اسمه... دعني من اسمه الآن. لم يصوّت على من كان يجب التصويت عليه. إذا كان يوسف هو ولده المحبَّب فلأن له طبعه وخلقه».

انفجر جناب الأخ متبجحًا:

«أنتِ الأخرى تطعنين فيّ؟ لو كان للسيد الحاج ذرة عقل لكنا، الآن، نملك ثروة كبيرة. صرف كل أمواله على تلك العاهرة الرقّاصة، سودابة الهندية. وماتت والدتي بغصّته في ديار الغربة. لو كان له ذرة عقل لما زوّجك لإنسان جاهل مثل ابن ميرزا ميور ذاك، الذي مشى برجله إلى حتفه، وتركك مجبرة

على العمل خادمة في بيت...».

قاطعت زَرِي كلام حماها :

«يا عمِّي الموقَّر، السيدة العمَّة هي كبيرتنا جميعًا ومكانها فوق رؤوسنا. لولا وجود العمَّة ما كنت بمفردي لأدير هذا البستان الكبير. فضلًا عن ذلك فهي ليست ضيفتنا».

«أجل أعلم، إنهم يحشرون أنوفهم في ما لا يعنيهم!» قال جناب الأخ ثم نهض. فجأة، لان عوده وأذعن على نحو محيِّر، فأردف:

«لم أكن أقصد في بداية صباح هذا اليوم الميمون إيذاء الموتى في قبورهم عوض الدعاء لهم بالخير والإحسان والمغفرة. لقد حصل ما حصل. لا عليك يا أختي، لا تحملي في قلبك!».

رافقت زَرِي الأخوين حتى البستان لتشييع جناب الأخ. كان سَحَر يأكل العلف لكن حين اشتمّ رائحة غريب ترك العلف ورفع رأسه. ارتجف أنفه الزهري. توقف جناب الأخ قبالته فتراجع الصغير خطوة إلى الخلف وصهل فجاء جواب صهيله من أمه في الإصطبل. تقدّم يوسف فشمَّ سَحَر أكمام عباءته ورفع رأسه وتنفسّ بعمق وتجرّع رائحة القريب. مسَّد يوسف على عنقه ورقبته. لمّا كان الزوجان عائدين كان سَحَر يقفز من هذه الناحية في البستان إلى تلك.

«انظري زَرِي، إنه يتعقّب الفراشات» قال يوسف. وكأنَّ سَحَر أحس بالحرّ، لأنه سقط على الأعلاف التي لم تصلها أشعة الشمس وأخذ يتدحرج، ثم

نهض وهاجم فراشة صفراء وأخرى بنيّة».

لمّا وصلا إلى الشرفة توقف يوسف وجال بعينيه في البستان وقال:

«باتت مدينتكِ جميلة. خسارة لأن فصل الصيف على الأبواب ولن أستطيع العناية بك وبها».

«مدينتي؟».

«ألم تقولي، ليلة أمس، مدينتي هي بيتي؟!».

ضحكت زَرِي وقالت:

«آه، نعم. هذه مدينتي وأحب كل شبر فيها؛ التلَّة من خلفها، والشرفةَ المحيطة بالبناية من كل الجهات، وساقيتيْ الماء المزدانة جنباتهما الآجرية بالنباتات والأعشاب، وشجرتيْ الدَّرْدار القريبتين من البستان، وجُنَيْنةَ النَّارَنج التي زرعتَ نارنجها بيدك، وشجرةَ الفواكه السبعة التي تلقِّحها كل سنة بفاكهة جديدة، وتقطيرَ الجار لورودها وأزهارها الفصلية، وأزهارًا ونباتات أخرى تبهج المرءَ أسماؤها: الصَّفْصاف المُعطَّر، والأُتْرُج، والشَّاهْتُرَج، وكافور النخل، والنَّسْرين... والأهم من كل ذلك تفتح أزهار النَّارَنج في الربيع وشذا العطر الذي يفوح منها ويصل بستاننا. أما العصافير والزرازير والغربان فقد غدا بيتنا مأوى لها. بيد أني أستاء من العصافير لأنها تبني

أعشاشها تحت أوراق السَّرو وفوق الأشجار، فيسقط بيضها، باستمرار، على الأرض وينكسر. إنها قذرة!».

«صوتكِ ناعم مخملي يشبه الهدهدة... أكملي... » قال يوسف بعد أن علت شفتيه ابتسامة.

«عمّن أحكي؟ عن أناس مدينتي؟ أم عنك أنت؟ أم عن الأولاد والعمَّة والجيران؟».

قال يوسف ضاحكًا: «عن الحاج محمد رضا الصبّاغ... ».

«الحاج محمد رضا الصبّاغ الذي ينشر أثوابًا ملوّنة على عصيٍّ خشبية في الشارع تحت أشعة الشمس، ويداه مخضّلتان بالبنفسجي حتى المرفقين. غلام وحسين آقا العطّار وحسن آقا صعلوك الزقاق... وخديجة... هذا يكفي. هل ستتركني أباشر أعمالي؟».

تعالى صوت الأجراس المعلقة على رؤوس الحمير. قال يوسف: «لقد أحضروا لمدينة الجار نَارَنج الربيع، يا للرائحة التي تفوح في الجو!». لم تستطع زَرِي برح المكان، ظلت واقفة إلى أن دخلت الحمير إلى بستان الجار وكدَّسوا محمولاتها المعطَّرة على مدخل البناية الآجري وسط البستان. صباح أمس حمل الجار التوأمين وأركبهما على أكوام براعم النَّارَنج، صفقت مينا بيديها: «يا إلهي، ما أكثر النجوم!» ومرجان وضعت رأسها على الورود الكثيرة واندفعت: «أحب أن أردّد "لا لا" هنا». وخلال كل هذا الوقت كانت زَرِي تتبع حركات الرجل مُقطِّر الورد وأبنائه الثلاثة؛ كان العجوز مقرفصًا أمام براعم النَّارَنج يملأ السَّلات، وأبناؤه يحملونها على رؤوسهم ويمضون بها إلى المخزن. كان العجوز قد أطلق على مرجان اسم "نرجسي" وعلى مينا اسم "نارنجي" ولم تعرف زَرِي السبب. حين أكمل عمله

أخذ تفاحة وأربع قطع من الخشب الرقيق وصنع لنرجسي ونارنجي –على قوله- لعبة العجلة الدوّارة، وزوّدها بماء الساقية بحيث يتيح مرور الماء تدويرها. فرحت البنتان كثيرًا وكأنهما امتلكتا أكبر عجلة دوّارة في الدنيا. بينما كانت زَرِي سادرة في التفكير لمَ لا يزوّج العجوز أبناءه الثلاثة

وهم في سن الزواج، ثم فكّرت: وما حاجة من يعيش بجانب كل هذه الورود والزهور إلى الزواج؟!

3

جمعوا السفرة وجلبت زَرِي الشيشة لزوجها. طوال وجبة الغذاء، لم يهدأ لخُسْرو بال، ومع مرور الوقت كان يزداد كدرًا حدّ تجمع قطرات دمع في آماقه وكان يسعى جاهدًا حبسها عن النزول. أرقدت زَرِي التوأمين ورجعت إلى الصالة لتأخذ الشيشة. كان خُسْرو يذرع الصالة جيئة وذهابًا وعين والده ترقبه. سأله الأب:

«لمَ قمنا بهذا التمهيد؟».

«كي لا يخاف» أجاب خُسْرو والحزن بادٍ عليه.

«ليس من أجل الخوف فقط».

جلس خُسْرو بجانب أبيه وقال:

«في كل مرة كان يأتي مُنَعِّل الدَّابة كنتُ أنا من أرفع حافره. في البدء كان يفزع كثيرًا فيجفل، خاصة لمّا كان المُنَعِّل يسمِّر المسمار في أسفل حافره. في السابق، كان المُنعِّل يضرب المطرقة على مهل، لكن يوم أمس ضربها بقوة».

«حسنًا، قمنا بذلك كي لا يخاف المهر أثناء التَّنْعِيل وكي لا يسحب حافره اتقاء غرز المسمار في اللحم. واليوم، أنا من سأرفع حافره بنفسي، مثلما كنتُ في السابق قابلة لحصانك».

استدار ناحية زَرِي الجالسة: «وضعتِ الشيشة أمامك وكأنّك تريدين أن تدخني».

جذبت زَرِي نفسًا فأصابتها نوبة سعال ثم كفَّت.

«أبي، هل تأذن لي بالحضور؟» سأل خُسْرو.

«بالطبع. ألم تكن موجودًا في ولادته؟!».

«بلى، إني أتذكّر جيدًا. وقف سَحَر على قوائمه على الفور. قطعت أمه سرَّته بأسنانها وأخذت تلحسه وتشتمّه. وأنتَ دثَّرت سَحَر بعباءتك كي لا يبرد، ودعكت جسده حتى جاء غلام بالبطّانية... ».

ضحك وأردف: «لقد غدا شقيًّا. يعضّ أمه ثم يندم ويعود للحسها... » ثم سأل:

«أبي، لماذا أحبُّ سَحَر إلى هذا الحد؟ أودّ، كل الوقت، أن أتكلم عنه. حينما أكون في الصفّ أمنّي النفس بقرع جرس الخروج بخفّة كي أصل إلى البيت وألعب مع سَحَر».

«الحبُّ ليس عيبًا يا عزيزي. المحبّة تنوّر فؤاد الإنسان لكن الحقد والكراهية يسوّدانه. إذا أَلِف قلبك المحبّة، في هذا السن، ستكون مهيّأً لمحبّة الأشياء الجميلة والطيبة في هذه الدنيا حين تكبر، فقلب الإنسان يشبه بستانًا مليئًا ببراعم الأزهار، إذا سقيتها بماء المحبّة تفتّحت، وإنْ رويتها بالكراهية والحقد تعفّنت. على المرء أن يدرك أنَّ الحقد والكراهية لا يليقان بالمحبة والجمال، بل يتجانسان مع القبح والغدر والظلم. فالتّرفع عن هذه الخصال دليل على حبّ الشرف والحق».

قال خُسْرو بفهم وإدراك: «بابا، عدتَ، ثانية، إلى التكلّم أعلى من مستوى الصف الخامس ابتدائي».

«ألم تستوعب ما قلتُه؟».

«بلى استوعبتُه... قلتَ إنَّ حُبَّ سَحَر ليس عيبًا... ثم قلت يجب سقي البراعم... ».

ضحكت زَرِي وقالت:

«في الوقت الذي كنت تسدي النصح كنت أنا قد أحصيتُ مائة وثلاثين نملة دخلت إلى هذا الثقب» ثم التفتت إلى خُسْرو وأردفت:

«برأيي، اذهب أنت إلى بيت عمِّك عند هُرْمُز، وارجع بعد تنعيل سَحَر».

قال يوسف: «لا يا زَرِي، خُسْرو يجب أن يدرك أنَّ على سَحَر تحمّل بضعة مسامير من أجل لبس النعل في حافره. يجب أن يعلم أنَّ الدنيا دار ألم ومعاناة... ».

سأل خُسْرو: «أبي، هل سيتألم كثيرًا؟».

«كلَّا. الصمود أهم ما في الأمر. عوّدناه على ترك الشّقاوة، لبعض الوقت، والتحلِّي بالصبر... بيد أنَّ الأحصنة الأخرى... ».

قاطع خُسْرو أباه مجدّدًا: «أبي، لكنّ أحصنة القطيع، التي حكيتَ قصتها، ليس لها لجام ولا نعل... ».

«بالتأكيد ليس لديها».

«ما كانت القصة ؟» سألت زَرِي.

«أنا بنفسي لا أتذكّر» قال يوسف.

استوى خُسْرو واقفًا وقال باندفاعه المعهود:

«ألا تتذكّر؟ حكيتَ تلك القصة في ليلة ميلاد سَحَر. بعد تلك الليلة، تحدثنا كثيرًا أنا وغلام عن أحصنة القطيع. فقال غلام: أبوك لفّق هذه الكلمات حتى تكفّ أنت عن البكاء».

ابتلعت زَرِي ضحكتها وقالت: «ما كانت القصة؟».

«أبي، أنا سأحكيها... لمّا نزل أبي ضيفًا عند العشيرة، وفي ليلة مقمرة صافية خالية من النجوم، خرج رجال العشيرة في رحلة صيد. فجأة رأوا في سهل شاسع قطيع أحصنة وحشية تقف على الصورة التالية: الأحصنة الذكور تصطفّ في دائرة كبيرة جدًا مولية ظهورها إلى مركز الدائرة ووجوهها صوب السهل. أما الأنثى التي كانت تلد أخذت مكانها وسط الدائرة داخل حلقة الأحصنة الذكور – كان الذكور يخجلون من مشاهدة الأنثى وهي تلد، لأنَّ كل من يلد يخرج طفله من أكثر أماكنه قبحًا- أبي، هؤلاء لم يجرؤوا على الاقتراب، وإلا كانت الأحصنة ستهاجمهم... كلّا إلهي... وقفت الأحصنة على تلك الصورة حتى تشعر الأنثى بالطمأنينة، وإلّا كانت ستفزع. كان من الوارد أن يهاجم صغيرَها حيوانٌ متوحّش. في الحقيقة نسيت أن أقول إنَّ أنثى أخرى متمرّسة كانت تقف بجانب الأنثى المتألمة وتقوم بمهام القابلة... ».

«هل أنا الذي قلت إنَّ الصغير يخرج من أكثر الأماكن؟» سأل يوسف.

«كلّا أبي، بل غلام قال هذا».

دلف غلام إلى الداخل بقبعته اللّبادية فسأله خُسْرو: «هل جاء المُنَعِّل؟».

التفت غلام إلى يوسف وأجاب: «لقد جاءت زوجته، تقول إنه أصيب بحمَّى... ».

*

في العصر، جاء غلام بحمَّالَيْن اثنيْن. كان بانتظارهما على حافة الحوض قبالة المبنى صينيتان مترعتان بالخبز والتمر مغطيتان بقماش مزركش. كانت العمَّة، متلفِّعة بشادورها(28)، تجلس بجانب إحدى الصينيتين والحاج محمد رضا الصبّاغ يتمشّى أمام باب البستان. أما حسين آقا العطّار فقد دخل ووقف بمحاذاة مشتل النَّارَنج وراح يتفرج على براعم نَارَنج الربيع. كانت زَرِي تذهب إلى السجن في أسبوع وإلى دار المجانين في الأسبوع الموالي. وحينما لا تذهب كان هناك دومًا متطوعون ينوبون عنها ابتغاء للأجر والثواب، أما في الوقت الذي لا يكون أي متطوع فالجاران حسين آقا والحاج محمد رضا لا يتركان جارهما وحيدًا.

زَرِي، التي كانت قبل لحظات تحشّي الخبز بالتمر رفقة خادمتها خديجة والعمَّة، هبّت الآن إلى تسريحة الماكياج وأخذت تتزيّن واقفة. كانت قادرة على مشاهدة البستان وسماع الأصوات الآتية منه من وراء شباك غرفة النوم. سمعت العمَّة تسأل أحد الحمَّاليْن:

«كم ستأخذ؟».

«أين سأذهب؟» أجابها الحمّال الأول.

«إلى قلعة "كَرِيمْ خَاني" وإلى سقَّايتين».

«أطال الله عمرك، لا أريد مالًا. أعطيني خبزًا منزليًا».

«وأنا إلى أين سأذهب؟» صاح الحمّال الثاني.

«أنت ستذهب إلى دار المجانين».

«أعطيني أنا أيضًا خبزًا».

ضمَّخت زَرِي وجهها لترتّب المساحيق ثم قدِمت إلى الشرفة. قالت لها العمَّة موضحة: «زوجة أخي، إنهما يطلبان الخبز بدل الأجرة».

«لا بأس» قالت زَرِي، ثم استدارت نحو غلام: «أعط كل واحد منهما عشرة أقراص».

قال الحمّال الأول: «طريقي أبعد منه، لكن لا بأس فطفله مريض، أُصيب بالمرض الذي يُشاع أنَّ الجيوش الأجنبية كانت وراءه بسبب تلويث مياه خزان "وكيل" بالجراثيم».

«أعوذ بالله!» قالت العمَّة.

قال حسين آقا: «هذا ما كان ينقصنا، مرضهم!».

قال الحمّال الأول: «أنتم تتصدقون كل جمعة على المساجين والمجانين، لكن لا أحد يتصدّق علينا نحن القريبين».

«عوّضهم الله، فربنا كريم» قال الحمّال الثاني.

أحضر غلام أقراص الخبز. فتح الحمّالان فوطتيهما اللتين بيدهما وكانا قد لفّاهما من قبل. أحكما شدّ الخبز في الفوطتين، ثم علّقاهما في خصريهما حتى انتفخت بطنهما. سألتهما زَرِي: «والآن أي فُوَط ستضعانها على رأسيكما؟».

أجابها الحمَّال الأول: «إن لم نقم بهذا فإن الخبز سينتشل منا، وليس أي خبز، إنه الخبز المنزلي، ناعم نعومة ورق الورد الجوري، رائحته تثير نهم المرء.

حسنًا فعلتم بتغطية الصينيتين».

«سوف تستقلّان عربة، مسيرها قصير ولن ينتشل أحد منكما الخبز».

«كأنّي بالسيدة غريبة عن هذه المدينة!».

«غلام، خذ من خديجة فوطة سيدك وفوطة خُسْرو وناولهما إياهما كي يلفانهما. لا يمكن أن يحملا الأطباق فوق رأسيهما العاريين».

سُمع زامور سيارة ربضت أمام باب البستان، فلمحت زَرِي أبو القاسم خان مع ابنه هُرْمُز يهمّان بالدخول. سرح فكرها: «الموت لي! لم أنجز أعمالي بعد» ثم ركضت إلى الداخل. خلعت ثياب البيت وارتدت بلوزتها القطنية وتنورتها وأخذت تبحث عن حذائها. سمعت صوت جناب الأخ:

«يا أهل البيت! هل ستتأخرون؟».

ثم صوت العمَّة وهي تجيب: «لا تستعجل، إنه أول يوم لا توصل فيه نذرها بنفسها، لأجلك أنت فقط... ».

«الطريق بعيدة، يجب أن نكون هناك على رأس الخامسة عصرًا».

«أليس المكان قريبًا من مرقد السيد أبو الوفا؟».

«كلَّا أختي، أبعد منه بفرسخ واحد».

«تعال اكسب ثوابًا وخلّص عباد الله هؤلاء. إلى أن يجهز أهل البيت أوصلنا بسيارتك».

«ألن تتأخري عن حشيشك، أختي؟».

كانت زَرِي تمشِّط شعرها حين قالت في نفسها:

«أهذا وقت الخصومة بين الأخ وأخته؟».

سمعتْ هُرْمُز يتوسَّط بينهما: «عمَّتي، أتريدين أن أذهب أنا... أحبُّ الحديث مع السجناء... ذهبتُ رفقة حسين آقا ثلاث مرات، أليس كذلك حسين آقا؟».

علا صوت جناب الأخ وهو يزمجر غاضبًا: «مرة أخرى، ترهات». ثم تقدَّم ناحية الشرفة وخاطب زَرِي ضاحكًا: «كم ستقضين من ساعة أمام المرآة، زوجة أخي؟ أين أخي؟ وأين خُسْرو؟».

لم تلق زَرِي بالًا لكلامه وسمعت العمَّة تقول: «حسين آقا، لننطلق، ساعد الحمّاليْن على رفع الصينيتين فوق رأسيهما».

«يا الله!» «توكلت عليك إلهي!» هتف أحد الحمَّاليْن.

*

كان في استقبالهم سِرْجِنْت زينْگر شخصيًا. عبروا معًا من أمام المزارع الصيفية. كانت زَرِي تشعر بالحرّ لكنها كانت واثقة من أنَّ الجو سيبرد ليلًا. كانت، بمعيّة جناب الأخ، يتقدّمان الجميع،

يتبعهما يوسف وزينْگر، ووراء الجميع يسير خُسْرو وهُرْمُز. سلكوا مزرعة كانت صفوف الخس فيها منتظمة، تمامًا، مثل فوج الجنود الذين وقفوا تحت طبقة من الغبار. ثم اجتازوا مزارع أخرجت كل غلّاتها، من ناضج ونيئ، وتدلت من بوتقات الخيار والباذنجان والطماطم والبطّيخ وفرشت تحت أشعة الشمس. «إنه أوان سقيها» قال جناب الأخ.

على الجانب الأيسر من المزارع جلس الجنود

والضباط في خيام ووقف آخرون. وانتشرت بالقرب منها شاحنات وسيارات متسلسلة أو منفردة. سمعت زَرِي يوسف يقول: «أنّى لهذه الخمرة أن تروي سُكرنا؟!» ثم بعده صوت زينْگر متسائلًا: «ماذا يعني أنت بهذا؟». وقف جناب الأخ وتلفّت إليهما واضطّرت زَرِي للوقوف أيضًا. نظر أبو القاسم خان إلى سِرْجِنْت زينْگر ورقَّت عيناه وقال:

«يشرفني أن أعرض على جنابكم العالي أنَّ أخي يقصد: لَكَم يشتهي كأسًا من الويسكي، لكن لن تسكر المرءَ كأسٌ واحدة فقط». ثم دفع يوسف إلى الأمام وسار هو جنبًا إلى جنب مع زينْگر.

أرشدوا الضيوف إلى سرادق القيادة. من كثرة استعجال جناب الأخ وصلوا باكرًا. تبادلوا التحية مع السيدة الحكيمة وضابط أسكتلندي. على طاولة بجانب السرادق بُسطت خارطة إيران. كانت السيدة الحكيمة تتمشّى في السرادق وكأنها تستظهر شيئًا مكتوبًا في ورقة. ألقت زَرِي نظرة على الخارطة. وضعوا فوقها علامات كثيرة وملوّنة تصيب المرء بالدوّار حتى وإن عرف معنى العلامات. قصد يوسف الخارطة وتبعه جناب الأخ مضطربًا.

«عجبًا كيف مزّقوها!» صاح يوسف.

أمسك جناب الأخ بذراع أخيه. دخل جندي هندي إلى السرادق يحمل صينية ملأى بكؤوس الخمر والمشروبات المتنوعة فأرشده زينْگر إلى الطاولة التي عليها الخارطة وخاطب يوسف قائلًا: «والآن يشرب أنت». تناول الثلاثة كؤوسهم. رفع زينْگر

كأسه وقال:

«في صحّة إيران،... كبير من فرنسا كثير. وطهران كبير من... من فيشي».

رفع يوسف رأسه عن الخارطة وقال له وهو يحدّق فيه:

«لكن للأسف، نحن لم نحارب!».

أرمش جناب الأخ وقال: «ماذا أقول، فماء فيشي المعدني لسوء الهضم... ».

قاطع زينْگر كلامه ووجه سؤاله ليوسف: «لماذا أنت يقول للأسف؟».

«لأننا نتجرع تعاسة ذلك مع أننا لم نتذوق طعم البطولة ولا مذاق الهزيمة المُشرِّفة» أجاب يوسف.

ثار زينْگر وقال مزمجرًا: «لو استطاع أنت حارب. وجدتُ هذا الكلام جميل. كان مزيّفًا. لمَّا مزقناه لم يكن به دم، بل، عوض الدم، حشوته تبنًا... ».

غالب يوسف الضحك فوضع يده على كتف زينْگر وقال:

«عزيزي زينْگر، كنتم تعلمون أنه قذر وتافه وبلا دم. لكننا لم نكن نعلم أنه ليس علينا أن نحارب حتى إذا انهزمنا تكون هزيمتنا فخرًا».

وضع زينْگر اليد أمام وجه يوسف مشيرًا إليه بالكفّ: «بررررر... تكلّم ببطء حتى أنا يتابع... ».

طرفت عينا جناب الأخ وقال: «ما فات مات! وما لم يأت أين؟!».

قال زينْگر هادرًا متجهّمًا: «أنت يقرأ الشعر ويشتّت

انتباهي أنا».

التحق بالسرادق ضباط آخرون، إنجليز واستكلنديون، وضابط هندي ومَكْ مَاهُون. همس هُرْمُز في أذن زَرِي: «لو كان السيد فتوحي حاضرًا لأشار بيده إلى عمِّي وقال: ينبغي أن يكون الرجال

أمثال هؤلاء! قَتَلنا بصاحبه جلال الدين الخوارزمشاهي... لو رأى عمِّي... ».

لكن انتباه زَرِي كان متوجهًا إلى زينْگر، وشاهدت الأخير يمسك بذراع أبو القاسم خان وسمعتْه يقول له:

«انصح أخاكم. الله يعطي النعمة لكم. أعطوها لنا. هذه النعمة للجميع، ملك للبشر. كل هذا لكم، كثير، لا يحتاجون... ».

ضحك يوسف: «يشبه الجدة!».

جمد زينْگر في مكانه. احمرّ وجهه ورقبته أكثر من السابق فوضع كأسه على الخارطة وقال: «أنت لا يعرف. أنت لا يلزم. سأدخل يجب أن يصل إليهم». لكنه سرعان ما تناول كأسه وعاد ليقول بتودّد: «في صحتّكم!».

دلف الحاكم بمعية العقيد الفاجر إلى السرادق، أولًا، وخلفهما العروس والعريس الجديد وگِيلان تَاج. اعتدل الضباط في وقفة أداء الاحترم وهزّ الحاكم رأسه لهم جميعًا. ثم، رويدًا رويدًا، جاء قائد الجيوش ومدراء جرائد المدينة ورؤساء الإدارات، كلهم مع زوجاتهم. وضجّت الخيمة بالصّخب. اختلطت روائح الأقدام مع روائح الكحول وعرق

الأبدان وعطر النساء. وفي الأثناء كان ثلاثة عساكر هنود يقومون بالخدمة. أشارت زَرِي لخُسْرو وهُرْمُز وذهبوا ثلاثتهم عند گِيلان تَاج. قررت أن تخرج عن صمتها وتنبّه إلى مسألة أقراطها. عرَّفت زَرِي گِيلان تَاج على خُسْرو وهُرْمُز. مدّت الفتاة يدها وضحكت حتى بدت غمَّازات خديهما. تقدّمت صوبهم العروس بقبعتها الحصيرية واسعة الأطراف، ونظارتها الشمسية خضراء اللون:

«عزيزتي زَرِي، أشكرك كثيرًا على هديتك، سوف أحتفظ بها كتذكار طوال العمر».

رمقتها زَرِي بنظرة ملؤها الدهشة والحيرة؛ منذ متى صارت مقرّبة من ابنة الحاكم إلى هذا الحد وهي نفسها لا تدري؟ إنها لم ترها أكثر من ثلاث مرات خلال السنوات الثلاثة التي قدموا فيها إلى شيراز، ولنقل أربع مرات، والخامسة كانت في ليلة قرانها. فتحت فاها لتقول «أي هدية؟! إنها معارة، وهذه أختك حية وحاضرة!» لكن لم يندّ عنها أي صوت. سخطت في نفسها على حماقتها وسرحت بذهنها: «الساذجات أمثالي يستحقن هذا!».

ألقت العروس نظرة على هُرْمُز وخُسْرو وقالت: «عزيزتي زَرِي، لم أكن أعرف أنَّ لك ولدين بهذا الكبر. أنت بشبابك وجمالك! قولي للجميع إنهما أخواي ولا تقولي ولداي».

بادر خُسْرو إلى الجواب: «هُرْمُز أبو نظارة ابن عمي».

احمرَّ وجه هُرْمُز وخلع نظارته، لكن زَرِي كانت

تعرف أنه لن يرى شيئًا من دونها. همَّت بالهجوم على ابنها لتعاقبه على قلة أدبه؛ هُرْمُز أبو نظارة! هُرْمُز التاريخي! إنه ابن عمه الأكبر. وأمام من؟ أمام مدلّلة وخرقاء كابنة الحاكم! غير أنَّ العروس عاجلت بالكلام: «هُرْمُز خان، هل أنت ابن ميرزا أبو القاسم خان؟ أنا أكنّ له احترامًا خاصًا. لطالما أخجلنا! إنه رجل لطيف للغاية. يضحكنا حتى نكاد ننفجر. لا تخجل ضع نظارتك على عينيك. أنا بنفسي أضع نظارة، وحتى نظارتي الشمسية لها درجة، البارحة كاد يقضى عليّ بلا نظارة».

تعالى صوت الطبل والبوق فخرج العقيد والحاكم من الخيمة ومن ورائهما باقي الضيوف. أحسّت زَرِي كأنهم يقتادونها إلى مصرعها. وصل الجمع إلى ساحة شاسعة مفتوحة، صُفِّفت فيها الكراسي على شكل حافر الحصان، وكان يجلس عليها آلاف الجنود أكثرهم من الهنود. أصدر الضابط، الذي كان يسير خلف العقيد، أمرًا فنهض الجميع دفعة واحدة وأحدثوا ضوضاء وجلبة. أعدّوا منصة من بضع طاولات ملتصقة ببعض وفرشوا فوقها سجّادًا. على أطراف المنصة كانت ترفرف خمسة أعلام، استطاعت زَرِي أن تميّز من بينها علم إنجلترا فقط.

ارتقت السيدة الحكيمة المنصة واقتربت من المايكروفون بينما كان أزيز الطاولة يسمع من تحت قدميها. قرأت من الورقة التي بين يديها كلمة ترحيبية باللغة الفارسية. كان صوتها يرتعش لكن سرعان ما تحكّمت في نفسها. كانت أسنانها الصفراء

تتراءى، تحت غبش الغروب، أكثر اصفرارًا. من مجموع كلامها فهمت زَرِي أنهم استدعوا أبناءهم المقاتلين، الذين جاؤوا في إجازة إلى مدينة الورود والبلابل، كي يتابعوا العرض الذي أعدّوه فترتفع معنوياتهم في حربهم مع وحش الفاشية فيدحروا الشيطان إلى جهنم. وأنهم يشكرون الإيرانيين على كرم الضيافة وعلى تسهيلهم الحرب على هذا الشيطان، أي هتلر. وقالت إنَّ هتلر جرثومة وسرطان يجب اجتثاثه من الجذور.

لم تكن السيدة الحكيمة مجرد قابلة، بل أيضًا جرّاحة حاذقة باستعمال المشرط. فضلًا عن هذا فهي –حسب قولها- «تقوم بالتبشير والهداية». في كل ليلة، كانت ترصُّ النفساوات والمذبوحات وقومهن وعشيرتهن في صفّ واحد ثم تعرض عليهم فيلمًا صامتًا وتمسك قضيبًا طويلًا وتشرع في التوضيح: «هذا يكون المسيح عيسى... وهذه تكون مريم المجدلية... وهذا يكون يهودا الأسخريوطي... ». بعد ذلك، وبفارسيتها المتعثّرة ذاتها، كانت تعظهم وتحدِّثهم، على وجه الخصوص، عن الشيطان ونار جهنم.

كانت زَرِي قد خَبِرت كافة أبعاد شخصيتها إلا هذا:

«حقًّا، لمَ تظهر في مثل هذه الأماكن قابلة وجرّاحة ومبشّرة؟ مؤكّد أنَّ تلك الشيطانة مهووسة بالشيطان الذي يريد الأبناء المقاتلون دحره إلى جهنم! والأبناء المقاتلون معظمهم هنود. وعلى قول جناب الأخ "يحشرون أنوفهم في ما لا يعنيهم!". لكن

أهالينا لقّبوا الشيطان الأخير بإمام الزمان. سمعت ذلك مرارًا».

ارتقى مَكْ مَاهُون المنصة فشغّلوا الأضواء الكاشفة. كان يضع على كتفيه كساء أحمر وينتعل بوطًا أسود، وقد أشبه بطلًا سينمائيًا لم تستطع زَرِي تذكر اسمه مهما عصرت ذهنها. لكنه للأسف غدى

سمينًا. تحدث بالإنجليزية ولم تستوعب زَرِي الكثير من دعاباته. بيد أنَّ قهقهات الضباط ومعظم الجنود كانت تخدش سكون السماء بعد كل ثلاث جمل يقولها. حتى الحاكم وقائد الجيوش كانا يضحكان بين الحين والآخر، لكن ضحكات أحد مدراء جرائد المدينة كانت مجلجلة أكثر من الجميع. من المؤكد أنَّ هذه الضحكات كانت لأجل حسن ضيافة الوحش الفاشي ودغدغته، وإلا فزَرِي كانت معروفة في المدينة بمهارتها في اللغة الإنجليزية ومع ذلك لم تستوعب حرفًا واحدًا. بعد ذلك تفاعل مَكْ مَاهُون في تمثيل قطعة شعرية وإلقائها. كان مضمون الشعر يدور حول جندي يُسقِط في حبال غرامه فتاةً أجنبية في ديار الغربة، ويستنزفها كيفما يشاء... أعطيني حذاء، أعطيني قبعة، أعطيني فوق ذلك ملاليم... لكن عندما قالت له الفتاة إني حامل تعال وخذني، اعترف بأنه متزوج وله أولاد. هدهد مهدًا خياليًا وطوّق رقبة فتاة وهمية، وقال بالفارسية «لدي زوجة وأولاد». ضحك المشاهدون ولم يقهقهوا كثيرًا.

قرأ شعر شجرة الاستقلال، شعره «عن شجرة

عجيبة تستمد قوتها من التراب والدم. يرعى هذه الشجرة بستاني ملامح وجهه شبيهة بالأنبياء. يعشق البستاني من بين كل الأشجار هذه الشجرة بالذات. وأثناء سقيها يهتف "الدم! " فيهبّ كل الناس ويجتمعون حول الشجرة ويقطعون عروق أيديهم لها. ظلال الشجرة باردة ووارفة. كل الناس يجلسون تحتها فتنجلي غصص قلوبهم، يجفّفون فاكهتها وأوراقها ويجرشونها ويكتحلون بمسحوقها فيحيى في قلوبهم الكبرياء والأمل والثقة بالنفس، وتطرد نفوسهم الجبن والارتياب والكذب، فيتصفون، جميعًا، بشيم الرجولة والعزّة».

بعد ذلك بدأ العرض. اعتلى المنصة رجل هندي ملتح يعتمر عمامة ويرتدي ثيابًا بيضاء بالكامل، ثم قرفص. أنزل المايكروفون وأخذ يعزف على الناي، وينفخ في ثقب كان قبالته. لم تكن زَرِي، حتى ذلك الحين، منتبهة إليه. كانت امرأة سوداء، تتوسط حاجبيها شامة حمراء، تسترق النظر بين الفينة والأخرى وتقوم بحركة ساخرة. صعدت المرأة ووقفت بجانب الرجل. كانت ترتدي ملابس من السَّاري أصفر اللون، حاشيتها مطرّزة باللون الذهبي. أخذت تصيح وتصرخ، كان صوتها رخيمًا للغاية. كانت تبدو مسنّة لكن لمّا كانت تلوّح بيديها كانت قعقعة أسورتها مسموعة. كان

غناؤها يختفي بين أصوات صفير الجنود الهنود وأهازيج ابتهاجهم. رجرجت المرأة فقرات رقبتها حتى لكأن رأسها سقط على الرقبة وراحت تحرّكه يمنة ويسرة مثل ثعبان، وشبّكت حاجبيها. وكم بذَّرت من كحل لتسويد

أطراف عينيها! كانت المرأة، برقبتها المتحركة، تمسح الثقب بنظراتها. تسارعت نغمات الناي فاشرأبَّ من الثقب شريط مطاطي رأسه رأس ثعبان واستقام. مدّت المرأة يدها وأخذت تسحب الشريط وتسحب. وفي ركن المنصّة لفّت الشريط المطاطي على شكل ثعبان طويل.

ارتقى المنصة رجل هزيل البنية كثُّ الحاجبين أشيب الشارب، يعتمر قبعة أسطوانية ويرتدي ملابس رسمية ويمسك مظلة في يده. كان عازف الناي مسترسلًا في عزفه. أدخلت المرأة يدها وأخرجت بعض الخردة من الثقب: عصى وأخشاب والكساء الأحمر الذي كان على كتف مَكْ مَاهُون وقبعة مخروطية وعلبة ومطرقة ومضخّة هواء. صارت المرأة الآن مساعدة للرجل كثّ الحاجبين. صنع الرجل فزّاعة من الأخشاب وتناول الشريط المطاطي من يد المرأة وراح يلفّه على بدن الفزّاعة ويديها ورجليها. وضع الكساء على كتفيها وقد غدا رأسها رأس ثعبان. ثم وضع القبعة المخروطية على رأسها وألصق باللصاق شاربًا على شفتها. غطّى الشارب عرض وجه الثعبان بالكامل. ناولته المرأة علم صليب منكسر وعلّقه بدبوس على الكساء. ثم أخذ مضخّة الهواء وأوصل رأسها برِجل الفزّاعة وشرع ينفخها على نغمات الناي. صارت الفزّاعة كبيرة جدًا؛ برأسها وبدنها ورجليها. نفخ ونفخ حتى انتفخت واحتلّت معظم المنصة فاضطر الرجل الهندي المعمّم للتنحي جانبًا. همهم صوت من خلف زَرِي: «إنه هتلر!». فجأة، قُرعت الطبول فهبّت إلى

المنصّة جموع يتقدمها رجل سمين يمسك غليونًا صغيرًا بطرف شفتيه، ويتبعه العم سام وضباط مختلفون بتنانير ومن دونها، بعضهم يلصق في أذرعه أعلام المنجل والمطرقة وبعضهم مجرد منها. وكلٌّ منهم مجهّز بقوس رماية. في الأول، راحوا يلهون بالفزّاعة حتى منعهم أحد الضباط وصرخ عليهم: «نييت، نييت»(27) لكنه رضي بعد ذلك وصاح: «خاراشو! خاراشو!»(26).

بعد ذلك قرعت الطبول بقوة وانطلقت القِسيّ، فأصاب كل واحد منهم مكانًا من بدن الفزّاعة فجعل الهواء فيها ينقص وينقص إلى أن انتهى بالكامل وفرغت من الهواء وسقطت أرضًا. صاح الجميع

وهاجوا وصفقوا... ثم عروضٌ أخرى.

4

عصر يوم السبت، نعَّل سَحَر رجلٌ غريب. لم يكن خُسْرو حاضرًا، كان في المدرسة. لمّا عاد حدج والده بنظرة موبِّخة، بينما كان هو يقول له: «لم يكن أمامنا حل آخر، كان سيفوت الأوان». ثم جرى ذكر الصيد ووعده أبوه أن يصطحبه هو وسَحَر. ظل خُسْرو مشغول البال برحلة الصيد وهل سيقدر سَحَر على الذهاب أم لا؟ إلى غاية مساء الخميس حين غادر الفرسان بوابة البستان. والآن، تمضي قرابة الأربع وعشرين ساعة لم تر زَرِي ابنها. قلبها لا ينفك يموج وسوسة، وخيالها يسرح بها، كل آن، إلى ألف مكان ومكان. والعمَّة لا تكفّ عن نصحها: «إنهم سعداء بالركض بالخيول، بينما أنت في خيالك تجرحينهم وتقذفينهم من الجبل».

أمرت غلام برش الماء على مدخل البناية الآجري وتصفيف الكراسي الحصيرية على حافة الحوض. من المؤكد أنهم سيعودون قبيل غروب شمس يوم الجمعة. كانت مينا ومرجان تحومان حوالي الحوض، وما أن تنتبهان لشرود عيني الأم حتى تغطسان يديهما معًا في حوض الماء.

طُرق باب البستان فهبّت زَرِي لاستقبال فرسانها. فتح غلام باب البستان على مصراعيه ودخلت عربةٌ فجمدت زَرِي في مكانها: لقد ذهبوا بخيولهم! توقفت العربة عند قدم زَرِي وترجَّلت منها سيدتان متلفِّعتان بشادور الصلاة وتحكمان إخفاء وجهيهما. «عجبًا إنهما عملاقتان!» تنتعلان شباشب ضخمة مصنوعة

في بلدة "آبَادَة"، وكم هي كبيرة أقدامهما، وكم تبدوان تحت الشادور رشيقتين مربوعتي القامة!

ألقت زَرِي التحية فردّتا بهزّ رأسيهما. ناولت إحداهما صاحبَ العربة نقودًا بيدها البشعة كثيرة العروق. كانت ساعتها اليدوية رجالية. مهما سبرتْ زَرِي عقلَها لم تسعفها ذاكرتها أين رأت المرأتين. هل تكونان من صديقات السيدة فاطمة التي تحشّش في هذه الأثناء في الشرفة؟ هل تكونان من نسوة المدينة الجسورات اللواتي لا يخشين رجلًا في هذه الدنيا؟ أم من النسوة غريبات الأطوار؟

رمقت مينا ومرجان وقد دسَّتا يديهما إلى المرفق وسط الماء فصرخت عليهما: «ابتعدا عن حافة الحوض... ». وصلن إلى الكراسي فدعتهما للجلوس، غير أنهما لم تكترثا وشقّتا طريقهما نحو البناية. كان واضحًا أنَّ إحديهما، الأقصر قامة، تضحك لأن كتفها ترتجّ تحت الشادور. ألقت العمَّة نظرة على المرأتين وهي تدخن الحشيش وغمغمت: «لم أعرفكما». تخطّت المرأتان الشرفة وفتحتا باب الصالة ودلفتا. بالتأكيد، لم تكونا من مجانين الأمس الذين ناولتهم بيدها الخبز والتمر. لكن ليس من المنطقي أيضًا أن تأتيا إلى بيوت الناس وتشرعان -كمن يمشي نائمًا- بالتجوال في كل مكان يحلو لهما، وكأنه بيت جدهما، ولا تتفوهان بكلمة واحدة. تبعتهما إلى الصالة. قالت:

«لمَ لا تتفضلان بالقعود؟ في الحقيقة مهما أمعنت الفكر لم أستطع تمييزكما».

«أين يوسف خان؟» سألت إحداهما بصوت فجّ.

«ذهب مع خُسْرو إلى الصيد» أجابت زَرِي.

كان الصوت صوتَ رجل، وكان مألوفًا. لا بُد أنَّ أحدًا قد سلَّطهما. جلستا على الأريكة وخلعتا شادوريهما دفعة واحدة: حواجب كثّة وعيون سود ورموش طويلة وأنف عُقابي ووجه أسمر طويل. شطرا تفاحة، مع فارق أنَّ أحدهما أصغر والآخر أكبر. والكبير كان ذا شنب.

يا للحكاية! صاحت باندهاش: «ملك رُسْتَم خان! ما هذا المظهر؟ لقد فجَّرتَ صفرائي!».

وضع ملك رُسْتَم أصبعه على شاربه وقال: «هس، بهدوء. سوف أنتظر يوسف».

انطلقت زَرِي إلى الشرفة واطمأنّت إلى أنَّ التوأمين جالستان جنب العمَّة تتفرجان على طريقة تدخينها الحشيش. عادت إلى الصالة وناولت كلًّا من ملك رُسْتَم وأخيه ملك سُهْراب مروحة، وقالت ضاحكة: «ضربتم عنّا صَفْحًا! سنوات مرّت لم... ».

«متى سيرجع من الصيد؟ هل من الممكن ألا يعود؟» سأل ملك رُسْتَم وكان شارد الفكر.

«أتوقع عودته في أي لحظة. ماذا في الأمر؟».

«سمعتُ أنه سيذهب غدًا للحصاد... كيف لم يرجع حتى الآن؟».

أحضرت زَرِي للضيفين شربات ثم بعض الفاكهة والمكسّرات. فتحت أبواب الصالة، لكنهما لم يسمحا لها بإشعال المصابيح. جلست قبالتهما وسألت:

«حسنًا، تكلّما، ماذا حصل حتى تذكَّرتمانا؟».

مسح ملك رُسْتَم بيده على شاربه وقال: «سُهْراب جاء من طرف عمّي، أما أنا فقد جاء بي الشوق إليكم».

«مؤكد أنَّ خدعة ارتداء الشادور هي خطة سُهْراب خان. لم يقلع عن شغب الطفولة بعدُ. أما زلتَ تذكر شقاوتك، سُهْراب خان؟».

«وهل يمكن أن أنسى؟ لكننا لبسنا الشادور كي لا يتعرَّفنا أحد. لو كشفوا أمرنا لمزّقونا إربًا إربًا» اندفع ملك سُهْراب ضاحكًا.

التفتت زَرِي إلى ملك رُسْتَم: «آهٍ على تلك الأيام! لم نكن ندري شيئًا». ثم تذكرت أحد الأيام في بداية زواجها، ذات السنة التي قبضوا فيها على كبير العشيرة واقتادوه إلى طهران وكانت القبيلة على وشك التقهقر. حين قدم يوسف وزَرِي استقبلهما جماعة وهلّلوا لقدومهما، لكن –على قول يوسف- تهليلًا فاترًا. كانوا معفَّرين وآمارات الحزن بادية عليهم، وواضح أنَّ الضعف والوهن قد أصابهم. لم يكد الزوجان يصلان إلى خيمة كبير العشيرة، ذات الأوتاد الخمسة، حتى انفضّ أكثر

من نصفهم في الطريق. كان ملك سُهْراب جالسًا في مكان قائد العشيرة. ما إن رآهما حتى اندفع مرحِّبًا: «مرحبًا بكما في عاصمتنا المتحركة». لم تر زَرِي في حياتها قط خيمة أجمل من عاصمتهم المتحركة. ما أروع السّجاجيد! ويا لرونق المخدات! وما أجمل الصناديق الجلدية! مُلئ داخل الخيمة بالنقوش والرسومات؛

أكثر الرسوم تعود لرُسْتَم واشْكَبُوس واسْفَنْدْيَار وسُهْراب(25) وصور أخرى لم تكن زَرِي تعرفها. ما كان يبعث على الضحك أنَّ ملك سُهْراب كان طفلًا ولم يكن. نهض من مكانه وأبدى لزَرِي صورة سُهْراب وقال: «هذا أنا!» قالت زَرِي: «لا سامح الله!». كانت تلك الصورة تُظهر سُهْراب وقد مزّق خنجرٌ جنبه. بعد ذلك أشار إلى صورة رُسْتَم وقال: «وذاك ملك رُسْتَم، الأخ الكبير لقائد العشيرة». استدارت زَرِي صوب ملك رُستَم، الذي كان يهمس ليوسف، وابتسامة حزينة تعلو شفتيه. بعد ذلك أشار ملك سُهْراب إلى صورة رأس مقطوع موضوع في طشت وقد لطّخه بالدم، وأطراف الطشت مضرّجة بالدم أيضًا، وثمة شقائق نابتة وحصان أسود يشتمّها.

«هذا أخي الذي لم تلده أمي بعد!» قال ملك سُهْراب.

«لا يمكنك خداعي، أراهن أنَّ هذا يوحنا المعمدان» قالت زَرِي.

«حسنًا، مستعد للمراهنة» قال ملك سُهْراب ضاحكًا.

«على ماذا؟».

«على بندقية البُرْنو».

نادى يوسف وأراه الصورة وقال: «زوجتك تقول إنَّ هذا يوحنا المعمدان».

تبسّم يوسف: «اصفح عنها، فهي قادمة من صف المدرسة إلى بيت الزوجية رأسًا، دماغها لم يزل محشوًا بقصص الإنجيل التي كانت مجبرة على قراءتها في المدرسة، كل صباح».

قالت زَرِي: «الآن فهمت، إنه رأس الإمام الحسين... وذاك حصانه...».

قال يوسف: «لا تخجليني أكثر من هذا عزيزتي، هذا سِيَاوَش(24)...».

عاد ملك سُهْراب، من جديد، إلى مكان قائد العشيرة وجلس وقال: «عدد الحشود في المخيم يصل إلى ستة آلاف نفر. اذبحوا مائة وخمسين خروفًا في اليوم... »، أمعن هنيهة ثم أردف: «وأنتِ يا سيدة زهراء، سمعت أنك أحضرت سجّاد زفافك، قدِّميه هدية لكبير العشيرة، فنحن لا نقبل! إنَّ لحمة هذا السجّاد وسداه نُسجا من المحنة والمحبة». ثم سأل زَرِي: « ألم تري الشارع مقفلًا بالخيام؟ وحاملي البنادق واقفين وأيديهم على الزناد؟ أتسمعين صوت الأبواق والطبول؟ هذه تحية عسكرية على شرف قدومكما».

لم يكد يكمل كلامه حتى دخلت أمه، بي بي هَمْدَم، سلّمت وقالت: «انهض أيها الصبي، عدت للترهات من جديد؟ لقد قبضوا على دجاجتين، أركض واذبحهما قبل حلول الغروب».

قام ملك سُهْراب غاضبًا وكشَّر في وجه بي بي ثم غادر. وحين عاد رمى بالدجاجتين المذبوحتين في حِجر الأم.

قطع ملك رُسْتَم شريط ذكريات زَرِي بسؤاله:

«السيدة زهراء، لقد سرح ذهنك، هل أزعجناك؟».

«ما هذا الكلام؟! بل استحضرتُ أول يوم ذهبتُ فيه إلى خيمة كبير العشيرة، في سنة زواجي الأولى». ثم التفتتْ ناحية ملك سُهْراب:

«أَتذكرُ البلاء الذي أوقعتَه بأمك أمامي، تلك الليلة، وأنا عروس جديدة؟».

«أذكُر جيدًا».

«كنتَ طفلًا».

«لم أكن طفلًا، بل سهمًا ومارقًا».

«أتذكّر حين اضطرّت بي بي هَمْدَم لتغيير سراويلها. أحصيت ثمانية سراويل كانت تلبسها... أصيبت بنزلة برد، وظللت أنتَ تردّد أنَّ امرأة العشيرة لا يجب أن تمرض».

«نعم أذكرُ جيدًا، تلك الليلة التي ربحتك فيها بندقية البُرْنُو ولم تسلّميها لي في أي وقت».

في هذه الأثناء دخلت خديجة وأخذت رزمة المفاتيح من زَرِي كي ترقِد الأطفال. نظرت باندهاش إلى الرجلين بشادوري الصلاة وسألت: «جلستم في الظلام! هل أشعل المصابيح؟».

«كلّا».

قال ملك رُسْتَم: «أتذكَّر أني أُصبتُ في السنة ذاتها بالملاريا ولجأت إليكم. بقيت ثلاثة أشهر طريح الفراش في بيتكم. آنذاك لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب مني ومبادلتي التحية. وكنتِ أنت بمثابة أختي تعتنين بي. لن أنسى ذلك اليوم الذي غاب

فيه خادم النظافة وقمتِ أنت بيديك اللطيفتين والصغيرتين بتنظيف فراشي، ويوسف يضع الطشت تحت رجلي... ». ثم توجّه ناحية سُهْراب وأردف: «سُهْراب، أنا ذاهب. لا فائدة من مجيئي إلى هنا». أجابه سُهْراب باللغة التركية. ظل الأخوان، لفترة، يتحادثان بالتركية وزَرِي لا تفهم شيئًا، حتى ساورها الشك واعتراها القلق.

سُمع صوت سنابك الخيل على حصى البستان فركضت زَرِي لاستقبال فرسانها. كانت مصابيح البستان متَّقدة. اصطادوا غزالين وكان صغير غزال حيّ محشورًا خلف الحصان الأحمر الذي يركبه خادمهم، سيد محمد، بشواربه الكثّة الموخوطة بالشيب. ترجّل الفرسان وانطلقت السيدة فاطمة نحوهم: «يعطيكم العافية!».

اندفع خُسْرو يحكي بحماسة: «أمي، سَحَر غدا شقيًا للغاية، لقد طارد صغير الغزال هذا وعضَّ ظهره. هو أيضًا سقط أرضًا وجرحت ركبتاه. عليَّ أن أعالجه بزيت البندق المحروق. أمي، هل

لديك بندق؟».

«إنه على طاولة الصالة في وعاء المكسّرات» قالت الأم ثم استدركت بعد لحظة من التفكير: «لكن لا تدخل الآن. لدينا ضيف غريب».

قصد يوسف الناموسية التي تنام بداخلها التوأمان في الناحية الأخرى من الحوض.

دخل الزوجان إلى الصالة. أدار يوسف مفتاح الكهرباء وقال لملك رُسْتَم: «كنت أتوقع قدومك لكن

ليس اليوم. لقد جئت متأخرًا جدًا، وفي وقت غير مناسب. حتى إني لست مسرورًا اليوم بمجيئك. لماذا أنت؟ لماذا رضيت بهذا؟ بالرغم مما دار بيننا من كلام؟».

جلس على الأريكة، وقبالته افترشت زَرِي الأرض ونزعت بوطه. أطرق ملك رُسْتَم رأسه وراح يمضغ شواربه. لفَّ سُهْراب شادور صلاته وألقى به في ركن ثم اعتدل في جلسته. واصل يوسف كلامه:

«أخرجتم بنادق صدئة ومهترئة من حفر الجبال والشّقوق والأجربة، ثم صقلتموها بالدهن وعاودتم الغارة وقتل بعضكم بعضًا. ماذا بقي من كلام نقوله لبعض؟».

قال سُهْراب: «السيدة زهراء ليست غريبة. كان علينا أن ننتقم. حتَّام نصبر؟ لقد خرقوا العفو العام الذي أقرّوه، وبأي طريقة! انثالت علينا استفزازاتهم؛ ارتشوا، وسعوا بحثًا عن الذرائع، وأظهروا العداوة وراحوا ينفّذون الإعدامات. أما عن إسكانهم فقد أهدروا كل ما يملكون بلا طائل. بنوا بضعة منازل طينية في أماكن جرداء وقالوا اذهبوا واسكنوها. وعوض الكتاب والمعلّم والطبيب والدواء والعطف زوَّدونا بالسِّنان والذخائر والبندقية والشّحناء. وبات من الطبيعي، الآن، أن نرجع إلى سابق أعمالنا وانتقامنا».

جلبت خديجة الشيشة ووضعتها قدّام يوسف، وهمست لها زَرِي: «خذي البوط وأعطيه لغلام كي ينظّفه وأحضري الشاي».

سحب يوسف نفسًا من الشيشة وقال: «أحسنت! أحسنت القول يا عزيزي سُهْراب. عدتم لعملكم، يعني العشيرة بالنسبة لكم تحولت إلى دكان، تتاجرون معها».

قال ملك رُسْتَم: «صدّقني إنهم، منذ البدء، اندفعوا وتصرّفوا بلا رويّة. أنا نفسي موافق على الإسكان، وأنت تعلم ذلك. لكن يبدو أنهم لا يريدون انتظام أمورنا. هناك أياد خفية تمانع. إما أنها تريدنا أن نتعفّن من الداخل حتى نتلاشى، أو تريد إبقاءنا في وضعنا الراهن».

وضع يوسف بزّ خرطوم الشيشة تحت شفته وقال: «أنتم أنفسكم تفضلون الوضع الراهن. لو أبديتم روح التعاون، ربما كان موضوع الإسكان قد سجّل تقدمًا. لكن اسمع يا عزيزي، أنتم تعوّدتم على حلب رعيّتكم. الناس، بالنسبة لكم، ليسوا بشرًا، لا يختلفون عن قطيع أغنامكم. تبيعون الجميع بالتقسيط».

استبدّت بملك رُسْتَم سوْرة الغضب واندفع: «يوسف، لا تكلّمني بهذه الطريقة. أنت صديق عزيز وزميل الدراسة، وقد تشاركنا الملح والطعام. لكن... ».

«لا أجيد طريقة أخرى في الكلام غير هذه، أنت تعرفني. ولا أجامل أحدًا ولو كان أعزَّ أصدقائي».

قال ملك رُسْتَم بنبرة هادئة: «أنا أدرك أكثر من الجميع أنَّ حياة العشيرة، مع ما تمتاز به من حميّة وبطولات، ليست حياة سليمة. وأنت تعلم أنني

أوثر أن أكون صاحب زراعة وبساتين على أن أكون صاحب قطيع من الرحّل. وأعلم أنه ليس من الصواب أن يظل الآلاف من النساء والرجال والأطفال متسكّعين خلف الدواب بحثًا عن المرعى والماء، من رأس الخليج هذا إلى قمة الجبل ذاك. أعلم أنه لا ينبغي رهن حياة كل هؤلاء الناس بالبقر والخرفان والعلِّيق. لكن أليست يدي وحيدة؟ وهل أنا رئيس العشيرة؟ ماذا في وسع فرد واحد أن يفعل؟!».

وضع يوسف الشيشة جانبًا: «لو توفرت للفرد الواحد الإرادة يمكنه أن ينتشل نفسه من الوحدة، فثمة الكثير من الناس يقدّرون كلام الحق ويعرفون أصحابه، لكنهم ليسوا على قلب رجل واحد، فأَخرجْ نفسك من العزلة وأخرجهم معك... فإن لم تفعل أنت، فأولادك وأولاد الآخرين سوف يفعلون، لأنهم يمرّون من المدن والقرى المعمَّرة ويرون المدارس والمساجد والحمَّامات ودور العلاج فيتحسّرون.. ولا بد أن يتحركوا في نهاية المطاف».

«أتعلم أنَّ أوان هذا الكلام قد فات...» قال ملك رُسْتَم.

في هذه اللحظة دخل خُسْرو. سوّى رجليه على عتبة الباب وألقى التحية ثم قصد وعاء المكسّرات وتناوله وانصرف.

نظر يوسف إلى ملك رُسْتَم وسأله: «ما حكاية مضيق "مَلْك آبَاد"؟ سمعت أشياء لكني أريد أن أعرف منك شخصيًا».

«أقسمُ بشَعْرك لم يكن الموضوع مهمًا. قامت قبيلة "أَجْدَهَا كُشْ"(23) بتجريد مجموعة من الفرسان من أسلحتهم، فضربوا أعناق البعض وغنموا عشرات البنادق ومقدارًا من الذخيرة وبضع عشرات من الخيول. هذا كل ما في الأمر. قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم. وقد نقلت قبيلة "فَارِسِيمَدَانْ"(22) الموضوع إلى مسامع عمِّي. وعمِّي نفسه لا يوافق على أعمال النهب التافهة».

نطق أخيرًا ملك سُهْراب الذي لزم الصمت لفترة: «أخي، احْكِ ليوسف خان قصة جِراء حضرة النقيب».

لم ينبس رُسْتَم بكلمة فبادر سُهْراب نفسه إلى أخذ زمام الكلام: «ولدت كلبة حضرة النقيب، مسؤول الإسكان، فقام بضعة أطفال من أبناء قبيلة «أَجْدَهَا كُشْ» برشق كلبة النقيب بالحجارة. وكانت من الكلاب الذئبية الأصيلة. ولمّا أصابهم الهلع أمسكوا بالكلبة وقضوا عليها. سعت قبيلة فَارِسِيمَدَانْ بالوشاية وأبلغت الخبر، فأرغم النقيب ثلاث نسوة مرضعات من قبيلة «أَجْدَهَا كُشْ» على إرضاع جرائه».

شعرت زَرِي بأنَّ قلبها يهوج ويموج. ابتسم يوسف وقال: «عزيزي سُهْراب، هذه الحكاية عمرها أكثر من عشرة أعوام، وأنت نفسك حكيتها لي أكثر من ثلاث مرات، وفي أكثر من مناسبة».

قال ملك سُهْراب بجرأة: «الحق معك، لكن اسمح لي أن أحكيها للمرة الرابعة».

«في البداية لم أتذكر لكن حينما حكيتها تذكرت. ماذا كنت تتصور أنت؟ أنا لست ملاكًا ولا شيطانًا، أنا مثل باقي الناس المذنبين» قال يوسف ثم التفت ناحية رُسْتَم وسأله: «حسنًا، ماذا تريدان مني الآن؟ قلنا كلامًا متناثرًا، لندخل إلى صلب الموضوع».

أجاب ملك رُسْتَم: «صدّقني أني لا أوافق على الكثير من أفعال عمِّي. حتى إني لم أوافقه على إرسالي إليك. لا أريد أن تتعرض صداقتنا لنكسة لكن في هذا الوقت الحساس لم أشأ زعزعة ثقته بي».

فكّرت زَرِي أنه قال، عند مجيئه، بأنَّ سُهْراب جاء من طرف عمِّي، بينما هو ساقه الشوق إلينا...

«لم تقل ماذا تريد مني؟» سأل يوسف.

طأطأ ملك رُسْتَم رأسه وشرد في التفكير فاندفع ملك سُهْراب: «المساعدة!».

«أي مساعدة؟».

«بع لنا كل ما بحوزتك من مؤونة، بما في ذلك التي لم تُحصد بعد، وبالسعر الذي تريد».

«من لقّنكما؟ أهو زينْگر؟ إلى الآن، كان الكلام عن شراء فائض الغلة، والآن باتوا يطمعون في كل شيء!».

حدّق الأخوان في بعض وجنحا إلى الصمت. اندفع يوسف متأجِّجًا:

«أتريدون المؤونة لتبيعوها للجيوش الأجنبية وتشتروا بثمنها الأسلحة وتقاتلوا إخوانكم وأبناء وطنكم؟ في المرة الأولى رفضنا ولم يُسمع صوتنا،

والآن نرفض للمرة الثانية! ألا تملكون ذرة عقل؟ تلك الأيادي الخفية لا تريد انتظام أموركم... إذن أين ذهبت تلك البطولات وتلك الشهامة والنخوة؟!» وأخذت شواربه الشقراء بالارتعاش.

قال ملك سُهْراب بنبرة شبه ملتمسة: «هل تعلم أنهم أوقفوا العشيرة في "كَامْفَيْرُوز"؟ هل تعلم أنهم منعوا التوجه إلى المصايف؟ كل ما يحيط بنا مدفعية وبنادق أبناء جلدتنا. الأعلاف الخضراء تتعرض للجفاف في سفوح الجبال ولم يمسسها أحد، وقُطعاننا تهلك من قلة الكلأ وتلهث من شدة العطش».

قال يوسف بغضب: «سُهْراب عزيزي، أنت لا تزال طفلًا صغيرًا على خداعي، لا أتوقع منك شيئًا. أنا أعلم أنكم بعتم معظم خرفانكم للجيوش الأجنبية. لقد تجمّدت خرفانكم الآن، وهي محفوظة باحترام في برّادات محطة قطار "الأهواز" لتُنقَل إلى "بَنْدَرْشَاه"».

كان رُسْتَم يحدّق في الورود المطرّزة في السجّاد فيما تكفّل أخوه بالرد: «لو لم نبعها لنفقت بين أيدينا. صدّقني إنَّ خرفاننا لم تكن تقدر على المشي بل شحنوها شحنًا في الشاحنات».

سأله يوسف: «وماذا صنعتم بأموالها؟ الأسلحة؟ الأباريق الذهبية؟ الدِّنان الذهبية؟ وضعتم التاج على قبعتكم ذات الطرفين وانتشيتم بمناداة عمِّكم بلقب "قبلة العالم"؟».

لم يطق ملك سُهْراب أكثر فهبَّ واقفًا وقال:

«يوسف خان، للصداقة مكانتها، لكن لكل شيء حد. بأي حق تناديني بالطفل الصغير؟ وبأي حق تقول إننا لا نملك ذرة عقل؟ أنت الذي لا تملك عقلًا في جمجمتك، وإلا لكنت أنت الوكيل الآن بدل أخيك...».

سأل يوسف ممتعضًا: «وكيل من؟ وكيل زينْگر؟ أشمئز من الوكالة التي تكون أنت واسطة فيها».

قال ملك سُهْراب مستشيطًا غضبًا: «يالك من إنسان! تتفوّه بكل ما ينطلق من لسانك من دون تروٍّ أو تريث في أنك قد تكون مخطئًا. من جعلني واسطة؟ لماذا تهاجم باستمرار؟ من تكون أنت؟ وأي أخطاء؟ ما علاقتنا نحن بالأباريق الذهبية؟ وهل تعلّق أخطاء داود خان على مشجبنا؟ لماذا؟ وبأي حق؟».

ردّ يوسف بفتور: «كلكم سواء، فهذا الكعك من ذاك العجين!».

تدخّل ملك رُسْتَم وتوجه إلى سُهْراب بالقول: «اجلس يا ولد. اشترطتُ عليك ألا تهين صديقي»، ثم تبادل الأخوان الحديث بالتركية، فكانت نبرة رُسْتَم تشتدّ وصوت سُهْراب يخبو إلى أن جلس وتمتم: «أنا آسف».

سحب يوسف الشيشة تجاهه فقالت زَرِي: «لقد خمد جمرها، سوف أذهب لأجدد نارها».

استلّ يوسف آهة وقال: «النار الحقيقية هي تلك التي فوق رأسي الآن» ثم مصّ بعمق نفسًا من الشيشة. تبسّم سُهْراب قائلًا: «لم أكن أقصد تنغيص

مزاجك، أعتذر مجددًا».

ضحك يوسف وقال: «عزيزي سُهْراب، أنت خَبِرتَني، ذات مرة، وأثرتَ ضجّة وأيَّ ضجّة؟! أعجبني ذلك، أنت تتحلى بالإقدام لكنك لست صريحًا». أزاح الشيشة جانبًا وأردف: «أتعلم؟ لم أكن موافقًا، لا في تلك المرة التي كنتم تظهرون تغنّجًا للألمان، ولا في هذه المرة التي تواطأتم مع أعدائهم. أنتم من جعلتم من هتلر إمام الزمان، مع أنَّ هذه الخدع لا تنطلي علينا هنا، وانبطاحكم هو من جرّهم إلينا».

قال ملك سُهْراب بنبرة واطئة: «إنها الحرب يا أخي. في الحرب لا تُوزع الحلويات. هم مجبرون على المجيء إلى هنا للحفاظ على البترول وطرق الخليج. حتى لو لم نكن نحن، كانوا سيأتون. بالمناسبة، إنهم يأتون إلى هنا للاستشفاء وقضاء الإجازة. معسكرهم الرئيس بمدينة "خُرَّمْشَهْر"... لا سبيل أمامهم غير هذا».

قال يوسف بعطف أبوي: «أَتدافع عنهم بنيَّ العزيز؟! حربهم بينهم، ما دخلنا نحن؟ هتلر من قارتهم، وهم من ربّوه، دعهم ينتقمون منه بأنفسهم، يقتصّون منه على كل شيء، على المعاناة التي كبّدها أولئك الذين يغرقون في النعم –على قول زينْگر- لكنهم لا يحسنون استغلالها».

نظر ملك سُهْراب إلى ساعته وقال: «لقد تأخرنا، أصابني وجع الرأس، هل لديك أسبرين؟ وليكن "باير"».

نهضت زَرِي وأخذت الشيشة وذهبت. لمّا عادت بقرص أسبرين "باير" مع كوب ماء كان يوسف يقول: «أؤكد لكم أنهم سوف يناورون على مساعدتكم من أجل صرف نظر حليفهم عن مقترحي، وعلى أيديكم سوف يجرجرون مجموعة إلى أتون الهلاك. هؤلاء لا يرفضون لحليفهم شيئًا، على الإطلاق، بل يضعونه أمام الأمر الواقع حتى يتراجع عن مخططاته من تلقاء نفسه. هل أقول متى سيحصل ذلك؟ سوف يدنّسون أياديكم وهم سينسحبون إلى الخلف. سوف يتقاتل الإخوة قتالًا طاحنًا».

«يجب أن نذهب. لنرجع إلى صلب الموضوع. لم تقرر رأيك النهائي بعد، هل ستبيعنا أم لا؟» قال ملك سُهْراب مشوّش البال.

ضحك ملك رُسْتَم وقال: «ألم يقرر؟ وكيف يقرر؟ على من تقرأ مزاميرك يا داود؟!».

شرع ملك سُهْراب يساوم: «صدّقنا لا نريد بيع كل شيء. رجالنا جائعون. إنهم يتساقطون من المرض والجوع مثل أوراق الشجر...».

قال يوسف: «أنا أقبل بما يقول رُسْتَم، فإذا وعدني بشراء قدر ما يسد الحاجة وبصرف المؤونة على رجالكم فقط فلا كلام لديَّ، وسوف أذهب من غدي إلى بلدة "كُوَار"... أعلم أنهم أوقفوكم هناك. أحضِروا الجِمال واشحنوا المؤونة، لكن من أجل غذاء العشيرة فقط. وسد "بَهْمَن" أيضًا لا يبعد أكثر من فرسخ واحد، مورد الماء متوفر إذن. أما كلأ الماشية

فعليّ، أعطيكم إياه مجانًا».

قال رُسْتَم وقد تمكنت منه نوازع اليأس: «لا أستطيع خداعك».

«أعرف أنك لا تستطيع» قال يوسف ثم أمعن التفكير قليلًا وأردف مشفقًا: «رُسْتَم، تعال وارجع عن هذه الطريق التي سلكتَ. على الأقل، أقم مسكنًا لجزء من الرُّحَّل ولقبيلة واحدة، وامنحهم الإيمان واليقين. علِّمهم الحرفة. سبق أن قلت لك، مرارًا، إنَّ أراضيَّ البائرة بانتظار الإعمار وتشييد المنازل والمدرسة والحمَّام ودار العلاج والمسجد والمراتع... ».

قاطع ملك سُهْراب كلام يوسف: «إنَّ ما تقول لا ينسجم وطبعنا. نحن عشنا أحرارًا، ولطالما كانت الطبيعة بمتناول أيدينا؛ في جبالها وسفوحها سقنا الخيول، في سهوبها وصحاريها أرحنا الأبدان، وتحت سقف سمائها نصبنا الخيام. لا يمكن سجننا داخل البيوت».

واصل يوسف كلامه بمرارة: «ما عدا نحن الأسياد... فنحن الأسياد كنا نملك أجمل بستان في المدينة، وقد صار اليوم مقرًّا للقيادة العامة للجيوش الأجنبية... وأجمل بيت... ».

لم يترك ملك سُهْراب يوسف ليكمل كلامه وكان يدرك ما يرمي إليه، فقاطعه بلين: «صدِّقني إنَّ رجالنا يعشقون هذه الحياة التي يعيشونها. لو استقرّوا في مكان سوف يصابون بالضجر».

قال يوسف: «ذلك لأنكم لم تجرّبوا حياة أخرى

غير هذه. لكن اسمع يا عزيزي سُهْراب، حين يزرع الإنسان الأرض ويشقى في خدمتها ويحصد ثمارها، فإنه يتعلّق بها. وفي البادية الطبيعة أيضًا في المتناول. حين يستقر المرء... ».

لكن سُهْراب أكمل كلام يوسف على هذا النحو: «حين يستقر المرء يصير بليدًا ومعتوهًا وضيِّقَ الأفق وجبانًا». ثم غيّر مجرى الكلام وقال: «هل تسمح لي بسؤال؟ ماذا ستصنع بكل ما تملك من غلة وحبوب وتمر؟ وهذا موسم الحصاد، ماذا ستصنع بالمحصول بعد جمعه؟ هل ستحتكره؟».

«على عكس المجحفين الذين باعوا نصيب خُدَّامهم وغذاء أبناء وطنهم للجيوش الأجنبية، سوف أجزل نصيب خُدَّامي، بالتمام والكمال، وسوف أجلب الفائض إلى المدينة. نحن خمسة رجال يُعوَّل

علينا، واثنان منا عضوان بمجلس المدينة، أقسمنا جميعًا على امتلاك مؤونة المدينة. كما كسبنا أيضًا رضى والي المدينة. أعلم أنك من الشهامة بما لا ترضى الوشاية بنا. اعلَمْ أيضًا أنني لست محتكِرًا. المحتكرون هم الذين يرسلون مؤونة أبناء بلدنا إلى شمال إفريقيا و... ».

افترّت شفتا ملك رُسْتَم بابتسامة واجمة وقال: «لا شكّ أنَّ مجيدًا معكم. آمل أن تقدروا على فعل شيء، أرجو الله ذلك».

«وما أنتم فاعلون مع الحاكم؟» سأل ملك سُهْراب.

«مهما يكن فالحاكم إنسان. سوف يوافق على محاربة الجفاف وإسكات الأصوات المرتفعة في

هذه الناحية من البلاد» أجاب يوسف.

«قلبي غير مطمئن، فالأمر خطير. لن يمسوكم طالما تتكلمون فقط، لكن إذا تعدى الأمر إلى الفعل فلن يسمحوا لكم مهما كلّفهم الأمر». اندفع سُهْراب ثم انتصب واقفًا وارتدى شادور صلاته.

«سنبذل قصارى جهدنا» قال يوسف وأردف: «ابقيا حتى تناول العشاء».

قال ملك سُهْراب: «كلّا، يجب أن نذهب. سوف يقلقون علينا ويظنون أننا وقعنا في مأزق. أطلب لنا عربة».

نهض ملك رُسْتَم. ارتدى شادوره بالمقلوب فضحكت زَرِي وقالت: «لبستَه مقلوبًا، فتحاته بارزة».

تطلّع يوسف إلى رُسْتَم وقال: «ابق أنت، سأوصلك بنفسي غدًا في الصباح الباكر».

«حسنًا» قال رُسْتَم.

قدموا معًا إلى البستان وجلسوا على الكراسي الحصيرية في انتظار وصول العربة التي ستقل سُهْراب. كان مصباح البستان منارًا. انطلقت زَرِي إلى حافة الشرفة فرأت خُسْرو مقرفصًا بجانب

موقد العمَّة وهو يحمّص البندق في مقلاة والسيدة فاطمة تطحنه على صخرة صلدة. أما سَحَر فكان في الشرفة أيضًا ولجامه مربوطًا إلى مزلاج الباب. تعالى صوت يوسف: «لمَ لم تنزع اللجام من رأس الحيوان؟ لمَ أدخلت الحيوان إلى الشرفة؟ عزيزي، الحصان مرهق خذه إلى الإصطبل وأجِّل معالجتك

للصباح».

نهض خُسْرو وقال: «ائذن لي يا أبي فزيت البندق جاهز الآن. سأدهن ركبتيه ثم آخذه إلى الإصطبل. لقد أدخلتُه إلى الشرفة بسبب شغبه، كان يسرع وراء صغير الغزال فيطير من النوم مذعورًا ويجفل هلعًا في هذه الظلمة حتى اصطدم بالأغصان والبوتقات. وقد أتيت به إلى هنا ليكون تحت أنظاري».

التقطت العمَّة البندقات المشتعلات من المقلاة فاحترقت يدها ورمتها أرضًا وراحت تنفث في يدها: «أخي، قل لغلام أن يذبح صغير الغزال غدًا. فلحم الصيد لم يكف الجميع. إنهم يشتكون. فضلًا عن ذلك فالاحتفاظ به لا بركة فيه. ليت نزق الصيد فارق دماغ أفراد هذه الأسرة. في السنة الماضية اصطاد جناب الأخ غزالة حبلى، ولمّا شقّوا بطنها وقعت عيني على صغيرها ذي التسعة شهور وهو نائم في أحشاء أمه. لطمت رأسي وصحت: لا فائدة من ذلك. يا جناب الأخ، سلالتنا... ».

قالت زَرِي للعمّة بمنتهى الهدوء: «ضعي شادورك على رأسك فأولئك الجالسون في البستان رجال».

صكّت وجهها وقالت: «لا حول ولا قوة إلا بالله! أبعد الله عنا المصائب بُعد السماء عن الأرض! إنه آخر الزمان!» ثم التحفت العمَّة بشادورها على عجل.

حينما وصلت العربة قام ملك رُسْتَم وقال: «ائذن لي كي أنصرف أنا أيضًا. يجب أن أصل إلى عمّي على وجه السرعة. برأيي أنت محق، فقد ألقى عمّي

بنفسه في هذه الورطة برعونة وطيش».

لم يملك يوسف إلا أن يسأل: «برعونة وطيش؟».

5

تمر عشرة أيام على ذهاب يوسف إلى المَصْيَف، والجو في البستان لا يختلف كثيرًا عن هنالك. لطالما كان الصيف يستعجل الربيع ويسحب البساط من تحت أقدامه. كان الوقت عصرًا وغلام يرش الماء على مدخل البناية الآجري، بينما تتبّع زَرِي الأزهار قطفًا بمقص نباتات كانت تحمله بيدها. لكن لم تكن بالبستان زهرة تصلح للقطف. أما مينا ومرجان فكانتا تتعقّبان أمهما من بوتقة إلى أخرى ومن ركن إلى آخر وهما تميدان وتتماوجان. كانت ضفة الساقية المحيطة بمدخل البناية مغطّاة بنبات القُطيفة، ألف رحمة على الفقوس البري المملوء قذارة أمامه. وبالضفة الأخرى كانت عدة أنواع من نبتة أنف العجل متوارٍ أعلاها تحت التراب والغبار. أما الأزهار الصغيرة فقد خَزِرت أعينها وباتت على أهبة النوم مع غروب الشمس. كان الأمل معلقًّا فقط على ورد مسك الروم إذ كان غلام يقول: «حينما يكتمل القمر يتفتّح مسك الروم». أزهار نَارَنج الربيع هي الأخرى غدت تحت الأشجار ماحلة بلونها البني وكأنها نجوم محترقة. آهٍ على فصل الشتاء إذ كانت أزهار النرجس تتفتّح على جنبات السواقي فتهدي صورها تذكارًا للماء، فيعبر الماء ويخفيها ثم يصبّها في الحوض خلسة. ولا يُسمع إلا خرير عبوره. ومع حلول الربيع، كانت زهور البنفسج، البيضاء والبنفسجية، تتبادل التحية مع الماء العابر بكل أريحية من دون أدنى انتظارات.

سألت مينا أمها: «متى يعود أبي كي يطوِّح بي في الهواء عاليًا؟ أنت لا تفعلين لذلك فأنا غاضبة منك». أما مرجان فزمّت شفتيها راسمة برعمة -هي في رأي زَرِي أجمل من براعم الدنيا كلها- ثم أكملت كلام أختها على هذا النحو: «خصومة إلى يوم الدين!»، «والآن أنت اقذفينا عاليًا لمرة واحدة فقط».

احتضنت زَرِي مينا وحاولت رفعها عاليًا لكن القوة خانتها، وقالت: «ما شاء الله لقد صرت ثقيلة. لا أقدر على رفعك» ثم ضربت على فخذ الطفلة السمين وأنزلتها على الأرض.

«يد أبي كبيرة وقوية، أما يدك صغيرة وضعيفة. انتظري حتى تكبر يدك» قالت مينا لأمها.

دلفت السيدة فاطمة من باب البستان عائدة من الحمَّام. كانت تحمل كيسًا زهيدًا يقطر الماء من قعره. ركضت مينا ومرجان نحوها وقالتا بصوت واحد: «عمَّتي العزيزة، ماذا أحضرت لنا؟».

«جوزًا طازجًا».

«هاته إذن».

«حمّامًا هنيئًا. يعطيك العافية!» قالت لها زَرِي واستلمت الكيس من على رأس التوأم وانطلقت لتغسل الجوزات. لمّا عادت كانت خديجة قد استلمت من العمَّة حقيبتها ووضعتها على كرسي حصيري وانشغلت بطيّ شادورها، بينما كانت مينا تطارد مرجان. اقتربت السيدة فاطمة، برباط رأسها الأحمر، من الحقيبة وأخرجت فُوَطها ونشرتها على الحبل. وضعت زَرِي صحن الجوز على الطاولة

فهجمت الطفلتان. قالت: «ليتني تمنّيت على الله أمنية أكبر».

«غدت المدينة كمدينة أشباه الكلاب، أينما ولَّيتِ وجهك، يمينًا أو شمالًا، يقتفي أثرك أسود هندي وهو يردد: يا جدة، محتاج! يا جدة، محتاج!» قالت العمَّة ثم غسلت يديها في حوض الماء وأبقتهما بعيدًا عنها وجلست على الكرسي وواصلت كلامها: «راح الصبيان يتعقّبون ذاك الأفندي القشّة وهم يصفقون ويهتفون: "تْشْرُوبْ تْشْرُوبْ سُلْطَانِي... نَامِي مَامَا. نَامِي مَامَا...". لوّح الهندي بالسلسلة في الهواء ثم لفّها حول أصابعه والتفت إلى الخلف ودكّ الأرض برجله ثم أخذ يهسهس، فانفضَّ الجميع».

جاءت خديجة وانصرفت ثم عادت ووضعت موقد النار وبساط غليون الحشيش الخاص بالعمَّة على سجادة الشرفة ودفَّأت شايها. حضرت زَرِي والتوأمان إلى الشرفة أيضًا وجلسن. سألت مينا: «عمَّتي العزيزة، هل قطع الهندي رؤوس الأطفال؟» أما مرجان فكوّرت عينيها وقالت: «ها، أجل. لجأ إلى ناصية البستان وراح يطلق أصواتًا رهيبة، أليس كذلك؟».

قالت العمَّة: «تأخر ولدي. امتحانٌ صعبٌ آخر هذا اليوم. أظن أنَّ سبب تأخره هو امتحانه الذي لم يكن جيدًا. رأيي أن نرسل غلام في إثره».

كان أبو القاسم خان قادمًا من طريق البستان قاصدًا الشرفة. كان يكلِّم نفسه ويلوِّح بيديه. ارتجّ قلب زَرِي لرؤيته. كلما رأته هذه الأيام يخيّل إليها

وكأنها رأت جلَّادها. وحين كان يُرمِش عينيه وكأنَّ قصده كان قلب حياتها رأسًا على عقب. وصل إلى جانب الشرفة فنهضت زَرِي وقالت:

«تفضل إلى أعلى».

«لا داعي، هنا أفضل».

شفطت السيدة فاطمة نفسًا من غليونها وقالت: «خيرًا إن شاء الله!»، ثم وضعت الغليون بجانب الموقد وصبّت الشاي وقدمته لأخيها. كانت عينا زَرِي مصوّبتين على أبو القاسم خان وهو يضع قطعة سكر في فمه ويسكب الشاي في طبق الفنجان. سألته: «هل حصل أمر؟».

وضع أبو القاسم خان الطبق على حافة الشرفة وقال: «هل من خبر عن أخي؟».

«لا جديد إلى الآن».

«لا أعرف كيف أشرح لكما الموضوع».

أحسّت زَرِي بدوار يلفّ رأسها. جلست وسألته: «هل أصاب يوسف مكروه لا قدّر الله؟».

صرخت العمَّة متأججة: «قل ما لديك بسرعة وأرحنا».

أرمش جناب الأخ وقال: «اتصلوا بي اليوم هاتفيًا من بيت الحاكم. قالوا إنَّ گِيلان تَاج سمعت عن مهر خُسْرو، وأعجبها. نريد شراءه. أَرسِلوا المهر وحدِّدوا السعر الذي تريدون فلا مانع. يعلم الله أني أفور غيظًا. منذ الصباح وحواسي مشتتة».

اغرورقت عينا زَرِي بالدموع، ومن بين العبرات

رمقت العمَّة التي كان وجهها ينضح دمًا قانيًا وبعينيها النديّتين وجدائلها المضفورة ورباط رأسها الأحمر، ويدها المرتعشة التي تحشو الحشيش في بطن الغليون. سقط الحشيش من يدها على الجمر فارتفع دخانه. قالت:

«أباد الله دولتهم. أكاد أرفع موقد النار هذا وأفرغه على رأسي من هول ما سمعت. ألم تقل لهم إنَّ روح هذا الطفل في هذا الحصان؟ هل ابتلعتَ لسانك؟».

اقتربت مينا من العمَّة وفتحت قبضة يدها الصغيرة، كان بها حبة جوز وكانت تحاول وضعها في فم العمَّة: «كلي عمَّتي، احتفظت لأخي بحصته».

نادت زَرِي على خديجة: «تعالي وخذي البنتين للحاج محمد رضا ليريهما ثعبان الأمس!». سألتها مرجان: «هل نزع أسنانها؟ أليس كذلك؟».

«نعم عزيزتي، لا تخافي» أجابتها زَرِي.

أمسكت مينا يد مرجان وقالت: «أنت تلعبين مع الثعبان دقيقة وأنا دقيقة. اتفقنا؟».

سأل جناب الأخ: «هل يلعبان بالثعبان؟».

«كلَّا يا جناب عمُّو، إنه لن يعطي الثعبان للطفلتين... » قالت زَرِي.

ضحك جناب الأخ: «كل شيء في هذا البيت بالمقلوب. قلت ربما... » ثم عدل عن إكمال كلامه. رفَّ عينيه وسأل بهدوء: «هل وجدتم ثعبانًا في بيتكم؟».

لم تكن زَرِي ترغب في إشغال بالها بالتفكير في

موضوع مفارقة سَحَر لابنها، لذلك فضّلت الإطناب في قصة الثعبان: «أجل، كنا جالسين، أمس، في الشرفة فسقطت حيّة من أعلى شجرة الدّلب على مدخل البناية، وكان غلام يرشّ الماء على المصطبة فضربها على رأسها بالمرشّة، ثم نهضت وسقطت، ونهضت مرة أخرى فقتلها غلام بالمعول». قال: «إنَّ ذكر الأفعى سيأتي بحثًا عن أنثاه». ونادى على الحاج محمد رضا فلفّ قطعة قماش على يده وذهب إلى السطح، تحلّى بالجرأة اللازمة ليقبض على ذكر الأفعى.

قالت السيدة فاطمة: «من شدة الغضب رميت حشيشي الطيب في النار».

عاد جناب الأخ إلى صلب الموضوع: «لا تظنوا أني سألحق أذى بابن أخي. قتل الله ولدي هُرْمُز، إني لأشد حبًا لخُسْرو. قلت لسكرتير الحاكم في الهاتف إنَّ الولد متعلق بهذا الحصان، ولا يفارقه لحظة واحدة. أنا مستعد لتقديم أفضل خيولي لابنة الحاكم. نسيت اسمها، گِيلان تَاج، مَازَنْدَرَان تَاج أو أي خراء تَاج آخر... فقال: والله إنَّ گِيلان تَاج أصيبت بحُمَّى شديدة... ولم تكد تسترجع عافيتها... تحجَّجت بحصان ابن أخيك... ».

قامت السيدة فاطمة بحشو الحشيش في بطن الغليون وسحبت نفسًا ثم سألته: «ألم تخبره بأنَّ والده قد ذهب إلى المَصْيَف، ألم تطلب منه الانتظار حتى يرجع بنفسه لتستأذنه؟ ألم تعلم أنَّ زوجة أخي لا تحرك ساكنًا من دون إذن من يوسف؟».

«يشهد الله أني قلت ذلك لسكرتير الحاكم» فرد عليّ: «وهل ستحرمك زوجة أخيك من حصان تافه؟ ستقبض ثمنه. عزيزي، إنهم لا يريدونه بالمجان».

انصرفت العمَّة عن الغليون وسكبت كوبي شاي، وضعت واحدًا أمام زَرِي والآخر أمامها. قالت: «أعلم أنَّ كل المشاكل من تحت رأسك، أنتَ مستعد للقيام بأي شيء من أجل الوكالة. كيف تعرف

تلك المارقة أنَّ لخُسْرو حصانًا؟ أنت من فتقت وأنت من رتقت، والآن تتخبّط!».

أقسم جناب الأخ: «قسمًا بالله وبالأئمة الأطهار وبالقرآن أني لم أذكر سيرة الحصان. ألا تعرفين عِزَّت الدولة؟ هي هناك من الصباح إلى المساء، وتسعى بين جميع أهالي المدينة بالنميمة والوشاية. صارت مثل خادم مطيع... أردتُ تحاشي الأمر لكن الحاكم هاتفني للتو وسألني عن الحصان. أخبرته أنَّ أخي في المصيف، فقال: الطفلة بالكاد استردت عافيتها، أرسل الحصان لبضعة أيام حتى يسقط من عينها ثم نعيده إليكم».

فكرت زَرِي أنه قد يكون على حق. نظرت إلى السيدة فاطمة التي كانت تجمع الرماد حول النار بالمِركَض وعيناها تذرفان. قالت:

«لقد ضاقت عليّ المدينة بما رحبت. سوف أرحل من هنا إلى جوار كربلاء كما فعلت المرحومة أمي».

تأجَّج جناب الأخ غضبًا وصاح: «بأي جواز سفر؟ بأي تصريح خروج؟ لم يقولوا إنَّ النساء ناقصات عقل اعتباطًا. وفي وقت الحرب... أتظنين أنَّ

الخروج بهذه السهولة؟». ثم تلفّت ناحية زَرِي وأردف: «غدًا سيأتون لأخذ سَحَر».

قالت زَرِي: «إذا قدّمت تنازلًا فيجب أن تتبعه بتنازلات أخرى. إنه ذنبي، أنا الفاشلة، لكن هذه المرة سأقف في وجههم». فجأة شعرت وكأنَّ نجمة سطعت في روحها وواصلت:

«سأذهب بنفسي عند الحاكم وأقول له إنَّ لكل شيء حدًا. هل وحدها ابنتك من تستطيع التحجّج بالحصان؟ ألا يمكنها رؤية شيء جميل لدى الآخرين في هذه المدينة؟ ما أملك لي وما يملك الآخرون لي أيضًا!».

رمقها جناب الأخ بنظرة تشي بالحيرة والدهشة: «يا لسعادتي بزوجة أخي، أنتِ أيضًا صرت تتكلمين كلام يوسف؟!».

«لو تكلم ألف رجل مثل يوسف لحسب لهم الجميع حسابًا. على الرجال أن يقاوموا لكن إذا ذهب الرجال إلى المصايف... فواجب النساء».

أمسك جناب الأخ رأسه بين يديه وراح يشكي: «أقسم أنكم جميعًا فقدتم عقولكم. تلك تقول سأرحل من هنا... وهذه تقول يجب أن أقاوم... أنظروا إلى أي داهية يدفعونني! ولأجل ماذا؟ لأجل حصان تافه... ».

خرج خُسْرو من الإصطبل رفقة سَحَر. متى جاء ولم تره زَرِي؟! أرخى زمام سَحَر في البستان وجاء يقصد الشرفة. أجال ناظريه بين عمِّه وعمَّته وأمه، جميعهم كانوا يفورون غضبًا. سأل:

«ما الأمر؟».

ضحك جناب الأخ ورفَّ عينيه وقال: «أريد أن أذهب إلى الصيد. سوف آخذك معي. لا تصغ لكلام النساء. جميعهن جبانات».

«كيف كان امتحانك؟» سألت العمَّة.

«جيد عمَّتي. أظن أنني حصلت على زوج 20»، ثم التفت إلى عمِّه: «هل سآخذ سَحَر معي؟».

«كلَّا يا عزيزي. طريقنا بعيدة، وسِرْجِنْت زينْگر سيكون حاضرًا أيضًا. أريد أن أبرهن له أنك وهُرْمُز غدوتما رجلين، تركبان جميع أنواع الخيول وبارعان في الرماية... ».

تدخلت زَرِي: «لا يمكن يا جناب عمُّو، إنها فترة امتحانات».

أجاب خُسْرو محتارًا: «أمي أنت تعلمين أنني أكلمت امتحاناتي هذا اليوم. أرجوك دعيني أذهب». وتوجه صوب عمِّه وقال: «لكن ليت كان بالإمكان إحضار سَحَر!».

قال جناب الأخ: «يا زوجة أخي، دعيه يذهب كي يرى الدنيا ويصير رجلًا. لا تخافي فلن أسمح بأن تمس شعرة من رأسه».

أطرقت السيدة فاطمة رأسها وغاصت في التفكير. قاطعت كلام أخيها:

«يا جناب أخي، إنَّ الرجل الذي تريد أن تصنعه منه يختلف عن الرجل الذي يريد والده أن يصنعه منه اختلاف الأرض عن السماء. اترك الطفل لحال سبيله،

ودعك من كثرة الكذب والخداع...».

توسَّل خُسْرو: «عمَّتي العزيزة، أمي، اسمحا لي بالذهاب فأنا كبرت».

قال جناب الأخ منتشيًا: «اذهب يا عزيزي وجهّز نفسك للسفر. سوف أعطيك بندقتي، البُرْنُو، إذا لم تكن ثقيلة عليك».

«لديّ بندقيتي» قال خُسْرو ثم انصرف.

قال جناب الأخ مشفقًا: «أتخالان أنه بالإمكان الوقوف في وجه الحاكم؟ يوسف يعرِّض حياته للخطر بسبب كلامه الذي يتفوّه به، وبسبب التصرفات التي أقدم عليها مؤخرًا. على الأقل اتركاني أصلح تصرفاته الرعناء. سمعت أنه هيَّج ملك رُسْتَم فأشهر هذا الأخير البندقية في وجه عمِّه، ولجأ إلى يوسف فأعطاه الأمان. سمعتُ أنه أعطى المؤونة بيده لثلاثين معيلًا من العشيرة، ووضع يده في يد ذاك الأخرق ملك رُسْتَم ومجيد الخارج على القانون وراحوا يبنون بيوتًا لهؤلاء المعيلين الثلاثين ويخرجونهم عن جادة الصواب».

إنهم يبنون بيوت المصيف بالشوك ويمدُّون أنابيب الماء في سقفها... فيظل الماء يقطر على الجدران، بينما السيد جالس داخلها ينتشي بحكي الأراجيف والترهات. للإنسان عقل يزن به، ماذا يفعل البدو الرحّل بالمؤونة؟ وماذا يفعلون بالبيوت؟ مذ كانت الدنيا وهم مكتفون بالبلوط واللّوز البري والدَّوم. ماذا يفيدهم البيت؟ وحتى تلك الخيام السود تفوق مستواهم. هؤلاء مارقون على الدولة. قبل بضعة

أيام اعترضوا سبيل وحدة من الدرك في مضيق "تَكَاب" وجرّدوهم من سلاحهم. لقد أقسمَ مع أناس مخبولين أمثاله أن يتحكّموا في مؤونة المدينة... ما الضير في رشوة الحاكم لجلب رضاه على يوسف. قلت لكما لا يمكن مواجهته».

قالت زَرِي مغتمّة: «لا يمكن مواجهة الحاكم ولا سِرْجِنْت زينْگر، فهما أخوان بالتبنّي. غدت المدينة وكأنها حارة "مَرْدِسْتَان"».

قاطعها جناب الأخ: «لا إله إلا الله. كلام يوسف ثانية. زوجة أخي، لا تجادلي. لا خيار لي في حصان أخي التافه، لكني أقسم بوالدي الحاج لن أدع خُسْرو يتحسّر... سآخذه للصيد، وسيظل معي في القرية يومين أو ثلاثة وسأعطيه أي حصان يعجبه من أحصنتي. حين يأتون غدًا في الصباح الباكر أعطوهم الحصان واستلموا الوصل. وعندما نعود نحن قولوا إنَّ الحصان قد مات. هذا هو الحل الوحيد. سوف أردّد على مسامع خُسْرو في القرية أنَّ حصانك مريض، ولا ينبغي للإنسان أن يتعلّق بشيء في هذه الدنيا حتى إذا افتقده أصيب بغصّة... ».

رفعت العمَّة رأسها: «يا طبيب طبَّ لنفسك!».

جاءت خديجة وجمعت بساط الغليون. سألتها زَرِي: «أين البنتان؟».

«واقفتان مع غلام تتفرجان على بضع نسوة بدويات يصفقن ويرقصن. إنهما ساهيتان لدرجة أنك لو أفرغت مائة رطل من الدُّخْن على رأسيهما

لما وصلت حبة واحدة إلى الأرض... شقيّتان!».

ضحك جناب الأخ وقال: «يا إلهي! لمَ قلوب أهل هذا البيت ترقُّ لحال البدو والخُدَّام والحمَّالين؟».

قالت زَرِي: «خديجة، جهّزي شيشة جديدة طرية وأحضريها».

دخل خُسْرو إلى الشرفة وقال: «أمي، أعطيني مفتاح الصوان لآخذ بندقيتي. ألم تري سروال صيدي؟ لم أعثر عليه».

«لا داعي يا عزيزي، تعال. لدينا هناك قدر ما تشتهي من سراويل الصيد».

أحسَّت زَرِي بغصّة تعتصر حلقها. أخرجت رزمة المفاتيح من جيب ملابسها المنزلية ووضعتها على السجّاد. لمّا ذهب خُسْرو، أجهشت بالبكاء ثم سرحت: «إنهم يكبّلون يد المرء أمام الأحداث، وبأنفسهم يفتقون ويرتّقون ويتخذون القرارات، لكن الأوان لم يفت بعد. حين يأتي مبعوث الحاكم في الصباح بالإمكان عدم إعطائه سَحَر، وبالإمكان إخباره بأنَّ سَحَر قد مات. خلاص».

قال جناب الأخ: «يا زوجة أخي، أُشهِد الله أُني لا أطيق رؤية دموعك»، ثم قطع كلامه لأن خُسْرو كان قادمًا إلى الشرفة مرتديًا ملابس الصيد والبندقية على كتفه ويحمل خُرجًا في يده. قال: «أنا جاهز». أطرقت زَرِي رأسها وكفكفت دموعها. قبّل خُسْرو العمَّة ثم طوّق رقبة أمه وألصق وجهه بوجهها المبتل وقال لها: «أنا لست مسافرًا إلى الهند... أمي اطلبي من عمّو أن يسمح لي باصطحاب سَحَر».

رفَّ جناب الأخ عينيه وقال: «لنذهب عزيزي ، غلام سوف يعتني بسَحَر»، ثمّ ودّع وانطلق.

قال خُسْرو في أذن أمه: «لا يجوز أن أتخلَّف، سوف يظن جناب عمُّو حينها أني أفزع من الرماية».

ظل سَحَر صامتًا وساكنًا تحت أشجار النَّارَنج، وحتى لمّا اقترب منه خُسْرو لم يتزحزح. أمسك خُسْرو وجه سَحَر بكلتا يديه ومسَّد على ذيله وقال بصوت عال: «أمي، لا تنسي أن تعطيه السكر، غلام يعرف أنه ينظف الجرح، ويُسمّن أيضًا». أحنى سَحَر رأسه ورفس بحوافره التراب تحت شجرة النَّارَنج. وحينما ذهب خُسْرو جاء إلى حافة الشرفة ومدَّ أذنيه متطاولًا وصهل فردّت عليه أمه من الإصطبل بصهيل آخر.

كانت زَرِي تراه من خلف الدموع: «ما أشرف هاتين العينين! وما أطول هذه الرموش! لمَ لا تنظر في عيني؟ لمَ تخفض عينيك؟ لمَ لا تقول أيتها المرأة الفاشلة، أعلم أنك ستسلّمينني غدًا! أيها البكم!».

قالت السيدة فاطمة: «أنا راحلة عن هذه المدينة. لن أحتاج جوازًا. سأرحل مهرّبة. سأصرّف أموالي دينارًا ذهبيًا وأخيطها في ثنايا ثوب سترتي الداخلي، وأحمل حقيبة وأنطلق إلى مدينة الأهواز، ومن هناك الأمر هيّن؛ سوف أوصل نفسي إلى واحة... وأعطي أحد العرب دينارًا ليركبني في القارب ويعبر بي الشطّ. حينذاك سوف أرتاح. لن أقول كذبًا أو أسمعه. وهناك ليس وطني حتى ينفطر قلبي عليه باستمرار»، ثم ضربت على صدرها بقبضة

يدها: «يا حسين! ادعُ أَمَتَك الوحيدة هذه إلى جوارك!»

جلبت خديجة الشيشة وقالت: «هل كنت ترغبين في الشيشة سيدتي؟». تناولت زَرِي الشيشة ووضعتها أمامها وجذبت نفسًا فداهمها السعال، ثم دخنت ثانية. ورغم أنَّ قلبها ينقبض كانت تستمر في التدخين وتزفر الدخان من منخرها. قالت السيدة فاطمة مُغتمَّة:

«إنهم يُضيّقون الخناق على الناس كي يزجّوا بهم إلى إدمان التدخين والحشيش. لا تدخني يا زوجة أخي إذا كنت تقدرين، فالإدمان شيء قذر»، ثم فكّت رباط رأسها ورفعت رأسها إلى السماء وقالت بنبرة معاتبة:

«إلهي، إني لا أجحد النعمة لكني لم أر في دنياك هذه غير الشجن. لفرط ما تعقّبوا زوجي الطيب وأقلقوه فقَدَ صبره وانهدَّ أمله فرمى بنفسه مع حصانه على الأعمدة الإسمنتية المحاذية للقنصلية. وولدي الوحيد مات في عز صباه، أصيب ببثرة حادة في حلقومه فودّع أمام عيني. لم يستطيعوا النيل منه في مدينة أشباه الكلاب هذه... ربما ابتليتني بهذه المصائب لتختبر صبري، ألديّ صبر أيوب أم لا؟ لا أملك صبر أيوب، لا أملك، لا أملك. على الأقل دعني أحقق هذه الأمنية. ارزقني الغربة! ارزقني اللجوء!».

مسحت زَرِي دموعها بظاهر يدها وقالت: «يا عمَّة، لا تضاعفي كربتي. إلى أين تريدين الرحيل؟ فعلى

الأقل هنا وطنك، وهنا قبر ولدك وزوجك. كلما ضاق قلبك تستطيعين زيارتهما، لكن هناك إلى من ستلجئين؟».

«إلى الإمام الحسين!».

«الجو هناك حار والطقس غير مناسب، وهنا البستان بهذه الرحابة، وأولادي كأنهم أولادك. نتقاسم العيش معًا مثل أختين. فضلًا عن ذلك، كيف سيرسلون لك المال؟».

«لست أكثر من فرد واحد، سوف أتعود على خبز حاف. وهل أنا أعزّ وأشرف من أمي الغالية؟».

جاءت خديجة إلى حافة الشرفة وقالت: «سيدتي، البنتان تتمردان. إنهما تأبيان تناول وجبة العشاء رغم كل المداهنة. لقد قهرتاني».

قامت زَرِي مندفعة: «أنا قادمة بنفسي» وانطلقت إلى الصالة. كانت مرجان جالسة على طاولة الصالة تدعك عينيها، وإلى جانبها جلست مينا مصوّبة عينيها نحو الباب وأمارات الخوف من شيء ما بادية عليها. ما إن رأت أمها حتى ضحكت وأفردت يديها لتأخذها في حضنها. جلست زَرِي بجانب البنتين وهمّت بوضع ملعقة طعام في فم مينا فدفعتها الأخيرة بيدها، ثم ناولتها مرجان فرفضت هي الأخرى. صاحت:

«لا أريد شوربة الأرز بالحليب!».

«لماذا؟».

«لا أحبها!» أجابت مرجان صاخبة.

«حسنًا، إذن كلي خبزًا حافيًا».

«ذاك الطفل الذي رشق رجلي بالحجارة، قال أعطيني خبزًا. أعطيني فاكهة من الشجرة» قالت مرجان ثم دعكت عينيها.

«أي طفل؟».

«الطفل حافي القدمين ذاته. ذاك الذي رقصت أمه، وجلس أبوه وقال: آخ، قدم ولدي تتألم!».

«ذاك الطفل المسكين لا يملك خبزًا ليأكله، وأنت تملكين شوربة الأرز بالحليب والعسل ولا تأكلينها؟!».

«لقد ضربه غلام».

لم تتناولا بضع ملاعق إلا بعدما أوصلتا روح زَرِي إلى حلقومها. في طريقها لإرقاد الطفلتين لمحت زَرِي العمَّة قرب موقد النار، كما تركتها، قابعة لم تتزحزح قيد أنملة.

كانت البنتان تحاولان النوم ولا تنامان. مؤكد أنَّ البلبلة التي أحدثها جناب الأخ عشية في بيتهم أثرت عليهما أيضًا.

«إذا أغمضتما عينيكما سأحكي لكما قصة».

«أنا خائفة» قالت مينا.

لم تعرف كيف تذكّرتْ مَكْ مَاهُون والقصة التي كتبها لمينا ومرجان. في ليلة زفاف ابنة الحاكم، على مائدة العشاء، أحضر مَكْ مَاهُون لزَرِي طبقًا وسكينًا وشوكة، رغم أنه كان طافحًا سكرًا. كم كان المكان مزدحمًا والجميع يتدافع! لا أحد كان يذرع مائدة الطعام أو يفسح المجال للواصلين متأخرين. لم

يكن أولئك ممن ضربهم القحط، لكنهم كانوا يبدون كمن خرجوا للتو من القحط. لم يكن أبناء أولئك حفاة الأقدام حتى يطلبوا خبزًا حافيًا ويرشقون، من أجله، بالحجارة أرجل الأطفال الذين لا يحبون شوربة الأرز بالحليب.

قالت زَرِي لمَكْ مَاهُون على سبيل الشكر: «استمتعتُ بقصتك». ضحك مَكْ مَاهُون، ولم يعد يظهر من عينيه سوى خط رفيع. قال: «سوف أنقحها وأرسلها لناشر كتب أطفال».

ثم دخل الحاكم ودعا مَكْ مَاهُون إلى مائدة خاصة بالأجانب، لم تمتد إليها يدٌ بعد. وتحدث له عن الخنزير المحمّر، بيد أنَّ مَكْ مَاهُون لم يغتر وقال إنه يفضل البقاء بجانب زوجة صديقه. شكرته زَرِي مجددًا وقالت:

«آمل أن تستطيع صنع تلك الطائرة المليئة بألعاب الأطفال!».

استلّ مَكْ مَاهُون آهة من أعماقه وقال: «ومن سيصنع طائرة تسلّي خاطر المغمومين؟ آسف.. آسف».

أقبل يوسف صوبهما يحمل في يده طبقًا مُترعًا بالأرز المُحلّى وقال: «لنا ثلاثتنا!».

أردف مَكْ مَاهُون وهو ينظر إلى زَرِي: «حينما أمعنُ التفكير أرى أننا، جميعًا في مختلف أعمارنا، أطفال سلّينا أنفسنا بألعابنا. وآهٍ من ذلك اليوم الذي يسلبوننا تسالينا أو يحولون بيننا وبين الوصول إليها. أطفالنا، أمهاتنا، فلسفاتنا، مذهبنا... ».

ضحك يوسف وقال: «كلْ لك لقمة الآن. لم أرَ قط سكّيرًا يتفلسف بمثل هذا الصحو».

«صدقني إنها لن تتجاوز بلعومي. لو سحبتَ عود ثقاب لاشتعلتُ نارًا».

قطعت مرجان حبل خيالها، ونهضت وجلست على سريرها وقالت: «أخاف من الثعبان!».

انتبهت زَرِي وقالت: «نامي يا عزيزتي! أين هو الثعبان؟ إنه في صندوق الحاج محمد رضا الأصفر. وقد نزع أسنانه، وغطاء الصندوق مقفل».

أخذت تحكي القصة: «كان يا ما كان، حتى كان رجلٌ صنع طائرة. وكم كانت الطائرة كبيرة! شُحنت، عن آخرها، بألعابٍ وكتب وقصص وفاكهة وطعام وحلويات للأطفال... ».

«أمي، هل كان الثعبان أيضًا في الطائرة ؟» سألت مينا.

«كلّا يا عزيزتي، لم يكن الثعبان هناك. الطائرة كانت مشحونة بأشياء يحبها الأطفال. كانت تحلق في سماء المدن وتلقي للأطفال بكل ما يشتهون ويحبون».

«هل كانت الأشياء تنكسر؟» سألت مرجان.

«كلّا، كانت الطائرة تهبط على سطوح البيوت والأطفال يسدلون تنانيرهم تحتها، فيرمي الطيّار في تنانير الأطفال كل ما يرغبون فيه».

«ألم يعط أخي شيئًا؟ فهو لا يملك تنورة».

«بلى، كان يعطي أيضًا الأطفال الذين لا يملكون

تنانير. وأحيانًا كان يوقف الطائرة على السطوح و...».

«وهل أعطى ذاك الطفل الذي رشقني بالحجارة؟».

«بالطبع».

«عظيم».

واصلت زَرِي: «عزيزتي، كان يركن الطائرة على السطح ويُركب الأطفال المهذبين ويأخذهم إلى السماء. كانوا يمرون من أمام النجوم وبالقرب من القمر. وكانوا يقتربون جدًا من القمر والنجوم بحيث لو مدّوا أيديهم لجمعوا النجوم وكبّوها في حجورهم».

نطقت مرجان ثانية: «قولي له أن يركن طائرته على سطح بيتنا ويأخذ سَحَر لأخي... تمام؟».

«على عيني. والآن، ناما» قالت زَرِي، ثم سرح ذهنها: «لقد كبرتما، فحين يسترجع الطفل الذكريات ويستحضر الماضي لا يظل طفلًا، مهما كان هذا الماضي قريبًا ويعود لبضع ساعات

فقط».

نامت الطفلتان فعادت إلى الشرفة. كانت العمَّة لا تزال جالسة، واضعة يدها تحت ذقنها، ومحدّقة إلى الموقد الخالي من النار بجانبها.

«هل مازلت تفكّرين في السفر؟».

رفعت العمَّة رأسها فذُهلت زَرِي لعينيها المغرورقتين بالدموع. طرفت فانثالت عبراتها، ثم أجابت:

«أجل، أختي. ضاق صدري لكن العالم لم يضق

بما رحب... وبما أنَّ دنياي لم تستقم فلا أقلَّ من الاستعداد لآخرتي. لو جاور شخص مقام ذلك الإمام فلن يزوره منكر ونكير في ليلة قبره الأولى. ولا سؤال ولا جواب أيضًا. وأول من يزوه بعد موته حضرة الأمير [علي بن أبي طالب] ثم الإمام الحسين. وإذا كانت امرأة تزورها حضرة فاطمة. يلقى العبد الله ويده في يد هؤلاء الأطهار... ».

«عجبًا كيف هزَّ جناب الأخ كياننا جميعًا بكلامه! حتى الأطفال. لقد رأت التوأمان، يوم أمس، ثعبان الحاج محمد رضا ولم تفزعا، لكن اليوم خافتا ولم يطرق النوم جفنيهما».

«أنت محقة. فمنذ فترة لم أذكر ميّتايَ المغدوريْن. والليلة رأيتهما كلاهما يمران أمام ناظري».

«لسنوات وأنا عروس عندكم، ولم أسمعك تشيرين قط إلى طفلك أو زوجك المغدور، أما الليلة... ».

«كنت طوال ذلك الوقت أكتم آلامي في صدري، ولم أبح لأحد بما قاسيت، في أي وقت».

جلست زَرِي وأمسكت بيد العمَّة وقالت:

«لكنك طالما قلت بنفسك إنَّ الفضفضة تخفِّف هموم الإنسان. كنت تقولين إنَّ عليًّا كان يضع رأسه في البئر ويودع همومه في ماء لم يكن يراه. كنت تقولين إني واثقة أنَّ مياه الآبار كانت تَجِفُّ لسماع أحزان علي».

هزّت العمَّة رأسها وأنشدت:

لَوْ أَزْمَعْتُ مِنْ غَمِّك آهَ شَكْوَى لَاتَّخَذْتُ مِنَ

الْبِئْرِ-مِثْلَ عَلِيٍّ- مَأْوَى

سألت زَرِي: «وهل أنا أقل شأنًا من البئر؟».

«لكنك ما تزالين شابة ولا أريد أن أحرق طاقتك ورونق شبابك».

«أنا بدوري لديّ هموم بقدر طاقتي».

«أعلم». وشرعت تحكي ما يختلج في صدرها؛ همومًا لم يسبق لزَرِي أن سمعتها من لسان العمَّة، إلى حدود تلك الليلة.

6

«ليلتها، جلستُ إلى الموقد الحي الحاضر ذاته، وكعشاء الغرباء هذا، أخذت أتلف النار وأكدِّس الرماد بالمِرْكَض. كانت عيناي مصوّبتين نحو هذه الدمى النحاسية المحيطة بالموقد وهي تمسك بيد بعضها بعضًا. أحصيتها في تلك الليلة، كان عددها اثنتي وثلاثين دمية؛ دمى مطموسة الأعين ومنتوفة الحواجب ولم تتألم بعد. ولم يزل عددها كما كان، اثنتين وثلاثين.

ظلت سُودَابَة الهندية جالسة بجانبي إلى الصباح، تذرف الدموع بين يدي... حين مات الولد... في ذلك البستان... وحيدة... كنت أعلم أنه ميت، لكن مع ذلك، ضممته في صدري وركضت به إلى غاية حارة "سَرْدُزَكْ". كان عمره ست سنوات. لو عاش إلى اليوم، ما فكرتُ في الحجاب والرجل غير المَحرم، وما فكرتُ في الحشيش حتى أسقط صريعة الرعشة التي تغزو بدني عند فقدانه... ذهبت إلى بيتنا. كان والدي وسُودَابَة جالسين في الحجرة الصغيرة إلى الموقد ذاته. كم وددت لو أستلّ آهة فأحيل كل الناس رمادًا بآهتي السامَّة. قامت سُودَابَة وأخذت مني الطفل. لاحظتُ امتعاضها لكنها لم تكن تبد ذلك. عجبًا لهذه المرأة! لكم أثارت غيظ والدتي! لكنها كانت امرأة عجيبة! ذهبتْ ورجعت. سألتُها:

«أيَّ بلاءٍ أنزلتِه بولدي؟».

«ومن يدري؟ ربما يستطيع محمد حسين أن ينفخ

فيه الروح من أنفاسه الحقَّانية».

«إنك تنطقين كفرًا يا امرأة، الله وحده من ينفخ الروح (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)».

كنت قد درست العربية والفارسية على يد والدي، والجغرافية والهندسة على يد محمد حسين، أخي سُودَابَة. انزوى والدي في البيت بعد عودته من طهران ولم يذهب إلى الصلاة بعدها، واضطر إلى تعطيل دروسه في مدرسة خان، واكتفى بإلقاء الدروس في البيت. كان يجلس في الحجرة الصغيرة فيقصده الرجال ويقبّلون يده ويستفتونه، وكنت أنا أجلس في الغرفة المجاورة وأرهف السمع. حين رجع أبي من النجف خرج كل الناس، راجلين، إلى بوابة المدينة لاستقباله. وفي أول صلاة جماعة له، صلّى خلفه جميع ملالي المدينة بمن فيهم إمام الجمعة. ولمّا ارتقى المنبر... غصّ مسجد وكيل برواده ولم يعد فيه موضع إبرة.

إلهي! أنا أيضًا كنت امرأة. أكثر من عشر مرات وأنا أدسّ في ثنايا صدري الأوراق السرية، التي كان والدي يكتبها بماء البصل، وأنطلق بها إلى ضريح "شَاهْ تْشِرَاغ"(21) وأسلمها لمن يجب أن تُسلَّم إليه. أتذكر هذا جيدًا كأنه اليوم... كان الموعد بين الأسدين المقابلين للحرم المطهّر.

كان محمد حسين وأخته قد جاءا من الهند حديثًا. وفي الأخير لم تنجح أخته سُودَابَة في أن تصير زوجة لأبي. كان يقول هكذا أفضل، لكنه تسبّب بالتشرد لأمي وأدمى قلبها كثيرًا. كانت

امرأة عجيبة! كانت رقّاصة! لن أنسى أبدًا ذاك اليوم لمّا أقام والدي ضيافة في حديقة "رَشْكْ بِهِشْت"، ودعا سُودَابَة. كانت سمراء اللون وفوق شفتها خالة سوداء. لم تكن صاحبة جمال باهر؛ كانت قصيرة القامة بعينين مكتحلتين كبيرتين وشعر طويل. كانت تشبه البومة حينما لا تبتسم، لكن أثناء الضحك وكأنّ باقة أزهار تتبعثر من فمها... الجميع كان ملتفًّا حول مدخل البناية الآجري، رجالًا ونساء، يصفقون، وكانت هي تتراءى عارية إلا من مجوهراتها التي سترت بها نفسها، لكنها لم تكن عارية تمامًا. كانت تضع حمّالة صدر مرصّعة بالمجوهرات، وتدثّر سائر بدنها بقماش شفاف بلون الجلد. إلى ذلك اليوم لم أكن قد رأيت رقص سُودَابَة. مؤكد أنه لم يكن رقصًا عاديًا. كان تهزّ كل جزء في بدها؛ الكتفَ والبطن والعينين والحواجب، بل حتى الذقن والأنف والأذنين وبؤبؤ العين. كانت، بحركاتها، تبدو وكأنها ترقص على جسد رجل. في الرقصة الثانية ظهرت بلباس حريري أزرق مطرّز بحاشية مذهّبة وحمامتين نائمتين على صدرها. حمام حقيقي ريشه

مصبوغ بلون الخزامى. وكانت تمسك في يدها قطعة حرير أزرق من جنس لباسها. ترقص بهدوء وتروٍ وكأنها تخشى إيقاظ الحمامتين. لمّا أكملت الرقص أطلقت الحمامتين في الهواء. بعد الرقصة الثالثة أحسَّت بحر شديد، فقصدت النافورة، بلباسها الحريري الوردي ذاته، وجلست على حافتها وأغطست رجليها العاريتين في الماء. وأنا شاهدت بأم عيني والدي، مجتهد المدينة وحائز الشروط

الجامعة فيها، جالسًا قبالة سُودَابَة يُروِّح عليها بمروحة في يده.

لم تكن دعوة أبي لمحمد حسين ليدرّسني من باب العبث. فقد درستُ عنده الجغرافيا والهندسة. كنت أرسم الخارطة الجغرافية، وكنت مستغرقة في عملي لدرجة أني لم أكن أنتبه لما يجري من حولي. في أول يوم ستحطّ فيه طائرة في هذه المدينة أخذ خلق الله أجمعين سجاجيدهم وذهبوا، مع بزوغ أولى تباشير الفجر، إلى حديقة "تَخْت"(20) للتفرج. كنت أنا في السطح جالسة تحت لفح الشمس أرسم خريطة الهند. جاءت الطائرة وحلّقت فوق رأسي فلم أرفعه لمشاهدتها. يا إلهي، مثل هذا الشخص لا يجب أن يدمن الحشيش.

كان محمد حسين من عُبَّاد الشمس. كان يذهب، كل غداة وعشية، إلى أعلى السطح ويظلّ محدّقًا في الشمس بعينيه، وبقي كذلك حتى أتلفت أشعتُها عينيه فابيضَّتا. كان أيضًا يزاول الأعمال السَحَرية، فكان يقلي البيض داخل القبعة اللّبادية على سطح حوض الماء، وكان يستخرج قطعة نقدية من ورق عاد، ويبتلع ساعة والدي اليدوية ويخرجها من جيب جناب الأخ. كما كان يقرأ الكفّ أيضًا. وقد قرأ كفي وقال إني سأنجب اثني عشر ولدًا كلهم سيصيرون وزراء، فقلت له إذن أبنائي سيشكلون حكومة. كان والدي يقول إنَّ لمحمد حسين قوة روحية، لكن أهالي المدينة كانوا يرونه ساحرًا ومشعوذًا. مهما كان أمره، فإنَّ المرحوم خدمني كثيرًا.

ليلتها كفَّن محمد حسين الولد ودفنه... وكل يوم، ولمدة أسبوع، كان يُجلسني قبالته ويصوّب نظره في عيني ويقول:

«سوف أنوِّمك حتى تري ولدك في نومك، مكانه جميل وينعم بالراحة والسعادة».

غير أني لم أكن أنام، فيقول إنَّ مقاومتك كبيرة، ثم يصبغ ظفر إبهامي بمداد أسود ويقول:

«والآن حدِّقي في ظفرك، سوف يظهر ولدك اللحظة. ألا ترينه؟ لقد جاء. اسأليه ماذا يريد؟ إنه يريد بطيخة» لكني مهما رنوت لم أر شيئًا.

تلك الليلة، بتنا أنا وسُودَابَة جالستين إلى الصباح. لم تغد زوجة لأبي، مطلقًا، لكنها كانت امرأة عجيبة! كان تنفث من نفسها شعاعًا لو أصاب أحدًا، ينجذب إليها، شاء أم أبى. وحينذاك لن يستطيع تخليص نفسه من هذه الجذبة. ليس الأمر بالجمال والقبح، بل بالماء والطين. احتار الناس في فعل والدي. وربما كانوا يبصقون عليه ويلعنونه في ظهره. رجل ماجن لم نعرف متى أوصى بحياكة عدد من الستائر اليدوية في إصفهان نُقشت عليها نقوش الشيخ صنعان(19) وكُتب تحت النقش: «سيذهب الشيخ صنعان رفقة مريده إلى بلاد الروم». كان عجوزًا يرتدي رداء وعباءة ويعتمر عمامة، يشبه كثيرًا والدي، يضع أصبعًا في فم الشيخ صنعان، والمريدون يتبعونه، وفتاة وقحة جالسة في أعلى البيت... آنذاك كنتِ تجدين هذه الستائر في كل بيت تزورينه. حين يريد الناس اقتراف الخبث فإنهم

يجيدون ذلك، فوالدي نفسه كان يقول: "لما انتزعوا مني المسجد والدرس لم يعد بوسعي التدخل في الشؤون الأخرى. فَعَلْنا ورأينا. على المرء في هذه الدنيا أن يقوم بعمل أكبر قدرًا من الأعمال اليومية. يجب عليه أن يغيِّر شيئًا. والآن، حيث لم يبق لي عمل أقوم به، فسأقبل على الحب والعشق". كان يقول: "العشق صنع مثل هذا ويصنع، جمع بين الخرقة والزُّنار ويجمع" "حجر الكعبة أبجدية العشق".

روّج ملالي المدينة أنه صار وكيلًا لإمام الزمان، وكل يوم يذهب إلى سوق السيَّافين لزيارة... لكن بسبب مائدته الواسعة، وحلّه لمشكلاتهم بمكالمة هاتفية صغيرة لم يبادروا إلى تكفيره في العلن. فضلًا عن ذلك، لم يعد لعمامات الملالي وجود، وصار معظمهم يعتمرون القبعات.

كان والدي يقول: "لم يصل دوري بعد والزمان ليس زماني"، لذلك جنح إلى الاعتزال، لكنه لم يوافقهم قط. كان من البداية على ذلك النهج وظل كذلك حتى النهاية. أثناء حادثة شجار رئيس دائرة

أمن المدينة مع مسعود خان دَنْدَانْ طَلا رفع معظم الناس علم إنجلترا على أبواب بيوتهم حتى لا يجرؤ أحد على الإغارة عليها، لكن والدي لم يفعل ذلك مطلقًا. كان، إلى جانب الحاخام الأعظم، يوصل جرحى حارة اليهود إلى الطبيب، أو يحضره شخصيًا إليهم. كَم دافع عنهم وحاجج! وكَم أسدى النصح لمسلحي دائرة الأمن في المدينة كي يصرفهم عن

استهداف حارة اليهود، لكنهم كانوا يأتمرون بأمر رئيسهم!

أطلقوا رصاصة من خلف الزجاج على امرأة يهودية كانت ترضع طفلها. كانت على وشك تسليم الروح وثديها في فم الرضيع. هبَّ والدي وأخذ الطفل تحت عباءته وراح، بحالته تلك، يبحث عن الدكتور اسكات الإفرنجي في مشفى "المرسلين" والطفل في حضنه. من يكون الدكتور اسكات؟ إنه طبيب رئيس دائرة الأمن الخاص ومباشر شؤونه، وغير مستعد للحضور إلى أسِرَّة جرحى أو قتلى أعوان رئيس دائرة الأمن وأنصاره. يومئذ، عطَّل والدي المشفى بأكمله، وأحضر الدكتور اسكات الإفرنجي وبضع ممرضات أرمينيات على رأس المرأة وجرحى آخرين من الحارة. تحسنت حالة المرأة. أتعرفين من تكون؟ إنها السيدة طاووس ذاتها التي لا تزال، إلى يومنا هذا، تجلب الشراب ليوسف، وهي التي كانت شاطرة في بيع أثوابك الخلقة المهترئة.

أتذكَّرُ حين أصيب فِلْفِلي موسى برصاصة. أحضروه إلى مسقوفة بيتنا وطرحوه على المصطبَّة في مكان البوَّاب. أصيب برصاصة في فخذه وكان الدم يتدفق من الجرح مثلما يتدفق الماء من خرطوم الإبريق وكأنه نافورة. تضرجت المسقوفة بالدم. آنذاك، لم يكن والدي بالبيت، وراحت أمي تقيء من منظر الدم. رميتُ شادوري على رأسي وانطلقت إلى عيادة الدكتور عبد الله خان. كانت

عيادته تقع في عمق منطقة "عَرَبان". ركضت المسافة كاملة. بيني وبين الله، هم أيضًا لم يرفعوا علم إنجلترا فوق بيتهم. كان المرحوم أبوهم الحاج حكيمْباشي لا يزال على قيد الحياة وقتها. كانوا أربعة إخوة؛ ثلاثة أطباء والرابع كان صانع أدوية ويملك صيدلية. رحمهم الله. بقي منهم حيًّا الدكتور عبد الله خان. كانت عيادتهم تعج بالجرحى والقتلى، ولم يكن ثمة موطئ قدم. رحت ألتمس وأذرف الدموع حتى رافقني الدكتور عبد الله خان. يُقال إن نَفَسه شافٍ رغم شبابه. لكن، عندما وصلنا كان فِلْفِلي قد ودَّع وغطَّوه بمِفرش السرير، وغصَّ بيتنا بأهله ومعارفه، وعلا أزيز النواح

واللطم وسقطت أمي مغشيًّا عليها. والآن، أين كان يقع بيتنا؟ كان قبالة وادي زَنْبُور، أي مقابل بيت والد عِزَّت الدولة، وكانت حديثة عهد بالزواج. كان زوجها يقيم معها في بيت والدها، وكانت كل المصائب من تحت رأسه لأنه كان صهر رئيس دائرة الأمن. كنت أنا وعِزَّت الدولة أختين بالتسمِّي(18)، لكن من كان يفكِّر، آنذاك، في أخته من دمه ولحمه، حتى يفكر في أخته بالتسمِّي! السبب الوحيد الذي منعهم من الإغارة على بيتنا هو احترامهم لوالدي الحاج، كما أنهم كانوا يخافون من أن يصدر فتوى الجهاد. وقعت هذه الحوادث قبل رحيل والدي إلى طهران بوقت طويل.

أنا واثقة من أنَّ والدي كان بمقدوره تنويم المرء، لو شاء. كان يصوِّب عينيه إلى عمق عيني الشخص

حتى يفقده القدرة على المقاومة.. غير أنَّ مثل هذا الرجل صار عبدًا طيعًا بيد سُودَابَة الهندية. وكم أدمى قلب أمي! اللهمَّ لا تبتلنا ببلائك!

كانت أمي تسمع وترى ولا تحرّك ساكنًا. وحتى، بعد أن مات ورحل، لم تفضفض لي، أنا التي كنت ابنتها. كل الناس في المدينة كانوا يتكلمون عن قصة الحاج وسُودَابَة الهندية إلا زوجته، المعنية الأولى بالموضوع.

لكن والدي لم يجرؤ على استقدام سُودَابَة ومحمد حسين إلى البيت طالما لم يفرغ. فزوَّجني، وتزوَّج جناب الأخ وتشرّدت أمي. كان زوجي تاجر قماش، يتاجر مع المصريين والهنود. كان جناب الأخ يكسر قلبي مثل آنية قش لمَّا كان يلمزني وينعت زوجي بـ"ابن الميرزا ميور(17)" لأنَّ الأب والابن كانا يستوردان قماش الميور، والآن لم يعد أحد يستورده. لمّا كان المرء يرتدي قماش الميور كان يشعر بانتعاشة وحيوية. كان مناسبًا جدًّا للقميص الداخلي وسرير الطفل. عند مخايل الغروب، وبسبب المضايقات التي تعرّض لها ولوعته الشديدة على الطفل، ارتطم زوجي مع حصانه بسواري القنصلية. كان والدي يقول إنَّ الزمان ليس زمانه فاعتزل، لكن الآخر قضى وهو لا يزال شابًا لم يحقق مبتغاه بعد. حفظ الله روح يوسف وأخرس لساني. كان يشبه يوسف، فزمان

يوسف أيضًا لم يحن بعد، لكن الآخر أيضًا كان يقول، مثل يوسف، يجب أن نفعل شيئًا حتى يصل هذا الزمان غير أنه كان ينكسر ويجتر

المرارة فقط. وفي النهاية انكسر فعلًا. في الواقع، هذا زمان الطغاة أمثال جناب الأخ. متى يحين زمان أمثال يوسف؟ لن أنسى أبدًا لمّا انهارت أسرتي، كتب لي يوسف يقول: "أختي، حاولي أن تقفي على رجلك، لأنك لو سقطت فلن تجدي في هذه الدنيا من ينحني ليمسك بيدك ويقيمك على رجلك. حاولي النهوض بنفسك".

حمدًا لله أنَّ أمي لم تكن موجودة هنا لتشهد معاناتي. ذات ليلة دعتنا، أنا وجناب الأخ وأبناءنا، للعشاء. تلك الليلة، رأيتها تتفحَّصنا وكأنها تريد حفظ تقاسيم وجوهنا. كانت قد مرت سنتين على سفر يوسف إلى الغرب. كان جناب الأخ يكذب حين كان يردّد أنَّ أبي لم يصرف على دراسته. كان والدي يريد إرسالهما معًا إلى الخارج، لكن جناب الأخ اختار عدم الذهاب. طلب منه أن يعطيه مصاريف الدراسة أملاكًا فأعطاه والدي ما أراد. ودّعتنا أمي وقالت إنها ذاهبة إلى مرقد حضرة المعصومة للزيارة، ومن هناك ستنتقل إلى مرقد الإمام الرضا، وأنَّ سفرها سيطول شهرًا أو شهرين. دعكِ الآن من رحيلها إلى كربلاء، مهرَّبة. كلَّ ما أخذته معها من متاع الدنيا كان عبارة عن مقدار من المال وما تدخره من أجل زينة النساء، وحقيبة ملابس وإبريق... أما أقراطها الزُّمردية فقد أعطتني إياها وأوصتني بتسليمها إلى يوسف كي يعلّقها بنفسه في أذني زوجته ليلة الزفاف إذا حصل شيء في سفرها. بعد مرور شهر، أرسلت رسالة تقول فيها إنها في كربلاء مجاورة لقبر الإمام، ولا داعي للقلق عليّ. لم أخبر أحدًا،

أختي... أنت أيضًا كأنك لم تسمعي مني شيئًا... لكن أمي صارت خادمة في كربلاء، خادمة للسيدة فخر الشريعة. وطالما كانت هناك لم تبتغ مالًا ولا رغبت في والدي... كلَّا، يا إلهي، لقد بعث لها والدي ثلاث أو أربع مرات، بإصرار مني ومن جناب الأخ، حوالة نقدية بواسطة هذا وذاك، لكني لا أعلم هل توصلت بها أم لا. لم ترسل رسالة بعدها أبدًا. في الرسالة الأولى قررت وفصلت في عدم مراسلتها، وقالت إنها لا تريد أن يشغلها شاغل عن التفكير في سيدي الإمام الحسين والحديث عنه.

كنت أتحدَّث عن تلك الليلة التي جلست جنب موقد النار، الحي الحاضر هذا، أقلّب الرماد بالمِركَض وأشتِّته بعد أن انطفأ جمره. أقمت عشاء الغرباء، وظلت سُودَابَة بجانبي حتى الصباح. يالها من امرأة عجيبة! واأسفا على ما تسبّبت فيه من آلام لأمي!

ليلتها سألتُ سُودَابَة: "لم أفهم في الأخير ما الذي أعجبك في أبي، أنت التي يتمناك ألف رجل، ولمَ شرَّدتِ أمي؟" قالت مجددًا إنَّ الأمر لم يكن بيدها، وقالت إنها تعلم أنها لطّخت سمعة رجل دين شيعي، مجتهد حائز للشروط الجامعة، وتعلم أنها تسبّبت لامرأة بريئة في التشرّد والنزوح، لكن الأمر لم يكن بيدها. قالت إنَّ الإنسان حين يكون مستأنسًا بشخص في حيواته السابقة وينفصل عنه لاحقًا، فإنه يأتي إلى هذه الدنيا بحثًا عنه، ويتحمّل الفراق والانتظار. عندما يعثر عليه ويتعرّفه هل من الممكن أن يتركه؟ في البدء كانتا نبتتين ملتفّتين على بعض

فذبلت إحداهما، وفي الحياة التالية كانا طائرين مهاجرين، لمَّا حلّقا إلى الجنوب أو الشمال أضاعا بعضهما، وفي الحياة اللاحقة كانا غزالين مقرّبين، اصطاد أحدَهما صيادٌ، وعاش الآخر في لوعة الفراق على صاحبه. ثم كانا اثنين: أب وبنت. ثم اثنين: أخت وأخ... في نهاية المطاف، حين يعثران على بعض كيف لهما أن يتخلّيا عن بعضهما؟ كانت تقول هذا الكلام. لكنها لم تغدُ زوجة لأبي على الإطلاق. ظلت في بيت والدي على ذلك النحو إلى أن شاخت وهرمت.

لمّا مات زوجي في ريعان شبابه، قررتُ، كما رأى يوسف، أن أدير بنفسي المِلك الذي خصّصه لي والدي. فكنت أمتطي الحصان بسروالي الداخلي، وأدكّ مزارع الحشيش تحت قدمي. كم كان عمري؟ ثمانية وعشرين. وكنت، أيضًا، أعذِّب القرويين بالفلقة. تجاوز الله عن تقصيري. آنذاك، كان قد مر على رحيل أمي ثلاث سنوات. كم كان عمرها حين ماتت تلك المتعوسة؟ أربعًا وأربعين سنة. أبرقتْ فخر الشريعة لوالدي أنَّ أمي مريضة. أجرى والدي اتصالاته بهذا وذاك، والحق يقال فقد بذل جهدًا كبيرًا حتى حصل على ترخيص بخروجنا. أبرق ليوسف كي يلتحق بأمه من حيث هو. وأرسل له حوالة نقدية؛ عشرين جنيهًا استرلينيًا، من دون علم جناب الأخ، لكنه لم يخبره في البرقية أنَّ أمي تحتضر، لذلك وصل متأخرًا. لمّا وصل كنا قد دفنّاها في سرداب الحَرَم. لقد بذل جناب الأخ كل ما بوسعه وأنفق من ماله حتى أجازوا لنا دفنها في سرداب

الحَرَم رغم أننا كنا على يقين أنهم سيخرجون الجثة من هناك ويدفنونها في المقبرة العمومية ما إن نولّي ظهورنا، لكن بقاء ليلة واحدة في ذلك الحريم المقدس، كان في حد ذاته منجزًا عظيمًا، وكان يعني أنها حققت أمنيتها.

يا للمصيبة! كانت أمي تُسلِّم الروح في حجرة مقاسها متر على مترين، ممدَّدة على لحاف ممزق فوق حصير مهترئ. كانت تصرخ من شدة الحر: "لقد احترقت!" لا سرداب ولا ماء بارد. كانت فخر الشريعة تنادي عليها: "يا فصيح! تعالي واجلبي الشيشة... لقد طبختِ اللحم مالحًا اليوم، يبدو أنك تفكرين في الحاج..." واي واي! لا سيدة، ولا ألقاب. كان اسم أمي فصيح الزمان. فصيح الزمان التي لم تفصح عمّا نزل بها ولو بكلمة واحدة. وقصة الخادمة سمعناها من لسان فخر الشريعة نفسها. كانت تتحدث عن أمي وكأنها كانت خادمتها المطيعة أبًا عن جد. لم أبدِ لأحد شيئًا، حتى يوسف لم نخبره بشيء. وهل كان ثمة ما يُسمع؟! كان يوسف، آنئذ، شابًا في العشرين من عمره، ولم يكن ليتحمّل، وهل يتحمّل الآن وقد جاوز الأربعين؟

لم نعرف في النهاية كيف وصلت أمي إلى كربلاء، لكننا سمعنا أنها لمَّا وصلت وقعت في فخّ الشيخ عباس القُمّي. كان هذا الأخير يرتدي رداء ويتشبَّه بالعرب ويخيف الزوّار بأنه سيكشف أسرارهم فيكثر عليهم من ترهاته. ومن شدة الخوف رمت أمي الحقيبة وأخذت معها الإبريق. لا تسألي الآن

عن بطاقة هويّتها التي بداخل الحقيبة، وعن المائة تومان التي أعطاها إياها والدي والتي دفعتها لتحصل على بطاقة هويّة ميت من العمّال الأموات... ».

*

جاءت خديجة إلى الشرفة وسألت: «ألا تنويان تناول العشاء هذه الليلة؟».

«سننادي عليك عندما نحتاجك» قالت زَرِي.

«يكفي هذا، لقد ثرثرتُ كثيرًا وأوجعت رأسك. قولي لها أن تحضر الطعام، لنأكل لقمة ثم ننام حتى نرى ما يفعل الله غدًا» قالت العمَّة.

7

في الصباح الباكر أمرت زَرِي غلام بأن يخبر من يأتي من طرف الحاكم ويطلب شيئًا بأنها ليست بالبيت، وأنه لا يملك إذنًا بالتصرف، وإذا أصرّ وقال إنه جاء من أجل الحصان، فليتظاهر بالبلادة ويقول له إنك أخطأت العنوان، كان لدينا حصان لكنه مات الآن. وإذا توعّد وهدّد فليعطه الحصان الأحمر كي يأخذه.

كان يوم السقي فقصدت زَرِي البستان لتعاين عن كثب سقي الأعلاف والنباتات وجذوع الأشجار، ولتستمتع بارتوائها، وينتشي قلبها بتنفس النباتات العميق، وتستنشق بشوق عبق طرواة التراب.

كان البستاني وغلام يتنقَّلان من ناحية إلى أخرى، وهما يحملان معولًا على الكتف وقد شمَّرا ثنايا سرواليهما. يسدان مسالك الماء أو يفتحانها. وكانت مينا ومرجان تدبّان بين أرجلهما فتعرقلان عملهما. في النهاية اضطرت أمهما إلى إرغامهما على بناء بيت طيني بالقرب من الإصطبل تحت شجرة الدَّرْدار. وقالت لهما إنَّ بإمكانكما أن تغرسا في ذلك الطين وتقيما عرسًا لدميتيكما. ثم خوّفتهما إن لم يستظلا بمكان ظليل فإنَّ السيدة الشمس سوف تغضب وتغرز سفودًا حارًا في جسدهما الرطب واللين.

شرعت مينا في رسم خارطة البيت: «هنا الحوض، وهنا خزانة، وفي هذا المكان تنور بارد». أكملت مرجان خارطتها بسؤالها: «وأين مكان الإصطبل؟».

أمسكتا، مرتعبتين، بضفدع صغير ووضعتاه في الإصطبل فنطّ هاربًا، لكن صغار الضفادع كانت متوفرة بكثرة في البستان.

أفسح غلام للماء كي يسلك طريقه ناحية أشجار الدَّرْدار فغمر الماء بيت الطفلتين وانساب الماء من تحت أقدامهما فجلستا على رؤوس أصابعهما. قالت لهما زَرِي: «والآن عليكما بالوقوف». وطوال هذا الوقت كانت أذنها على الباب حتى إذا سمعت طرقة هبّت للاختباء في مكان ما. صاحت مينا: «أيها الأصلع الخبيث!» فردّ عليها غلام: «لقد فاض الماء، عزيزتي».

في ذلك اليوم وغداته لم يصل أي خبر عن مرسول الحاكم، فاطمأن خاطر زَرِي إلى أنهم تغاضوا عن الأمر. قالت العمَّة: «حمدًا لله، لقد هدّنا القلق بلا داع. قالوا كلامًا ووعدهم جناب الأخ بمعسول كلامه؛ نعم سيدي، نعم مولاي».

صباح اليوم الثالث كانت زَرِي قد خرجت للتو من تحت الناموسية لمَّا سُمع طرق الباب. انطلق غلام بينما استرقت زَرِي النظر. رأت دركيًا يسلّم على غلام من وجنتيه ويحمل في يده مظروفًا.

أحضر غلام المظروف وسلمه لزَرِي.

«كأنك تعرفه».

«إنه ابن بلدتي، من بلدة "بَرَدَة". كان دومًا يتمنى لو يصير دركيًا، وقد صار».

ذهبت زَرِي إلى الشرفة وانتظرت حتى فرغت العمَّة من صلاتها ثم فتحت المظروف. كانت رسالة مكتوبة بخط جميل ومرسلة إليها. قرأت الرسالة بصوت عال:

«سيدتي العزيزة، لو لم أكن مطمئنة إلى كرم ضيافة الغريب في هذه المدينة وسخاوة هذه العائلة المحترمة، لم أكن لأتمنى على السيدة مثل هذه الأمنية، مطلقًا. أصيبت الطفلة گِيلان تَاج لبعض الوقت بحمّى التيفوس حدّ يأس الأطباء من شفائها. والآن حقّتنا الإرادة الإلهية بألطافها فتماثلت ابنتي للشفاء. الطفلة تهوى ركوب الخيل، ومهما بحثنا في المدينة عن فرس مطواع لتمتطيه لم نعثر عليه. صدِّقيني أنَّ الجنرال أرسل فرسين من أفضل خيول حظيرة الجيش، لكنهما جامحان وقويا البنية ولا يناسبان طفلة غادرت سرير المرض حديثًا. صديقي المحترم، جناب السيد أبو

القاسم خان، وعدني بإرسال مهر ابن سيادتك للطفلة. سمعت أنه قد سافر. والآن، أتوسل إليك توسل العاجزين أن تعيرينا مهر ولدك المحترم لبضعة أيام وتسلميه للمرسول حتى إذا ملّت كِيلان تَاج من الحصان ومن الفروسية أعدناه إليك».

المخلصة؛

الرسالة كتبها شخص آخر لأن توقيع سيدة الحاكم مختلف عن خط الرسالة. تلفّتت زَرِي إلى العمَّة: «والآن ماذا سأفعل؟».

«لقد باغتونا. أن تسلمي الحصان أمرٌ سيء وألا تسلميه أسوأ. أنا أعلم أنَّ يوسف وخُسْرو سيقيمان الدنيا ولا يقعدانها لو سلمته. وإذا لم تسلميه فإنك

رأيت كيف أفحش ذاك ولعن يومها. سنظل في شد وجذب إلى أبد الآبدين. إذا لم ينجح في أن يصير وكيلًا سيقول أنتم من بخلتم... ».

«إنهم وضعوا كل الشروط والقيود. لا يمكن تسليمهم الحصان الأحمر. ما العمل إذن؟».

زفرت العمَّة بألم واندفعت: «يجب الآن أن نذهب ونجلس تحت شجرة "ما العمل"».

أدخلوا الدركي وأجلسوه على كرسي جنب الحوض وأحضرت له خديجة وجبة الفطور ووضعتها على كرسي آخر. نزع الدركي قبعته ووضعها على ركبته. انتبهت زَرِي إلى أنه أفرغ محتوى السكّرية في جيبه وعبَّ شايه المرَّ عبًّا، ثمّ ابتلع لقمات، ويالها من لقمات! كان غلام جالسًا على حافة الحوض قبالته.

دنت زَرِي من الشرفة وسألته: «هل أنت دركي على باب حديقة الحاكم؟».

أجابها الدركي بفم مليان: «ها!» ثم ابتلع اللقمة.

«هل لديك زوجة وأولاد؟».

أشرع الدركي فمه حتى شحمة أذنيه وقال: «عقدت قراني على ابنة عمّي ليلة العيد».

«متى ستُرجع الحصان؟».

«كلّفني حضرة الملازم بمهمة. قال إنني شاب طيب، لكنه لم يقل متى أرجع الحصان» وفتح فمه، ثانية، حتى شحمة أذنيه.

دخل غلام على الخط: «ليس الآن وقت التوالد، يا أخي».

دسّ الدركي يده في جيب سترته العسكرية وأخرج مظروفًا ثم نهض وأعطاه لزَرِي وقال:

«هذا الظرف أرسله جناب الميرزا، وقال إنها ثمانون تومانًا».

أمسكت زَرِي المظروف وفتحته وعدّت النقود. كانت بالفعل ثمانين تومانًا. هممت للعمّة:

«إنهم دفعوا ثمنه، على حد زعمهم».

«أعطيه سَحَر ليأخذه حتى نفكر في أمره لاحقًا».

«غلام، اذهب وأخرج سَحَر من الإصطبل».

«سيدتي، أقسم بالله أنَّ أمر هؤلاء الناس لمنكوس. إنَّ موسم التوالد قد انقضى، ثم إنَّ سَحَر لا يزال... ».

استلّت زَرِي آهة وقالت: «إنهم لا يريدونه من أجل التوالد. ابنة الحاكم تريده... ».

نزع غلام قبعته اللّبادية من رأسه. كانت صلعته الحمراء تنزّ عرقًا. قال: «لقد عهِد إليّ جناب خُسْرو بسَحَر. هل أسلّمه لإنسان غريب؟ حاشا وكلّا».

قالت السيدة فاطمة: «غلام، ألا ترى أنهم أرسلوا دركيًا؟».

«كيف يكون هذا المخلوق دركيًا؟ هذا الإنسان صادق ومخلص» ثم استدار ناحية الدركي وأردف: «أخي، اذهب إلى أسيادك وأخبرهم أنَّ الحصان قد مات، واستلم إكراميتك من السيدة أيضًا».

قال الدركي: «ألستَ ابن بلدتي؟ أمرني حضرة الملازم أن أحضر الحصان بأي ثمن. لقد كلّفني

بمهمة. قال إنك شاب ظريف، وإذا لم تحضر المُهر الأشقر قدِّم استقالتك وارجع على الفور إلى "بَرَدَة" إلى أحضان أمك. هو من أمر بذلك».

اعتمر غلام قبعته وقال: «كل من سوّلت له نفسه أخذ سَحَر فليذهب بنفسه وليخرجه من الإصطبل، لو كانت لديه الجرأة... سأهوي على خصره بهذا المعول حتى أرسله إلى أحضان أمه».

قالت زَرِي آمرة: «أنا من يوجه الأوامر هنا، أنا سيدة البيت. اذهب وأخرج سَحَر من الإصطبل».

استيقظت مينا ومرجان وقدمتا إلى الشرفة تتبعهما خديجة وتأمرهما بغسل وجهيهما.

قال غلام: «سيدتي اسمعي كلامي، لا تفعلي ذلك. فكري في يوم غد حينما يصل ولدك وتأكل الحسرة قلبه. وفكّري في بعد غد لمّا يرجع سيدي... لا تخشيهم. قولي لهم لن أسلّمكم سَحَر. تمام. ماذا بوسعهم أن يفعلوا لك؟».

قال الدركي: «ألستَ ابن بلدتي؟» ثم انطلق، فسأله غلام: «إلى أين؟». «إلى الإصطبل» قال الدركي.

قال غلام: «أنت ابن بلدتي، فلتكن. إذا كنت تجرؤ فلتطأ قدمك الإصطبل».

قال الدركي: «لم أحضر بندقيتي. سوف أذهب الآن لأحضرها».

أمسك غلام بتلابيب الدركي وصرخ في وجهه: «هل تهدّدني ببندقيتك؟ ألم تكن غريبًا يتيم الأبوين تسرق الدجاج ليلًا؟ هل قال لك حضرة ملازمك أن

تهددني بالبندقية؟».

حرّر الدركي نفسه من قبضة غلام وقال: «قسمًا بالله، كلَّا. لكنه قال قدّم استقالتك وارجع إلى "بَرَدَة". كيف لي أن أرجع؟».

نادت السيدة العمَّة على غلام وقالت له بهدوء: «غلام، لا تحاول. جناب الأخ قطع وعدًا. أعطه سَحَر ليأخذه، لقد فكرت في فكرة جيدة لكن شريطة أن يكون حصان خُسْرو هنا قبل رجوعه».

انطلق غلام وأخرج سَحَر من الإصطبل وسلَّم زمامه إلى الدركي. لمَّا أراد الدركي ركوب سَحَر ارتجَّ بشدّة ورفس بحوافره وهبَّ واقفًا على قوائمه الخلفية. مدَّ عنقه وأطلق صهيلًا فجاءه الردّ من الحصان الأحمر والأنثى في الإصطبل. تراجع الدركي القهقرى وأرخى لجام الحصان. توجه الحصان نحو غلام وأخذ يشمّ أكمامه المشمَّرة. جهد الدركي وتعب وسكب العرق. كان يمسّد على ذيل سَحَر ويداعب رقبته. أخرج مكعّب سكر من جيبه وقرّبه إلى فم الحصان.

في الأخير نجح في الإمساك بلجامه. وضعت زَرِي قطعًا نقدية في راحة يده وقالت: «إنها لك». التمعت عينا الدركي فدسَّ النقود في جيب سترته العسكرية وراح يجر سَحَر خلفه، وسط دهشة البنتين اللتين كانتا تتفرجان وترفضان الانصياع لأمر خديجة التي تدعوهما لتناول وجبة الفطور.

أحسَّت زَرِي كأنهم سلبوا البستان رونقه ولونه بالكامل. ثارت ثائرة السيدة فاطمة وأخذت تشتم

وتلعن، ثم توجهت نحو زَرِي: «زوجة أخي، لمَ أعطيته الإكرامية؟».

كان غلام واقفًا يتتبّع، من هناك، زَرِي وهي تكفكف دموعها.

صاحت خديجة: «سيدتي، سلام على فرسانک فالأنثى لا تزال شابة وستلد سَحَرًا آخر».

«أراهن أن أرجعه خلال ثلاثة أيام. لقد أحسنتِ فعلًا إذ أعدت لهم نقودهم مسبّقًا» قالت العمَّة.

«لن نرى وجه سَحَر حتى نرى ظهر أذننا» قالت زَرِي ثم أمرت غلام أن يصنع ما يشبه القبر في آخر البستان قرب الإصطبل، وأن يقتلع الأحراش ويسوّي التراب ويصفِّف الحصى حول قطعة أرض مستطيلة، ويضع فوق القبر الإصطناعي أصصًا من الباتونيا.

قالت العمَّة: «لا تقم بأي شيء الآن حتى أرى ما يمكنني فعله».

قالت زَرِي موجهة كلامها لغلام: «إذا أخبرتَ خُسْرو بشيء فسأجعل السيد يردّ عليك».

لما ذهبتا إلى الصالة تناولت السيدة فاطمة الهاتف ودعت السيدة عِزَّت الدولة للغذاء غداة ذلك اليوم.

*

وحلّ ذلك اليوم، ومع أنَّ زَرِي لم تكن أبدًا مرتاحة لعِزَّت الدولة فإنها لم تقصِّر في ضيافتها. أخذت غطاء رأسها وقفازاتها البيضاء ونظارتها السوداء ووضعتها في صرّة وتلفعت بشادور صلاتها الجديد

الموشّى بالورود. اصطحبت عِزَّت الدولة خادمتها المحبوبة فردوس لكن زَرِي أرسلتها إلى غرفة خُسْرو كي تستريح. ومع أنها كانت قد أقفلت نوافذ الصالة منذ الصباح الباكر وعلّقت الستائر الحصيرية فقد أحضرت المروحة ووضعتها في متناول عِزَّت الدولة، وقالت لها مرحّبة: «ما أجمل رأسك!» فردت عليها عِزَّت الدولة: «فداء رأسك!». كان وقت الظهيرة لايزال بعيدًا ومع ذلك لم تذق عِزَّت الدولة الشربات ولا أكلت من الفاكهة، لكنها طلبت شايًا. ولما تذوقته لم يرقها وقالت: «شاي الكوبون أشبه بالشاي المغلّى!». ثم لمّا حضر الغذاء لم يُعرف ماذا أكلت؟ تناولت رأس ملعقة من الأرز والمرق والكباب ثم أزاحته جانبًا، وطلبت شراب الحصرم ففرمت عليه دوائر الخيار وفتّتت فيه الخبز وتناولته مع البصل. قالت إنه مفيد لآلام رجلها، لكن للأسف فشراب الحصرم كان يعود للسنة الماضية.

وفي العشيّة، فرشت زَرِي سجادة في الصالة، وأحضرت مخدة مريحة وملاءة ناعمة، فتمدّدت عِزَّت الدولة والمروحة بيدها وأمرت فردوس بتدليك رجليها. وعلى سجادة أخرى نامت السيدة فاطمة إلى جانبها. تركت زَرِي الأختين بالتسمِّي لحالهما وآوت هي إلى غرفة نومها، وفتحت بأناة باب غرفتها على الصالة علّها تسمع صوتهما.

لو تبادر عِزَّت الدولة بخطوة واحدة يمكنها استرجاع سَحَر، بل تستطيع حتى إحياء الأمل في استعادة أقراطها الزمردية، وحينئذ لن يظل صبر

زَرِي من دون أجر. كان صوت عِزَّت الدولة مسموعًا بوضوح من فتحة الباب الموارب وهي تقول: «لا أراكِ الله مكروهًا يا فردوس، ادْلُكي بقوة. الآن أفضل. هل صليتِ؟ انهضي يا بنت، اذهبي لأداء صلاتك!».

كان واضحًا أنَّ فردوس قد ذهبت لأن العمَّة كانت بصدد التوطئة لكلامها. خسارة لأنَّ زَرِي لم تكن تسمع كلماتها كاملة، لكن بالمقابل، فعِزَّت الدولة كانت تتكلم بصوت مرتفع. بعد ذلك تمدَّدت بالقرب من باب غرفة النوم.

8

الآن فهمت. لمّا هاتفتِني قلتُ لنفسي ما الذي حصل حتى تذكّرتْني أختي؟ كنا نتفقَّد بعضنا في الأفراح والأتراح فقط. والآن فهمتُ أنك تواجهين مشكلة وحلُّها بيدي.

... الحصان؟ يشهد الله أني لم أكن أعلم أنَّ لابن أخيك مهرًا يدعى سَحَر. كان قد تناهى إلى سمعي أنَّ أخاك يربي أحصنة في بيته، فقلت في نفسي إنه الثراء والبهاء. أما أن أكون أنا من وَشْوَشْتُ ابنةَ الحاكم حتى تتذرّع بحصان خُسْرو، فحاشا وكلّا.

... صحيح. لا أطيق النظر في وجه أخيك. لو لم تصبح عروسَكم لكنت قضيت على أسرتها. نعم، كان ذلك منذ ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة، وهل يمكنني أن أنسى؟ سيدة جليلة ومبجَّلة مثلي، تقصد خربتهم للخِطبة؛ في غرفة استقبال كأنها راحة يد، بالكاد تعادل حجرة الصلاة في بيتنا. ومن كثرة دخان الغليون لا تكاد عين تقع على عين. كانت أمُّها قد غدت كهيكل عظمي، بمظهر وملامح أخجل من رؤية أم فردوس على هيئتها؛ شعر أبيض، ووجه أصفر، وأسنان ناتئة، وقميص قديم ومنكمش. سددتُ أنفي من وخز رائحة العرق النتنة المنبعثة من تحت إبطها. هي في نهاية المطاف امرأة وخطوة واحدة إلى "مانـاواز" تكفي لإصلاح أسنانك. مرّري مشطًا على شعرك. ادْهُني وجهك المملوء تجاعيد ببودرة حمراء، فقد جاءك خُطَّاب، وأي خُطَّاب؟! امرأة جليلة ومبجَّلة مثلي. لقد ابتسم لكِ

الحظ حين وقع اختيار ابني البارّ على ابنتك من بين كل هؤلاء البنات. قلتُ لحميد مائة مرة «ألا تشعر بالخزي والعار من اختيارك ابنة الميرزا علي أكبر، الكافر، سكرتير مدرسة الشعاعية؟».

أنتِ لمَ غضبت؟ هل كذبتُ عليكِ؟ قال ولدي: «أنا أبحث عن شيء لا أملكه»، فقلت له «وهل تملك هذه الفتاة شيئًا آخر غير عينين وحاجبين؟» قال: «إنها عفيفة وشريفة ومتعلّمة أيضًا». قلت له: «عزيزي، تفديك أمك، وهل العفة والشرف والتعلّم يفيد في شيء؟».

الخلاصة أنهم أداروا ظهرهم لبختهم. أرسلتُ كَرْبَلائِي عباس، البوَّاب، إلى بيتهم النحس، فعاد وقال: «إنهم استخاروا وطلعت النتيجة سيئة». ما علاقة عائلة الميرزا علي أكبر الكافر بالاستخارة؟! حميد أيضًا لاجج وقال «إني أحببت هذه البنت وأريدها». ورغم إحساسي بالعار من الذهاب مجددًا إلى بيتهم المخروب، إلا أني ذهبت، للمرة الثانية والثالثة. وفي الأخير خرجتْ أمها وأخبرتني بأنكِ جلبت لابنتها الشال والخاتم وهم وعدوك. أردتُ أن آتي إليك لأصرفك وأقول لك إنَّ أمها تصارع السرطان، وأقول لك إنَّ المتسوّل يظل متسولًا ولو أزهقت روحك من أجله، لكنكِ منذ فترة تنكّرتِ للأخوة التي بيننا.

ما أسرع انفعالكِ! وهل أنا أكذب؟ كلَّا، يشهد الله أني لم أقل للبنت أن تأخذ حصان ابن أخيك. والآن... على عيني. سأبذل قصارى جهدي. سأقول لهم إنَّ

الولد يكاد يهلك، حرام والله، أعيدوا المهر لصاحبه. هل تقولين إنكم أرجعتم لهم نقودهم؟ من الأفضل أن أشجعها على ركوب الحصان، سوف يأخذها ويركض إلى إصطبله السابق ويحضرها إلى هنا. بعد ذلك سوف تمحو من رأسها شيئًا اسمه الفروسية.

لا، لن أتكلم عن الظلم والجور وأقول إنَّ الجميع يلعن الحاكم ويبصق عليه، لا أستطيع القيام بهذا الفعل.

أنا مثلك أُغضب أصدقائي. على عيني، سأقوم بذلك فقط لأجلك. أنت تعرفينني. أنا حاقدة، هذا صحيح! لكنني، أيضًا، أقدِّر الصداقة والأخوة. دعيني أصارحك في قضية الأقراط الزمردية... ما إن دخلتُ إلى مجلس العقد ووقعت عيناي على زوجة أخيك، وقد واتتها الحياة الزوجية، حتى قررت أن أفعل شيئًا يبقي حسرة الأقراط في قلبها متّقدة. ألم تكوني تعرفين؟ كيف ذلك؟ ألم تظهر هي شيئًا؟ هو كما قلتُ لك، فابنة الميرزا علي أكبر الكافر لن تكون أفضل حالًا من هذا. أنت

تنزعجين بلا طائل. أنا لا أكذب. نعم، كان ذلك بأمر مني. أرسلت فردوس على وجه السرعة إلى سوق الحرير والمخيطات كي تشتري حريرًا أخضر. علّقته على رقبة العروس وقلت لهم اذهبوا واستعيروا أقراط زوجة يوسف خان الزمردية. وكنت أعلم أنهم لن يرجعوها. لكن، أنت لمَ تتحسّرين؟ دعيها تتحسر هي التي فرّطت في أقراطها. الموت لي، لا تغتمّي أختي. حسنًا، أنا أيضًا كنت أعرف أنها تذكار... على عيني، لن أدّخر

جهدًا في استرجاع الأقراط أيضًا. لا داعي لتذكيري، أنا أعرف ما عليّ فعله.

تعالي بنا لنعد تلك الأختين، كما كنا في السابق. هل تتذكّرين لمّا كنا طفلتين، أقمنا حفلًا واستدعينا ملًّا ليعقد صيغة أخوّتنا، ونثروا على رأسينا الحلويات والنُّقل؟ لكنك تغيرتِ، فبعد وفاة ولدك وزوجك في عزِّ شبابه وكأنهم أخذوا امرأة وأتوا بأخرى مكانها. أتتذكّرين منذ أن وعينا عشقنا، نحن الاثنتين معًا، الدكتور مَرْحَمَت خان الذي كان قد جاء حديثًا من طهران، وكان يقال إنه درس في الخارج؟ أتذكّر ذلك اليوم حين وضعنا ماكياجًا على نحو لا يميزنا أحد، وذهبنا إلى عيادة الدكتور. وهناك، أحصينا إحدى عشرة أو اثنتي عشرة فتاة من بنات أعيان المدينة جئن بزينتهن للغرض نفسه. تظاهرن بالمرض وجئن يعرضن شكلهن على الدكتور. هل تتذكّرين عِتْرَتْ، التي صارت فيما بعد عِتْرَت السَّلْطَنَة، كانت تضع على رأسها طرحة مغشوشة؟ آهٍ على الشباب... طاب ذِكرُه! أنت نتفت جزءًا من شعرك لتوهمي الطبيب أنك تصلعين، بينما أنا تظاهرت بأنَّ ورمًا في ثديي الأيمن يظهر حينًا ويختفي حينًا آخر. دهن مكان الشعر المقلوع في رأسك بقطن به يود، وقال لي إنني أتوهم. وفي نهاية المطاف لم يتزوج بأي منا. جلب امرأة من البادية.

بعد ذلك، ذهبت كل واحدة منا تبحث عن مصيرها. أنا تزوجت أولًا، لكن كلتينا عشنا حياة تعيسة. ربما كنتِ أنت أكثر سعادة مني في أول حياتك، لكن

سعادتك لم تعمّر طويلًا، وكنت أحس بالغضاضة من إفراغي همومي عليك مع أنك أختي. يقولون إنَّ كل متعوس يعيش سعيدًا في بيت زوجه أربعين يومًا الأولى. لكن بالنسبة إلي لم تدم هذه السعادة حتى الأربعين، فجهاز عرسي وبيت الوالد وحياته كلها انتهت في يد ذلك اللئيم. سيدة جليلة ومبجّلة

مثلي، حفيدة رئيس دائرة أمن المدينة؛ الرئيس الذي كان في حكم سلطان شيراز، لكن من دون أن يكون له عرش ولا تاج.

أتعلمين؟ لقد تشاجرنا في اليوم الثالث لزفافنا، وقال لي لا تتبججي عليّ بنسبك، فأجدادك كانوا كلهم خونة؛ جدك الأكبر منع ولي نعمته من دخول المدينة، وكان جزاء خيانته هذه تعيينه مستشارًا للسلطان آقا محمد خان(16). وقال لي أيضًا لا تتباهي عليّ ببيت جدك، فقد بُني كل حجر وطوب وآجر فيه على نعوش أناس شرفاء وكادحين، وعُجِن طينه بدماء أعلام العصر وعلمائه... أنتِ أيضًا تؤيدين كلامه؟ وحين جاء جناب أخي مساء ذلك اليوم لبس ثوب المظلوم وراح يردّد: نعم سيدي، نعم مولاي.

في شهر زواجنا الأول، سقط في حبال عشق نِيمْتَاج، زوجة مسعود خان دَنْدَانْ طَلَا. وكان الرائد مسعود قد عُيّن من قبل الحكومة في دائرة الأمن رئيسًا للحرس. أنت تتذكرين، كنتِ بنتًا وقتها. لكن عمُّو الحاج وإخواني رفضوا سقوط المدينة بيد مسعود خان رئيس الحرس وسارعوا منذ اليوم

الأول من وصوله إلى وضع العراقيل في طريقه، وانتهى الموضوع بإثارتهم لتلك الفتنة. رأيتُ بأم عيني كيف تغيَّر زوجي السافل، فجأة، فصار العقل المدبّر لذلك الصراع، وغدا بيتي مركزًا لتردّد مسلحي عمّي الحاج. قلت له ألم تكن تقول إنَّ إخواني وأبي وأجدادي كلهم خونة؟ والآن كيف صرت تفديهم بدمك وروحك؟ بعد ذلك وصلني خبر حبه لنِيمْتَاج. لا رحمك الله يا رجل!

لمّا انقطعت سبل المقاومة في وجه الرائد مسعود فرّ هاربًا، في الصباح الباكر، ليتحصّن بمرقد السيد أبو الوفا. تبعه اللئيم زوجي بفرسه ولحق به بالقرب من السيد أبو الوفا وأطلق عليه رصاصة من الخلف جعلت الشاب الهالك يتدحرج على الحشائش طالبًا الماء. ذهب الجميع ليشاهدوا موته، ولم يجرؤ أحد على سقيه قطرة ماء في حلقه خوفًا من المسلحين. هرع والدك الحاج وخاطب المسلحين قائلًا: «أنتم حمقى وأسيادكم حمقى أيضًا. سوف تصيبكم لعنة هذا الشاب الهالك في هذه الدنيا... ولن يفارق أعينكم أبدًا منظر مصارعته الموت». ثم أقلَّ الهالكَ في عربة. سمعت أنه أسلم الروح في العربة جنب والدك الحاج. يجب أن أعترف أنَّ السافل زوجي كان يخشى والدك الحاج، كما كان عمّي الحاج يخشاه أيضًا. همّوا بالهجوم على بيتكم، مرات عدة، لكن السافل زوجي كان

يمنعهم. قال لهم سوف يذيقكم الويلات. سيصدر فتوى بالجهاد وينضم إليه صَوْلَت، وآنذاك من يستطيع الوقوف في وجه العشيرة؟!

لكني أُعجبت بنِيمْتَاج. ذات الأمسية، قصدَتْ بيت السيد الشيخ رضى وتحصّنت عنده إلى أن جهّز أسباب سفرها وأرسلها إلى والديها. ولمّا ذهب زوجي السافل يبحث عنها كان الطائر قد غادر القفص...

لا رحمك الله يا رجل! لم تكن أهلًا لامرأة جليلة ومبجَّلة مثلي. حينما كنا نتشاجر كان يقول لي إنَّ عينك حولاء وقد غشوّني بك. كان يقول لي أنا لا أحبك، غير أني لا أرضى أن يُهان ولدي فيقال له أمك مطلقة. أما أنا التعيسة الخرقاء فكنت أتنازل عن روحي لأجله. وهو، أيضًا، كان يعرف كيف يتصرف حتى يجعلني ليّنة طيّعة. كنت أنظِّف أكثر من ألف مرة كتف سترته مما علق بها من الشعر الأشقر والأسود وترتر ملابس النساء، لكن مؤخرًا وصلت صفاقته حدَّ اصطحاب النساء إلى البيت. في البدء كان يبقيهن أمام باب الباحة الخارجية، ثم لاحقًا إلى حجرة الأولاد والخدم. ثم بعد ذلك صار عاشقًا لامرأة المائة تومان. كان يقول إنَّ مقام امرأة المائة تومان أرفع من أن آخذها إلى الباحة الخارجية، فكانا يجلسان على التخت، الذي كنا نفرشه مطلًّا على الحوض، وكنت أنا أرسل لهما الخمر في الصينية، وكنت أبلّل الحشيش بالنبيذ وأحشوه في بطن الغليون وأقدمه لهما. قصم الله ظهره! في البداية كان يصلي على التخت ثم صار بعد ذلك يشرب عليه الخمر. كان يقول «لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنْتُم سُكارَى». كنت أظل أراقبهما من خلف زجاج الحجرة الصغيرة إلى طلوع الفجر. وفي

الصباح كان يقبِّل يدي ورجلي ويقول ما عساي أن أصنع، أنا هكذا. فكنت لمّا أرى شادور امرأة، كيفما كانت، تنتابني حالة غريبة وأشرع في البكاء بهستيرية وأقول له مهري حلال عليك وروحي حرة، دعني وشأني وارحل أنت. البيت والحياة ملك لي أنا. لا حاجة لي بفزاعة جامدة. كنت أهدده وأقسم بروح ابني الوحيد أني، أيضًا، سأذهب إلى بيت السيد الحاج زوج أختي وأطلب اللجوء لديه، وهو ليس ممن يردّ لأحد طلبًا. فكان المطرود من رحمة الله ذاك يجيب: «بيت من؟ السيد الحاج نفسه عاشق للدنيا من الطراز الأول. آوى إلى بيته امرأة لم يعقد عليها... ». كان يقول أنا لا أسمع

كلام الله نفسه فما بالك بكلام السيد الحاج. كان على حق، لقد تخلّى عن الله، ولم يعد يصلي في عاقبة أمره.

لمّا كان يركب فرسه لا يردّ على سلام الناس بل يشير إلى خادمه الذي يمسك بزمام الفرس لرد السلام. إنها المرة الأولى التي أحكي لك هذا الكلام. أنت التي فقدت ولدك وزوجك، نسيت أختك.

ما كانت حكاية فردوس وأمها؟ هل سمعت شيئًا، هل تريدين أن تسمعي مني؟ أختي، أنا لا أخفي عنك شيئًا.

كنت ذات ليلة خارجة من المسجد الجديد بعد أداء صلاتي المغرب والعشاء، فرأيت صبية جالسة أمام باب المسجد وبجانبها صرّة وهي تبكي وتشهق بشكل يذوِّب القلب الصلد. سألتها لمَ تبكين بنيّتي العزيزة؟ قالت: "طردتني سيدتي من البيت، ولا

أعرف طريق العودة إلى إدارة الجمارك، كانت قد جاءت بي من هناك". اصطحبتها معي إلى بيتنا ابتغاءً للأجر والثواب، وفي الغداة أرسلتُ في طلب القابلة. قد يكون اعتدي عليها فتلتصق التهمة بولدي البار حميد.

لن أوجع رأسك أختي. في ظرف أسبوع واحد فعل الأب أو الابن فعلته. لم أكن أتصور أن لا يتجاوزا عن صبية قروية. وفي الأخير لم أعرف أيهما الفاعل؟ أحرقتُ الصبية لكنها لم تعترف، وكان تبكي بحرقة حتى كان قلبي ينفطر. لم أكن أريد أن أسأل حميد لأنه حينها كان يعتني بي.

فردوس عرفت نفسها في بيتنا. لما جاءها الحيض غدت راشدة، دفعة واحدة. تورّدت وجنتاها، وامتدّ تجويف ذقنها، أما عيناها فلا تسألي عن بريقهما. كان الخوف يقضّ مضجعي، وكنت أفكر في مخرج، لكن لم أكد أتحرك حتى انتفخ بطها. وفي الأخير لم أعرف من الفاعل، الأب أم الابن؟

المهم أنا أيضًا أُجبرت على الضحك على ذقن كَرْبَلائِي عباس وتحويلها له مقابل دفعة من المال نقدًا والباقي بالتقسيط. كَرْبَلائِي عباس نفسه الذي كانت أمه تذهب إلى حارة اليهود، مرة فى الشهر، وتشتري له صبية بثلاثة تومانات وتُلبسها ملابس حريرية مغشوشة وتحضرها، وحين

تتمزق ملابسها كانت تأخذها وتعيدها إلى صاحبها. لكن، هل كانت فردوس لترضى وتوافق بهذه السهولة؟ حبستها في قبو البيت ثلاثة أيام خلال أربعينية الشتاء، وكانت

دموعها طعامها... قلت لها "ماذا تريدين مني أيتها الوقحة؟ هل أرسلك إلى إدارة الجمارك بهذا البطن المنتفخ؟". كانت تقول: "سأذهب إلى دائرة الأمن وأشتكيكم وألطخ سمعتكم". تلك الصبية القروية، نصف شبر، كم من الأشياء كانت تعرف. قلت لها: "سأعطيك كل ما تريدين، تعالي وخفّفي شرّك". كان أملها معلقًا على نطفة الحرام التي في رحمها. كانت تقول: "الولد ولدكم، إرثه وميراثه ألف ألف تومان". في الأخير أبرحتها ضربًا حتى سقطت مضرجة في دمائها، وجاءت السيدة الحكيمة وأخرجت النطفة الحرام من بطنها. بعد أن أُسقط الجنين، سقطت هي الأخرى من الحسبان. وفي الأخير ارتضت بأن أبعث إلى أمها في دائرة الجمارك لتكون بجانبها. وهكذا أحضرتُ أم فردوس واتفقت معها على ستة قران في اليوم. أم فردوس امرأة ذكية ومفيدة لكنها سليطة وقليلة حياء.

9

وصل خُسْرو من توه مغبرًّا وجسده يتفصد عرقًا. كان يحمل البندقية على كتفه وبضع حجلات في يده. أتى إلى الحوض حيث كانت زَرِي تستعد لأيام الصيف. أمسك الحجلات أمام عيني أمه التي كانت تصفف حاشية السجّاد. قال: «انظري! أنا اصطدتها بنفسي!» أجابته زَرِي منكسة الرأس كما كانت: «رأيتها».

«ألستِ سعيدة بعودتي؟».

«أنا سعيدة بالطبع».

«سأعطي سَحَر واحدة ليلعب بها، لا ليأكلها» ثم أردف: «لا أحد مسرور بعودتي. كان غلام جالسًا في دكان الحاج محمد رضا، لمّا رآني أشاح برأسه عني. وجئت إليك ولم تقبِّليني».

«خذ الحجلات إلى المطبخ وأعطها للطبّاخ كي يزيل ريشها. الجو حار. قل له أن يطبخها ليلًا مع الأرز فأنت تحب الأرز بالزبيب عزيزي».

انصرف خُسْرو وشرعت زَرِي تلعن نفسها وأجدادها وخوفها ومدرستها وفشلها وعِزَّت الدولة. أثناء وداع عِزَّت الدولة للعمّة وعدتها بأن ترسل سَحَر على حوافره إلى إصطبله القديم، في غضون ثلاثة أيام. أين هو إذن؟ جلست جنب الحوض الصغير وشغّلت النافورات. كان الماء في الأول قليلًا وملوثًا بالتراب، ثم ارتفع صبيبه وصفى. دخلت البنتان وجلستا معًا بجانب الحوض الصغير ووضعتا يديهما تحت

النافورة، وأوصتهما أمهما، للمرة الألف، ألا يفشيا لخُسْرو شيئًا عمن أخذ سَحَر، وأن يقولا له إنه مات.

دلف خُسْرو، وتوجه إلى أمه بالسؤال وكأنه لم ير مينا ومرجان: «أمي، أين سَحَر؟». لم تجبه زَرِي وانشغلت بغسل وجه البنتين، الواحدة تلو الأخرى، بماء النافورة على عجل. قال خُسْرو:

«قال لي جناب عمُّو إنَّ سَحَر أصيب بأنفلوانزا، وأنفلوانزا الخيول خطيرة. هل صحيح ما قاله؟ سِرْجِنْت زينْگر قال ذلك أيضًا. أنفلوانزا الخيول صارت معدية. أمي إنه قلّد طريقة أبي في الكلام فأوشكت أن أضربه. قال: على حد قول أبيك، هذه هدية أخرى من هدايا الجيوش الأجنبية!».

ولكي تلهيه سألته: «هل كان زينْگر معكم طوال الوقت؟».

«كلَّا، كان معنا خلال الأيام الأولى فقط. كانت ترافقه امرأة تتحدث الفارسية بطلاقة، لكنها كانت تشبه كثيرًا الرجال. كان لها منبت شارب وتنتعل بوطًا، وكانت تجيد ركوب الخيل. والآن، قولي إلى أين أرسلت سَحَر؟».

«لماذا ذهبا؟».

«من؟».

«زينْگر وتلك العجوز؟».

«ما أدراني أنا؟ هل تسألينني عن أصول الدِّين؟ واللحظة سوف تسألينني، بالتأكيد، ماذا أكلتم في الليل وماذا أكلتم في النهار؟ ألن تخبريني عن مكان

سَحَر؟».

«تركتَنا كل هذا الوقت وذهبتَ، وأنت رَجُلنا في هذه الدار. الآن وقد رجعت ألن تحكي لأمك إلى أين ذهبتم؟ ومن كان معكم؟ وهل قضيتم وقتًا ممتعًا؟».

قال خُسْرو وقد عيل صبره: «ذهبنا للصيد ورجعنا في اليوم الثالث مع الغروب. جاء أجنبي آخر يضع على عينيه نظارة سوداء وأخذ معه زينْگر وتلك المرأة. وكان يرافق جناب عمُّو ثلاثة رجال يحملون بنادق، ورجل من معارفه ثم توغلوا في الجبل. قال هُرْمُز أبو نظارة: إنهم ذاهبون إلى العشيرة... والآن قولي لي أين سَحَر؟».

كزّت زَرِي على شفتيها وقالت: «مددك يا الله!».

استوت مينا واقفة وقالت: «أخي، لقد جُرح سَحَر ومات».

صرخ خُسْرو: «مات؟ لماذا؟»، ثم سأل وعينه مغرورقة بالدموع: «هل ما تقوله صحيح، أمي؟»، وأردف: «أنا توقعت هذا. رأيت الأصص على قبره».

زفرت زَرِي بأسى وقالت: «ماذا بوسعي أن أفعل يا عزيز ماما؟ كان قدره. أخذك جناب عمُّو إلى القرية حتى لا تحضر موته. لقد مات براحة تامة. ولأجلك أنت، دفناه في آخر البستان».

جلس خُسْرو القرفصاء جنب الحوض الصغير وقال: «كنت أعلم في قرارة نفسي من البداية أنَّ أمرًا ما سوف يحدث. كان ذلك واضحًا من كلام جناب عمُّو. كان لا ينفك يملي في أذني أنَّ على

الإنسان التحلي بالصبر. كان يقول إذا فقد المرء عزيزًا فعليه أن يقوم بكذا وكذا. ثم تكلم ثانية عن أنفلوانزا الخيول. عجبًا فليلة أمس حلمت أنني أروِّض الحصان من أجل الصيد. جناب عمُّو وزينْگر كانا حاضرين أيضًا. وضع زينْگر الخارطة على عنق فرسه وأخذ يبحث عن الفريسة بمنظاره الطويل. كان يقوم بهذا العمل خلال اليوم الأول بينما كان جناب عمُّو يقول انظروا إلى أعمال الأجانب، كلها مدروسة ومحسوبة، حتى صيدهم».

قاطعت زَرِي كلام الولد وقالت بنبرة تشي بالحزن: «خاصة حينما يريدون صيد البشر. حسنًا، كنت تحكي... ».

تابع خُسْرو كلامه: «لكني كنت أركب سَحَر وليس حصان عمُّو. كنا نازلين من الجبل. لحظة، توقف سَحَر في الهواء، وتوقفت قوائمه وشعره في الهواء، وظللت أنا راكبًا عليه في الهواء. صارت الأرض من تحت رجلي مثل حبة جوز. وفي الصباح في طريق العودة قصصت حلمي على جناب عمُّو. قال لقد حلّ بسَحَر بلاء أو مشكل ما. لكن لا تغتمّ! فداء لنفسك. خذ المهر الذي يعجبك من مهراتي، فقلت له هذا غير ممكن جناب عمُّو. عند ذهابنا كان سَحَر سالمًا وبصحة جيدة، كيف يمكن أن...؟ لا مهر في الدنيا يمكن أن يملأ مكان سَحَر عندي».

أجهش بالبكاء: «الآن أتذكّر، أثناء ذهابنا كان سَحَر يرفس الأرض بقوائمه ويحفر تراب البستان. كانت البهيمة تدرك أنها لن تراني بعد ذلك، لكني أنا الغبي

لم أفهم. أمي لماذا يصير قلبي هكذا؟ وكأن شخصًا ينشب مخالبه في قلبي ويعتصره».

طوّقت زَرِي رقبة الولد وقبلته وقالت له: «عزيز قلبي، اذهب وانثر ماء على وجهك حتى يخف غمك»، وكان قلبها يتجرع غصص الأسى.

«ادع زملاءك لتأبين سَحَر في المساء. سأحضر لهم الشاي والشربات».

«وهل ستحضرين الحلويات أيضًا؟».

«نعم إذا رغبتَ في ذلك» ثم أمعنت قليلًا وأردفت: «حسنًا، سوف أحضّر الحلويات أيضًا، حينما تنتشر رائحة الحلويات ستعلم روح سَحَر أننا نفكر فيه».

سألت مينا: «أخي، هل ستسمح لنا أيضًا بالمشاركة؟».

قبّل خُسْرو وجه أختيه تواليًا، وقال: «كلّا عزيزتي، فالتأبين خاص بالرجال».

*

وبالفعل أُقيم في المساء مجلس تأبين لسَحَر في البستان بحضور الرجال فقط. هرع إلى الداخل على الأقل عشرون طفلًا بين قصير وطويل وكبير وصغير. كان غلام قد كنس القبر المصطنع ورشّ عليه الماء وفرش سجادًا. كانت زَرِي ترقبهم من الشرفة وقد جلسوا جميعهم يحتضنون سيقانهم وقد لفّهم الصمت. أثار انتباهها طفل صغير بقميص عزائه الأسود وكان يحدّق في شيء ما. لمّا أنعمت النظر لاحظت أنه يضع ظفري إبهميه على عينيه.

مؤكد أنه كان يحول دون ضحكة تغالبه، لكنه لم يصمد طويلًا حتى نزّت عنه ضحكة صغيرة ثم لم يلبث أن انفجر ضحكًا، فاهتاجت أصوات كل الأطفال بالضحك ما عدا خُسْرو وهُرْمُز الذي كان يجلس بجانبه. ساد الضحك واختل مجلس التأبين. لم تستطع زَرِي الصبر وذهبت إلى الصالة التي كانت مليئة بالذباب وأخذت تطارده، يمينًا ويسارًا، وتقتله. كان صوت لعب الأطفال آتيًا من البستان. نظرت من خلف زجاج الصالة، هجموا على فاكهة الأشجار النيئة. بينما ظل خُسْرو وهُرْمُز، على حالهما، جالسين على السجّاد وغلام يسير صوبهما بصينية القهوة في يده وخديجة بأوعية الحلويات التي وضعتها على السجّاد. كأنَّ هُرْمُز قرّب رأسه من أذن خُسْرو فوضع خُسْرو، مثل الكبار، يده على جبينه ثم على عينيه.

لمّا ذهب الأطفال دخل خُسْرو وهُرْمُز إلى الصالة. كانت عينا خُسْرو تبدوان محمرّتين ونظارة هُرْمُز مضبّبة. قالت زَرِي: «يا عزيز قلبي، لا داعي للجزع. وعلى قول خديجة، فالأنثى شابة ويمكنها أن تلد لك سَحَرًا آخر». ثم سرحت بفكرها: «لو رأى تلك المارقة تركب سَحَرًا –كما قالت العمَّة- حينذاك تعال لتتفرج على المعركة! عجبًا كيف نربّيهم على الكذب والخداع!».

قال خُسْرو: «إني لا أبكي، لأجلكِ فقط، وإلَّا فقلبي يضطرم نارًا».

خلع هُرْمُز نظارته من عينيه وأخرج منديلًا من جيبه ونظفها. كانت عيناه تبدوان ناعستين. قال:

«أقول لخُسْرو: يا أخي، نحن الآن في مقتبل العمر، وتنتظرنا الكثير من هذه المحن. لا يجب أن نترك الميدان بهذه السرعة. فضلًا عن ذلك، ألا ترى أنَّ الموت يحصد في كل يوم عددًا من الناس جرّاء الحمَّى الصفراء والقحط. ما قيمة مهر واحد مقابل هذا الكم من الناس؟».

رنت زَرِي إلى هُرْمُز، لم تدر هل هذا كلامه أم أنَّ أحدًا لقّنه إياه. على أي حال فقد كان يكبر خُسْرو بأربع سنوات. أسرّت في نفسها:

«موت الناس مقابل موت مزيَّف لمهر!».

استحضرت عصر ذلك اليوم في مشفى "المرسلين"، حينما كانت أمها تقضي آخر ساعات عمرها، وهي لم تكن مدركة. مع أنَّ السيدة الحكيمة كانت تقول: «لقد غزا السرطان كامل بدنها ولم يعد للمشرط أي جدوى».

نظرت الأم إلى زَرِي بمؤخر عينها وقالت لها: «ابْقي إلى جانبي هذه الليلة!». لكن هل كان بوسعها ذلك؟ فخُسْرو كان في الثالثة من عمره، ولا يأكل إلا من يد زَرِي ولا ينام إلا وهي بجانبه. فضلًا عن ذلك فيوسف استدعى ضيوفًا إلى البيت. قالت لأمها: «أنا مضطرة للذهاب. لدينا ضيوف، سأعود صباح الغد».

سألت الأم: «غدًا؟» لكنها لم تصر. قالت: «ابعثي لي قليلًا من التربة لو استطعت. إذا لم يكن لأخت زوجك شغل قولي لها أن تأتي إليَّ ومعها التربة». وإلى أن تصل هي إلى البيت وتصلي السيدة العمَّة صلاتها وتدخّن حشيشها وترتدي ملابسها السافرة،

التي كانت عبارة عن ملابس بأكمام طويلة، وتلبس قفازاتها وتشدّ غطاء رأسها، يكون الليل قد أرخى سدوله، وصار الوقت متأخرًا. وكيف للعمّة أن تسير هذا الطريق كله بمفردها؟ فضلًا عن ذلك، فإنَّ الانسان الذي يتمتع بهذا الذكاء وهذا السمع لن يموت بهذه السرعة.

وصل جناب الأخ قبل كل الضيوف، ولمّا علم بالأمر قال: «أنا مستعد للذهاب مع السيدة فاطمة». لكن جناب الأخ لم يكن يملك سيارة آنذاك، كما لم يكن بالسهل العثور على عربة. ومع ذلك ذهبا وعادا بعد الساعة الحادية عشرة. كانت زَرِي منشغلة بتقديم العشاء وخُسْرو لم ينم بعد وكان يتنقل من حضن هذا الضيف إلى حضن ذاك وهو يتفوه بكلام حلو. لم تجد زَرِي الفرصة مواتية لتسأل جناب الأخ: «كيف كان حالها؟». والعمَّة نامت فور وصولها. وجناب الأخ أسرف في السكر بعد

العشاء حتى طفح وراح يذرف الدموع بغزارة وهو ينادي أمه: «أمي عزيزتي! أمي عزيزتي!» وكسر بضعة كؤوس على الباب والجدران وراح يعربد ويتقيأ مما تسبب بالإزعاج لجميع الضيوف فأخذوه إلى آخر البستان ليستفرغ كما يحلو له. بعد انصراف الضيوف أخبروا زَرِي بأنَّ أمها قد ماتت ولم تصلها التربة ولم يشهد أحد احتضارها غير ممرضة أعجمية اللسان...

في هذه الأثناء دخلت مينا ومرجان وكان في يد كل منهما دمية. قالت مينا: «جناب عمُّو أعطاني إياها»، ثم ولج الصالة جناب الأخ يتبعه غلام

بكيسين مملوأين ثمارًا. رقّت عينا أبو القاسم خان وقال: «أول الجني ليمون». وبإشارة من زَرِي أخذ غلام الكيسين إلى المخزن. ضمّ أبو القاسم خان خُسْرو في صدره وسأله: «هل أرسلُ إلى القرية من يحضر لك المهر الذي أعجبك؟». قال خُسْرو: «لا. لا أريد حصانًا يا جناب عمُّو». جاءت مينا بدميتها ووضعت يدها على ركبة أخيها: «هل رأيت دميتي؟ هل تريد أن تحصل عليها؟».

10

كانت القابلة، ابنة بلدة زَرِي، التي درست في طهران وفتحت عيادتها حديثًا، مشغولة جدًا، ولم تفلح زَرِي في حجز موعد معها ليلة الجمعة على الساعة السابعة إلا بعد إصرار كبير. عصرًا أكملت عملها في دار المجانين في وقت مبكر. كان عدد المجانين أكثر من النصف بقليل قياسًا بالأسبوع السابق. كان المدير الداخلي رجلًا قصير القامة بلون الخشخاش، يستقبلها كل يوم خميس، وبعد أخذ ما يكفيه ويكفي باقي الممرضين كان يأذن لها بتوزيع نذرها. قال إنَّ معظمهم مصابون بالحمَّى الصفراء، ولا مكان شاغرًا في مشافي المدينة، وحتى إن وجد فهم لا يقبلون استضافة مرضانا. نظرت إليه زَرِي وخمّنت أنَّ حالته هو أيضًا لا تبعث على الاطمئنان. مع العلم أنَّ حالة أي مدير داخلي لم تكن في أي وقت، تبعث على الاطمئنان. ومن كثرة ما اختلط بالمجانين كانت عيناه تجريان في محجريهما.

لمّا وضع غلام الصينية المملوءة خبزًا وتمرًا على أرضية الصالة الكبيرة في جناح الرجال، لم يبدِ أحد أي اعتناء، على غير العادة. ألقى نظرة على الرجال في القاعة، برؤوسهم الحليقة وأقبيتهم البيضاء الملتصقة بالقذارة، وقد ران عليهم الصمت. كأنهم كانوا يصغون فقط للأصوات التي يسمعونها بأنفسهم، ويردّون عليها بهمهماتهم. كانوا يأخذون الخبز من غلام وهم سادرون في لامبالاتهم. انقبض قلب زَرِي وأحست أنَّ نذرها لن يُقضى اليوم ولن

تُدخل السرور على أحد. شرعت يائسة بتوزيع السجائر وأعواد الثقاب. المريض الذي كان يلقّب نفسه بالقائد الأعلى للعالم بأسره وكان دائمًا ما يطلب سيجارة "هُما" الطويلة ذات الفيلتر، قنع هذه المرة بسيجارة "أُشْنُو"، ووضع لفافة بين شفتيه متجهمًا من دون أن يشعل عود الثقاب. لم تكن

نوافذ القاعة مجهزة بالستائر، وكانت أشعة الشمس تندفع إلى داخلها، والذباب يملأ المكان كله ويصل إلى كل ثقب ويحوم حول الخبز والتمر اللذين ظلا على حالهما في يد المرضى. صاح رئيس الممرضين: «يا علي!». كان علي المريض المحبّب إلى زَرِي شابًا ذا قامة فارعة يشبه الألمان. فرّ ثلاث مرات من دار المجانين؛ عثر عليه أهله، مرتين، في أطراف المدرسة الثانوية التي درس فيها خمسة صفوف، وفي المرة الأخيرة وجده غلام على قمة التلَّة المشرفة على بستان يوسف. قال غلام تبعني مثل حمل وديع وأرجعته إلى دار المجانين على قدميه وكان الجوع قد قوّضه. قال لغلام:

«لقد خدعوني، أسرّوا لي في أذني أنَّ الطائرة جاهزة، تفضل بالركوب والذهاب عند خالك في الخارج. وعندما جئت بحثت كثيرًا ولم أجد أثرًا للطائرة. ربما تركتني وطارت. أنا لدي أعداء كثر».

وقال أيضًا: «كنت أشرب ماء الجداول وأسرق من الكلاب قطع اللحم أو العظام. البارحة انتشلت قطعة لحم نيئة من مخالب كلب وفررت. غسلت اللحم في ماء الجدول وأكلته. اضطربت معدتي، وأصبت الآن

بالإسهال، إسهال ممزوج بالدم. مهما بحثت لم أعثر على بيتنا. أعلم أنَّ والدي تعمّد ترك بيتنا يتيه كي لا أعثر عليه».

منذ ذلك الوقت حبسوا عليًّا في قبو دار المجانين وكبّلوه بالسلاسل. كانت زَرِي تزوره هناك وتحمل له الخبز والتمر. وما أن يراها حتى تنفرج أساريره بابتسامة. كان قد طلب من زَرِي أن تحضر له "اسينشل 3"، وأحضرته له، ومن حينها لم يتفوه بكلمة فارسية واحدة. صار يرطن بلغة لا يفهمها أحد.

جاء علي. غدا نحيلًا لدرجة أنَّ زَرِي ضاق قلبها بلقائه، رغم أنه لم يميّزها. النظرة التي ألقاها عليها لم تكن نظرة قريب، ولم يتحدث باللغة الأجنبية التي اخترعها، بل قال بالفارسية وبنبرة آمرة:

«الهجوم بالكمّاشة يساوي التيفوس + القحط + الغش في الامتحان. أيا مجانين العالم اتحدوا».

بدوره كان السيد كُود عَرْبَاني منزويًا في ركن وهو صامت. في الأيام الأخرى، ما إن كانت تقع عينه على زَرِي حتى يضع يده أسفل بطنه ويأخذ بدعكه وهو يردد: «اشتعلت نارًا، اشتعلت نارًا، اشتعلت نارًا». ثم كان يقول: «أنا إيلان الدولة، أنا ويلان الدولة». كان يستلم هدايا زَرِي، وفي المقابل يكتب على أوراق خيالية أدعية العطف والمحبة والسحر والطلاسم ويسلمها لها ويقول:

«بالمجان. اغسلي قميصك بماء مستودع الأموات وانشريه على مزار قتيل، وفي الصباح أعطيه له كي

يلبسه. شوارب الفهد ودماغ الحمار الأسود... ».

ثم ذلك المجنون الذي كان يضمّد رجله، التي توهّم جرحها، بما وجد من ثوب خلق وقديم، ويمدّ رجله الملفوفة ويروّح عليها بمروحة... لكن المروحة كانت ساقطة من يده.

حينما كان غلام والمدير الداخلي يعبران من أمام بستان المستشفى الخالي من الورود، لمحا امرأة شابة ملتفَّة في ملاءة قديمة ونائمة تحت صنوبرة. سمعت وقع الأقدام ففتحت عينيها ومزّقت الملاءة. تعرّفت عليها زَرِي رغم أنَّ وجهها اصطبغ بلون تربة البستان. هي ذات المرأة التي كانت تزعم أحيانًا أنها زوجة الله، وأحيانًا تدّعي أنها الله نفسه. لمّا كانت نبتة شب الليل تزهر، في تلك الأيام التي كان سقيها يتطلب إنسانًا صبورًا ، كانت هي تقطف أزهارها الحمراء وتدهن بها خديها وشفتيها وتظل جالسة بانتظار الله. قيل إنها كانت تتلو أورادًا بلغة شبيهة بالعربية وتسمّر عينيها في السماء، وكانت تؤمن بأنَّ الله جالس في السطح ينتظرها. غير أنها لم تكن تذهب لأنها امرأة، ولا ينبغي أن تكون السباقة إلى المبادرة.

والآن، زوجة الله ساقطة تحت صنوبرة، جلدها يتطاير وشفتاها تتيبسان. ربما تنطلق بعد لحظات على رجليها صوب الله. سرحت زَرِي: «ليتها تشفع لهم جميعًا عند الله!». قالت المرأة من بين شفتيها: «ماء». استلب النور عينيها واختفى سوادهما. ركض غلام. سألت زَرِي السيد المدير:

«لمَ سقطتْ هنا؟».

«أصيبت بالتيفوس».

«كلهم مصابون به».

«هذا أفضل! كلهم سوف يرتاحون. أهاليهم وأقاربهم يدعون الله كي يرتاح هؤلاء. ما جدوى الاحتفاظ بهم؟».

جاء غلام مسرعًا وفي يده وعاءٌ دبقٌ مملوء ماء. انحنى على المرأة ووضع حافة الوعاء على شفتها وقال: «اشربي يا أختاه». لم تستطع. أخرجت زَرِي من حقيبتها اليدوية منديلًا وبلّلته ودهنت به شفتي المرأة ووجهها. ثم ثنت المنديل على أربعة وأغطسته في وعاء الماء ووضعته على جبين زوجة الله وعينيها.

ثم انطلقا معًا يرافقهما المدير الداخلي الذي جعل يوضح: «أصيب ثلاثةٌ من ممرضينا بالتيفوس، والآن هم ينعمون بالراحة في تلك الدار تحت ظل شجرة طوبى، وستلحق بهم هذه الليلة زوجة الله أيضًا». وحين حدجته زَرِي بنظرة تشي باللوم، واصل كلامه على هذا النحو: «أمر عجيب، كلما ارتفعت درجة حرارتهم كلما طار الجنون من رؤوسهم. لو كنا نستطيع علاجهم من هذا المرض لشفاهم الله بالكامل، لكن ما الفائدة؟ حتى إن صاروا عقلاء، ستكون هذه أول محطة في شقائهم. لقد تعود أهلهم على الحياة من دونهم، ولم يعد لهم طاقة واستعداد لاستقبالهم».

في جناح النساء وقعت عين زَرِي على امرأة

مشلولة كانت تهاب منها لأنها كانت تعتقد أنَّ زَرِي هي المسؤولة عن شللها. وكانت زَرِي تحس في أعماقها بالذنب تجاهها. كانت المرأة تبدأ كلامها دومًا بـ: «أيتها العاهرة، يا ابنة القحبة، عدتِ من جديد؟ ماذا تريدين مني؟». لمّا كانت هذه المرأة سالمة طلبت من زَرِي أن تجلب لها صندلة قديمة أو حذاء مستعملًا أو خفًا قرويًا. كانت تقول:

«أنا محترمة ولا أستطيع الذهاب إلى الخلاء حافية القدمين». وكانت تقول أيضًا: «قاتل الله السيدة عِصْمَت، لو أنها أنفقت عليّ مهري وثُمني، وليس نفقة ذلك الديوث القوّاد الذي ينام بجانبها، لم أكن لأقول لك الآن، يا عاهرة حارة "مَرْدِسْتَان"، خراؤك علاج!».

لكن في الأسبوع الموالي كان الدور على السجن، وفي الأسبوع الذي تلاه نسيت زَرِي. وعندما اشترت حذاء جديدًا وأخذته للمرأة كان الأوان قد فات وأصيبت بالشلل. كان الجميع يعلم أنَّ شللها لا علاقة له بامتلاك الحذاء من عدمه. لكن منذ ذلك الحين، كلما وقعت عين المرأة على زَرِي كانت تسمعها سبابًا وشتائم لم تسمع زَرِي مثلهما في حياتها قط، غير أنَّ الممرضات كنَّ يقلن إنها كانت تنام في الليل والحذاء الجديد في حضنها.

كانت تجيل بصرها بحثًا عن معلمّة شابة ذات عين اصطناعية. لم تكن هي الأخرى مرتاحة لزَرِي ولم تكن تسمح لها بالاقتراب منها. كانت زَرِي، دائمًا، تترك لها نصيبها من النذر في الكوّة. أحيانًا كانت المعلّمة

تتودّد فتخاطب زَرِي بمثل هذا الكلام:

«انظري أيَّ عطر استعملت هذه المومس؟ اوف، اوف. هنيئًا لك يا خديجة، وصولك إلى هذه الدرجة. أتذكرين أنك كنت ابنة خياطنا؟ كنت أعلم أنَّ عاقبة أمرك ستنتهي بافتضاض بكرتك على يد ذلك السائق الذي كان له في كل مدينة خليلة... ». وكانت تلمس ذقن زَرِي وتقول لها:

«يا قليلة الحياء!». ثم فجأة، كانت تهيج وتصرخ: «بالإبرة والخيط خطتِ موت الفأر بالتمر. نزعت نوى التمر ووضعت مكانها سمّ الفئران، عجبًا لحلوى التمر هذه!».

كان يقال بعد واقعة كشف الحجاب، قام حاكم المدينة وقائد الجيوش ووكيل وزراة المعارف بزيارة لإحدى المدارس، وكانت هي مُدرِّسة الصف الأول فيها، وما أن وقعت عين وكيل المعارف عليها حتى علا صوته مجلجلًا. كانت متعودة على وضع قلم الرصاص بين أصابع التلاميذ الأوائل والضغط عليها كي تضحك على صراخ الأطفال الصغار والتماسهم. كانت الضجّة التي أحدثها

وكيل المعارف بسبب العقوبة البدنية. سقطت مغمى عليها من هول تلك الشخصيات المرموقة ورهبتهم. وبعد أن حملوها من أطرافها السفلى إلى المكتب وعادت إلى وعيها كانت تنظر مشدوهة إلى الجميع. انتزعت عينها الاصطناعية ووضعتها في راحة يدها وأرتها للجميع حتى أغاظتهم.

ذات يوم أنزلت بزَرِي البلاء نفسه. لم تكن زَرِي،

حتى ذلك اليوم، تعرف أنَّ لها عينًا زجاجية رغم أنها لاحظت ثبات العين في محجرها الأيمن وعدم حركتها. كانت السيدة المعلّمة، حينئذ، في حالة هياج. لمّا دخلت زَرِي جاءت صوبها وقالت: «أمسكي»، وفتحت قبضتها في راحة زَرِي فنظرت فرأت عينًا في يدها، عينًا زجاجية كبيرة.

عرفت، الآن بعد أن استفسرت، أنَّ هذه الفتاة كانت أول ضحية للحمَّى الصفراء. قال المدير:

«لم نكن نعلم أنها مصابة بالتيفوس. كانت حرارتها مرتفعة. كان يخيّل إليها أنها لبست كفنًا، أي أنها رمت عليها كل ما في متناولها وقالت لبستُ كفنًا وبدأت بتلاوة القرآن، عن ظهر قلب. كانت تلاوتها رائعة. وعوض أن تلعن الشيطان كانت تلعن آدم مُقَوَّايي. أخال أنَّ آدم مُقَوَّايي كان وكيل المعارف في السنة الماضية والتي قبلها وكان ينوي طردها من العمل. بعد ذلك نطقت الشهادة وألقت بنفسها في الحوض، وماتت ليلتها».

وفي الأخير، قصدت زَرِي السيدة فتوحي، وكان سريرها يطل على النافذة، وكانت عيناها مصوبتين دومًا على البستان تتأمل مجيء أهلها لأخذها إلى البستان ذي المائة وأربعة وعشرين ألف متر. كانت زَرِي تعرف عائلة فتوحي. كانت عائلة ميسورة. في أيام المرض الأولى كانوا يعتنون بها عندهم، لكن بعد فقدانهم بصيص الأمل في تحسن حالتها سلموها للمصحة العقلية. كانت قبل الحرب تسكن في غرفة خاصة، وكانت أمها، قيد حياتها، تزورها بانتظام،

وحتى من دون موعد. وبين الفينة والأخرى، كانت تأخذها للبيت وتبقيها هناك أسبوعًا أو أسبوعين. وبعد أن عجزت صارت تحضرها عنوة وتتركها تنتظر في مكتب المصحة وتختفي هي. كان أخو السيدة فتوحي مدرِّسًا معروفًا في المدينة، وكان في عداد الشباب المحبوب البالغين

سد الرشد لتوهم. زيارة أخته مرة في الشهر أو في السنة كان إنجازًا في حد ذاته. والحقيقة أنهم رموها هناك وانصرفوا إلى حال سبيلهم. لكنها لم تكن يائسة، بل كانت تتأمل قدومهم لنقلها إلى البستان ذي المائة وأربعة وعشرين ألف متر. كانت فتاة سمراء اللون بحواجب واسعة ومتصلة وأسنان ناتئة إلى الأمام وبشعر أسود موخوط بالبياض. لم تكن تستلم من يد زَرِي طعامًا قط. كان الآخرون شديدي الحرص، وأحيانًا يمدون أياديهم مرات ومرات، لكنها كانت تراها منقصة. لمّا كانت تنضج فاكهة البستان كانت زَرِي تحمل إلى دار المجانين والسجن سلّات ملأى بالمشمش والتفاح الحامض والكرز والخوخ والإجاص، لكن السيدة فتوحي لم تكن ترضى حتى بالنظر إليها. وفي مرات عدة أعدت زَرِي سلة فواكه خصيصًا لها ووضعتها في شباك غرفتها، لكنها سمعت من الممرضات أنَّ المريضات الأخريات يهجمن على السلة فور خروجها من الغرفة. وكان هذا الهجوم يخلق متاعب لفتوحي. كانت المريضات يأخذن التفاح الحامض ويشطرنه إلى نصفين بقبضتهن ويطلبن الملح ويضعنه وسط الشطرين ثم يتركن التفاح كي يتخلل. كل من ذاق منه يسيل فمه

لعابًا. لكن السيدة فتوحي كانت تحدّق في البستان تترقّب أهلها كي ينقلوها إلى الحديقة ذات المائة وأربعة وعشرين ألف متر، بينما كانت المريضات الأخريات لا يفلتن حتى نوى المشمش والخوخ، كنّ يكسرنها بأسنانهن أو بحجر على أرضية الغرفة، ثم ينزعن قشرها ويأكلنها. وكما يقول المدير الداخلي "أي زاد يمكن توفيره للمجانين بالتومان الواحد المخصص لكل مريض؟ فمعظمهم صاروا مجانين بسبب هزالهم".

بعد الانتهاء من توزيع النذر كانت زَرِي تجلس جنب سرير السيدة فتوحي وتصغي إلى همومها. كانت تكره جميع المريضات ولا تكلم واحدة منهن. كانت المريضات قد أطلقن عليها اسم "السيدة الأميرة". كان من بين طلبات السيدة فتوحي أعداد من جريدة "إيران" من الحجم الكبير، التي كان البريد يرسلها ليوسف من طهران مرتين في الأسبوع، ودفتر مخطَّط وقلم رصاص. كانت تقول: «أسمح لك بمساعدتي في عالم العلم والأدب». كانت السيدة فتوحي تعشق هوامش جريدة "إيران". كانت تقول إنها كانت تدوّن سيرتها في مذكرات. حينما تملأ كرّاسة تسلمها لزَرِي بكل أدب وتقول لها: «احجزي لي صندوق بريد في البنك الوطني وخذي أجرته من جناب أخي، وأودعي آثاري

هناك أمانة. من الوارد أن يندلع حريق ويأتي على كل آثاري». في المرة الأولى صدّقت زَرِي السيدة فتوحي وقرأت مذكرتها. كتبت بخط يشبه خط الجن مواضيع متداخلة ومضطربة. من بين ما كتبت بخط مقروء

وصفٌ لحديقة مساحتها مائة وأربعة وعشرون ألف متر، تنتشر بها شلّالات وبحيرات اصطناعية وأزهار نيلوفر متفتحة على سطح الماء وأشجار الأكاسيا والمُرّان العالي. وكان رجل مربوع القامة ذو جبهة عريضة وأذنين بيضاوين قد اتخذ له كمينًا خلف شجرة مُرّان. وكانت هي ترتدي ملابس حريرية بيضاء متموجة تترنّح من السُكْر كحجلة، ونهداها الكبيران متهيّجان، بينما الرجل مربوع القامة يخرج من خلف الشجرة فاردًا ذراعيه، فيباغتها ويضمها إلى صدره ويعتصرها بقوة حتى يوشك على سحق ثدييها. وكتبت في آخر المذكرة:

«انتهت قصة غصة ابنة فتوحي في سجن القصب». وتحت هذه الجملة كتبت: «أبيات لابنة فتوحي:

كُنْتُ فَرْخَ حَمَامٍ فَمَاتَتْ أُمِّي عَهِدُوا بِي إلى خَالِي فَمَاتَ خَالِي

خَلَطُــونِي بِحَلِيــبِ بَقَــرٍ مَاتَ العِجْلُ أيْضًا مِنْ سُوءِ إقْبَالِي»

كانت زَرِي تعلم أنَّ هذا الشعر ليس لابنة فتوحي لأن العمَّة طالما ترنمت به، غير أنَّ ابنة فتوحي كان قلمها جميلًا لمّا كانت عاقلة، وكانت تنشر مقالات في جرائد محلية عن حقوق المرأة وتسلُّط الرجال. وكانت أيضًا تدير مجلة تدعو فيها الفتيات إلى الصحوة.

لم يكن من السهل الاستخفاف بالسيدة فتوحي فقد كانت أول امرأة في المدينة تلبس شادورًا

أزرق متوهجًا، وتتخلّص من الكفن الأسود -على حد تعبيرها-. وفي الوقت الذي لم يعلن فيه عن كشف الحجاب رسميًا، كانت هي قد تملّصت من الشادور الأزرق المتوهج. كانت أثناء حالاتها المستقرة تفضفض لزَرِي فتتحسر أنَّ أحدًا لم يدرك قدرها وأنَّ الرجال لم يكونوا على استعداد

لقبول امرأة مثلها، ففي الأول، خالوا أنني عسل وأرادوا حشو أصابعهم في العسل، ولمّا قلت لهم نَحُّوا أصابعكم أيها الحمير، سخروا مني وتحاشوني. فجأة كانت تشرع بالصياح:

«جنّنوني! جنّنوني! كنت أقول لهم لن أعطيكم ما تريدون، لن أعطيكم! وهل أنا نور حمادة؟ خلاص! أين النسوة الحمقى حتى يفهمن من أكون أنا وماذا صنعت؟».

جلست زَرِي عند قوائم سرير السيدة فتوحي وحيّتها فأشاحت بوجهها عن البستان وتلفّتت إليها وردّت عليها التحية. دسّت زَرِي يدها في المحفظة وأخرجت أربعة أعداد من جريدة "إيران" وناولتها للسيدة فتوحي. لمحت بجانب المخدة الجرائد السابقة متراصّة فوق بعض. فتحت السيدة فتوحي الجرائد الجديدة واحدة واحدة. تجهّمت من تغيّر تفاصيلها وحجمها الصغير. سألتها زَرِي:

«هذه المرة لم تعطي الجرائد للمرضى، صحيح؟».

ردّت السيدة فتوحي بانفعال: «نعم، فمعظمهم خرج من السجن. وجريدتان من جرائدك أخذهما علي والتهمهما».

بعد ذلك مسحت قامة زَرِي بنظرة، من أعلى إلى أسفل، وكأنها لم ترقها أكمام بلوزة زَرِي الطويلة والمنكمشة. سألتها:

«كم متر ثوب بدَّدته من أجل الأكمام؟».

ثم أخذت الجرائد الجديدة وكمّشتها ورمتها بجانب السرير، وراحت تبحث عن الجرائد القديمة. تناولتها من أمام مخدتها، أحصتها ورتبتها ولفّتها، وعلى حين غرة ضربت بها على رأس زَرِي بقوة وقالت:

«يقال إنَّ السيدة الضابطة، ابنة القائد ماتت! ولم تكن تملك كفنًا».

11

أذنت زَرِي لغلام بالانصراف وانطلقت هي. كانت تفكر في جدوى نذرها وكلام يوسف في أذنها: «ما الفائدة من خيراتك ومبراتك؟ عملك باطل من الأساس»، لكن مهما عصرت فكرها لم تهتد لحل يدعم أساس عملها. أما الحلول التي اقترحها يوسف فقد كانت، في رأيها، خطيرة ومجرد التفكير فيها يصيبها بالاشمئزاز.

وصلت إلى عيادة القابلة على الساعة السادسة تمامًا. كان قلبها يمور مورًا. كان يقف جنب باب العيادة حماران شُدَّت شكيمتهما إلى حلقة الباب، وفي الباحة الصغيرة المشرفة على العيادة قرفصت امرأتان على سرير خشبي من دون سجّاد، وخلفهما كانت امرأة أخرى ممدَّدة. من فرط تجهمهن وقلقهن لم يكن واضحًا هل هن شابات أم عجائز. وعلى سرير آخر كان رجل مريض يتململ، وبجانب باب قاعة الانتظار كانت امرأة مستلقية على صدرها فاردة أطرافها مطروحة فوق سرير وقد غُطيت بشادور صلاة كحلي اللون مرقّط ببقع زرقاء. كان قدم المرأة عاريًا من رؤوس الأصابع إلى رسغ القدم، وراحة رجليها وأظافرها مخضبة بالحناء، وسروالها الأسود مرفوع إلى ما دون ركبتيها. تسمّرت زَرِي في مكانها. لا مراء أنَّ المرأة ميتة، إذ لم تكن طفلة حتى لا تعرف الموت. لكن يبدو أنَّ المرأة كانت وحيدة لعدم وجود أحد يقف على رأسها.

في قاعة الانتظار لم يكن يوجد مقعد شاغر. من

بين كل المرضى، كانت هناك خمس نسوة حوامل فقط، تدلّت بطونهن إلى الأمام وغزت وجوههن التقشرات. أما باقي المرضى فإما رجال أو عجائز. دلفت إلى القاعة شابة بشفتين متيبستين سوداوين، وكانت تسند رأسها على كتف امرأة مسنّة، وشرعت تصرخ: «قلبي! قلبي!». وقفت

المرأة الحامل وأجلست الشابة مكانها وفتحت دفة النافذة التي فوق رأسها فتسللت إلى الداخل لفحات من القيظ. فُتح باب حجرة العلاج وخرجت امرأة حامل مرّت من وسط قاعة الانتظار بصمت وتروٍّ. مؤكد أنها في شهرها التاسع. تبعت المرأةَ ممرضةٌ مبعثرة الشعر وصاحت: «ثمانية وأربعون». أوصلت زَرِي نفسها إلى الممرضة التي كانت تتفحّص المرضى بعينيها وتردّد: «تسعة وأربعون». قالت زَرِي:

«أنا حجزت موعدًا على الساعة السابعة».

«سيدتي العزيزة، لا جدوى من الموعد في مثل هذه الأوقات. كل أصناف المرضى يهجمون. الفناء محشر، ألم تلاحظي؟».

«بلى لاحظت ذلك. أحدهم قد مات».

قالت الممرضة ببرودة دم: «نعم، لم يكادوا يوصلونها إلى هنا على الحمار حتى لفظت أنفاسها الأخيرة». ثم صرخت: «تسعة وأربعون غير موجود؟ خمسون». نهضت عجوز، كانت تمسك وجهها بإحكام وتمشي بخطى معوجَّة، وكان ظهرها محدَّبًا. فتحت لها الممرضة باب حجرة العلاج. فتحت زَرِي حقيبتها اليدوية فأبطأت الممرضة هنيهة وتابعت بعينها

حركة يد زَرِي وهي تبحث عن منديلها ولا تجده. ضجرت الممرضة: «إذا لم تكوني تشتكين من شيء، وجئت إلى هنا من أجل الأولاد، فيستحسن تأجيل الموعد إلى وقت آخر»، وولجت إلى الداخل.

كانت محقّة. لم تكن في عجلة من أمرها. كانت تعلم أنَّ عاقبة أمرها ستؤول، هذه المرة أيضًا، إلى السيدة الحكيمة. قررت أن تذهب إلى البيت لتستحمّ وتنظف ملابسها بالماء المغلّى. لا يجب أن تسمح لأولئك الأطفال الناعمين بلمسها. وفي طريقها، اشترت من الصيدلية مبيد القمل وكحولًا وصابون كبريت.

*

لمّا طرقت باب بستانهم كانت الشمس قد أَفَلَت. فتح الباب فتى أسود البشرة مجعّد الشعر. شَخَص فيها بعينيه المستديرتين السوداوين وضحك. عرفته. سألته: «كلو، ماذا تفعل هنا؟».

«جئتُ مع سيدي».

«وهل جاء سيدك؟».

ركضتْ إلى الداخل. كان يوسف جالسًا على كرسي حصيري بالقرب من الحوض، يمسك تحت شفته غليونًا. كان مغبرّ الرأس والوجه، ولم يخلع بعد ملابس سفره. انشرحت أساريره لرؤية المرأة وقال:

«أين كنت حتى الآن؟ كنت بانتظارك. قطعت كل هذه الطريق كي... لماذا تقفين بعيدة؟».

«رجعتَ بسرعة، لكني جد مسرورة بعودتك. لا

تلمسني، يجب أن أذهب إلى الحمَّام، أنا ممتلئة بالميكروب. حين تأتي أنت يرحل الغم عن القلب» ثم هرعت إلى المبنى.

عادت إلى البستان طاهرة نقية معطّرة. كان الجو قد أظلم بينما يوسف ماسكًا رأسه بين يديه. ذهبت إليه ورفعت رأسه ووضعت قبلة على شعره وسألته:

«هل تعاني من شيء لا قدّر الله؟».

أجلس يوسف المرأة على حجره حتى سُمع صرير كرسي الخيزران. قبّل رقبتها العارية ووجهها وذراعيها. كانت شفتاه ناعمتين محمومتين. استوت زَرِي واقفة وقالت:

«هل أشعل مصباح البستان؟».

أمسك يوسف يدها وقال: «لا داعي».

ألقت زَرِي نظرة إلى السماء وقالت: «جوفها ممتلئ، لكنها لا تمطر كي يتنفس المرء الصعداء».

«مثل جوفي أنا».

«أنت قلب الأسد!» أردفت زَرِي وهي تفكّر في سَحَر: «هل سيسأل عن سَحَر؟».

«وصلتُ إلى البيت فوجدته خاليًا بشكل مريب. أين الأولاد؟».

«أخذت العمَّة التوأمين إلى بيت مِهْرَنْگيز لحضور الروضة(15)، وخُسْرو خرج مع هُرْمُز».

«أنت ترسلين الطفلتين إلى الروضة سُدى».

«هما اللتان أصرّتا. ثم إنهما لا تعيان من الروضة شيئًا. إنهما تلعبان مع أطفال مِهْرِي. خاطت لهما

العمَّة شادور الصلاة، وتصليان معها جنبًا إلى جنب... »، وفجأة توجهت إليه:

«ما سبب رجوعك المبكر؟ وأحضرت معك كلو أيضًا».

«غدًا في الصباح الباكر أرسليه إلى الحمَّام وألبسيه ثيابًا جديدة فقد تبنَّيته. أنا من قتلتُ والده، لم أستطع المكوث في القرية».

هوى قلب زَرِي: «أنا لا أستوعب شيئًا. أنت قتلت والد كلو؟! راعينا؟ أنت؟ هذا مستحيل!».

أمسك يوسف رأسه بين يديه وقال: «لا تتكلمي، فرأسي يوشك أن ينفجر».

«تكلَّم، قل ما الذي حدث؟».

«لأجل هذا جئت إلى المدينة، لأحكي لك. تركت كل أشغالي وراء ظهري وجئت لأفضفض لك، لكنك لم تكوني».

جلست زَرِي جنب زوجها على كرسي آخر وضمت رأسه إلى كتفها وداعبت رقبته وقبّلت ظهر أذنه وقالت:

«انظر يا حبيب قلبي، لم أكن أعلم الغيب حتى أعرف بمجيئك. والآن، احك لي، كلِّي آذان صاغية. أفرغ ما في قلبك».

«كان من المقرر أن يذهب بآخر قطيع أغنام إلى المصيف، لكن قبل ذهابه ذبح خروفين وقدّدهما وكدّسهما في قِرَب. لا أعرف لمَ قام بهذا الفعل؟ لم يسبق أن فعل مثله من قبل قط».

«حسنًا عزيزي، أنت بنفسك كنت تقول إنَّ الطمع يسيطر على الناس مخافة القحط».

قام يوسف وأخذ يتمشّى، ومن دون أن يأبه بكلام زوجته، أردف:

«لا يخفى شيء على عين عمدة القرية. جاءني وأخبرني أمام الملأ. أردت أن أتظاهر باللامبلاة، لكن العمدة لم يكن ليتراجع. ذكّرني ثانية بالموضوع في الغروب لمّا كان الراعي راجعًا بالقطيع. اضطررت لكي أقوم بتحرياتي. سألت الراعي لمَ ينقصك خروفان؟ فأجاب: أقسم برأسك وبشعرك أنَّ الذئب أكلهما. تدخل العمدة وقال له احلف بحضرة العباس لو كنت صادقًا، اخْط سبع خطوات تجاه القبلة واحلف بحضرة العباس!». ثم سكت واستأنف كلامه بعد هنيهة:

«لاحظت ارتعاش رجليه. لاحظت ذلك أنا الأحمق. تركته ليقسم. وفي الليل أصابه وجع حاد في بطنه. ذهبت إلى خربته. صوَّب عينيه إليّ مثل الخروف وطلب مني أن أُحِلَّه. صرخت في وجهه: «أنا من الأول أحْلَلْتُك، أنت تعرفني»، لكن بلا فائدة. انهمرت دموع عينيه على مخدته الوسخة. أعددتُ له شراب أعشاب ساخنًا كي يشربه فلم يشربه. قال: «حتَّامَ أذنب؟ الجميع يعلم أنَّ حضرة العباس لا حول له ولا قوة». صرختُ في وجهه: «أيها الرجل، إذا كنتُ أنا صاحب الخروفين فقد أحْلَلْتُك». قال: «لقد قضى عليّ حضرة العباس، ولا تقدر أنت أن تفعل شيئًا. أَودِع القطيع بيد أخي كي يأخذه إلى المصيف».

بعد ذلك جلس يوسف على الكرسي قرب زوجته وواصل كلامه:

«أشار إلى معصومة زوجة يَارْقُلِي فذهبت وجلبت، لست أدري من أين، قِربتين من اللحم المقدّد وألقت بهما أمامي. وددت لو أنَّ الأرض انشقت وابتلعتني... ».

قالت زَرِي بنبرة هادئة: «انظر يا حبيب قلبي، لم يكن خطأك. كان خطأ العمدة الوقح. حسنًا، هو أيضًا أقسم على الكذب. قد يكون أيضًا أسرف في الأكل. لماذا نبتعد كثيرًا؟ قد يكون أصيب بالتيفوس. ربما يكون الله قد أراد بولده خيرًا، فنحن لا نعلم شيئًا عن مشيئة الله. قد يكون الله أراد لولده أن يصير متعلمًا».

قدمت خديجة إلى الشرفة وأشعلت المصباح ثم ذهبت إلى البستان تتفقد أفرشة النوم. أزاحت أفرشة التوأمين من على السريرين الخشبيين ونشرتها في الناحية الأخرى من الحوض، وسوّت ناموسيتيهما. لما وصلت إلى سرير خُسْرو أزاحت مفرش السرير جانبًا، ورمت فراشه وسألت: «سيدتي، هل أخذتِ بطانية خُسْرو إلى مكان ما؟».

أجابتها زَرِي من مكانها هناك: «كلّا، ربما أنت من وضعتها تحت المكواة».

«لا يا سيدتي».

«إذن أين ذهبت؟».

«لا أدري والله. مؤكد أنَّ نفس اللص المبتدئ الذي سرق حبل النشير، قد أخذ أيضًا بطانية خُسْرو... ».

لفَّ اضطراب شديد شغاف قلب زَرِي. خمّنت أنَّ الفعلة فعلة خُسْرو نفسه. لكن لمَ يفعل هذا؟ فجر ذات اليوم، وفي الوقت الذي لم تكن العمَّة قد نزلت بعد من السطح للصلاة، أفاقت زَرِي على وقع أقدام. لمّا فتحت عينيها رأت خُسْرو يسترق النظر إلى ما حوله. رأته وقد ذهب بسكينة وفكّ حبل النشير من المسمار المثبت بالجدار وبدأ يلفّه حلقات إلى أن وصل إلى شجرة الدَّرْدار في منتهى البستان، حيث كان طرف الحبل الآخر مربوطًا في جذعها. دسَّ الحبل تحت إبطه وانسلَّ إلى غرفته ونام تحت ناموسيته من دون ضوضاء. خُسْرو يشغله شاغل في هذه الأيام الأخيرة. انتباهه

مشتت ونظراته، أحيانًا، محدّقة. في الأول كان حزينًا بسماع خبر موت سَحَر، وعينه كانت تدمع لأي سبب. كانت يده ترتعش وهو يمدها إلى السكريّة. كان يقضي معظم الأوقات في آخر البستان حول القبر المصطنع، يقتلع الأعلاف الضارة ويسقي بنفسه أصص الباتونيا. لكن أحواله تغيّرت مؤخرًا بشكل مفاجئ، حتى إنه لم يعد ينظر إلى القبر المصطنع، وبات يزيح عينيه عن عين أمه ولا يطيل النظرة فيها، ويجيب على أسئلتها إجابات مختصرة وغير مفهومة.

هبّت واقفة، خطر على قلبها أنَّ خُسْرو قد يكون أخذ البندقية أيضًا، رغم أنها كانت موقنة أنها أقفلت بنفسها الصوان وأخذت المفتاح معها. أرجعها صوت يوسف إلى وعيها:

«لمَ وقفتِ؟ اجلسي وقولي شيئًا».

سألت كما يسأل من أيقظه أحد من النوم: «ماذا قلت؟».

«أعلم أني تسببت لك في التشويش، أنت أيضًا مستاءة مني».

أجابت زَرِي وحواسها مشتتة: «أنت مخطئ، لم يكن الخطأ خطأك على الإطلاق. أنا رأيت المرضى الذين أحضروهم من القرى على الحمير أمام عيادة السيدة مَسِيحَادَم. كان أحدهم ميتًا. التيفوس غزا جميع القرى، والمدينة أيضًا مملوءة به».

سألها يوسف محتارًا: «ذهبت إلى عيادة مَسِيحَادَم لأجل ماذا؟ وهل أنت... ».

كان قلب زَرِي يفور. أين هي وأين هذا الموضوع؟ لا أحد يدري بما يجول بباطن الآخر. قالت:

«ذهبتُ لأجلب مبيد القمل من صيدلية "سعادت"، ومررت من هناك. كان الباب مفتوحًا فألقيت نظرة. ربما لم يكن ذلك المريض ميتًا... بدا لي أنه قد مات... ».

لم تكن تعرف ماذا كانت تقول، ولم تنتظر سؤالًا آخر، فأسرعت إلى غرفة النوم. من دون أن تشعل المصباح، بحثت عن حقيبتها وأخرجت منها رزمة المفاتيح وذهبت صوب الصوان. تحسّست باب الصوان ففتحته. كانت يداها ترتعشان وقلبها يثور. كلّا، حمدًا لله. البنادق في مكانها.

ومن أجل الاطمئنان مرّرت يدها على أنابيبها وخزاناتها ومقابضها، كانت باردة ومائلة على باب الصوان وفوهاتها إلى أعلى. أقفلت باب الصوان ونوافذ

الغرفة وأبوابها وهرعت إلى الهاتف. نقرت نقرة واحدة وطلبت من المركز تحويلها إلى بيت أبو القاسم خان. تكلمت بصوت خفيض لم يسمعها حتى المركز، فكررت. أجاب أبو القاسم خان نفسه. ساء الوضع. سألته هل خُسْرو هناك؟ وسمعته يقول إنه غير موجود وهُرْمُز أيضًا. سمعت صوت جناب الأخ في السماعة وهو يسأل أهل بيته. فهمَتْ أنَّ هُرْمُز أخبرهم أنه سيتناول العشاء في بيت عمّه. قال لهم إنَّ زوجة عمّي دعتني. بعد ذلك قال جناب الأخ لائمًا:

«لماذا لم توجهوا الدعوة لنا؟ أليس لنا أسنان الوليمة؟».

انتابت زَرِي غصّة الحلق فأجابت: «في المرة القادمة إن شاء الله»، وأغلقت السماعة.

كانت مرتعبة وتوشك على الانهيار. كلاهما كذب، لا بد أنهما يخفيان أمرًا ما. أخذا معهما الحبل والبطانية. يجب أن تحكي كل شيء ليوسف. وهي خارجة من الغرفة سمعت رنة الهاتف. رفعت السماعة. كان جناب الأخ. حينما فكّر في الأمر استبدَّ به القلق. تحكّمت زَرِي في نفسها وقالت له:

«لا تقلق، أظن أنهما ذهبا معًا إلى السينما أو أي مكان آخر. سيأتيان إلى هنا من أجل العشاء، لم يتأخر الوقت بعد. سوف أجبرهما على مكالمتك فور عودتهما».

فتحت نوافذ الغرفة وأبوابها. سمعت صوت مينا، لقد جاءت البنتان. قصدت البستان. كانت الطفلتان

في حضن يوسف وكان يبدو هادئًا. كانت مينا تقول:

«أمي لا تسمح، تقول إنَّ السيدة الشمس غاضبة. تسخّن سفودًا وتغرزه في بدن الإنسان الرطب الناعم».

كانت السيدة فاطمة جالسة ولم تزل ملتحفة بشادورها. قالت: «زوجة أختي، مِهْرِي تقرؤك السلام وتقول إنها غاضبة منك. قالت إنك لم تزوري مجلس روضتها هذه السنة. الأمر لك».

صفقت مينا بيديها من مكانها الذي تجلس فيه وقالت: «خصومة إلى يوم الدين!». ثم استدارت وقبّلت أسفل ذقن أبيها وحاولت النزول. ضمّ يوسف الطفلتين إلى صدره بحرارة وقال: «حسنًا إذن، احكيا لي، دميتاي الفاتنتان!».

كانت عينا زَرِي محدقتين في مصابيح الشرفة وأذناها مصوبتين نحو أصوات البستان. لم تكن تعرف من أين تبدأ. كانت مثل مجانين المساء، قلبها يتلاطم أمواجًا لكنها تتظاهر بالهدوء. البعوض والفراشات الصغيرة واليعاسيب المتنوعة تدور حول مصباح الشرفة وتلتصق به ثم تنهار، فيما صراصير الليل والضفادع تتجاذب أطراف الحديث في البستان. ماعدا هذا لم يكن ثمَّة صوت أو حركة. لو جاء الولدان سوف تسمع وقع أقدامهما بكل تأكيد. كان عليها أن تتكلم الآن وتدفع بالجميع كي يقلبوا المدينة رأسًا على عقب بحثًا عن ابنها. هل سيدفعون ثمن موت الراعي؟ هل أرسل لهم الله ابن الراعي ليأخذ منهم خُسْرو...؟ وغدا قلبها يموج

قلقًا. كانت الأشجار قد استسلمت للنوم تحت لحاف السماء الثقيل. ليت ريحًا هبّت، أو ليتها كانت تشبه الريح فتهبّ عاتية لترجرج البشر والشجر. ليت السماء كانت صافية وصارت مثل حديقة ملأى بملايين العيون. ليت شفاه الأشجار الثرثارة تبدأ بالكلام.

قالت وهي مسلوبة الإرادة: «قم بنا لنذهب من هنا».

كان يوسف يمسك شعر مرجان عاليًا ويقبّل قفاها. ضحك وقال: «أين نذهب أفضل من هنا؟».

«لنذهب للبحث عن خُسْرو».

قالت السيدة فاطمة: «زوجة أخي، خُسْرو ذهب مع هُرْمُز إلى بيت جناب الأخ».

قالت زَرِي وهي تجهش بالبكاء: «لا، لم يذهب إلى هناك، أخذ معه حبلًا وبطانية، لكن لم يأخذ البندقية».

وضع يوسف الطفلتين أرضًا وسأل باندهاش: «لأجل ماذا؟ إلى أين ذهب؟».

أجابت زَرِي من بين الدموع: «لا أعرف إلى أين ذهب. قم بنا نبحث عنه. أعلم أنَّ مكروها ما قد أصاب ولدي. لمّا رأيت كلو فهمت ذلك. هذا انتقام إلهي. الله أرسل كلو في مكان ولدي». وأخذت تشهق وتذرف الدموع.

وقف يوسف ووضع يده على كتف المرأة وقال:

«أنت انفعلت. إنه خطئي أنا الذي أحكي لك كل ما

يحدث. اطردي هذه الخرافات من دماغك. اذهبي وهاتفي جناب الأخ. قد يكون هناك».

«لقد اتصلت».

قالت السيدة فاطمة: «أنا سأُرقد البنتين. اذهبا إلى التلَّة، إلى ما وراء تلة بيت الحاكم. قلبي ينبؤني أنَّ خُسْرو وهُرْمُز هناك».

نظر إليها يوسف وقال: «وهل تعلمين الغيب يا أختي؟!».

أكدت العمَّة: «كلما أسرعتما كان أفضل. سأتصل بجناب الأخ ليوافيكما هناك».

قال يوسف يائسًا: «أنا لا أفهم شيئًا» ثم خمّن: «من المحتمل أن يكون قد ذهب إلى بيت فتوحي، مدرّس تاريخ هُرْمُز. لكنه في إصفهان وأعلم أنه لم يرجع بعد».

قالت السيدة فاطمة: «قوما واذهبا، سوف تخبرك زَرِي في الطريق».

خرجا من باب البستان الخلفي الذي ينفتح على سفح التلَّة وتوجها صوبها. سأل يوسف:

«يا امرأة، أتعلمين أي تحفة فرّطت فيها؟ إلى أين دفعت بولدي؟ ربما يكون خطئي أنا الذي لا ألجم لساني... أسرعي... ».

كانت خطواته متسارعة حدّ اضطرار زوجته للجري فوق الصخور كي تلحق به. لمّا وصلا إلى القمة عجزت عن التقدم. كانت حديقة الحاكم تتراءى، في تلك الناحية من الهضبة، مستيقظة في كنف

البريّة بمصابيحها المتّقدة. جلست زَرِي على الصخور وقالت بأنفاس متهدِّجة: «اصبر لحظة». كان قلبها في هرج ومرج يخفق مثل حمامة محشورة في مكان ضيق. أصابها الغثيان وراحت تقيئ حتى كادت تلفظ قلبها من حلقومها. أمسك الرجل كتفيها وأخذ يدلّكهما ويدلّك قفاها. قال:

«سوف أُجنُّ بسببك، قولي ما الذي حصل؟ ما الذي حصل حتى جئنا نبحث عن الولدين في هذا المكان؟».

«اذهب أنت، أنا سأجلس هنا، إذا لم تُحضر ولدي فسأموت في هذا المكان، سأضع رأسي على الصخرة وأموت. لقد أرغَمَنا جناب الأخ على إرسال سَحَر لابنة الحاكم. أظن أنَّ خُسْرو ذهب ليسرق سَحَر من حديقة الحاكم. هناك عناصر درك وحرس. لقد قتلوا ولدي». وأخذت تنوح وتلطم.

صفع يوسف زوجته، وكانت أول مرة يفعلها. ولم تكن زَرِي تعلم أنها ستكون آخر مرة. قال لها آمرًا :

«انكتمي. أنت في غيابي لست سوى فزّاعة وسط المحصول!».

ثم تركها وانحدر في التلَّة. صار مثل ببر وحشي. لم تشعر زَرِي إلا وهي واقفة. مسحت شفتها بحاشية تنورتها وركضت. سقطت أرضًا ثم قامت. كان عليها أن تلحق به وتهدِّئ من سوْرته. كانت ترى هيكل زوجها وقد وصل إلى جدار حديقة الحاكم وتوقف هناك. حمدًا لله أنه توقف. بعد جهد جهيد أوصلت نفسها إلى زوجها. كان نَفَسها قد انقطع.

أمسكت بيد يوسف. كان يوسف ينظر إلى ما يحيط به ويصغي إلى الأصوات.

«سوف نقترب من باب حجرة الحارس، إذا سمعنا صوت الولدين سوف ندخل. ويل لهم مني لو مسّوا شعرة واحدة من الولدين».

«عِدني أنك لن تثير زوبعة لو كانا سالمين».

طرقا الباب ودخلا. نعم، لقد كان الولدان هناك. في حجرة الحراسة كان هناك ضابط شاب مستندًا إلى طاولة ويضع سيجارة في طرف شفتيه تنفث دخانًا من دون أن يجذب نفسًا منها، تمامًا مثل الضباط الذين يُشاهدون في أفلام السينما. سألهما الضابط:

«هل من أمر؟ لا بد أنكما ضللتما الطريق أيضًا... ».

كان على طاولة العشاء صينية منتصفة بالطعام وخُسْرو وهُرْمُز يقفان إلى جانبها. وكان دركيان، ذوا رتبة يحملان البندقية على الكتف، يفتّشان جيوبهما. تعرّفت زَرِي أحد الدركييْن، إنه ابن بلدة غلام نفسه الذي أخذ سَحَر. كان واضحًا أنَّ خُسْرو بكى. لمّا وقعت عينه على عين أبيه ضحك فأشرقت شمس قلب زَرِي.

أخرج ابن بلدة غلام بضع مكعبات سكر من جيب خُسْرو ووضعها على الطاولة، ثم وقف معتدلًا وقال : «إنه سكر، يا جناب الملازم».

سأل يوسف غاضبًا: «بأي جرم سقتم أولادنا إلى هنا؟».

قال الضابط الشاب غير مكترث له: «أضفه إلى

الملف». تدخلت زَرِي وقالت بكل هدوء:

«يا جناب، هذان الولدان يقومان بخرجة علمية في كل مساء».

وقعت عينها على الحبل والبطّانية فوق الطاولة وعلى كيس في يد هُرْمُز وشيء ما بداخله يتموج. أردفت:

«إنهما يجمعان الحجر و... ».

ورغم كل التفكير لم يسعفها عقلها في تخمين محتوى الكيس. قالت:

«والحشرات والفراشات والفئران الصحراوية ويقومان بتيبيسها. يأخذان معهم البطانية ليستريحا عليها. وأحيانًا، يأخذان الحبل ليقلدان طرزان... وإذا وجدا شجرتين مناسبتين يربطان الحبل بهما ويتمرجحان».

كان الضابط الشاب منسجمًا مع صوت زَرِي وملامح وجهها بشكل تام. واصلت زَرِي:

«والليلة تأخرا فجئنا بحثًا عنهما».

ضحك يوسف من دون قصد، واندفع هُرْمُز مؤكدًا كلامها:

«يا جناب، لقد أقسمنا وقلنا إننا خرجنا في نزهة، ثم ضللنا الطريق، ورأينا المصابيح فاهتدينا إلى هذا المكان».

أطفأ الضابط سيجارته في المنفضة، وسأل: «لماذا صفرتما؟». أجاب هُرْمُز: «صفرنا كي يسمعنا عبد من عباد الله أمثالكم فيدلنا على الطريق».

استبد الغضب بيوسف من جديد وقال: «ماذا بمكنة طفلين غير مسلحين، يملكان بضع مكعبات سكر في جيبهما أن يفعلا...؟».

أمسكت زَرِي ذراع زوجها وترجَّته: «عزيزي، لا تغضب. إنَّ الولدين سالمان معافان كما ترى. لقد حصل سوء تفاهم وسوف يحل».

انفجر يوسف حنقًا أكثر من ذي قبل وقال مندفعًا: «إنهم يعاملون ولديّ كأنهما مجرمان. أتعلمين لماذا...».

كانت زَرِي تدرك لو أنَّ يوسف قال الحقيقة فإن هذه السلسلة سوف تطول ولن يتحرر أحد من أسرها بهذه البساطة. قاطعت زوجها وتوجَّهت صوب الضابط وقالت له:

«السيد وصل للتو من السفر، إنه منهك... ».

لَفَت الكيس الذي بيد هُرْمُز انتباه الضابط فسأله: «ما الذي بداخل الكيس؟».

أجاب هُرْمُز ببرودة أعصاب: «جناب، ثعبان!».

«ثعبان؟».

تفتح ذهن زَرِي فجأة وأيقنت أنَّ الحاج محمد رضا الصباغ أعطاهما الثعبان. وكانت تعلم أنه نزع أسنانه. قالت: «أنا قلت لك إنهما يجمعان الحيوانات. وهذه المرة وجدا ثعبانًا، لكنه ثعبان غير مؤذ بالطبع».

« أتريد أن تراه يا جناب؟» سأل هُرْمُز.

ثم أفرغ الكيس على الأرض فتسلّل منه ثعبان

مرقّط. برز في الأول رأسه فقط ونظر إلى حذاء الملازم، ثم أخرج لسانه وزحف إلى تحت الطاولة. رفع الضابط رجليه في الهواء وصرخ: «اقتلوه!». حاول ابن بلدة غلام أن يهوي على بطن الثعبان بأسفل البندقية لكن الثعبان تسلَّل هاربًا. صاح الضابط: «إنكم تهددون موظف حكومي بالثعبان أثناء أداء واجبه... ».

لم يكمل كلامه ونطّ من فوق الطاولة إلى أسفل. داس على رأس الثعبان بقدمه وضربه ابن بلدة غلام على بطنه.

اعتدل الضابط وأدى التحية العسكرية وقال: «سيدي، احترامي!». استدارت زَرِي فإذا بجناب الأخ يرفّ عينيه. ضحك في وجهها وقال:

«زوجة أخي، ها أنت أحضرت ضيفك إلى هنا!».

تلعثم الضابط، فيما كان رأس الثعبان تحت قدمه وخصره مكسور وذنبه لم يزل يتحرك. قال:

«سيدي، لم أكن أعلم أنه أخو جنابكم العالي، رغم أنَّ النجابة والأصالة تنضح من رأسه ومحياه... إذا كانت هناك جسارة فألتمس العذر... ».

والتفت إلى يوسف وحيّاه تحية تعظيم وقال: «لمَ لم تخبرنا؟».

وأردف وهو ينظر إلى الدركييْن: «سوف أرسل هذين الوغدين إلى السجن» وصفع الدركي الذي كان بجانبه وقال له: «غبي، أحضرت إلى نقطة الحراسة ولد أشرف الناس في المدينة؟».

قال أبو القاسم خان ببرودة أعصاب وبهيبة: «اعف عنهما هذه المرة. بلِّغ سلامي إلى معاليه. الوقت متأخر وإلا كنت قد تشرفت بلقائه».

*

كان الرجلان يتبادلان معسول الكلام، والولدان يحكيان لهما كل شيء بالتفصيل. لم يعيروها أدنى اهتمام. كانوا يتقدمون صوب التلَّة، بينما لم تعد هي تقوى على الصعود والنزول. انعطفت في طريق فرعي ثم وصلت إلى الشارع الرئيسي. كانت وحيدة وتسير على عجل. كان يجلس بضعة جنود هنود على حافة الساقية في الشارع الرئيس، بينما يتبوّل آخر تحت شجرة واقفًا. لمّا اقتربت زَرِي منهم التفت نحوها بكل جسده وبسرواله المفتوح وقال: «يا جدّة، محتاج!» فأحثّت زَرِي الخطى. مرّ من أمامها دركي وخفير دورية ثم استدارا ونظرا إليها. كانت في قرارة نفسها تتمنى لو أنَّ ابنها أو زوجها كانا يتعقبانها، لكن ما إن انعطفت في الطريق الفرعي الذي يقع في آخره بستانهم، ولم تجد أحدًا يُلاحقها حتى تهلّلت وجهها فرحًا لأن أحدًا لن يمتنّ عليها. حين وصلت إلى البستان استغربت تأخرهم في الوصول. كانت التوأمان نائمتين تحت الناموسية. جلست زَرِي إلى الحوض وغطَّست وجهها في الماء. بعد ذلك جلست على الحافة ووضعت رجليها في مغسل

الأرجل. كان الماء دافئًا. وضعت يدها على الرأس الصخري أعلى الحوض وكان فمه مفتوحًا، وكلما احتاجوا إلى توصيل ماء البئر للبستان كان

ماء نبع البئر يعبر من فم الرأس الصخري ويصبّ في الحوض. كان حسين كازِرُونِي يأتي ومعه فِراش صغير يضعه في الكوة خلف عجلة البئر، وكان، من الصباح الباكر إلى الغروب، يجلس على الفراش وهو يدوّر عجلة البئر برجليه. كانت يداه تظلان معطَّلتين إلا حينما يطل دلوٌ طافحٌ ماءً، إذَّاك كان يأخذ الدلو ويصبه في الحوض الصغير المفضي إلى النبع. كان هذا عمله الوحيد من الصباح إلى المساء. وكان يزاول العمل ذاته في باقي البيوت. ولم يكن يُغنِّي حتى، فكانت زَرِي تقول طالما لا يصيب قلبَه ملل فهذا أمر جيد. وحتى لا يشعر بالملل كانت ترسل الأطفال ليتفرجوا عليه ويتحدثوا معه. لكن فرجتهم كم كانت تستغرق من وقت؟ فجأة، سرح فكر زَرِي: «حياتي كلها مضت على نفس المنوال، الجلوس كل يوم خلف عجلة البئر، وتحريك عجلة الحياة وسقي الأزهار بالماء... ».

نادت عليها السيدة فاطمة من السطح واستفسرتها: «هل وصل جناب الأخ في الوقت المناسب؟».

رفعت زَرِي رأسها وقالت: «سيدتي العمَّة، أرجوك انزلي، فأنا لا أطيق جدالهما».

طُرق باب البستان بقوة. فتح غلام الباب، وكان يرتدي قميصه الوحيد ويعتمر قبعته اللّبادية ويمسك بيده فانوسًا. هرع الجميع إلى الداخل. لكن خُسْرو انطلق خلف غلام إلى الإصطبل وقصدا قبر سَحَر المزيف. كانت زَرِي لا تلحظ غير رجليه

تحت ضوء الفانوس، فنهضت مضطرة لتراقب ما يقوم به. رفسا بعيدًا قوائم الأصص كلها، واحدة تلو الأخرى. ثم جلس خُسْرو على الأرض وأخذ يحفر على الحصى المصفوفة حول القبر، فيقتلعها واحدة واحدة ويرمي بها في البستان. علت أصوات العصافير وهي تغيّر أماكنها على الأشجار وطارت دجاجة في العتمة. جاء الآخرون صوبها وجلسوا على الكراسي الحصيرية. هبطت السيدة فاطمة من السطح. كانت مكشوفة الرأس وتلبس قميص نوم أبيض طويلًا.

قال جناب الأخ: «أيَّ طريق سلكت، زوجة أخي؟ فطنا إلى غيابك في وسط التلَّة.. وتبعناك إلى الشارع..».

خلع قبعته وجفّف عرق جبينه وسأل: «مؤكد أنَّ الويسكي غير متوفر في هذا البيت. تصدَّقي علينا بزجاجة من شراب السيدة طاووس خاصتك. لا وجود أيضًا للجبن الهولندي، نكتفي بجبن القِرب المزعتر ذاك، فلسنا من الذين يكفرون نعمة الله!».

كانت زَرِي وهي واقفة تراقب خُسْرو وهو يشق طريقه وحيدًا في البستان. كان وقع قدميه مسموعًا على الحصى لكنه متوارٍ في الظلمة. قصد أمه ورمى عليها العلبة التي كانت بيده؛ الكيس والحبل والبطّانية. صرخ في وجهها: «أمي، لمَ كذبت كل هذا الكذب؟ لماذا؟»، ثم توجه صوب والده وأردف: «أبي، اسألهم لماذا اتحدوا جميعهم ضدي وخدعوني؟ هل كانوا يجرؤون على ذلك في وجودك؟».

تنهّد يوسف وقال: «النتيجة التي خلصت إليها هي أنني لا أستطيع تغيير أيَّ شيء... إذا لم يكن المرء قادرًا على التأثير حتى في زوجته... ».

قاطعت العمَّة يوسف: «خشينا أن تتصرف كالأطفال وتلقي بيدك إلى التهلكة، مثلما فعلت... والآن لا تصرخ كثيرًا سوف توقظ الطفلتين».

لاجج خُسْرو ورفع صوته أعلى من ذي قبل وصاح هادرًا: «إما الطفلتان نائمتان أو النساء يخفن.. ما أشدَّ جبن النساء وكذبهن! يعرفن فقط حفر القبر والدفن والبكاء من بعيد».

رقَّت عينا جناب الأخ وقال: «زوجة أخي، هل من خبر عن الشراب؟». نظرت زَرِي إليه ثم إلى الجميع. كم كانوا يبدون غرباء جميعهم! كزَّ أبو القاسم خان على شفته وتلفّت نحو خُسْرو قائلًا:

«قلت لك، أنا المقصِّر، عزيزي، لا تتمادى في خصومة أمك إلى هذا الحد... ».

ثم توجه صوب زَرِي: «زوجة أخي، حين يصل شرابك أريد أن أرتشف كأسًا في سلامة الولدين».

انطلقت زَرِي مثل إنسان يعمل بالريموت كنترول وذهبت إلى المخزن ورجعت تتبعها خديجة وفي يدها صينية الشراب والمزَّة. سمعت صوت السيدة فاطمة وهي تقول لهُرْمُز:

«كانت محقّة، أنت الأكبر لمَ لم تخبرنا؟ لقد أوصلتما زَرِي هذه الليلة إلى منتصف العمر».

«لو أخبرناكما لثبّطتما عزيمتنا!».

«ماذا لو رأوكما وأنتما تتسلقان جدار الناس وأطلقوا عليكما الرصاص؟».

«الآن لم يرونا ولم يطلق أحد أي رصاصة. كانت خطتنا أن أتسلق أنا الجدار وأسحب خُسْرو بالحبل الذي شدّه على خصره، ثم نرمي البطّانية على رأس سَحَر ونخرجه من الباب الخلفي للحديقة ونطلق الثعبان انتقامًا منهم... ».

سكب أبو القاسم خان الشراب في الكؤوس الثلاثة، وناول الثالث لهُرْمُز وقال:

«في صحتك!»، ثم تلفّت إليه وقال: «منذ الآن، اشرب وحاول أن تستمتع بهذه الدنيا. آمل ألا تشبه عمّك الذي حرّم الحياة على نفسه ومقربيه من أجل العباد والبلاد. لمَ لا تتناول كأسك، يا أخي؟ بالله وتالله، إنَّ الدنيا لا تستحق أن تجهد نفسك من أجلها بحق وأنت لا تجني من وراء ذلك أي طائل. إنك تهلك نفسك بنفسك. العاقل في هذه الدنيا، مثلي أنا، يملك شرابه من الويسكي المهرّب. لا يجوز ألا نستفيد شيئًا من هؤلاء الأجانب.. إنهم في ظهرك يستمتعون بالحياة ويستهزؤون بك. دعوني أزفّ لكم جميعًا هذه البشرى.. حمارنا اجتاز العقبة، ووكالتي صودق عليها. صباح اليوم تلقيت برقية قبولي من طهران...».

وقف بقامته وهامته وراح يرقص طربًا وهو يطقطق أصابعه في الهواء.

سأله خُسْرو والحزن بادٍ عليه: «عمُّو العزيز، هل ستذهب إلى طهران وتأخذ معك هُرْمُز؟ لقد خططنا

معًا للكثير من الأمور..».

أرمش جناب الأخ وقال: «أجل عزيزي، سآخذه معي، حظه سعيد. فكلاكما صار هنا حمارًا للحقير فتوحي هذا. الوغد الأحمق ذهب إلى مدينة بُوشِهْر كي يثير الملّاحين. وذهب إلى إصفهان ليحصل على رخصة ويؤسس الحزب البولشيفي هنا. تفو!».

نظر إلى يوسف وأردف: «سمعت أنَّ الحضرات اتصلوا بك أولًا، حمدًا لله أنك تصرفت هذا التصرف الصائب ورفضت دعوتهم. أنا لا أؤمن بلعبة الحزب مطلقًا. وجهوا دعوة لي أيضًا لأنضم لحزب الإخوان. لم أقل لن أنضم، لكني إلى الآن أماطل... »، ثم ضحك وواصل كلامه:

«رغم أنَّ الأمر ليس سيئًا تمامًا. أخ يغمز الروس وأخ آخر يغمز الإنجليز. تعال وفكَّ أنت هذا اللغز. هذا الأخ يأتي لمساندة ذاك الأخ وذاك يأتي لمساندة هذا. لكنك لست من طينة الإخوان الذين يقدمون يد النفع لأخيهم، عزيزي». رفع كأسه: «بصحتك!».

بعد ذلك وضع طعام العشاء ومخلل الباذنجان والخضروات في شطيرة خبز ولفّها بإتقان ثم ناولها خُسْرو. واستأنف كلامه: «كان الراوي ينقل للحاكم في حضوري أنك قلت كلامًا جميلًا وظهرت أمامهم بمظهر لائق. قلتُ لهم إنه شقيقي وليس قشة تبن. إنه دكتور في الاقتصاد الزراعي من جامعة مانشستر، لا بل... ماساتشوستس»، وانفجر ضاحكًا وأردف:

«الحق يقال إني أضفت هذه الأسماء الآن، ولم

أتذكّر هناك اسم جامعتك. نسيت اسمها في الأساس. قال الناقل إنك قلت لا أعرف شيئًا اسمه التملق والخضوع، لا للفرد ولا للجماعة، وقلتَ أيضًا إنك منزعج من الانضباط الحزبي. أعلم أنَّ الكسل هو المانع، لكنك على كل حال بيَّضت وجوهنا مرة واحدة في عمرك..».

هزّ يوسف رأسه بمرارة: «كان المتحدث متقدمًا في العمر بعض الشيء. إما أنه لم يدرك فحوى جزء كبير من كلامي، أو أنه لم يشأ قوله في وجودك... ».

دافع أبو القاسم خان عن الرواي: «كلّا عزيزي، واضح من تقريره الذي كان يقدّمه للحاكم أنه فتح عينيه وأذنيه جيدًا».

قال يوسف: «عصارة ما قلته لهم ليست بتلك البساطة التي تصورتها أنت. قلت إنَّ الماركسية أو حتى الاشتراكية هي منهج فكري معقّد يستلزم تربية وتعليمًا خاصيْن. وقلت إنَّ تطبيق ذلك وتنزيله في حياتنا ونفسيتنا وأسلوب مجتمعنا يستدعي نضجًا وسعة أفق وتضحيات جسامًا. قلت لهم أيضًا أخشى أن تمثّلوا مسرحية بممثلين مبتدئين. قد تستقطبون، لبعض الوقت، مجموعة كبيرة بسبب حضور الممثلين الجدد وبسبب كلامهم الجديد، لكنكم سوف تدفعون، عما قريب، بغالبية المشاهدين والممثلين إلى اليأس والتعب والخيبة والتيه. قلت لهم أيضًا لكي ننجح في تحقيق آمال هذا الشعب بعيدًا عن التدخلات الأجنبية فلا مناص من الوعي والإدراك مع الحداثة».

رقَّت عينا جناب الأخ واندفع بالقول: «وأي ممثلين... العجوز أبو شعر أشيب... ماشاء الله قَرِّي... فتوحي... السيد أبو وجه عريض ابن خال قوَّام... ».

قال يوسف مغتمًّا: «لا أقصد توجيه إهانة لأحد، لكن شعرة نتنة واحدة من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم أفضل من معظم فناني العصر الذهبي».

ضحك هُرْمُز مزهوًا فشزره أبو القاسم الخان بنظرة شريرة. أمسك هُرْمُز كأسه ووضعه على شفته مثل مبتدئ، وتجهم وارتشف جرعة على مضض، ثم قال: «عمُّو العزيز محقّ». ثار أبوه:

«من طلب رأيك أيها التافه اللكيع؟».

تدخلت السيدة فاطمة: «جناب الأخ، دعه يقل كلامه، لا تقمع الطفل هكذا أمام الجميع».

تأتأ هُرْمُز: «ماشاء الله قَرِّي هذا باع منزليْ أبيه الواقعين على رأس تلَّة الحصير، واشترى بالمال أرزًا بالعدس ووزَّعه على الفقراء».

أرمش أبو القاسم خان وقال: «لا تخترع المزيد من القصص أيها الولد. قم بنا نذهب، لقد تأخر الوقت. من فرط عجلتي نسيت أن أحضر معي بطاقتي. عسى ألا نقع بأيدي عناصر الجيش».

نهض من مكانه وتوجه إلى يوسف بالقول: «وهل جاء الإنجليز ليضعوا يدًا فوق أخرى ويتفرجوا على من يرتكب مثل هذه الحماقات في الجنوب؟! سوف ترى، إذا لم يشتروا الجميع دفعة واحدة، فسوف يشترون الرؤوس الكبيرة، والويل للمؤمنين السذّج مغمضي الأعين!».

لمّا انصرف جناب الأخ سأل يوسف خُسْرو: «كم مرة ذهبت إلى منزل فتوحي؟».

«أربع مرات».

«هل هو من حرّضكما على الذهاب لسرقة الحصان؟».

«كلَّا، كان يقول الكلام نفسه الذي قلته أنت الليلة؛ "حاولا إيجاد الحل المناسب بنفسكما". اقترح عليَّ هُرْمُز أن نذهب ونعتصم، فقلت له لا، الأفضل أن نسرق الحصان».

«كان عليك أن تخبر أمك بمكان ذهابك».

«أمي؟ أنا لم أعد طفلًا، لقد صرت رجلًا. أمي لا تتوانى عن التستر متوسلة بالحيلة والخداع. لا تعرف سوى الرفض. كان أول كلام قاله السيد فتوحي: "على المرء أن يهدم الجسور حتى لا يبقى له طريق للعودة". هذا الكلام درس يجب أن نحفظه».

قالت زَرِي بغضب: «يا لسعادتي! على المرء أن يمتلك مسوِّغًا لتخريب الجسور. ما دليلك أنت؟ ماذا رأيت مني ومن أبيك غير المحبة والرعاية والنعيم؟ هل فرّطنا في درسك ومدرستك وطعامك وشرابك وترفيهك؟ لو كان فتوحي على حق، لاعتنى بأخته التعيسة المرمية في دار المجانين

مسمِّرة عينيها على الباب بانتظار مجيئه ليخرجها وينقلها إلى الحديقة ذات المائة وأربعة وعشرين ألف متر».

«كما يقول السيد فتوحي، إذا استقام المجتمع

فلن يُجنّ أحد وسيغدو كل مكان حديقة» ردَّ عليها خُسْرو.

انسحبت زَرِي وقالت ساخرة: «الحق معك، فتوحي هو الإنسان القادر على إصلاح المجتمع».

تلفّت خُسْرو نحو أبيه وسأله: «ألا يستطيع يا أبي؟».

«إذا لم يستطع فتوحي وأمثاله، فإنهم على الأقل يتيحون للناس إمكانية هذه التجربة العظيمة».

قال خُسْرو عاجزًا: «أنا لا أفهم شيئًا يا أبي. قل كلامًا لا يفوق مستوى الصف الخامس ابتدائي». وفجأة، اندفع معارضًا:

«مهما يكن فالسيد فتوحي لا يكذب كل وقت وحين، وهو يدافع عن حق الإنسان في ظهر غيبه».

قالت زَرِي بنبرة هادئة مفعمة بحنان أموي: «إذا كنتُ قد كذبتُ في موضوع سَحَر فقد كان بأمر من عمِّك. فضلًا عن ذلك، فإني لا أريد أن تنشأ في جو مشحون بالمشاجرة والعنف. على الأقل، أريد لبيئة البيت أن تكون هادئة حتى... ».

أكمل خُسْرو كلام أمه على هذا النحو: «حتى نكون عجولًا مغمضة الأعين –كما يقول فتوحي- ولا ندرك متى نصير أبقارًا، تمامًا مثل... ».

قال له الأب آمرًا: «كفَّ عن الكلام!».

قالت زَرِي بمرارة: «لا، بل دعه يقول. إنه يقصد بقرة مثلي أنا. هل تودان سماع الكلام الحق؟ إذن فاسمعا. هل تتذكّر يوم عقد قران ابنة الحاكم؟

جاؤوا وأخذوا مني أقراطي الزمردية على سبيل الإعارة، ولم يرجعوها رغم كل الانتظار. ويوم حفلة الأجانب قالت لي ابنة الحاكم شكرًا لك على الهدية. بعد ذلك أثير موضوع الحصان. قررتُ، ضدًا على إصرار جناب الأخ، أن أصمد وألّا أمنحهم هذا. كنت أعلم أنه يجب أن أقف في وجهه في نهاية المطاف، لكني خفت، نعم خفت. خفت من الدركي الذي جاء ليأخذ الحصان... ».

قاطع خُسْرو أمه: « الدركي الأهبل ذاك كان ابن بلدة غلام. كنت تستطيعين خداعه بأي شيء، أنت ماهرة في ذلك». وتوجه إلى أبيه وأردف:

«إنه الدركي نفسه الذي تبعنا حتى وسط التلّة وقال لي تستطيع أن تأتي خلال الصبيحات وتركب فرسك. قال إنَّ السيدة الصغيرة لا تمانع، وهي من أمرت. قال إنَّ الحصان صار هزيلًا جدًا. في أول الأمر لم يكن يسمح للسيدة الصغيرة بركوبه، والآن تمتطيه في الحديقة لجولة أو جولتين، لكنها لم تجرؤ بعد على امتطاء سَحَر والخروج به خارج الحديقة... قال أنا بنفسي علمتها ترويضه. وقال إنَّ غلام ضربه... ». ثم أمسك لسانه وصار ثانية ذات الصبي الصغير الذي سرقوا لعبه وأعطوها لطفل آخر، وليس الصبي الذي يحترق قلبه أملًا في الرجولة.

استأنفت زَرِي كلامها: «تلك الليلة أردت أن أخبرك بقضية الأقراط، لكنك كنت غاضبًا جدًا ولم أشأ إغضابك أكثر. نفس الأمر دائمًا، من أجل الحفاظ على هدوء الأسرة..».

أكمل خُسْرو كلام أمه: «دائمًا أخدعهم!».

قال يوسف معاتبًا: «حينما قلت لك كفَّ عن الكلام، فعليك أن تكفّ»، ثم قال بصوت هادئ وعميق:

«أمك ليست مقصِّرة. الأمور في هذه المدينة تسير على هذا النحو؛ أفضل مدرسة فيها مدرسة الإنجليز، وأفضل مشفى فيها مشفى "المرسلين". وإذا أردت تعلم الخياطة فأفضل ماكنة خياطة هي "سنجر" وعرّاب بيعها هو زينْگر. المعلمون والمربون الذين التقت بهم أمك حاولوا دائمًا إبعادها

عن الواقع المفروض، ليعلمّوها، مقابل ذلك، شيئًا من الأدب والعادات والتأييد والتبسم والدلال والغنج والخياطة. إنها لا تنفك تتحدث عن الهدوء... ». وفجأة صرخ في وجه زَرِي:

«يا امرأة! ما فائدة الهدوء المبني على الخداع؟ لماذا لا يجب أن تتحلي بالجرأة وتقفي في وجههم وتقولي لهم هذه الأقراط هدية زوجي في زفافنا، تذكار والدته المرحومة التي أذلّهتا وطأة الفقر في ديار الغربة حتى صارت خادمة، ومع ذلك كانت تحمل همّ العروس التي اختارها ولدها... هل أفرّط فيها الآن بكل أريحية؟ ليست الأقراط ووقيمتها مهمتين في حد ذاتهما، بل المهم الذكرى والمحبة الكامنتان خلفها... يا امرأة، فكّري قليلًا. إذا لنت كثيرًا فالجميع سوف يعصرك... ».

نفذ صبر السيدة فاطمة التي ظلت لفترة صامتة تصارع التثاؤب، فاندفعت:

«ما الذي دهاكما حتى انقضضتما على روح هذه

المسكينة؟ لم يكن تسليم الحصان خطأها. أنا كنت شاهدة. حتى إني قلت لها سلّمي الحصان. أما عن الأقراط، فقد سمعت بنفسي من عِزَّت الدولة. في الأول كنت جد مستاءة، لكن حين روّيت في الأمر تبين لي أنه يستحيل عدم إعطائها. ماذا بوسع المرء أن يفعل أمام أناس يحكمون رقاب الناس وأرواحهم وأموالهم؟ هل تريد الحقيقة يا أخي؟ إنها تداري وتعطي الرشاوى كي يبتعدوا عن طريقك أنت. والآن هذا يكفي. كلوا عشاءكم وناموا. وغدًا ستتنسون كل شيء. أنا ذاهبة لأنام»، ونهضت وانصرفت.

نهض خُسْرو وقال: «سوف ترون ما أنا فاعل؟ لن أكون ابن أبي إن لم أنتزع سَحَر من قبضتهم. سوف أكاتب الحاكم نفسه، وإذا لم يجب سوف أذهب إليه بنفسي. أبي وأستاذي فتوحي محقّان. أنا من يجب حل مشكلتي بنفسي. إذا لم ينصفني الحاكم فسأحاول ألا أبكي. وإذا سمحت لأحد آخر ليرى دموعي فستكون أمي! أنا من أجل خاطرك فقط بكيت اليوم لمّا قُبض علينا، إذ أعلم مدى قلقك. أمام هُرْمُز، وأمام الدركيين، وأمام ذلك الضابط... لو لم تكن هذه النساء وخاطرهن الذي يجب أن نجبره لصار الأولاد رجالًا، وبأي سرعة! النساء يخفن ويُخفننا نحن الرجال... الرفيق فتوحي...».

قالت زَرِي: «نعم عزيزي، أنا في رأيك وفي رأي والدك وأستاذك جبانة وفاشلة وليّنة. أنا كلِّي خوف وهلع من أن يُمسّ أحدكما بأذى.. لا أتحمّل ذلك. لكن أنا أيضًا... حينما كنت بنتًا، كانت لدي الشجاعة»،

والتفتت ناحية يوسف وسألته:

«ألم تكن تلك شجاعة، في يوم المصيبة ذاك، حينما سرت معك وأنا لا أرى شيئًا ولا أدري شيئًا... أي فتاة؟» كزَّت على شفتها وغيّرت مجرى كلامها: «في تلك المدرسة الإنجليزية، أنت محق، كانت السيدة المديرة توبخنا كي تعلمنا التمدن والآداب وأسلوب الحياة. وزينْگر كان يمتنّ علينا ليعلمنا فن الخياطة كي نأكل الخبز من عرق أذرعنا. السيدة الحكيمة كانت تقول إنَّ علاجكِ ودواءك بيدي أنا. كنت أعلم، في قرارة نفسي، أنهم كانوا صادقين في الظاهر فقط، وأنَّ هناك خللًا في مكان ما. كنت أعلم أنَّ الخلل فينا. كنا جميعًا نفقد شيئًا منا لحظة بلحظة... لكن لم أكن أعرف ما ذاك الشيء؟».

قال يوسف: «وأنا لهذا السبب أخذتك. لماذا يجب أن تتغيري إلى هذه الدرجة؟».

قالت زَرِي: «سبق وأن قلت، هل أكررها مائة مرة؟ أنت صريح بشكل مخيف، وصراحتك هذه... أعلم في داخلي كم هي خطيرة. إذا أردتُ أن أقاوم فيجب، أولًا وقبل كل شيء، أن أقف في وجهك أنت، آنذاك سوف تشتعل حرب أعصاب وأي حرب! هل تريد سماع المزيد من الكلام الصادق؟ إذن اسمع، أنت من انتزعت مني شجاعتي.. داريتك وهاودتك طويلًا حتى غدت المداراة عادتي».

صاح يوسف غاضبًا: «أنا؟ تقفين في وجهي أنا؟ أنا ببر خارج البيت، لكني حمل وديع مطيع في البيت وأمامك. أنت، بدافع غريزي، مثّلت تمثيلية تدعى

الشجاعة... غريزة خامة غير مصفاة».

فكّرت زَرِي: «لو تماديت قليلًا سينتهي بنا الأمر إلى خصومة كبيرة». تأملتْ قليلًا وقالت:

«ربما كنت من الأول جبانة وأنا لا أدري.. أنا، أنا وقفت في وجه السيدة المديرة ذاتها مرارًا، من دون أن أعرف أنَّ التصرف الذي أقوم به صمود أو شجاعة... في ذلك اليوم الذي كسّرتْ فيه مِهْري صومها وأفطرت، فرّ الجميع من أمامها خوفًا، لكني بقيت... ربما كان تصرفي هذا اعتباطيًا، لا أعلم، ربما آنذاك لم يكن لدي شيء لأخسره... لكن الآن... ».

هي نفسها لم تدرك ما الذي حصل حتى فقدت كل صبرها وطاقتها ومداراتها. فجأت تركت الكرسي وقامت. ضربت بيدها على بطنها بقوة وقالت: «ليت هذا الذي في بطني يسقط الليلة... من أجلك وصلت إلى حافة الموت ورجعت. السيدة الحكيمة جعلت من بطني سماطًا.. نقشت عليها خريطة جغرافية..».

تلاشت على كرسي وانهارت بكاء. أحسّت ألا أحد في الدنيا بأسرها يعيش تعاستها وشقاءها. اقترب يوسف منها وضمّ رأسها في حضنه وقبّل شعرها، ثم مسح دموعها بأصابعه الطويلة. وضع يده تحت ذقنها ورفع رأسها ونظر في عينيها، وكظم غيظه وقال: «لا تبكي يا عزيزتي، لمَ لم تخبريني من قبل؟ استُغفلت تمامًا».

لم تستطع زَرِي حبس دموعها وقالت منتحبة: «قتلني الله، ذهبت اليوم لأتخلص من هذا، ألم أملك الشجاعة لأحتفظ به؟ حينما تنجبين طفلًا بهذه

المشقة فإنك لا تقوين على التخلص منه مجانًا. أنا في كل يوم... في هذا البيت، أدور مثل عجلة البئر كي أسقي أزهاري. لا أطيق رؤيتها تسحق تحت الأقدام... أنا أيضًا مثل حسين كازِرُونِي لا أقوم بأي عمل لأجل نفسي.. أنا.. لا تجربة ولا حياة ماتعة... ».

ضحك يوسف وقال: «عزيزتي، بدل أن تذهبي إلى دار المجانين وتتعبي نفسك وتخربي أعصابك، تستطيعين الذهاب إلى الجمعية الإيرانية الإنجليزية التي افتتحت حديثًا، وتُدَرِّسي اسنشل 2! هل تصدّقين أنَّ زينْگر بعث لي الرسالة مع مَكْ مَاهُون؟».

قالت زَرِي وهي تكفكف دموعها: «كم تجيد "ضربتم عنا صفحًا"!».

قال يوسف بحنان: «تعلمين أني لا أطيق رؤية دموعك. أردت إضحاكك بهذا المقترح... لكن يا حبيبة قلبي، لو أخبرتني بحقيقة الأمر، من أول الليلة، لم نكن لنؤذيك إلى هذا الحد. أنت قلت إنك ذهبت إلى عيادة السيدة مَسِيحَادَم وعدت من فورك. لماذا أخفيت عني حتى انقضضتُ على روحك مثل ذئب جائع، وصرت الآن أخجل من وجهك؟».

جاء خُسْرو وجلس على الأرض جنب رجل أمه. ضمّ رجلها في حضنه ولم ينبس بحرف.

مسحت زَرِي دموعها وقالت: «أنت أيضًا رجعت من السفر واجمًا ومغتاظًا فلم أرغب في مضاعفة همومك»، وسألته متخاذلة: «ماذا أفعل كي أرضيك؟

ماذا أفعل كي أصير شجاعة؟».

قال لها يوسف مازحًا: «يمكنني تعليمك. الدرس الأول في الشجاعة هو أن تُقدمي على أي عمل في أول لحظة تشعرين فيها بالخوف. إذا كان الحق معك تصرفي مع وجود الخوف. يا قطتي الفاتنة!».

قالت زَرِي متأمّلة: «أنا إنسانة، ولست قطة فاتنة. فضلًا عن ذلك، فالدرس الأول يُلقَّن لمن لا يعرف هِرًّا من بِرّ».

*

تحت غطاء الناموسية في فراش النوم، ومع وجود يد يوسف الباردة التي كانت تدغدغ بطنها الساخن وقبلاته الحارة، ظلت زَرِي، وكأنها نسيت بالمرة الغرام والصبابة، تفكِّر هل فعلًا كانت جبانة أم صارت كذلك؟ وهل يوسف مقصِّر بالفعل؟ حتى إنها في لحظة من اللحظات خَلُصت إلى أنَّ الحياة الزوجية غلطة من الأساس. أن يظل رجل، العمر برمته، أسير امرأة وأطفال صغار وكبار... أو العكس، أن ترتبط امرأة بحب رجل وبضعة أطفال، إلى هذا الحد، ولا تستطيع هي أن تتنفس، لهنيهة، براحة بال وحرية. فهذا ليس صحيحًا. غير أنها كانت تنتهي إلى أنَّ جميع متع عمرها متوقفة على هذا الارتباط.

كان استحضار تلك الأيام الخالية من أي ارتباط -لمّا كانت بنتًا- يطرد النوم من جفنيها... ارتسمت في مخيلتها بكل وضوح تلك الذكرى، لمّا أجبرت المديرة السيدة مِهْري على فسخ صيامها...

تلك السنة، كانت زَرِي ومِهْري على وشك الحصول

على دبلوم الصف السادس ابتدائي. كانت تفصل على الامتحان النهائي أربعة شهور حين وصل كتاب من إدراة المعارف يقضي بتلقّي طلَّاب الصف السادس لدرس القرآن والشرعيات في المدرسة نفسها. كانت زَرِي تعلم أنَّ الشكاية التي رفعتها أمها آتت أكلها. أنّى لأم زَرِي أن تحصل على نقود من أجل دروس خصوصية في القرآن والشرعيات؟

كانت الرسائل والإشعارات تتوالى تترا. والمديرة، يومًا إثر يوم، تزداد جزعًا وحيرة بفعل ضغوط إدارة المعارف. وكانت زَرِي تعلم أنَّ إلحاح أمها وراء كل هذه الضغوطات...

تحولت تلك الأيام التي كانت تتلقى فيها حصة الدرس الأخلاقي عند المديرة إلى تذمر من إدارة المعارف... كانت السيدة المديرة متذمرة من أن اتفاقهم مع إدارة المعارف كان يقضي، من البدء، بعدم تدخلها في عملهم. وكانت ساخطة، من أين تأتي بمعلم قرآن وشرعيات في وسط السنة؟ وكيف تبرمج مثل هذه الدروس؟ و... اذهبن وابحثن عن مُلًّا وادرسن عنده القرآن والشرعيات خلال عطلة أيام الأحد... أو تعلَّمن على يد أبويكن. كانت تستعمل كلمة "أبوين" بالحرف. كانت هذه تتقن الفارسية جيدًا. وكانت مِهْري ملمة بالقرآن والشرعيات. كان خالها قطبًا للدراويش. قبلت تدريس زميلاتها القرآن والشرعيات، بعد رجوعهن إلى المدرسة بعد وجبة الغذاء، بعيدًا عن أعين المديرة. وكم من جهد بذلته زَرِي كي تنطق آية

(فَسَيَكْفيكَهُمُ الله) بشكل صحيح! لكن مِهْري كانت مفعمة بالطاقة والصبر. كانت تكبر أكبر طالبات الفصل بسنة أو سنتين... لمّا حلّ شهر رمضان كانت قد شرعت حديثًا بتدريسهن صلاة الآيات، فوقعت تلك الحادثة، وكأنَّ وقوعها كان يوم أمس.

دفعت السيدة المديرة مِهْري فسقطت على أرضية القاعة. جلست المديرة على رأسها. فتحت فمها بيديها وأدخلت أصبعها فيه محاولة سكب الماء في حلقومها. عضّت مِهْري يد المديرة فتأججت غضبًا وضجَّت: «فتاة حقيرة ومنحوسة!». بعد ذلك استوت مِهْري واقفة وقالت: «أيتها الكافرة بطُل صومي بوصول يدك النجسة إلى حلقي، أعطيني الماء لأكمل شربه، وزره على رقبتك».

صفعت السيدة المديرة مِهْري وجرجرتها أرضًا، ثم أرختها وقامت متذمرة. سادت بلبلة بين الطالبات، ولم يعد أحد يصغي، فيما كانت مدرِّتسهن الهندية تتفرّج عليهن بعينيها المستديرتين. صرخت المديرة: «لا مكان للخرافات في هذه المدرسة. اتركن الصوم والروضة لعمَّاتكن وخالاتكن! واسألن أمهاتكن عن الحيض والنفاس! الصوم يضعف أجسامكن. لأجل ماذا اشتريتُ عارضة التوازن وجهاز الحصان وشبكة السلة؟ لتتقوى أجسامكن. والآن، تصمن لتذهب جهودي أدراج الرياح؟ حقًا إنكن لفاشلات!».

ثم زمجرت في وجوه البنات: «لقد رنَّ الجرس لمَ لا تغادرن القاعة؟ عقوبة مِهْري حبسها في هذا المكان حتى الغروب! هيا انصرفن! لا يحق لأحد أن

يبقى معها... ».

ذهبت المديرة وتبعتها المعلّمة الهندية بعد أن أسدلت شعرها الطويل خلف رأسها، وذهبت البنات أيضًا. لكن زَرِي أحست بأنها لا يمكنها المغادرة. انحنت وأمسكت بيد مِهْري وساعدتها على الوقوف ونظفت ملابسها من التراب ثم أجلستها على مقعد المعلّمة، وأخذت تبحث عن منديل لتمسح دموعها، لكن لم يكن بحوزتها منديل، ولم تعثر أيضًا على منديل مِهْري فاضطرت إلى مسح دموعها بأصابع يدها ثم قبلتها وقالت: «لا أظن أنَّ صومك قد بطُل، فأنت أُجبرت على شرب الماء».

بكت مِهْري وقالت: «لم يبق على الإفطار سوى ساعتين أوثلاث. صمتُ اثني عشر يومًا التي انقضت من رمضان ويومين في استقباله. وكنت مصممة على صيام الثلاثين يومًا. أعلم أني سأحيض السنة المقبلة، ولن تكون هذه السعادة من نصيبي أبدًا».

قالت زَرِي: «أين نحن من السنة القادمة؟ وأنت بنفسك درّستنا أنَّ المرأة في سن اليأس لا تحيض، فحين تبلغين سن اليأس صومي ثلاثين يومًا».

ضحكت مِهْري كثيرًا وأحست زَرِي بسعادة لأنها أضحكتها.

قالت مِهْري: «أعرف من أوشى بي... إنها تَاجِي. حمارة! ذهبت وتنصّرت... أعلم أنَّ مولاي علي سينتقم منها، وسترسب هذه السنة. الليلة ليلة ذكر علي، وآمل أن يدعو عليها عمِّي العزيز... ».

ذهبتا معًا إلى البيت ووصلتا إلى الخانقاه. كان باب

"بَيْتُ عَلِي" مفتوحًا وصوت من الداخل يترنّم: «يا هو، يا حق، يا علي!».

12

كل المشاحنات والخصومات والصلح والأرق في واد، ورجوع سَحَر على حوافره صباح يوم الجمعة ذاك، في واد آخر. كان الجميع ملتئمًا في الشرفة خلف البناية التي لا تصلها أشعة الشمس والمقابلة للتَّلة التي صعدها يوسف وزَرِي ليلة أمس بمشقة وذعر. كانت زَرِي مشغولة بكيِّ الملابس على طاولة الإفطار، وكانت التلَّة الغارقة في الضياء قبالتها هادئة وكأن أحدًا لم يصعد إليها أمس أو ينزل منها. كان خُسْرو جالسًا تجاهها وقد وضع على الطاولة قلمًا وورقًا وبضعة كتب. يتصفح كتابًا يحمل عنوان "أسلوب كتابة الرسائل" ويقرأ: "اكتب رسالة إلى رئيس إدارة واطلب عملًا"، "اكتب رسالة إلى عمِّك واطلب منه..."، "اكتب رسالة إلى صديقك وادعه لحضور عيد البعثة"، "فداء تراب جواهر رجليك"، "هبّت ريح فبعثرت طرّة عنبر... زرت الرقعة الشريفة". وضع كتاب "أسلوب كتابة الرسائل" على الطاولة، وقال متهكِّمًا: «على قول السيد فتوحي، كله تسول وتملق!». تناول كتابًا آخر وراح يتصفّحه...

كان الجو قائظًا رغم أنَّ الوقت كان صباحًا، لا يهبّ أي نسيم حتى يطرد الحرّ. كانت زَرِي تشعر بالعرق يتصبب من قفاها ويتسرّب إلى فقرات ظهرها. كانت تشتهي مشروبًا باردًا كعصير الشاهترجّ أو مسك الصفصاف، أو معكب ثلج تفرمه تحت الأسنان. أثناء حملها بخُسْرو وبالتوأمين، لم تكن السيدة العمَّة تألو جهدًا في تحضير وجبة الحامل،

كل يوم. كانت توصي السيد حسين آقا العطّار بإحضار الشبّ الهندي، وكان أبيض مثل الثلج ويطقطق تحت الأسنان، فيشعر الإنسان بالعافية وهو يمضغه. كانت تقول إنه يشدّ الجهاز العظمي للجنين ويؤمنه. كانت تشتري أحشاء الخروف وتنظفها بنفسها وتطهوها مع الجوز الهندي وتطعمها

إياها حتى يشتد بطنها. إذا شعرت بالحرّ جراء أكل حبة زبيب كانت ترغمها على تناول شربة التمر الهندي، وإذا أحست بالبرودة بسبب جرعة ماء الحصرم كانت تضع في حلقها حلوى ساخنة. لكن منذ أن قررت العمَّة الهجرة اعترى روحَها السأم والضجر، ولم تعد تتحمّل أي شخص بما في ذلك الأطفال. كان الأمر واضحًا، لكن زَرِي لم تكن تعلن ذلك.

وضع خُسْرو الكتاب الذي كان بيده على الطاولة وقال: «عجبًا لهؤلاء الكُتَّاب! لم يكتبوا كلمة واحدة عن كيفية انتزاع الإنسان لحقه». ثم تناول كتابًا آخر وقلب بعض الأوراق وقرأ: «رسالتان! وجدتها... عجبًا، ما أجمل هذه الجمل!». رفع رأسه عن الكتاب وسأل والده الذي كان جالسًا على مقعد وثير مقابل التلَّة، يقرأ كتابًا:

«أبي، ماذا تعني جملة: صوته الغليظ مثل صوت الفيولونسيل؟».

قال يوسف وعيناه على الكتاب الذي بيده: «أي مثل خوار البقرة الذي لا ينفع سَحَر! عزيزي، أكتب كل ما يتبادر إلى فكرك».

علا صوت العمَّة وهي تقول لمينا: «ناوليني إياها، لقد طافت على ألف يد، إنها وسخة!». كانت جالسة على سجادة مولية ظهرها للتَّلة ومستندة إلى شباك الشرفة، وهي تحشو الدنانير الذهبية التي اشترتها بين ثوب السترة الخارجي والداخلي وتخيط حولها. كان هذا برنامج أيامها الأخيرة. وللتو انتقلت إلى السترة الثانية.

جاء غلام إلى الشرفة وسأل: «سيدتي، هل ملابس كلو جاهزة؟».

«انتظر لحظة».

«اعذريني على جسارتي.. لكن لمَ المكواة؟ طوال ليلة أمس وهو يحلم بالبقرة والخروف. يطير مفزوعًا من النوم ويبحث عن جَدْيه. لم يسمح لنا بالنوم من كثرة صياحه هي هي... وفي الصباح، ظل ساعة وهو يشهق بكاء، يقول أريد أمي، أريد أختي، أريد أخي. من الصعوبة بمكان ربطه هنا».

ضحك خُسْرو رغم أنه كان مشغولًا بالكتابة. كانت مرجان تصفّف دنانير العمَّة الذهبية فوق بعض وتبني بها برجًا وتلمسها مينا فتشتّتها. كما العادة، فالتخطيط كان لمينا لأنها كانت تدرك أنها الكبرى، لأنها رأت النور ربع ساعة قبل مرجان. صاحت السيدة فاطمة على التوأمين:

«قوما على رجليكما، النقود ليست لعبة، اذهبا وناديا على كلو ليأت إلى هنا. غلام، خذهما إلى الإصطبل... ».

تظاهرت الطفلتان بالبكاء وزحفتا تحت الطاولة.

قالت زَرِي:

«اذهبا والبسا شادور الصلاة الذي خاطته لكما العمَّة وأرياه لأبيكما».

خرجت مينا من تحت الطاولة وقالت: «عمَّتي العزيزة، هلَّا أعطتنا التربة الحسينية كي نصلي... ونرفع مؤخرتينا الصغيرتين في الهواء؟». حين كانت العمَّة تقف للصلاة، كانتا ترتديان شادوريهما وتقفان خلفها باعتدال واستقامة. ولمّا كانت العمَّة ترفع صوتها بـ "وَلَا الضَّالِّين"، كانتا، فجأة، تسجدان. وحده الله كان يعلم سؤال هاتين الأمتين البريئتين. حاولتا كثيرًا تلفظ "وَلَا الضَّالِّين" ولم تنجحا، فكانتا تقولان للعمّة: «قوليها أنت».

أكملت زَرِي كيّ قميص خُسْرو وبنطاله القديمين بعد التوسيع والفتق والرتق، وناولتهما لغلام مع الفانيلة والسروال الداخلي والجوارب وقالت له: «رشَّها جميعًا بمبيد القمل، واشتر له خفًّا» ثم جلست على الكرسي. كان قلبها يفور، ربما من حرارة المكواة.

اندفع غلام: «انتهى المبيد. سكبته كله في المرشّة مع الماء ورششت به جميع الأماكن في الإصطبل. كان الإصطبل ممتلئًا بالقمل».

«اذهب وأرسل كلو إلى هنا» قال يوسف.

«دعه يأخذه أولًا إلى الحمَّام» قالت زَرِي.

قال غلام: «سيدي، إنه لن يأتي. في الصباح كان مثل حيوان مفترس، وكان يريد أن يفر إلى الجبل... قال إني سأرجع إلى أمي على قدمي».

ذهب غلام فقالت السيدة فاطمة: «أخي، أنت لا تستطيع الاحتفاظ به هنا، مثل صغير الغزال ذاك الذي قتلناه في الأخير... مع أني لا علاقة لي بالموضوع. فاليوم أنا ضيفة عندكم وأدعو لكم... ».

فكّرت زَرِي في قرارة نفسها أنها محقة، فالبارحة لمّا رأته كانت عيناه مثل عيني صغير الغزال، كبيرتين ومكتحلتين وحائرتين وشاردتين. صحيح أنه ابتسم في وجه زوجة سيده، أما عيناه في عمقهما كانتا تموجان خوفًا كخوف الفرخ الذي وقع في الفخ حيًّا.

قالت زَرِي: «الوقت مبكر الآن على انفصاله عن محيطه، ومهما أحطناه بعطفنا فلا فائدة من ذلك، إننا نحرّك فيه الحقد والكراهية فقط، وفي أهله اللعنة... ».

قال يوسف متضايقًا: «سوف يتعوّد بعد أن يقضي أيامًا في الراحة ولن يذكر مرة أخرى اسم القرية على لسانه. في السنة القادمة سوف أرسله إلى المدرسة».

توقف خُسْرو عن الكتابة وضحك قائلًا: «أبي، هل سترسله إلى المدرسة في خيش... إنه متوحش. لقد كبر على المدرسة، لن يقبلوه».

سأل يوسف غير منتبه، وهو يغلق الجريدة: «في خيش؟».

«نعم أبي، أنا رأيت ابن جناب داود لمّا أحضروه من القرية إلى المدرسة. أحضروه للمدرسة بصفة دائمة. أظن أنني كنت في الصف الثاني. أثناء

الفسحة رأينا رجلًا، بشوارب ممتدة حتى شحمتي أذنه بمظهر عشائري، يعتمر قبعة لبادية ويرتدي قباء ممزقًا ويربط على خصره شالًا وينتعل خفًّا. جاء إلى المدرسة راكبًا على بغل ويحمل في بردعته خيشًا محكم الإغلاق وبداخله شيء يتموّج. ترجّل عن البغل، وبيد واحدة ربط رسنه بنفس الشجرة التي كنت أربط فيها أنا سَحَر عندما كنت أصطحبه معي إلى المدرسة. وطوال هذا الوقت،

كانت يده الأخرى على الخيش، وكان حريصًا عليه. بعد ذلك رفع الخيش ووضعه على كتفه وجاء به إلى المدرسة، وفي الساحة فتح الخيش فنطّ منه ابن جناب داود، وكان يرتدي سروالًا أسود طويلًا بخيوط بيضاء، وأعلى جسده عاريًا، وتكوَّر على نفسه، لم نعرف لأي سبب؟ ولأجل من؟ ثم أطلق ساقيه للريح وراح يركض حول ساحة المدرسة. من كان بوسعه أن يمسك به؟».

جمعت زَرِي بساط المكواة وحملته إلى الصوان في حجرة المؤن. لم يكن لديهم قطرة واحدة من شراب معطّر. ذهبت إلى المطبخ. كانت خديجة ترتدي شورتًا رهيفًا مزينًا بالورود وباقي جسدها عارٍ، بنهدين معلقين وشعر شوكي كالذي تحت إبطها. كانت تشوي الباذنجان على الفرن. ما إن رأت السيدة حتى اندفعت تبحث عن شادورها.

خرجت زَرِي من بوابة البستان تحمل في يديها محفظة نقود وعبوتين كبيرتين. كانت بوابة بستان الجيران، مقطِّري الزهور، مفتوحة. دلفت

إلى الداخل. كان مدخل المبنى في وسط البستان يخلو من الورود. والمقطِّرون غير موجودين أيضًا. صاحت: «هل من أحد؟». تقدمت صوب المبنى، كانت تعلم أنَّ مستودع تخزين الزهور المقطَّرة يوجد في القبو. فجأة، صحا بداخلها هوس غريب ومحيّر وهفت إلى قدح خزفي مزركش تسكب فيه شراب الشاهترج وتخلطه بعصارة السكر وبمكعبات الثلج... فتحرّك مكعبات الثلج برؤوس أصابعها في الوعاء، وبملعقة خشبية مقعّرة مقبضها منقوش... كانت تعلم أنها سوف تذهب إلى مستودع التخزين، وسوف تملأ العبوتين حتى في غياب المقطِّرين وتترك لهم النقود في مكان يرونه. وصلت إلى المبنى وصاحت من جديد: «هل من أحد؟». برز عجوز من خلف باب قصير في القبو، ورمقها بعين واحدة من خرم نافذة حجرية مشبّكة مزدانة بورود وبوتقات. خرج من هناك، كان يلبس سروالًا داخليًا، قال لها: «سيدتي لمَ أتعبت نفسك؟» ثم أردف: «تفضلي إلى المستودع، وخذي كل ما تريدين. كنا بانتظار وصول آخر قطف لزهور النسرين لكنه لم يصل. الزهور سوف تفسد.. يقولون إنَّ المدينة مقفلة لأن ابنة الحاكم جفل بها الفرس، ولا يسمحون لأي بضاعة بالوصول إلى وجهتها».

وضعت زَرِي العبوتين أرضًا. قال المقطِّر: «سأذهب إلى بوابة البستان، لقد أرسلت الشباب لجلب البضاعة... سأرى هل وصلوا أم لا. أعلم أنَّ الزهور تتعفّن. هل من الضروري أن تركب فتاة فرسًا حتى يجفل بها. ملاعين! ليس للزهور طاقة الإنسان! وأية زهور؟ النسرين. يجب أن تقطفها فجرًا وتصبها في المستودع صباحًا... في هذه الحرارة، هل ممكن تأخير الزهور؟».

احتارت زَرِي في أمرها هل تفرح أم تترح؟ فابنة الحاكم هي بنت أمها التي تعبت من أجلها. وسَحَر نجيب ولا يرمي من يركبه. لكن ما مدى خوف البنت؟ وما مدى قلق الأم؟

أخذت العبوتين وانطلقت إلى القبو. يا له من عطر فوّاح يتضوَّع في الفضاء ويا له من جو بارد! كانوا قد أزاحوا سدادات الخزّان الصخري وأسندوها على الجدار، ورؤوس الأنابيب القصبية التي تخرج من المستودع وتفضي إلى النبع كانت جافة، ولم تكن تنساب منها سواقي العصائر المعطَّرة كما كانت في السابق حينما كانوا يحضرون التوأمين لمشاهدتها. كان أحد النبعين مملوءًا بماء الورد والآخر منتصفًا. كانت قوارير ماء الورد الزجاجية مصطفّة في أطراف القبو. فتحت دفة باب قصير وانحنت وسارت إلى القبو الثاني. أغطست إحدى العبوتين في النبع الأول وملأتها بمقطَّر الشاهترج. كم تمنّت أن تمكث هناك في القبو على التراب الرطب النديّ، وتنام بجانب خزّانات الشراب المعطَّر.

لمّا عادت إلى البيت واقتربت من الشرفة، سمعت همهمات آتية من بعيد، غير أنَّ آذان الآخرين لم تكن مرتهنة لهذه الأصوات وإلا كانوا قد رفعوا رؤوسهم.

اختلط صوت ازدحام الناس مع صوت محرك سيارة وأخذ يقترب أكثر فأكثر. نظرت إلى التلَّة؛ لا

طير يطير ولا وحش يسير. كان خُسْرو يدوّن في ورقة ويوسف يتصفّح كتابًا وهو يضحك.

«أين الطفلتان؟» سألت من دون أن يجيبها أحد.

انتبهت ثانية إلى التلَّة فإذا بسيارتين تترنحان في كنف التلَّة خلف بعض. بعد ذلك سُمع صوت يقول: «إنه قادم نحو التلَّة»، فظهرت موجة من الناس كانوا يشقون طريقهم نحوها.

قال خُسْرو: «أنهيت ورقتي يا أبي، هل أقرأ عليك ما كتبت؟». أغلق يوسف كتابه ونهض من مقعده الوثير ونظر إلى التلَّة وقال: «ما الأمر هناك؟» قام خُسْرو أيضًا وذهب إلى مقعد الشرفة وقال: «يا لكثرة الناس في سفح التّلة..! أربع.. خمس سيارات!». سُمع صوت: «أرأيت؟ إنه هناك!»، وصوت آخر: «لا تطلق النار أيها الغبي!» وصوت صراخ.. كان عدد الناس في سفح التلَّة يزداد كل لحظة. عنصر حرس واحد ودركيان اثنان... وسيارتان أخريان قطعتا من جديد التلَّة وهما تترنحان. كانت السيارة الأولى تطلق زامورها وتثير النقع والأتربة وكأنها جلبت الزبادي. سأل خُسْرو: «هل اندلعت الحرب يا أبي؟». وصل صوت: «ذهب إلى أعلى التلَّة»، وأصوات أخرى كانت تتلاشى بين ازدحام القوم وأزيز السيارات. قالت زَرِي:

«أظن أنه سَحَر. قال جارنا مقطِّر الزهور إنَّ حصانًا جفل بابنة الحاكم». وضع يوسف كفه على قلبه وانفجر قهقهة وقال: «عجبًا لهذه الحرب! كل هذه التعبئة من أجل مهر واحد! سَحَر، إنه هناك. وقف

على قمة التلَّة. إن لم يقذف راكبه من على متنه فحسنًا فعل!».

كانت السيدة العمَّة لا تزال جالسة في مكانها مولية ظهرها للتَّلة، ولم تكلّف نفسها حتى عناء الاستدارة. وهي تسعى جاهدة لإدخال الخيط في الإبرة قالت: «الأمر يشبه تمامًا إدخال الخيط في سمّ الإبرة. إذا وجَّهتَ الخيط مقابل ثقب الإبرة وكانت عينك سالمة، فإنك تمرّر الخيط في الخرم من المحاولة الأولى. لكن إذا كانت عينك، مثل عيني عوراء لا تبصر شيئًا، فعليك أن تبلّل رأس الخيط بلعاب فمك وتدبّبه بأسنانك وتقرّبه إلى المكان الذي تخال أنه سمّ الإبرة، فينعطف الخيط يمنة ويسرة إلى أن يلج، أخيرًا، في سمّ الخياط صدفة. والآن، كلٌّ من خُسْرو سَحَر جاءا إليك على أقدامهما صدفة. اذهب حتى أرى كيف سترتّق وتخيط».

وضع يوسف يده على ظهر خُسْرو وقال: «عمّتك محقّة. اذهب عزيزي... ».

نطَّ خُسْرو من مقعد الشرفة إلى أسفل وركض. ومع أنَّ زَرِي لم ترقها كناية العمَّة، قرفصت جنبها وأمسكت الخيط والإبرة وأدخلت لها الخيط في الخرم.

قالت العمَّة: «لكن ليس الخطأ دائمًا خطأك. في البدء لا يسمحون لك أن تسلكي الطريق الصحيح. وبعد ذلك، تصبحين مضطرة للمحاولة وكسر رأسك على الصخر حتى تصححي مسارك الخاطئ».

قال لها يوسف: «أختي، منذ أن اتخذت قرار

الهجرة صرت فيلسوفة زمانك».

تنهّدت العمَّة وقالت: «زرزور!».

لمحت زَرِي سيارة تشقّ طريقها إلى التلَّة بصعوبة وسَحَر هناك في الأعلى يتمايل يمنة ويسرة ويرسل صهيله. مدّت راكبته يدها وأمسكت بشعره الأصفر بإحكام حتى أطلق صرخة انشقّت لها زحمة الناس. فجاءه ردّ الأنثى والحصان الأحمر من الإصطبل. قال يوسف: «كنت أعلم أنه سيركض إلى إصطبله القديم في أول يوم يمتطوه خارج أسوار الحديقة الأربعة».

قالت العمَّة: «لله درّ هذا الحيوان النبيل!».

وصلت سيارة جديدة سوداء اللون وطويلة. رفع الخفير يده بالتحية العسكرية واعتدل الدركيان في وقفتهما وأديا التحية أيضًا. قفز السائق خارجًا. أما الرجل الذي كان جالسًا خلف السيارة فتح الباب بنفسه وترجّل. لقد عرفته زَرِي. إنه الحاكم شخصيًا. جاءت سيارة أخرى وركنت خلف سيارة الحاكم. ترجّل منها زينْگر مع عسكريين هنديين. صافح زينْگر الحاكم.

وعلى وقع حركة السيارات المفاجئة كان الناس يتفرقون ثم يتجمّعون من جديد. أما السيارة التي كانت قد توغلّت في التلَّة فاضطرت إلى التراجع من دون أن تطلق زامورها مخافة أن يجفل سَحَر من جديد.

كان الحاكم وزينْگر موليين ظهريهما إلى البستان ثم استدارا ناحيته وأشار الحاكم بيده. دنا السائق

منه وهمس له الحاكم بشيء في أذنه فتوجه صوب بستانهم. لكنه لم يدخل من الباب الذي كان يطل على سفح التلَّة رغم أنه كان مشرعًا. واضح أنه سيلتفّ حول البستان.

لم تكن زَرِي ترى ولدها وكانت تفتّش عنه بين جموع المحتشدين. حقًّا إنه الوقت المناسب، لماذا لم يظهر له أثر؟ وصلت سيارة قائد الجيوش هي الأخرى وترجّل منها قائد الجيوش وثلاثة ضباط. دفعوا أبواب السيارة التي أغلقت على صدى صوت قوي، فانطلقت السيارة ومرت من أمام سيارة الحاكم وزينْگر بمشقة. تفحّص قائد الجيوش الأنحاء. وضع الضباط أياديهم على سيوفهم وغاصوا في التلَّة. أدى الجنود الهنود التحية العسكرية للقائد. وارتفعت يد زينْگر لأداء التحية لولا أنَّ قائد جيوش الجنوب أمسكها وأنزلها، وأدى هو التحية العسكرية للحاكم. وفي هذه الأثناء كان يوسف يحمل في يده منظارًا، كان تارة يمسح التلَّة بحثًا، وتارة أخرى يسلّم المنظار لزوجته.

صهل سَحَر عدة مرات. كانت الراكبة ملتصقة برقبته وواضعة رأسها فوق عنقه. كانت قوائمه تنزلق فوق الحصى فيذهب شَمالًا ثم يميل يسارًا. كان قائد جيوش الجنوب يمسك في يده عصا سوداء قصيرة. ابتعد عن الحاكم وزينْگر وتلفّت صوب التلَّة وصاح:

«عزيزتي گيلي، أخرجي رجليك من الركاب، واجلسي على جنبك ثم اقفزي إلى أسفل».

علا صوت گِيلان تَاج: «أنا خائفة! خائفة!».

قال يوسف: «عجبًا لهذا الجنون!» فلم تعرف زَرِي أي جنون يقصد؛ جنون القائد أم جنون گيلي العزيزة.

وكأن سَحَر فطن للضباط. كان أحد الضباط بحوزته حبل. فتح حلقته ورمى بها صوب الحصان والراكبة. تقهقر سَحَر إلى الوراء وأطلقت الراكبة صرخة ثم اختفيا عن الأنظار. انتقلت الحشود إلى الناحية الأخرى من التلَّة. قفز السائقون الذين كانوا خارج السيارة خلف المقود وداسوا على دوّاسة البنزين فتحركوا إلى الأمام والخلف ثم انطلقوا. صاح القائد: «تراجعوا، أغبياء! جفّلتم

الحيوان. معقول؟ لقد كان واقفًا... »، فتراجع الضابط الذي كان يحمل الحبل وتراجع الآخرون أيضًا.

قال يوسف: «لو كانوا يملكون ذرة إحساس لتراجعوا جميعهم وتركوا سَحَر يأتي بالبنت رأسًا إلى هنا سالمة صحيحة».

فجأة، التقطت عين زَرِي خُسْرو وهو يرتقي التلَّة بخفّة، ففار قلبها كما يفور الثوم والخل حين الغليان. التفتت إلى العمَّة ملتمسة: «عمّتي، ادعي، ادعي معه». قامت العمَّة ونظرت إلى التلَّة وقالت: «واللهُ خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين(14)» ثم نفثت ناحية التلَّة.

وصل خُسْرو إلى مشارف القمّة وصفّر الصفير نفسه الذي تعود عليه سَحَر، بوضع أصبعيه في فمه، فكان سَحَر يأتيه -حيثما وُجد في البستان-

منقادًا ويشرع في شمّ أكمامه. فجأة، لاذت الحشود بالصمت. نظرت زَرِي إلى زوجها؛ ارتسمت على كامل وجهه ابتسامة عريضة ولمعت نجوم عينيه الخضراء. صفّر خُسْرو ثانية فأطلَّ سَحَر وهو يتمايل برأسه يمينًا ويسارًا.

صاح خُسْرو: «سَحَر، أنا هنا» ثم صاح ثانية: «لا تخافي، لن يرميك». سكتت الجموع وكأن سَحَر لم يكن نافرًا والراكبة لم تكن خائفة. صهل سَحَر وتقدّم رويدًا رويدًا حتى وصل إلى خُسْرو فتوقّف وطأطأ رأسه أمامه مثل هرّة مبتدئة طيّعة. كانت زَرِي تعلم أنه سيشمّ أكمام خُسْرو وموضع جيوبه وسيستسيغ الرائحة. ضمّ خُسْرو رأس الحصان إلى حضنه وقبّله ومسّد على عنقه وشعره، ثم رفع يده مقابل فم الحيوان. وكانت زَرِي تعلم أنَّ خُسْرو لم ينس السكر. بعد ذلك ساعد خُسْرو الراكبة في النزول. جلست ببوطها وبنطال الفروسية التي كانت ترتديه فوق الحصى ثم بعد ذلك تمدّدت أرضًا. أمسك خُسْرو بلجام الحصان ثم انحنى وقال لها شيئًا. نهضت البنت وجلست ثم صرخت. كان خُسْرو واقفًا أمام البنت ومن الواضح أنه كان يكلّمها. أمسك بيدها فوقفت ثم أمسكها من تحت ذراعها وانحدروا ثلاثتهم في التلَّة. كأن خُسْرو كان يكلّم سَحَر لأنه أطال أذنيه وقرّبهما إلى الأمام. في السفح انفصلت الفتاة عن رفيقيها وارتمت في حضن أبيها الذي تقدّم إلى وسط التلَّة

لاستقبالها. لما وصل الولد مع سَحَر إلى الأسفل تفرق الناس وأفسحوا لهما، ثم امتطى خُسْرو سَحَر وانطلق به راكضًا إلى البستان.

13

كانت الأنثى مُسْرجة وجاهزة للانطلاق. همّ يوسف بالركوب فإذا بكلو يخرج من الإصطبل عدوًا ويرتمي بين رجلي سيده، ملتمسًا منه أن يرجعه إلى القرية. كم تغيّر شكله بعد حمّام وحلاقة وطقم لباس مستعمل، رغم أنه كان يبدو نحيفًا. كأنهم حلقوا شعره قبل يومين. كانت حدقتا عينيه السوداوين تترأرآن في وجهه الخائر. في البداية نصحه سيده بكلام لطيف: «بنيَّ العزيز، ستظل في المدينة وتذهب إلى المدرسة وتصير إنسانًا. سوف تتعلم الكثير من الأشياء على يد خُسْرو». وكأنَّ كلو كان أصمّ لأنه لم يكن يستوعب ما قاله سيده وكان فقط يتذلل ويلتمس ليرجعه إلى أمه وأخيه. صفعه صفعة على حنكه وقال: «يا لك من غبي! أنا لست ذاهبًا إلى "كُوَار"... أنا ذاهب إلى "زَرْقَان"» وأوغل رجله في الركاب. انهار كلو بكاء ورمى نفسه على قمامة البستان وتدحرج. عوى وكأنه فرخ وقع في فخ. انحنى يوسف من فوق الحصان ليقبّل زوجته فلاحظ عينيها المبتلتين. سألها:

«هل تريدين أن أرجعه؟».

«كلَّا، سوف يذعن. هو لا يعرف مصلحته. لكن -على قولك أنت- ما جدوى خيراتك ومبراتك؟ لنفرض أنك قبلت تبنِّي هذا، ماذا عن أخته وإخوانه الآخرين؟ ومن يتبنّى آلاف الأطفال القرويين أمثاله؟».

لمّا انطلق يوسف أخذت العمَّة الوعاء الزجاجي،

الذي بيدها وكان مملوءًا بالماء وبعض أوراق النَّارَنج الخضراء، وسكبته على الأرض خلفه، ثم تبعته لتقرأ سورء الأنعام وتنفث في الوجهة التي يقصدها.

ما الآدمي؟ إلا أملٌ صغير، يعيد لقلبه النشاطَ والحياة حادثٌ سارٌّ واحد. لكن إذا طغى اللجاج واليأس فإنه يحس، وكأنه غدا حثالة أو جيفة سقطت في مستنقع. ربطت العمَّة حياتها بهم، من جديد، رغم أنَّ العبارة الذي كانت تردّدها، في الأيام الأخيرة، لم تكن سوى: «ما دخلي أنا؟!».

ذهبت زَرِي وراء كلو الذي تدحرج حتى وصل إلى الممر وسط بستان الزهور. جلست على رجليها وداعبت شعره وقالت له شامتة:

«انظر، لقد وسّخت ملابسك...».

نهض كلو وخلع قميصه بغضب ولفّه ثم رماه أمام زوجة سيده. قالت له زَرِي:

«اسمع، لو صرت ولدًا حسنًا، سوف أجعل خُسْرو يدرّسك من الغد. وحينما تتعلّم أرسلك إلى القرية لتزور أمك وتبرهن لهم أنك تستطيع قراءة أوراقهم والكتابة لهم».

لزم كلو الصمت وكأنه كان ينصت، أو لربما كان متعبًا. قال: «لا أحد يكتب لأمي أوراقًا». مسحت زَرِي بيدها على ظهر كلو المتعرّق وقالت له:

«انهض عزيزي، اغسل وجهك ويديك، وانفض ملابسك واخلعها» لكن كلو لم يحرّك ساكنًا فأردفت زَرِي:

«ماذا تريد أن أشتري لك؟». أجهش كلو مجددًا بالبكاء وقال:

«أرسليني إلى القرية. زوجة سيدي، أستحلفك بروح أطفالك أرسليني إلى أمي، إلى أخي. إنه جالس الآن على حافة الساقية يعزف الناي. وأمي الآن، تجهّز فانوس النفط. وأنا كنت قد نصبت بضعة فخاخ لأصطاد طيور الدغناش. ولا بُد أنَّ عددًا منها قد وقع في المصيدة ولا أحد هناك كي

يفكّها. قوسي وسهمي، أيضًا، تركتهما في حافة الكوّة، سوف تضيعهما معصومة. لو كنت الآن هناك لسرقت الجوز وجلست أكسره».

قالت زَرِي: «مؤكد أنَّ الدغناش سوف يصوّت وينتبه إليه أحد ويخلّصه من الفخ. سأرسل من يشتري لك جوزًا واجلس هنا واكسره. وسأعطيك مطاطًا لتصنع قوسًا وسهمًا».

ابتسم كلو ابتسامة حزينة وقال: «السهم والقوس يصنعان من الجلد وليس من المطاط».

«حسنًا، سأشتري لك جلدًا أيضًا».

تدلّت شفتا كلو وقال: «لن يذهب أحد للبحث عن الطيور، الفخاخ بعيدة عن القرية».

بدأت زَرِي تحكي قصة... : «انظر، سيدك سيرحل عن المدينة ويذهب إلى القرية، وسوف يمرّ من المكان الذي وضعتَ فيه فخاخك، بالتأكيد. سيسمع أصوات "جيك جيك"، ويترجّل ويفكّها من الفخ ثم يحرّرها».

«سيدي لن يذهب إلى القرية».

ارتفع صوت خديجة من الشرفة: «سيدتي، التلفون يرن!».

نهضت زَرِي وسألت: «من المتصل؟».

«السيدة عِزَّت الدولة».

ماذا كانت تريد؟ بالتأكيد تريد أن تمتنّ عليها وتذكّرها بجميلها وتقول: «أنا من أرسلت الحصان على حوافره إلى ابنك... ».

دخلت إلى الصالة فوجدت خُسْرو جالسًا خلف النافذة واضعًا يديه تحت ذقنه يتفرّج على البستان. قالت:

«خُسْرو، قم واكسب ثوابًا في هذا الطفل اليتيم والغريب... ».

لم يتزحزح خُسْرو من مكانه، قال: «أمي، اطردي من رأسك فكرة أن أدرّس أنا كلو».

ذهبت لتردّ على الهاتف. فهمت أنَّ عِزَّت الدولة، لمّا رجعت إلى بيتها في اليوم ذاته الذي كانت معهم، عاودتها آلام الأرجل، وجلست قعيدة البيت. سمعت أنَّ أختها تنوي التشرّف بزيارة كربلاء، وقد اشتاقت كثيرًا لزَرِي وأختها العزيزة والتوأمين. وأنها تنتظر زيارة منهم. وغدًا سوف يغيّرون ماء الحمّام في بيتهم، وتدعو الجميع لتشريفهم يوم الأربعاء بالحضور إلى الحمّام وتناول الغذاء. ورغم كل الأعذار والذرائع التي تذرعت بها زَرِي لم تقبل منها.

*

صباح يوم الثلاثاء أصيب كلو بحمّى. ظلّمت زَرِي

حجرة المؤن بالستائر الحصيرية ووضعت سريرًا وأرقدت كلو هناك ليبقى قريبًا منها. كان كلو يفتح عينيه بصعوبة وينظر إلى يديه وأصابعه المنفرجة. كان واضحًا من عينيه أنه يحاول النظر لكنه لا يستطيع. اقتنع خُسْرو وزَرِي والعمَّة أيضًا بضرورة أخذ كلو للمشفى، لم يعد هناك شك في أنَّ الحمَّى الصفراء قد أصابته، وأنَّ العدوى من الممكن أن تنتقل إليهم جميعًا. لكن أي مشفى؟ حتى الأطباء الحاذقون في المدينة أخذوا التيفوس. يقال إنَّ حالة السيدة مَسِيحَادَم وثلاث ممرضات من مشفى "نَمَازِي" وخيمة للغاية. سمعت خديجة من سكينة الخبَّازة أنَّ أمهر أطباء المدينة، الدكتور عبد الله خان، طريح الفراش لدى السيدة مَسِيحَادَم ولا يتململ قيد أنملة. قالت سكينة إنَّ الدكتور عبد الله خان يغمس فوطتين كبيرتين في الماء المثلّج ويعصرهما، ثم يلفهما، من حين لآخر، على جسم المريض العاري. وحين ذهبت سكينة لتطمئن على حالة السيدة مَسِيحَادَم ظنت أنها ماتت وكفّنوها. لطمت على رأسها وخرجت إلى الفناء تحثو التراب على رأسها... وبعد أن هدّؤوا روعها وشرحوا لها الموضوع انطلقت في طريقها إلى مرقد السيد مير محمد(13) وأشعلت عشر شمعات. وقيل أيضًا إنَّ النساء والرجال في مجلس روضة السيدة مِهْرِي وضعوا المصحف على

رؤوسهم، وقرأوا ختم (أَمَّنْ يُجِيبُ). كما أنَّ أَكْبَر خُورْدِل اشترى خروفًا وطوّفه حول فراش المريضة، ثم ذبحه ووزّع لحمه على الفقراء، وأهدى جلده لبابا كوهي، وهذا الأخير أيضًا

أنشد "يا هو يا هو" لأجل المريضة.

أجبرت السيدة العمَّة زَرِي على الاتصال بالسيدة الحكيمة، فردَّت عليها السيدة الحكيمة قائلة: «للأسف، الأسرّة في مشفى المرسلين تكون خاصة بالضباط والجنود الأجانب، وجميع الأسرة تكون ممتلئة، وحتى في الردهات لا يكون مكان شاغر».

ومن كثرة ما كرّرت "يكون تكون" أغلقت زَرِي السمّاعة في وجهها من دون وداع، وقالت للعمّة التي ظلت واقفة بانتظار النتيجة: «واضح أنهم بنوا المشفى تحسبًا لأيامهم العصيبة... ».

تضامنت عقولهم وشرعوا بالعلاج. أطعموه الترنجبين وعصارة مسهِّلة، ثم بلّلوا فوطة وعصروها ولفّوها على بدنه. ناولوه عصير البطّيخ. كان ظمآنًا للغاية يبتلع كل مشروب بارد بشهية. نقّعوا بذور البرغوثي ووضعوها في خرقة نقية وخاطوا عليها بخيط قالب السكّر، ثم وضعوها في كوب ماء بارد. فكان كلٌّ منهم يأخذ لفافة بذور البرغوثي ويدهن بها شفتي المريض المتيبستين المطبقتين. أحضرت العمَّة علبة قيطانها الأبيض الذي تركته لمدة في ضريح "شَاهْ تْشِرَاغ"، وفتحتها وقطعت شبرين وعلقته على رقبة كلو وعقدته، ثم جلست على رأسه تنشد له. لكن مع كل هذه الخطوات كان يبدو أنَّ العمَّة فقدت معنوياتها من جديد. في الواقع، منذ صباح اليوم الذي انتبهت فيه زَرِي إلى ارتفاع حرارة كلو، بدأت تلمز وتلمح بكناياتها: «من الواضح أنَّ هذا اليتيم أصيب بالحمَّى

منذ أيام، لكننا لم نفهم حينها، وكنا نخال أنه يتألم من الغربة... نعم، الأم تتحرّق شوقًا والخال يتكلَّف مَلَقًا!».

في المستشفى لا يكترثون لأحد، ظلوا يحاولون إلى العصر، ولم ينجحوا في جلب طبيب إلى فراش كلو الذي أغمي عليه وشرع يهذي ويقول: «الطيور في الفخ.. تشريك، بريك. تشريك، بريك..

المنقار على التراب.. الأرجل في الهواء.. ثم پل پل.. پل پل.. لا ماء، ولا حبّ.. بوم، بوم... احترق».

في المساء، التمست زَرِي من خُسْرو أن يذهب مع غلام إلى بيت السيدة مَسِيحَادَم ويترجيان الدكتور عبد الله خان ليطل سريعًا على مريضهم. لكن خُسْرو لم يذهب. قال: «إنني أريد أن آخذ سَحَر في نزهة، بعد ذلك سأذهب أنا وهُرْمُز إلى بيت السيد فتوحي، فأبي لم يمنعني من ذلك».

تركت زَرِي المكان وقالت: «عجبًا، ولد قليل الحياء!»، ثم زمجرت: «فتوحي مجنون مثل أخته، يضلّل أبناء الناس». حتى إنها أرادت أن تقول: «لوّاط غلمان»، لكنها تراجعت في الوقت المناسب، وقالت مواسية نفسها: «سامحك الله يا رجل! يا للورطة التي رميتنا فيها! لو مات هذا المسكين بين يدي أيَّ تراب أحثو على وجهي؟!»، ثم نذرت على نفسها لو شفي الطفل أن ترسله على الفور إلى القرية، شاء يوسف أم أبى.

كانت لا تريد التذلّل لجناب الأخ لكنها اضطرت إلى ذلك. رجع غلام من عند الدكتور عبد الله خان خائبًا.

قال له الدكتور إني كبرت، ومن الأفضل أن يتركني الأهالي المحترمون لأنعم بتقاعدي كما يحلو لي.

لو لم يوافق جناب الأخ، كانت ستذهب بنفسها إلى بيت السيدة مَسِيحَادَم وتترجّى الدكتور حتى تأتي به على رأس مريضها. لا يصح أن يتفرغ طبيب لمريضة واحدة ويقول للمرضى الآخرين إني تقاعدت، مهما كانت تلك المريضة شابة وتعبت كثيرًا من أجل أهالي المدينة.

كان أبو القاسم خان في البيت. رفع السماعة بنفسه وسأل: «يا للعجب، زوجة أخي تذكرتنا!»، تورّد خدّاه. لم يسمح لزَرِي بأن تفرغ ما بجعبتها، فقال: «سمعت أنَّ سَحَر رجع إلى خُسْرو على حوافره... لم أكن موجودًا يومها. فررت إلى الجبل والسهل من شر الموكّلين المحترمين.. إنهم يخالون أنني وكيلهم الحقيقي.. بدأت أوامرهم وطلباتهم تنهال عليَّ من اللحظة. أحدهم يقول جِدْ

لمريضي سريرًا في المشفى، وآخر يقول انتزع لي حقي من العدلية، وآخر يطلب مني تسجيل ابنته في مدرسة "مِهْرآيِين" بالمجان... عزيزي! دفعنا سبعين ألف تومان ثمنًا لهذه الوكالة.. على كل حال، سمعت أنَّ المتفرجين كانوا كثرًا. قال لي زينْگر إنَّ ابن أخيك صال وجال في الميدان مثل أسد جموح، بقميص يتيم وخُفّ اجتاز الجميع... زوجة أخي، لماذا لم يظهر خُسْرو أمام الناس بهندام مشرّف؟ الخلاصة أنه قال: "لمّا وقعت عين الفرس على عينه وكأن معشوقًا لقي عاشقه، اشتمّه وقبّله وغشّى رأسه في

حضنه..."، لكن شوفير الحاكم اشتكاكم، وقال إنَّ أحدًا لم يستقبله رغم طرقه باب بستانكم».

أوضحت زَرِي: «كنا نجلس في الشرفة خلف المبنى، ولم تكن همهمة الحشود تسمح لنا بسماع صوت باب البستان». ثم ضغطت على نفسها كثيرًا كي تقول: «يا جناب الأخ، أنا أترجّاك. أصيب كلو بالحمَّى الصفراء، ووقع في يدي. لم أستطع أن أحضر له طبيبًا أو شيئًا آخر، كلهم مشغولون».

سألها جناب الأخ: «أيُّ كلو؟ لماذا يُحضر مرضى القرية إلى المدينة؟ وفي بيته. ألا يرحم رخاوة أطفاله؟ ألم يكن يقول إنَّ العمل باطل، من الأساس، وخيراتنا ومبراتنا، أنا وأنت، لا طائل من ورائها؟ كان يقول لك ذلك أمامي، يا زوجة أخي!».

«هذا صحيح. لكن كلو هذا، ابن راعينا الذي توفي مؤخرًا. حين جاء إلى المدينة لم يكن مصابًا. والآن أصيب». كانت تعلم أنها لو أخبرته بأنَّ يوسف قبِل تبنّيه، كانت ستسمع، لساعة، محاضراته عن عيوب التبنّي.. في الأخير وافق جناب الأخ وقال:

«لأجلك فقط يا زوجة أخي ولأجل أولادك الوديعين، سوف أقوم بترتيباتي كي يرقدوه في مشفى المرسلين».

«اتصلت أنا بمشفى المرسلين. لم يكن لديهم مكان».

قال جناب الأخ بنبرة تشي بالغرور: «لديهم مكان لي أنا».

كانت الساعة تشير إلى الثامنة ليلًا حين اتصّلت

السيدة الحكيمة. في البداية عاتبت: «لماذا لم تقولي إنَّ المريض يكون لحضرة جناب السيد أبو القاسم»، ثم قالت: «هناك سرير شاغر يكون جاهزًا في الردهة، ويكون مفصولًا ببارافان عن مريض هندي. والمريض الهندي يكون مصابًا أيضًا بالتيفوس. ويكون أقراص مخصصة لعائلة حضرة جناب أبو القاسم، سأعطيها لمن يتواصل.. لمن يكون محتكًا بالمريض ليتناولها».

نصبوا خيمة في باحة المشفى ووضعوا بها أسِرَّة. كانت رائحة حمض الفينيك المنبعثة تحرق أنف المرء. كان أكثر المرضى من البيض ذوي الشعر الذهبي. لم يكن أولئك مصابين بالتيفوس لأنهم إما كانوا جالسين على السرير برؤوس مضمدة بالأشرطة وأياد معلّقة إلى الرقبة، أو مستلقين على السرير معصوبي الأعين بأرجل مُجبَّسة. كان هناك أربعة رجال جالسين إلى طاولة يلعبون الورق، وصفرة شعرهم كانت تستحيل مذهّبة تحت ضوء الفانوس النفطي المعلّق في وتد الخيمة. لم يكونوا يعانون، على ما يبدو، من مرض أو نصب.

طوال هذه المدة، أي منذ جلوسهم في العربة وحتى وصولهم إلى السرير المخصص، كان غلام يحمل كلو في حضنه. وحين طرحه على الفراش وضع يديه على خصره. كان صوت نحيب مريض هندي يشي بالكبرياء ينبعث من خلفهم بكلمات لم تعرف زَرِي معناها: «سري راما، سري راما. كريشنا». ويرتفع مرة أخرى النحيب أكثر فأكثر، وكلمات،

كانت زَرِي تخمّن أنها أسماء لأقرباء المريض... «ساندرا.. ساندرا.. كيتو».

عادت إلى البيت وخُسْرو لم يرجع بعد. في البدء، همّت بأن تتصل بفتوحي وتسمعه كل ما يتبادر على لسانها وتفرغ على رأسه غضبها ونقمتها، بيد أنها سرعان ما أحجمت. ما ذنب فتوحي؟ أبناء الناس يبحثون عن سبيل للرجولة، وكان هو الوسيلة. قررت الانتظار حتى يرجع وتستفسره. فكّرت أن تبدأ بمداراته، ثم تنتحي سبيل العنف لتشعل، في الأخير، خصومة تنتشي بها.

لكن خُسْرو قدم مشحونًا بالمداراة، ولم يترك لها مجالًا للمرافعة والاستجواب والعنف. فور وصوله انقضّ على رقبة أمه يقبّلها وسألها من دون مقدمات: «أمي، أنت لم تكوني من علية القوم، أليس كذلك؟».

عاجلها بأسئلة متسارعة: «كان أبوك إنسانًا كادحًا... من طبقة... آه، نسيت اسم الطبقة... على كلّ حال، أبوك كان رجلًا كادحًا، أليس كذلك؟».

«لماذا تسأل؟».

«الرفاق يتحسرون جدًا كوني والرفيق هُرْمُز لدينا أثر من الأشراف. كيف لنا أن نطهِّر هذا الأثر؟».

ضحكت زَرِي، واعترف خُسْرو أنَّ الرفاق يناهضون السِّروال الأنيق والمكويّ، وقال إنه وهُرْمُز قررا، حين ذهابهما لحضور الاجتماعات، أن يلطِّخا سرواليهما بالطين ويكمّشانهما، أما الكرفات فكلَّا وأبدًا... ثم اعترف أيضًا أنه قصّ بالمقص سرواله

الرمادي الجديد من ركبته، وسحب خيوطًا من حواشي الموضع الذي قصّه كي يبدو السروال بهيئة مهترئة... ثم كشف أنَّ الرفاق ابتهجوا لأن جدّ أمه كان فقيرًا معدمًا.. قال:

«أمي، قلت لهم إنَّ أم أمي كانت، كل صباح، تأكل خبزًا حافيًا حتى انكسر سنها الأمامي. قلت لهم إنَّ أمي تأخذ الخبز كل أسبوع للسجناء والمجانين، وقلت لهم أيضًا: في ذكرى الخبز الحافي الذي كسر سن أمها... ».

«أنت أيضًا تعلمت الكذب».

«الرفاق فرحوا كثيرًا. والآن احكي لي... عن ذاك اليوم الذي عصيت فيه السيدة مديرة المدرسة الإنجليزية، تشاجرتِ معها مرارًا... وقاومتها. تلك الليلة قلتِ ذلك بنفسك. هذه المقاومات تهمني كثيرًا».

انقبض قلب زَرِي وفكّرت: «أيُّ مقاومة؟!».

... عصر ذلك اليوم، زار المدرسة مجموعة من الإنجليز الذين وصلوا حديثًا من لندن. عُطّلت الدراسة لفترة الصباح كي ينظف نَظَرْ عَلِي بِيْگ، بوّاب المدرسة، الفصول. أرسلت السيدة المديرة البنات إلى بيوتهن وقالت لهن أريدكن أن ترجعن جميعكن بعد الظهيرة إلى المدرسة طاهرات نقيات، ومرتديات، على الخصوص، بلوزات بيضاء ناصعة ومكوية تحت وزراتكن. كان والد زَرِي قد توفي حديثًا، وكانت هي، حدادًا عليه، ترتدي بلوزة سوداء تحت وزرة بيضاء وسوداء تلتصق قذارة. كل البنات

في فترة الحداد كنَّ يصنعن الشيء نفسه. لم يكن ممنوعًا. والآن، كيف لزَرِي أن تحضِّر بلوزة بيضاء في بحر ساعتين أو ثلاث؟ وبأي نقود؟ لم تكن أمها في حالة انشراح، وكانت نائمة في فراشها. كانت تقول إنَّ ثديَّ يؤلمانني، وتفشّت تحت إبطي غدد دقيقة جدًا بمقدار حبة عدس، لكنها لم تكن تسمح لزَرِي بلمسها. كانت تقول لما جئنا كان مرضي معديًا فانتقل إليك. لم يكن ممكنًا إرسال الأم عند دَرْوَر، الصائغ الأرمني، لترهن عنده طبق شيشتها الفضي أو تبيعه وتشتري بمبلغه قماشًا أبيض لزَرِي. وحتى لو فعلت متى كانت ستخيط البلوزة؟ كم كانت ضائقتهم شديدة – على حد تعبير أمها- خلال الشهور الأولى لوفاة الأب. حينها، لم يكن هناك معاش ولا أي شيء آخر. لاحقًا اقترح عليهم مدير مدرسة الشعاعية أن يكتبوا طلبًا، فاستدعى أخا زَرِي إلى مكتبه وشرح له بهدوء كيف يمكنهم تقديم هذا الطلب وأرشده كيف يكتب كتابًا ولمن يوجهه. لمّا عاد أخو زَرِي إلى البيت وحكى الواقعة، انحنت الأم على الأرض وسجدت وقالت: «كنت أعلم أنَّ الله سيفرجها!».

لكن زَرِي، يومئذ، جازفت وغسلت البلوزة السوداء نفسها وكوتها وذهبت إلى المدرسة وقالت لن تقتلني المديرة. ما إن وقعت عين السيدة المديرة عليها حتى نطّت من مكانها تهمّ بضربها. صاحت مزمجرة: «أنت يا شبرين من القذارة والخسة، ألم تسمعي الكلام؟!». كانت هذه من بين كل مواطنيها تُتقن الفارسية جيدًا.

«أنا ألبس السواد، لم يمر على وفاة أبي شهر كامل».

ضجّت السيدة المديرة: «جوابك على حد لسانك. متى كان أبوك معتقدًا بهذه الخرافات؟».

ثم هدأت وقالت: «خسارة لأنك تجيدين الإنجليزية أكثر من جميع الطالبات، وأريدك أن ترحبي بالضيوف بالإنجليزية وتقرئي لهم شعر "لو" لكبلينغ، وإلا كنت سأطردك من المدرسة. هل أخطأتُ حين أعفيتك من الواجب الشهري؟».

لقد أفشت ما يمكن إفشاؤه. حتى ذلك اليوم لم تكن زميلات زَرِي على علم بأنها لا تدفع المستحقات الشهرية. فكّرت: «كيف ستنظر في وجوههن؟».

لم تستوعب كيف عثرت، في ظرف ربع ساعة، على بلوزة بيضاء بمقاس زَرِي وأحضرتها وناولتها إياها: «هيا البسيها!».

لكن زَرِي لاججت وقالت: «أنا ألبس السواد، أبي مات!».

اضطرت لأن تباشر العمل بيدها، وأمام أعين كل الطالبات خلعت وزرة زَرِي القذرة باحتراس، ولمّا وصلت إلى البلوزة السوداء سحبتها حتى تمزقت أكمامها. ثم ألبستها البلوزة البيضاء بحيطة وحذر.

دخل زينْگر إلى المدرسة قبل الجميع وجَمَع البنات اللواتي كنّ متفرقات في بستان المدرسة. معظم البنات يعرفنه لأنهن اشترين منه ماكنة الخياطة. قاس البنات بعينيه وقال: «هكذا يدخلوا إلى القاعة،

أنتم، الجميلات، يعظِّموا! هم يعطون الفلوس من جيوبهم. يوسِّعون المدرسة في سبيل المسيح، يفعلون»، ثم نادى على زَرِي وقال لها: «زهراء، أنت حين يقرأ التحية، السيدة تعطي يدها وأنت يقبلها!».

دقّت السيدة ناظرة المدرسة الجرس فاصطفّت كل البنات وتوجهن صوب قاعة الاجتماعات ومكثن هناك بالانتظار. تقدم زينْگر وتبعه إلى القاعة أولئك العجزة والعجائز الحُدْب، ومنتصبو القامة

وطوالها ومتوسطوها وقصارها. أحصت زَرِي ستة عشر فردًا. كان زينْگر يعظِّم إحدى العجائز أكثر من البقية. كأنَّ عصفورًا بنا عشًّا فوق القبعة التي تعتمرها تلك العجوز، كان فاردًا جناحيه على القبعة يهمّ بالطيران لكنه لم يزل جالسًا، وكان ثمة أيضًا فرخ عصفور مشرئبًا برأسه.

تقدمت زَرِي وألقت تحيتها، بينما السيدة المديرة راسمة ابتسامة على شفتيها الناعمتين، وزينْگر محدّق، طوال الوقت، في وجه العجوز ذات قبعة العصفور. مدّت العجوز يدها فصافحتها زَرِي فتجهَّم زينْگر.

بعد ذلك التحقت زَرِي بجمع البنات وأنشدن جميعًا أنشودة "المسيح في السماء"، وأنهينها بأصوات مرتفعة أكثر من العادة: «گو، هلو ليا! گو، هلو ليا!». فتحت معلمتهن الهندية الإنجيل، وأسدلت خلف ظهرها شعرها الأسود الطويل الذي تهادى على نهديها، وقرأت رسالة الرسول بولس إلى أهالي مدينة كورنتوس: «لو أتحدث بلسان الملائكة... ».

لكن حين وصل دور زَرِي لتقرأ الشعر، فعوض شعر "لو"، قرأت قصيدة "عذاب شمشون" لميلتون، جرى على لسانها تقائيًا:

«ظلمة! ظلمة! ظلمة! في سطوع حرّ الظهيرة!»

أثناء المغادرة ضغطت السيدة المديرة على ذراع زَرِي وقالت بصوت خفيض:

«فتاة حقيرة ومنحوسة!».

كانت هذه تتقن الفارسية جيدًا، وتعرف العبارات التي لم تكن حتى زَرِي وزميلاتها يعرفنها.

14

مرضُ كلو ومتاعبه أنسيا زَرِي كليًا ضيافة عِزَّت الدولة. لكن عِزَّت الدولة لم تكن لتنسى. من المؤكد أنَّ تلك السيدة ذات الأبهة استعدّت جيدًا لهذه الضيافة لأنها اتصلت يوم الأربعاء في الصباح الباكر بألا تنسوا الموعد. وجاء دور العمَّة الآن كي تتكّد:

«اذهبي أنت أما أنا فلن أذهب. لقد ذهبت أول أمس إلى الحمَّام. وأنت، يا زوجة أخي، لم تنبسي بكلمة لتقولي لا تذهبي. فضلًا عن ذلك، فلم أعد أطيق بروتوكولات عِزَّت الدولة. تفرش سفرة كبيرة عريضة لكن عينها الحولاء تتتبع كل لقمة يرفعها المرء إلى فيه، وتراقب السكريّة لترى كم حبّة سكر يلتقط المرء. إنها بكل تأكيد ترى من الشيء اثنين».

لم تكن زَرِي في حياتها قط أكثر إرهاقًا مما كانت عليه في الأيام الأخيرة. قالت:

«يا عمَّة، الضيافة على شرفك، ثم إنَّ عِزَّت الدولة صديقتك»، كادت تقول: «أختك بالتسمّي، وقرينتك» لكنها لم تقل. ثم أردفت: «أساسًا، أنتِ تبرأت منا في الأيام الأخيرة، أي عمَّة. حتى إني أسررت في نفسي أنك تريدين قطع صلتك القلبية بنا لأن السفر استحوذ على كل تفكيرك».

«أحسنتِ الفهم. وأنا هناك، لا أريد أن أغتمّ لأمركم كل لحظة وحين... كما لا أريد لهؤلاء المساكين أن يظلوا متعلّقين بي لفترة طويلة، بعد أن أغيب عنكم»، لكن في نهاية المطاف رضيت العمَّة بالذهاب.

قطعن الشوارع راكبات العربة، ومررن بين الأزقة والطرقات راجلات. كانت خديجة تحتضن الطفلتين بالتناوب؛ مينا أولًا ثم مرجان. وكل طفلة اضطرت للمشي على قدميها كانت تمسك بيد زَرِي فتقودها بحذر شديد للسير فوق أحجار الزقاق المدبّبة. اجتزن زقاق "الشقاق والصلح"، وقبل الوصول إلى محلة "سَرْدُزَك"، انعطفن يمينًا وتوقفن قبالة البوابة الكبيرة لبيت عِزَّت الدولة حتى تسترجع خديجة أنفاسها. قرأت السيدة العمَّة الآية المنقوشة على فسيفساء البوابة «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا»، ثم ألقت نظرة على بوابة بيتهم القديم، المقابل لبيت عِزَّت الدولة، وقالت: «يا للعجب، كم صارت خربة!».

كان الباب مفتوحًا. مررن من مسقوفة البيت الرطبة والواسعة من أمام البوّاب الذي كان جالسًا على تخت مسندًا ذقنه على يديه. ارتجّ وهبّ واقفًا كمن طار من النوم فزعًا. ألقى التحية ونزع قبعته اللّبادية من رأسه وقال مرحِّبًا: «تفضلن!». على باب الفناء الخارجي، كانت خادمة مسنّة سوداء البشرة واقفة، تحمل بيدها وعاء زجاجيًا صغيرًا. أزاحت غطاء الوعاء وألقت التحية وقالت: «تفضلن!». تناولت الكبيرات حبة لوز معطّرة بنكهة زهر الياسمين ووضعنها في فمهن. ثم انحنت الخادمة السوداء وقدّمت الوعاء الزجاجي للتوأمين، ثم اعتدلت وقرّبته إلى خديجة. وعلى باب حجرة الحريم، حيث جُنَيْنَة النَّارَنج، كانت فردوس تقف، ملتحفة بشادور صلاتها الحريري الأزرق، وتمسك بيدها علبة مناديل مطيّبة بعطور العنبر والمسك وروائح أخرى، تقدّمها لهن، مثلما فعلت الخادمة السوداء تمامًا. تناولت زَرِي منديلًا رطبًا وألزقته بوجهها وراحت تشتمّ عطرها المفضّل، وكأنها تتنشّق عطور الدنيا بأكملها.

في القبو الكبير، كانت نافورات الأحواض المرمرية البيضاء مشغَّلة. وفي صدر القبو، كانت عِزَّت الدولة جالسة على بطانية مطوية على أربعة. اعتذرت لهن عن عدم قدرتها على الوقوف لاستقبالهن، لأن عرق النساء المزمن الذي ألمّ بها لن يبرحها حتى أربعينية الصيف. قالت: «شرفتنّ وتكرّمتن ورفعتنّ مقامي عاليًا!».

جاءت فردوس، زوجة كَرْبَلائِي عباس البوَّاب، ببقجة كشميرية ووضعتها أرضًا أمام السيدة العمَّة، وساعدتها على خلع شادورها الأسود. وإلى أن طوت فردوس الشادور بكل لباقة ولين، كانت العمَّة

قد فتحت البقجة الكشميرية ونظرت إلى الشوادير المرتّبة داخلها، واختارت شادور صلاة كحليًا بسيطًا وتناولته. فتحت فردوس الشادور ووضعته على رأس السيدة العمَّة ثم أخذت الشادور الأسود المطوي ودسّته داخل البقجة بجانب شوادير الصلاة، ثم أغلقت البقجة وأخذتها.

بعد ذلك، أحضرت لهن قدحًا خزفيًا مزركشًا مترعًا بعصارة الليمون الحامض، وبداخله ملعقة خزفية مزركشة وعليها نفس نقوش القدح. وضعت القدح أمام عِزَّت الدولة باحتراس شديد. أحضرت العجوز،

الخادمة السوداء، صينية فضية بها كؤوس بلورية مصقولة، ووضعتها جنب قدح العصارة. سكبت عِزَّت الدولة العصارة في الكؤوس بلباقة، وتوجهت إلى العمَّة بالقول:

«هنيئًا لك، يا قُدْس السَّلْطَنَة.. لو لم يكن عرق النساء هذا لتمنيت، أنا أيضًا، الذهاب لمجاورة ذلك الإمام».

كانت زَرِي قد نسيت بالمرة أنَّ قُدْس السَّلْطَنَة هو لقب السيدة فاطمة. قالت السيدة العمَّة:

«قبل كل شيء، اؤْمُرهم أن يوقفوا هذه النافورات، لأن الرطوبة ليست مفيدة لآلام رجلك».

لم تأمر عِزَّت الدولة بذلك، فخمّنت زَرِي: «آلام الرجل خدعة... وليتها تذهب إلى صلب الموضوع، أي السبب وراء هذه الضيافة وهذا الاستقبال الحار». وكي تشاركهما الحديث، امتدحت جمال لون شعر عِزَّت الدولة. ابتسمت عِزَّت الدولة ومسّدت على شعرها الذي يماثل نضارة لون حجر الترياق، وقالت:

«كل المعارف بمن فيهن زوجة الحاكم، قتلن أنفسهن كي يحصلن على نسخة من لون شعري، لكني لم أطلع ولا واحدة منهن. كل من يراني، يقول يا له من رأس جميل! فأجيبهن: فداء رأسكن! لكن، عزيزتي زَرِي، سأطلعك أنت على الخلطة، فأنت بمنزلة ابنتي. كنتُ أنا والمرحومة أمك كروح واحدة في جسدين. كم تمنيتُ أن تكوني عروستي، فقد اختارك ولدي البارّ حميد من بين كل تلك الفتيات،

لكن لم يكن مكتوبًا، أي أنك ترفَّعت. لكن شعرك البلوطي جميل جدًا ولم يشب بعد، وخسارة لو تصبغينه، فبمجرد ما تصل الصباغة إلى الشعر، يبيضّ بالكامل».

«أطال الله عمرك!» أجابت زَرِي، وفي باطنها قالت: «أحمد الله أني لم أغدُ زوجة لابنك المخنّث».

حدّقت عِزَّت الدولة فيهما معًا، ولم تعرف زَرِي فيمن تحدّق. قالت:

«سأقول لك لكن أستحلفك بموتي ألا تخبري أحدًا. إنه سرٌّ في عائلتنا.. الحناء والبن والكاكاو -الكاكاو، نعم، أنا أضفته- يليّن الشعر. خذي ملعقة كبيرة من الحناء والبن والكاكاو واخلطيهم بماء البابونج، ثم ادهني الشعر كله بهذا الخليط. بعد ذلك خذي ورقة جوز طازج وضعيها على الصبغة، واربطيها على رأسك ليلة كاملة أو من الصباح إلى المساء... ».

لم يكن لزَرِي، أصلًا، مزاج لخلطة صباغة الشعر. لو كانت أمها المسكينة على قيد الحياة كان سيكون كلام آخر. كانت أمها قد نذرت لو شافاها الله أن تهدي لحرم أبي الفضل العباس كفًّا فضية، وحين تعود تصبغ رأسها مثل صبغة عِزَّت الدولة. قالت ستسخلص منها الخلطة بأي ثمن كان. لكن أين هي الأم الآن؟ كانت زَرِي تدعو الله ألا تكون عِزَّت الدولة تبتغي منها شيئًا من وراء هذا الكرم الحاتمي.

لمّا ذهبن إلى مشلح الحمَّام، كانت الخادمة السوداء جالسة بجانب جهاز جرامافون ذي البوق المخروطي. وفور رؤيتهن شغّلت الجرامافون على

أغنية «ذَهَبْتِ ونَكَثْتِ عَهْدَك... ». كان المرمر الأبيض يغطي جدران المشلح إلى المنتصف، والنصف الآخر كان مدهونًا بالطلاء حتى السقف. زَرِي، في ذلك اليوم المعلوم، زارت هذا الحمَّام نفسه وقاعة الرياضة العتيقة التي بجانبه. ذاك اليوم الذي قادت فيه مدرِّسة الصف التاسع فتيات في مقتبل بختهن إلى مشاهدة منزل عِزَّت الدولة بدعوى الخرجة العلمية وزيارة المباني التاريخية.

كان المنزل، حقًّا، من معالم المدينة، ومستبعد ألا تزوره الشخصيات الهامة من الأجانب الذين يأتون إلى المدينة.

كانت مهمة إرشاد الزوّار، وقتها، تقع على عاتق حميد خان. آنذاك لم تكن الحجرة الكبيرة المنقوشة مزودة بالكهرباء، فكان حميد خان يستعين بسراج نفطي، يرفعه عاليًا حتى يُري الفتيات نقوش سقف الحجرة الذي زُيّن بالكامل بصور لرأس امرأة بجوار رأس رجل. كانت أفواه النساء بحجم حبة رمان، وعيونهن عيون ظباء، ودوائر شعرهن كحلقات السلسلة. وكانت رؤوس الرجال شبيهة برؤوس النساء مع فارق وجود الطرّة وغياب الأقراط.

حينئذ، لم تكن زَرِي متفطنة لتحريّات حميد خان. لكن في الأسبوع الموالي لمّا فرضت عِزَّت الدولة نفسها عليهن في ردهة حمامهم وتفحّصت جسمها العاري بعينها الحولاء، أدركت أصل الحكاية. كانت تتقزز من نظرتها وتشعر وكأنها تقتطع شيئًا من بدنها. وذات مرة، وبكل وقاحة وضعت يدها تحت ذقنها وأمسكت وجهها تحت ضوء فتحة الحمَّام

وقالت:

«ما شاء الله.. ما شاء الله.. لم أر جسمًا بهذا البياض وبهذه العذوبة! وكأني أعاين البلور الشفّاف. عيناك كستنائية اللون. لم أر عينين بهذا اللون. الله خلقك لأجل محبة روحه.. تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين! قسمًا بالله، لو لم نكن في الحمَّام لظننت أنك دهنت مساحيق أو شيئًا من هذا القبيل... ».

كانت زَرِي تود لو تضرب على يدها وتحرّر ذقنها من قبضتها، لكن هل كانت تستطيع؟ كانت تدرس في مدرسة الإنجليز درس "آداب التعايش" ساعتين في الأسبوع، ودرس "الأخلاق" ساعة واحدة. في الواقع كانوا يدرسون الإنجيل عوض درس الأخلاق، لكن آداب التعايش كانت آداب التعايش. والآن، هل كانت عِزَّت الدولة لتتركها وشأنها: «أسنان مرتبة وبيضاء، رقبة ذات حسن وبهاء، كأنها صقلت من مرمر، رموش طويلة... ».

كانت التوأمان مشدودتين إلى الرسوم لدرجة لم تسمحا لخديجة بخلع ملابسهما. راقتهما، على الخصوص، صورة فارس يضع أصبعه في فمه وصورة امرأة عارية تمشّط شعرها الطويل. في يوم زيارة المآثر التاريخية ذاك، عطّل حميد خان كثيرًا الفتيات في مشلح الحمَّام كي يقدِّم شرحًا مستفيضًا لتلك الصورة، أي الصورة التي تبرز مشهدًا من قصة "خُسْرو وشيرين"(12)؛ امرأة عارية بنهدين شبيهين بقربتين، جالسة بالقرب من نبع ماء وهي تمشّط شعرها الطويل الأسود، يفصل

بينها وبين الفارس ستارة معلّقة. كان الفارس كثّ الشارب يعتمر قبعة ملكية، ومع أنه كان ينبغي، وفق الأصول، أن يكون وراء الستارة، إلا أنَّ كل تفاصيله وتفاصيل فرسه كانت بارزة. والمرأة أيضًا لم تكن ساترة للعورة بالمطلق.

وعدت زَرِي التوأمين لو سمحتا لخديجة بخلع ملابسهما، أن ترسلهما، عصرًا، إلى قاعة الرياضة العتيقة بجانب الحمَّام لتتفرجا على "رُسْتَم" ولحيته ذات الشقين وكسوة حربه الجلدية التي صنعها من جلد الشيطان "أَكْوَان"(12*) بعد أن قتله وسلخ جلده.

في الحمَّام اكتفت العمَّة بالاستحمام ثم انصرفت، ولم ترغب أن يصاب رأسها بدوّار أسطوانات الجرامافون. أما زَرِي فسعت للمكوث هناك قدر ما تطيق. جلست في أول دكة داخل حوض الماء الدافئ، وراحت تهرق الماء على بدنها حتى شعرت براحة غشيت كل أعضائها وخشّبتها. أطبقت عينيها وأسندت رأسها على حافة الحوض. لمّا خرجت جلست على قطعة معدنية مسطّحة بيضاء لامعة ووارت جسدها إلى ما دون نهديها بقطيفة بيضاء مطرَّزة. جاءت الخادمة السوداء عارية كما ولدتها أمها وأحضرت بطيخًا. وضعت آنية البطيخ على قصعة نحاسية فارغة، وقد شطرت دوائره على شكل قفص صدري. تكوَّرت أعين مينا ومرجان لرؤية الخادمة السوداء، وهمّت مرجان بالبكاء لولا أنَّ سؤال مينا أوقفها:

«أمي، هذا بجلده، ألم تقولي إنهم نزعوا جلده ولبسه الرجل الملتحي؟!».

ضحكت زَرِي فيما قالت الخادمة السوداء: «إلهي أنزل عليّ أنا بلاءها وقدرها! سوف أذهب لأُبخِّر لكن».

دخلت نَانَة سَيِّد، أمهر دلَّاكات المدينة، تمسك بيدها غُرَّافًا لامعًا نُقشت على حواشيه أدعية، وتصلّبت في مكانها لمّا رأت زَرِي. ومع ذلك سلّمت. كانت تستر عورتها بفوطة حمراء طويت على شكل منديل أُدخل من طرفيه شريط أحمر كحزام وعُقد في وسط رجليها. في ذلك اليوم المعلوم، كانت نَانَة سَيِّد هذه موجودة أيضًا في حجرتهم الخاصة في حمَّام شَابُورِي. جاءت لتدلّك عِزَّت الدولة فأمرتها أن تبدأ بغسل زَرِي، فأقبلت مستبشرة ودلّكت يدها اليمنى، وحين وصلت إلى اليسرى أثقلت عليها وآلمتها، فقالت لها زَرِي: «بالراحة قليلًا!» غضبت منها ونزعت الليفة وألقتها أمام زَرِي وقالت لها: «ادلكي بنفسك لو كنت تعرفين!». فرحت زَرِي كثيرًا لأن أمها لم تكن تملك نقودًا كي تعطي الدّلاكة أجرتها وإكراميتها.

دخلت نَانَة سَيِّد بغُرَّافها وقصدت الحوض رأسًا فملأت الغُرَّاف ثم أتت ناحية زَرِي وأفرغت على كتفيها الماء وجلست على الأرض قبالتها. انتبهت زَرِي لقطرات عرق فوق أنفها، سحبت إليها بساط الحمَّام الذي فُرش على صينية ذات قوائم. أخذت الملح من طشت صغير ودهنت به باطن قديمها، ثم

تناولت حجرًا لينًا ذا غطاء فضي وأخذت تحك به باطن قدميها بأناة ورِقَّة. كانت تحس بدغدغة لكن لم تكن تبدي أي ردة فعل. دخلت الخادمة السوداء مجددًا وطافت بقبضة يدها على رؤوس الجميع، بما فيهن خديجة ونَانَة سَيِّد، وخرجت، ثم ما لبث أن تصاعدت روائح البخور من المشلح.

جلست زَرِي على الدُّكة الخارجية للحوض، وأخذت نَانَة سَيِّد تمشّط شعرها بطين الغاسول الممزوج بأوراق الورد الأحمر. كانت تفكّر أنه من المجحف تلطيخ لمعان هذا المرمر الأبيض بالطين، لكنها أسلمت نفسها لمرونة تمشيط الدّلاكة، وراحت تستحضر أريج الروائح العطرة التي لم تزل قائمة في مشامها... منديل الروائح –الياسمين-الليمون الحامض-الورد الأحمر... وتمنّت لو طال أمد ذلك النعيم.

15

مع كل الحشو والتفاصيل والمقدمات لم تدخل عِزَّت الدولة إلى صلب الموضوع. وعصرًا، جلس الضيوف على تخت خشبي محاط باثني عشر مقعدًا يطل على الحوض. فُرش التخت بسجاد، ووُضع على السجاد بساط بارد مخطط، وعلى امتداد مَسند التخت الطويل والمشبّك صُففت مخدات مزدانة بورود وبوتقات. أخذت عِزَّت الدولة مكانها في صدر المجلس وكانت تروِّح على نفسها بمروحة، أما السيدتان فاطمة وزَرِي فجلستا في طرفي المجلس من دون أن تروِّحا. صار الجو باردًا مطبوعًا، بينما كانت أزهار الياسمين، المبثوثة في أصص كبيرة تحيط بالحوض، تشبه نجمات ناعسات ترنو إلى الشمس التي لا تغفل عن جُنَيْنَة النَّارَنج. أبعدت عِزَّت الدولة مينا ومرجان وأرسلتهما صحبة خديجة وفردوس وأولادها إلى حديقة مأمور الأمن لمشاهدة البطل الأصلع.

لم تدر زَرِي كيف انتهى الحديث إلى خيراتها ومبراتها وجرى ذكر سجن النساء فاضطرت لتوضح أنَّ: «سجن النساء خالٍ نسبيًا، والأمور تسير بسلاسة لأنَّ جرم النساء لا يعدو، في الغالب، أن يكون سرقة إبريق» و«أنها تستطيع براحة تامة مجالسة نزيلات السجن على بُسُطهن –البسط التي يحضرها لهن أهلهن إلى السجن- والإنصات لفضفضاتهن. أما المواد الغذائية التي تأخذها للرجال في سجن "أَرْك كَريمْخَانِي" فيتم تسليمها لمكتب السجن،

والسّجانون على دراية بذلك وربُّهم فوقهم شهيد. لكن هناك اعتقادًا سائدًا بين السّجانين بأنَّ من يتطاول على مؤونة السجناء وتبن وشعير الخيول يُصاب بالجذام» وتابعت: «ذات يوم، أصررت

على تسليم النذر لسجن الرجال بنفسي. صادف ذلك اليوم تخلية بئر المرحاض الواقع في ردهة الزنازين، ويا لها من رائحة؟ تُقرف المرء من كل ما في هذه الدنيا».

ثم توسَّع الحديث وجاء ذكر سيدة تدير بيتًا للدعارة سُجنت مؤخرًا. قالت زَرِي: «أنا أيضًا كنت أرغب بسجن هذه المرأة، لكني لم أبلّغ عنها... كان الضابط المسؤول عن المنطقة يرافقنا، كان بمقدوره تقديم تقرير بشأنها لو شاء، وقد فعل. كنت أنا والسيدة مَهِين قد ذهبنا، من طرف جمعية نسائية، لتفتيش بيوت حارة "مَرْدِسْتَان". طرقنا مرارًا باب بيت هذه المرأة فلم يُفتح لنا. تقدّم ضابط المنطقة وأخذ يركل الباب حتى فتحته المرأة بنفسها. كان الظلام قد أرخى سدوله. فتشنا كل الغرف. أجبرتهم مَهِين على فتح بضعة أسِرَّة، وأمرت بتغيير أغلفة المخدات وجلب مفارش. في آخر الزيارة ذهبنا إلى غرفة السيدة المديرة لتسليمها مبيد القمل والمعقّمات. استرعى انتباهي شيء يتموّج تحت طاولة ماكنة الخياطة في ركن الغرفة. في البدء ظننت أنها قطة. كان يظهر رأسها الأسود فقط. أدرت مفتاح الكهرباء وأشرت إلى ضابط المنطقة فذهب بنفسه وأخرج من تحت طاولة ماكنة الخياطة بنتًا صغيرة تبلغ سبع أو ثمان سنوات.

كانت الصبية تلبس ملابس منكمشة ولم يبرز ثدياها بعد. وكانت ترتعش من البرد كعصفور في جو مثلج. ورغم طبعي الهادئ والوديع استشطت غضبًا، فقلت: "ألا تخجلين يا امرأة، تجبرين طفلة بهذا الصغر على العمل؟" أقسمَت أنَّ "هذه الطفلة ابنة أختي، وحلّت ضيفة على خالتها هذه الليلة فقط". ثم بعد ذلك اعترفت: "ماذا عساي أن أصنع سيدتي العزيزة؟ الزباء كثر. ومنذ مدة وجناب ملازم هندي ينتظر صبية. لا يجوز تيئيس الزبناء. فالتعليمات تنهال علينا من فوق باستمرار بضرورة توفير طلبات الزباء وجلب رضاهم، والآن أنتم تؤاخذونني؟ لأجل ماذا جئتم إذن؟ إذا لم يكن من أجل نظافة هذا المكان حتى يقضي الأجانب وقتًا ممتعًا! منذ عدة سنوات وأنا أزاول هذا العمل، وإلى الآن لم يأت أحد لتفتيش هذا المكان".

لاذت زَرِي بالصمت، لكن لمّا رأت أنَّ حكايتها تسترعي الانتباه واصلت: «اتضح فيما بعد، أنَّ السيدة المديرة تلك، كانت تشغّل عشر إلى اثنتي عشرة صبية، هرّبتهن جميعًا عبر السطح في ذلك

اليوم إلا تلك الطفلة التي لم تستطع الفرار في الوقت المناسب.. ويا للأساور! كانت تتحلّى بعشرة زوج سوار ذهبي على الأقل».

قالت عِزَّت الدولة: «يا لها من امرأة فاجرة! أتمنى، بحق جدي، أن تؤدي ثمن اعتدائها على هؤلاء المسكينات البريئات»، وأردفت: «لقد قُبض على أمِّ فردوس، خادمتنا، سوف ترينها حينما تذهبين إلى

السجن... ».

توقعت زَرِي أن تطرح العمَّة هذا السؤال: «منذ متى صرتِ شريفة من نسل النبي كي تقسمي بحق جدك؟» لكنها لم تفعل، بل سألت: «بأي جرم؟».

أمسكت زَرِي برأس الخيط وفهمت أنَّ الأمر الذي تريده منها عِزَّت الدولة له صلة بسجن النساء وبأمِّ فردوس، فظلت تنتظر. لكن هل كانت عِزَّت الدولة لتخلِّصها بهذه السهولة؟ تنهّدت بعمق وقالت:

«كل معاناتي بسبب الأولاد. الراحل، لا رحمه الله، لم يكن يعرف كيف يربي الولد، حتى لم يسمح باقتياده إلى الخدمة العسكرية الإجبارية. سكب الرمل في بوله وخدع الطبيب العسكري برشوة كي يدوِّن في التقرير أنَّ الولد مصاب بحصى المثانة. لو أخذه للخدمة الإجبارية لربما صار رجلًا. لا رحمك الله يا رجل! كان يصطحب معه الولد لممارسة الفاحشة وهو في سن الخامسة عشرة، فأصيب ولدي البريء بالسيلان وهو في سن السادسة عشرة. أما زوجته فقد عدمت الكفاءة اللازمة لتجعل منه رجلًا. كم تمنّيت لو زوَّجتُه بالسيدة زهراء، لكنه النّصيب. هذا هو الولد الذي يليق بلحية ذاك الرجل. قتلك الله ولا رحمك!».

«لكني سمعت أنَّ فورانه قد سَكَن، وانتحى سبيل الاستقامة والصلاح» قالت السيدة فاطمة.

«أين هذه الاستقامة؟ مع ذلك التبذير وتلك المرأة الأفاكة. قلت له مرارًا بنيّ أصلح هذا الفناء الشاسع واتخذ لك مسكنًا هنا، لكنه لم يسمع كلامي، أي لم

يكن في صالح زوجته. قالت "إنَّ قلبي ينقبض في زقاق المدينة ودروبها الضيقة. بحق الله، أريد أن يكون بيتي على ناصية الشارع».

سكتت عِزَّت الدولة وروّحت على نفسها قليلًا قبل أن تواصل: «قديمًا قالوا "مصير الصبي الوحيد مجنون أو بليد". في سن الخامسة كان يطيّر الأوراق مع الفوانيس الملوّنة وفي سن السابعة أو الثامنة صار يلهو بالحمَام... البنيان من أساسه منقوض... ولم يزل يلعب بالحمَام وهو رجل ضخم الهيكل. بنى فوق سطح بيته أعشاشًا لثلاثمائة حمامة. وكل يوم عصرًا يطيّر الحمَام في الهواء، وكما يقول هو، حين يرفرف الحمَام عاليًا يخفق قلبه ويطير معه ولا يهدأ له بال حتى يعود الحمَام إلى عشه... ».

استلّت العمَّة آهة وقالت: «كان قرين ولدي المغبون. ولمّا مات لم تعد لي عين أرى بها ولدك حميد. لكن التراب أخمد نار قلبي الآن... اشتقت لحميد كثيرًا».

«سوف يأتي إليك، أخبرته أنَّ خالته العزيزة هنا، ومن المفروض أن يأتي لتقبيل يديك الليلة، هو أيضًا اشتاق إليك كثيرًا... ».

أحضرت الخادمة لمجة المساء؛ فواكه الفصل وبضعة أنواع من البسكويت الأجنبي، وضعتها على التخت، ثم جلبت منقل جمر ملتهبًا، كان موضوعًا على صينية نحاسية ذات حواشي مسنَّنة، وقرّبته إلى العمَّة. وأعدّت الشاي في إبريق أحمر مزيّن

بورود، وكان بطن الغليون من الخزف المنقوش بنفس ورود الإبريق، أي زهرة الخشخاش. كان للمفك والخُطّاف لمعان الذهب وإن لم يكونا من ذهب.

أردفت عِزَّت الدولة: «معاناتي كلها بسبب الأولاد... إنه يرسل الضباط والجنود الأجانب إلى هنا بحجة مشاهدة الأماكن العتيقة، وهم يبيعوننا الفائض من بسكويت وصابون وجوارب وأقمشة حريرية، وأنا بدوري أبيعها عن طريق أمِّ فردوس».

اندفعت السيدة العمَّة بحدّة: «وهل تخالين أنَّ أحدًا لا يعرف؟ الكل على علم بأنَّ السيدة الجليلة والمبجّلة صارت مهرِّبة. لم أشأ كشف ذلك في وجهك على هذه السفرة. ألمحتُ إلى الموضوع في بيتنا، في ذلك اليوم، فقلتِ حاشا وكلَّا، وأنا لم أصر. ثم إنَّ سائق ولدك حكى قصة تهريبك الخبيث للجميع في مقهى دوميل... قال: "ذهبتِ أنت وأمّ فردوس نحيفتين وعدتما سمينتين". قال: "ساعتان وأنتِ تلفّين الحرير الموشّى بالورود حول جسدك ووضعت خيشين مملوءين بالبضاعة في صندوق السيارة". لو قُبض عليك كنت ستدفعين عشرين ألف تومان غرامة. لماذا الطمع يا أختي؟ ماء الوجه والشرف شيء رائع».

لم تحرك عِزَّت الدولة ساكنًا ولم تغضب حتى. ارتجف طرف شفتها وقالت: «مؤكد أنه هو من وشى بنا. قلت مرارًا للولد لا تطرد هذا السائق، في عز فصل الصيف هذا، الأسود والقفر السقم، لكنه لم

يسمع الكلام. كم أعاني بسبب الأولاد! كنت في أول الليلة جالسة فدخل عليّ بطنجرة أرز باللحم وصحن مشمش بارد وصحن آخر به يوسفي غليظ.. قال لقد ضايقتك أمي. ثم أخذ يقبّل اليد والقدم وألصق رأسه بصدري. بهذا الدلال والدلع كنت أعلم أنني سألبي أي طلب يطلبه غداة ذلك اليوم».

أزالت العمَّة غطاء علبة مرصّعة وأخرجت منها قطعة حشيش ثم شمّتها وقالت: «عجبًا! ياله من حشيش جيد!». سخّنت الحشيش وحشّته في بطن الغليون. قالت زَرِي: «لا تؤاخذيني على جسارتي، لكن العالم كله ملككم!».

«لا رحمك الله يا رجل في هذا الغروب الجليل! أي ملك وأية أملاك؟ كان يسرق عقود أملاكي، ويُلبس أخته الشادور ثم يأخذها إلى محضر الشيخ غَيْب عَلِي لتبيع الأملاك باسمي. يجري عملية البيع ثم تحكم أخته إخفاء وجهها وتترك دمغة أصبعها أسفل وثيقة البيع. يبدّد أموال البيع بين أرجل النساء... كم من أموال أنفقها على تلك الغرفة! غرفة خلوته التي كان يحضر إليها النساء بسريرها الكبير الذي استورده من الهند... من خشب الأبنوس. كان يشتري كل ما هو متاح في المدينة من ورق لعب ويلصقه على جدران تلك الغرفة. استأجر رسّامًا كرديًا وفرض عليه رسم صور مختلفة لطرق ووضعيات مضاجعة الرجل للمرأة... ولمّا صار قعيد البيت أنفق باقي المال على الغليون».

سحبت العمَّة نفسًا من الغليون وقالت: «وأبقى لك

ما تعيشين به معزَّزة مكرّمة، أنت وسبعة أجيال من ذريتك... أما إذا كنت تلمِّحين إليَّ فأنا لا أحشو مال أحد في بطن الغليون... إنه مالي. فضلًا عن ذلك، فقد نذرت على نفسي أن أترك الحشيش بمجرد أن تطأ قدماي ضريح الإمام الحسين. سوف أكسر غليون الحشيش هناك... مددك يا إلهي!».

«لمَ صرتِ مدققة في الأمور، أختي؟ لمَ غدا قلبك حسّاسًا رقيقًا إلى هذا الحد؟ قتل الله ولدي الوحيد لو كنت ألمّح إليك. أما عن إقلاعك عن الحشيش فأنا موقنة بأنك تستطيعين. أنت ممن يستطيعون القيام بأي عمل يريدونه».

جذبت السيدة فاطمة نفسًا طويلًا وقالت: «عجبًا لهذا الحشيش! من أين تحصلين عليه؟ يدخّنه المرء فيذكّره بمزرعته. لطالما جلتُ في هذه المزارع على صهوة الفرس! مزارع ملأى بعباهر الخشخاش، كل مزرعة بلون... روائحها عند مخايل الغروب تسكر الإنسان والخيل على حد سواء.. حين يشتدّ عودها تكلّم المرءَ ثمارُها الصفراء المائلة للاخضرار وتهزّ له رؤوسها حتى يوقن بأنها حية. تتوفر على شيء لا تتوفر عليه ثمرة أخرى في هذه الدنيا. يشرعون في قطفها فجرًا، بينما قطرات الندى تومض على وجهها وتفيض منها عصارة بهية المنظر».

«انشرحتِ الآن، سوف أصنع من هذا الحشيش بذرًا خذيه معك إلى هناك ودخّنيه وتذكّري أختك. لدي وصفة بذر الحشيش».

«لعنة الله على الشيطان، سوف أقلع عنه ولو

كنت على عتبة الموت. ما علاقة رونق المزارع بسمومها؟».

كانت زَرِي مشوّشة البال. كانت قد قررت أن تزور كلو في العصر ولم تفعل، والوقت الآن جد متأخر. كان قلبها يموج قلقًا على خُسْرو الذي كان في ضيافة هُرْمُز، وكانت تعلم أنهما سيذهبان سويًّا، الليلة، إلى بيت فتوحي، رغم أنَّ خُسْرو سرّب ليلة أمس أنهم لم يقبلوا بعد عضويته في أي

مركز لحداثة سنه... وقد تكرّم السيد فتوحي وأذن لخُسْرو بالحضور، بصفة مستمع حر، في المركز الذي يحمل هُرْمُز عضويته، رغم أنَّ رفاقه الأعضاء يشفقون على من يبدو عليهم أثر الأشراف.

تلفّتت زَرِي صوب عِزَّت الدولة وقالت: «ما فهمته تقريبًا هو أنَّ أمَّ فردوس قُبض عليها في عملية تهريب».

زفرت عِزَّت الدولة بأسى وقالت: «ليت الأمر كان بهذه البساطة! هذه المرة كانت متلبسة بتهريب أسلحة».

أزاحت العمَّة غليونها ووضعته جنب المنقل وقالت: «لا إله إلا الله!».

قالت عِزَّت الدولة: «أي نعم. بندقيتان من طراز "البُرْنُو"، وعشرة أسلحة من تلك التي تحمل في الحزام، وعلبة ذخيرة. يعلم الله أننا اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة. لم تكن المرة الأولى، إذ سبق لأمِّ فردوس أن نفذت أربع عمليات مشابهة، وكانت في كل مرة تصل البضاعة سليمة إلى وجهتها،

لكن هذه المرة وقعت في الكمين. أنا واثقة من أنَّ السائق بلَّغ عنا واستلم مكافأته. أعمى بصرَه خبزي وملحي... كان الاتفاق يقضي بنقل البضاعة إلى حمَّام "خَانِي"، مع طلائع الفجر الأولى قبل أن يفتح الحمَّام أبوابه في وجه النساء، وتسليمها للميرزا السيد حَنَّاسَاب... ».

«الميرزا من؟ هل هو ابن خالك؟» سألت زَرِي.

«كلَّا عزيزتي، ابن خالي اختفى. يقال إنه صار بلشفيًا... ».

«كنتِ تحكين... ».

«كان يُفترض أن تُسلِّم البضاعة للميرزا السيد حَنَّاسَاب وتقول له بصوت عال: "السيد الميرزا، إنها حاجيات حمَّام النساء، سأودعها عندك ريثما يحين الدور على النساء وتسلّمها لزوجة الأوسطا". ويرد عليها السيد الميرزا بلامبالاة مصطنعة: "تعال يا ولد وخذ أمانة الناس إلى مخزن

الدكان". أنا من لففت حاجيات الحمَّام في الليل بنفسي، وحتى أمُّ فردوس لم تكن تعلم ما بداخلها. دسست البنادق في قطعة سجاد صغيرة، واحدة رأسها إلى أعلى وأخرى إلى أسفل ثم لففت السجاد طوليًا على شكل أنبوب. ورغم جرح يدي فقد أقفلت طرفي السجاد بدبوس أمان كي لا تنزلق البنادق وتسقط أرضًا، وبحيث تخفيها خيوط السجاد من الناحيتين. ثم وضعتُ بنفسي أنبوب السجّاد في صينية، وبمحاذاته الطشت المحشو بعلبة الذخيرة. أما المسدسات فجعلتها وسط فوطة الحمَّام، ولففت الفوطة في

بقجة حريرية وعقدتها وأدخلت البقجة داخل الطشت وتركت جزءًا منها ظاهرًا للعيان، ثم جلست أدعو وأنفث على البضاعة».

قالت السيدة العمَّة: «العياذ بالله! ألأجل هذه الأعمال تدعين؟!».

واصلت عِزَّت الدولة كلامها دون أن تلتفت للعمّة: «وفي الفجر، ساعدني كَرْبَلائِي عباس على وضع الصينية على رأس أمِّ فردوس. كانت ثقيلة جدًا لكن الطريق لم تكن طويلة. ودعوت الله ثانية ونفثت على أمِّ فردوس وعلى حملها وشيّعتها من باب حجرة الحريم، وكان كَرْبَلائِي عباس قد قام بمسحٍ بصري لأنحاء الزقاق كلها».

«من أخبرك بالقبض عليها؟» سألت العمَّة.

ابتلعت ريقها وقالت: «كنت أصلي الصبح حينما طرقوا الباب فارتجّ قلبي. في طريقها إلى الحمَّام سوف تصطدم بخفير ودركي. مؤكد أنهما سيرعبانها ويفتشان حملها ويسألانها من صاحب هذا ومن أين أتيت به؟ قال كَرْبَلائِي عباس كانت ملامحها تشي بأنها تعرضت للضرب وبكت، لكنها لم تكن تظهر ذلك. ساقتهما إلى عتبة البيت. انظرا لشهامة كَرْبَلائِي عباس ووفائه. فتح الباب فسأله الخفير: "هل تعرف هذه المرأة؟" أجاب: "كلَّا سيدي لا أعرفها". انهارت أمُّ فردوس بكاء وصرخت في وجهه: "تفٍّ على وجهك، أنت صهري. لا تعرفني؟ هل قامت القيامة؟ هل غارت عيناك في جمجمتك حتى لا تعرفني؟" فردّ كَرْبَلائِي عباس: "لمَ تكذبين في أول الصبح هذا،

أيتها المرأة السليطة؟ من أين أعرفك أنا؟».

سحبت السيدة العمَّة نفسًا من الغليون وقالت: «يا لها من ورطة! حسنًا... كنت تقولين... ».

«كنت واقفة بمحاذاة باب الفناء الخارجي أرهف السمع فانتابتني قشعريرة –لا سمعتْ أذنُ مسلم ولا رأتْ عينُ كافر!- وَلْوَلتْ أمُّ فردوس: "مستعدة كي أحلف بالقرآن أني أحضرت البضاعة من هذا البيت، ولم أكن أعرف أنَّ بها مسدسات وأشياء أخرى... وكَرْبَلائِي عباس هذا صهري الديوث، خان الملح والطعام واصطفّ في صفّ الغرباء وتخلى عني أنا أم زوجته. في المرة الأولى أذلّوا ابنتي ولم أنبس ببنت شفة، وهذه المرة يريدون إذلالي أنا. تفّ، تفٍّ على وجهك يا كَرْبَلائِي عباس! أنت أيضًا وضعت على رأسك قبعة الدياثة والنذالة، تساعدهم. في المرة السابقة ساعدتهم أيضًا».

وبكت بلوعة وحرقة. كانت تلعن وتدعو بأدعية تتداعى لها فقرات ظهري. كانت تقول: «إلهي! أين أنت؟ هل أنت أعمى؟!».

لاذت بالصمت وأخذت تروّح على نفسها، ولم تتفوه زَرِي والعمَّة بأي بكلمة. كانت زَرِي تقضم ظفر إبهامها سارحة: «والآن ماذا بوسعي أن أفعل أنا؟».

عادت عِزَّت الدولة لتكمل كلامها، يبدو أنَّ هناك تفاصيل لم تروها، فلن تنتقل إلى صلب الموضوع بهذه البساطة:

«لا أعرف من منهما اندفع زاجرًا: لا تكفري يا امرأة.. وصرخ على كَرْبَلائِي عباس: "اذهب وأيقظ

سيدك لنسأله". قال كَرْبَلائِي عباس: "سلامة جنابكم، سيدي ودّع منذ مدة ووهب عمره لكم". علا الصوت نفسه: "حسنًا، سنسأل سيدة البيت". كان الخبر وقتها قد هدّ كياني وأقعدني أرضًا. قال كَرْبَلائِي عباس: "السيدة مسافرة، ذهبت لزيارة الإمام الرضا". زمجر الصوت نفسه على أمِّ فردوس: "ألم تقولي إنها لوازم حمَّام السيدة سآخذها إلى حمَّام "خَانِي"؟". لم يمهل كَرْبَلائِي عباس

أمَّ فردوس فضحك وقال: "يا جناب، نحن نتوفر على حمَّام داخل البيت، والسيدة لا تذهب إلى الحمَّام العمومي على الإطلاق، لو شئتم تعالوا وشاهدوا الحمَّام".. ثم قال: "اذهبوا وحلوا نزاعكم في مكان آخر، لدي ألف عمل أقوم به". ثم لا أعلم من منهما، الخفير أم الدركي، الذي قال: "انطلقي يا امرأة". ثم سألته أمُّ فردوس ملتمسة: "إلى أين تأخذانني؟" فأجابها الدركي أو الخفير: "إلى جناب الملازم أولًا، وهو من سيرسلك إلى السجن". أخذت المرأة المغفّلة تصرخ: "اتركاني أرى ابنتي ثم آتي معكما إلى حيث تريدان"، لكنهما اقتادانها. كانت فردوس وأطفالها نائمين على سطح الحجرة الصغيرة ولم يفطنوا للضجة. لكن اسمعا مني، –لا سمعتْ أذنُ مسلم ولا رأتْ عينُ كافر!- اعترتني نوبة ارتعاش وانقطعت أنفاسي كمن أصيب بحمّى. ودون إبطاء، أرسلت كَرْبَلائِي عباس عند الميرزا السيد حَنَّاسَاب».

صرفتْ وجهها ناحية زَرِي وقالت: «لكن زَرِي عزيزتي، عقدة هذا المشكل سوف تفكّ على يديك. قمنا، عن بُعد، بالتحرّيات اللازمة، ونعلم أنَّ أمَّ

فردوس نزيلة سجن النساء. فداءً لرجليك عزيزتي، غدًا حين تذهبين إلى السجن، التقي بأمِّ فردوس وكلّميها. التمسيها نيابة عني بألا تذكر اسمي على لسانها. في آخر مرة، ضغط عليها كَرْبَلائِي عباس وأقنعها بأن تغلق فمها. ويبدو أنها إما أدركت أو كانت متعبة، لأنها لزمت الصمت. عزيزتي زَرِي، أرجوك قولي لأمِّ فردوس أن تقول، يوم المحاكمة، إنَّ السيدة كانت في زيارة، وكَرْبَلائِي عباس اشترى البضاعة من بعض الهنود ولفّها في لوازم حمَّام السيدة، وأعطاها لي، أنا أم زوجته، كي أبيعها في السوق. والميرزا السيد حَنَّاسَاب كان يشتري البضاعة. إذا لم تدل بهذه الأقوال فقد انخرب بيتنا، وذهبت سنوات من الشرف والجاه أدراج الرياح».

قالت العمَّة بغصّة: «وهل خراب بيت كَرْبَلائِي عباس جائز؟ وما ذنب حَنَّاسَاب المتعوس؟ لا أريد أن أشمت! ما علاقتي أنا بالموضوع أساسًا؟»

قالت عِزَّت الدولة مستعطفة: «قُدْس السَّلْطَنة، أرجوك لا تؤثري على زَرِي. لمن تتركين أختك؟ أعدك أني سأتوب. فضلًا عن ذلك، لا بيت حَنَّاسَاب سينخرب ولا بيت كَرْبَلائِي عباس. أخبَرْنا حَنَّاسَاب في الوقت المناسب وفرّ لاجئًا إلى العشيرة. أما كَرْبَلائِي عباس فقد استرضيته. قولي لها

إنني استعطفت صهرك. لقد تحرّينا الموضوع، لو تاجَر إنسان بسيط في السلاح المهرَّب من أجل المال فلن يحكم عليه بأكثر من سنة أو سنتين. ويحكمون بضعف قيمة البضاعة كغرامة. فداءً لروح أولاد

زَرِي، سأدفع كل الغرامات، وسأكافئ كَرْبَلائِي عباس بخمسة آلاف تومان بعد أن يخرج من السجن، وأتعهد بألا أسمح لأحد بأن يعكّر صفو أولاده وزوجته خلال مدة سجنه. قولي لها أن توكل السيد حَرْف آبَادِي محاميًا لها، وأنا من جهتي سوف ألتقي بالقاضي ومدعي العموم من أجلها. وسوف أرسلها إلى كربلاء للزيارة كما وعدتها مرارًا. هذه المرة وعد الحر دين».

دسّت يدها تحت بساط التخت وأخرجت مظروفين وعلبة مغلقة وناولتها زَرِي، وصاحت:

«يا خادمة، أشعلي المصابيح». فأضاءت مصابيح أعمدة الفناء وكانت تشبه تلك التي في العربة.

أردفت عِزَّت الدولة: «أختي، سلّميها هذين المظروفين. كتبنا في الأول طلبًا باسمها لتوكيل المحامي. وفي الثاني شرحت لها تفاصيل ما قلتُه. إنها تعرف القراءة لأنها تقرأ القرآن، لكنها لا تعرف الكتابة. اجعليها تضع أصبعها في علبة المداد هذه وتدمغ الورقة الأولى ببصمتها، بعد ذلك خذي الورقة وأعطيها لإدارة السجن واستلمي الوصل. قولي لهم كتبتُ بنفسي هذه الورقة للسجينة ابتغاء للأجر والثواب. الجميع يعلم أنك سيدة خيِّرة وأهل إحسان، لن يشك فيك أحد. لكن احرصي على أخذ كلتا الورقتين منها.. لئلا تحتفظ بهما. قومي بهذا العمل من أجل رضا الله.. هل ستفعلين؟ بإمكاني أن أرسل ابنتها فردوس لزيارتها في السجن، لكني لا أثق في البنت. عيناها تلمعان بشكل مريب هذه

الأيام. أخشى أن تتواطآ وتنكثا غزلنا. لو أرادتا الانتقام فلن تجدا أفضل من هذه الفرصة».

كانت زَرِي تفكر في مكمن الشجاعة، هل في الموافقة أم في الرفض؟ توصيل مظروفين إلى السجن، وإكثار الكلام، وعلى الأرجح، الالتماس والرجاء أيضًا، وبصمة الأصبع وانتظار أمِّ فردوس لتقرأ الورقتين مع قلة تعلّمها، والقيام بكل هذه التحركات أمام أعين السيدة المديرة حتى

تشتبه في أنَّ زَرِي هي التي وشت بها.. كل هذه تصرفات مرعبة بقدر كاف. غير أنها كانت تستطيع المجازفة والقيام بذلك. لكن من صاحب الحق الذي سيتستفيد من هذه المعاملة؟ فهي سوف تتوسّط كي يظل المذنب بريئًا ويتحمّل البريء جريرة أفعال المذنب. لم تكن تخشى عِزَّت الدولة، لكن هل من الشجاعة رفض طلبها؟ إذا لم ينجحوا في جلب وساطتها فبإمكانهم طرق أبواب أخرى وشراء ماء وجههم بالمال. وبالنسبة لكَرْبَلائِي عباس لا يفرق كثيرًا أن يكون سجين البيت المسقوف أو نزيل السجن الحقيقي... لكن مع كل هذا، لمَ تكون هي الدالة على المظلمة؟ الصواب هو أن تُبصّر أمَّ فردوس لقول الحقيقة، وألا تخشى تفسيرات عِزَّت الدولة أو الآخرين وتأويلاتهم... لكن هل كانوا -بمالهم ونفوذهم- سيعجزون عن دحر تلك المرأة وخراب بيتها؟ أمُّ فردوس، هي الأخرى، شريكة في الجرم، وقد رضيت، منذ سنوات، بالحياة الدنيئة التي وفروها لها.

قطع صوت عِزَّت الدولة خيط تفكيرها: «عزيزتي زَرِي، كم تروّين وتتريّثين، إنه ليس بالعمل المهم!».

وضعت زَرِي المظروفين وعلبة المداد أمام عِزَّت الدولة وقالت: «كلَّا، لن أقوم بذلك. أعتذر».

سألت عِزَّت الدولة حائرة: «لن تفعلي؟ لماذا؟».

لم تجب زَرِي، فقالت عِزَّت الدولة بنبرة ينخدع لها الأطفال: «وماذا لو استرجعتُ زوج قرطك الزمردي من ابنة الحاكم؟ ألن تفعلي حينها؟ لم أكد أتحرك في قضية مُهر ولدك حتى تسلّطت هذه السانحة... ».

«لم تعد الأقراط تهمني الآن. الأفضل لك أن تقولي الحقيقة. أنت كنت بنفسك تتحسّرين للتو بأن حميد خان لم يذهب إلى الخدمة العسكرية. والآن ها هي ذي الفرصة. هي في حد ذاتها نوع من الخدمة العسكرية».

انفجرت العمَّة ضحكًا حتى اعترتها نوبة سعال. ضحكت عِزَّت الدولة بانفعال وقالت:

«أنت لم تنتبهي للفرق بين كَرْبَلائِي عباس وحميد. إذا حُكم على كَرْبَلائِي عباس فسوف يسقط سنة أو سنتين في السجن، لكن إذا تورطنا نحن فسوف نسقط من الوجود، لأن موضوع الأسلحة المهرَّبة حينذاك سيُأَوَّل على أنه انتهاك لأمن الدولة... قال حَرْف آبَادِي إنَّ عقوبة مثل هذه التهمة، طبق المادة 171 من قانون العقوبات، هي الإعدام، وقد تخفف إلى الحبس المؤبد. وفي حال إذا اجتهد كثيرًا يمكنه إغلاق الملف على خمس عشرة سنة حبسًا. لن

يصدّق أحد أنَّ نفقاتنا كثيرة وأننا قمنا بهذه الفعلة من أجل كسب المال».

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «البنيان من أساسه منقوض... وهاتان صديقتك وأختك بالتسمّي... عند الشدّة، تتركانك وحيدة. ثم صاحت: «يا خادمة، أحضري قطرة قلبي». واصلت: «أعرف سبب رفضك، أنت تكرهيننا منذ البداية. لا أعرف أي شوك جنيتِه من عنبنا! أو لربما أنت نادمة الآن لأننا لم نلح على قبولك عروسة لابننا. شحّاذ وعريان ويتمنّع بدلال! نعم أعلم. أعلم أنك تريدين الانتقام. أنت محقّة، نعم، مع زوجك الأحمق الفوّار ذاك... استعدى عليه جميع خلق الله!».

بالتحيات والصلوات، دخل حميد خان متوقّدًا ونشوانًا. خلع حذاءه عند درجات التخت وارتقاها بجواربه. طوّق رقبة الخالة العزيزة وراح يقبّل. انتبهت زَرِي لعِزَّت الدولة وهي تمسح دموعها بخفة. ولمّا وقعت عين ولدها عليها ضحكت له فانهال على تقبيلها بداية من رجلها... قرفص بجانب أمه وسأل: «كيف الأحوال؟ وما الأخبار؟»، ثم مال ناحية العمَّة ووضع رأسه على كتفها وأخذ يداعب ضفائر شعرها. نظر إلى زَرِي محدّقًا بعينين ناعستين وقال:

«السيدة زهراء، أنت ما شاء الله عليك مثل السجّاد الكرماني كلما أكلتِ رفسًا وركلًا كلما ازددت جاذبية وإغراء!».

أمسك بيد السيدة فاطمة وقبّلها وقال: «خالتي العزيزة، منذ كم سنة لم نر بعضنا؟».

لم تجب السيدة فاطمة. سكبت كوب شاي وقرّبته إليه. سوّت سطح رأس غليون الحشيش بمبراة، وبرفق نظّفت فتحته بإبرة، ثم سألته: «هل تدخِّن؟ هل أحشو لك؟».

قال حميد خان بغنج: «خالتي العزيزة، من قسوة هجرك.. لقينا منك الأمرَّين!».

استدار ناحية زَرِي وقال: «ليس لي أخ أو أخت، لكن الله عوّضني بأُمَّين».

سحب نَفَسًا، ثم شفط أنفاسًا أخرى، وحمي شدقاه فراح يجترّ الذكريات. سأل العمَّة:

«أتذكرين عندما كنتُ أجلس في حجرك، كان عمري أربع سنوات ومع ذلك كنت أردّد: ماماني، يا مرفوعة الرأس، ماماني يا مرضعتي، هم م م... فكنتُ أناشدك كي تنامي وتتركي ثديك في فمي؟ كنت أحبك مثل أمي، من كثرة ما كنت تضعين يدك في فمي. أتذكَّرُ لمّا رشق الأطفال حجرًا فكسروا رجل حمامتي ذات الريش الطاووسي. وجئتِ أنت لزيارة أختك، كنت أحضن حمامتي وأبكي ملتاعًا والدموع تغطي كامل وجهي وأقول لكما: بالله عليكما، ليفكر أحد في حمامتي المسكينة. كانت حمامتي تئن من الألم أنينًا لا مثيل له في هذه الدنيا. أخذتِ الحمّص ونقعته في الماء وطحنته وخلطته مع أصفر البيض والآس وربطته مثل اللصاق على رجل حمامتي، ولمّا أنهيت تضميدك أطلقتْ حمامتي صوتًا ينمّ عن الراحة والهدوء».

شعرت زَرِي أنها لم يعد لديها ما تقوم به هناك

فأخذت تتململ كي تستأذن في الخروج. غير أنَّ حميد خان لم يكن ليتوقف. توجّه ثانية صوب العمَّة وسألها:

«هل تتذكرين تلك الليلة في البستان؟ ذهبنا جميعًا إلى البستان وأدركنا الليل هناك. اضطر المطربون للبقاء لأنهم لم يجدوا عربة تقلّهم. لمّا فُرشت الأسِرَّة لم تكف الجميع. لم تكن أمي تبرح حضن والدي ولم تكن تسمح له بإرقادي في حضنه. كان الجميع يرفضني. كنت مصابًا بالليشمانيات الجلدي، وكان بوجهي سبع بقع، وعلى أنفي بقعة متقيّحة، والجميع كان يعلم أنَّ المرض معدٍ. لا سيما وأنَّ مدخل البناية الآجري في البستان مملوء بالبعوض والذباب، والجميع كان يعرف أنَّ الذباب ناقل لداء الليشمانيات، فبقيت حائرًا لا أعرف أين وكيف أنام؟ كان الجو باردًا جدًا. فناديتِ عليّ رغم أنَّ ولدك كان ينام في حضنك، وقلتِ لي تعال ونم بجانبي، فبكيتُ

ومسحتِ أنت دموعي وقبلتني على أنفي المصاب بالليشمانيات. عندما توفي ابنك لم أكن أظهر لك نفسي كي لا تحزني. ذات يوم، رأيت في بازار "وكيل" امرأة بقدك وقامتك فتبعتها، ناديت عليها بصوت خفيض: خالتي العزيزة. استدارت وصفعتني وقالت: خالتي العزيزة، داء بلا دواء! خالتي العزيزة..!».

قاس بعينيه الخادمة وهي تقدم لأمه زجاجة دواء وكوب ماء في صينية. سألها: «أمي العزيزة، أما زلت تأخذين الدواء؟»، ثم صوّب نظرته الفاحصة

على زَرِي. قالت عِزَّت الدولة: «لا بأس عليّ، ارتفعت دقات قلبي». التفت إلى زَرِي وسألها: «السيدة زهراء، سمعت أنك ذاهبة غدًا إلى السجن، هلا قمت بإطلالة على سجينتنا؟».

كانت عِزَّت الدولة تَعُدُّ قطرات الدواء ولمّا وصلت إلى خمسة عشر قالت: «لكن ليس على النحو الذي أردنا»، ثم استأنفت العدّ من ستة عشر. تجهّم حميد واشتد به القلق. تناول الغليون من أمام المنقل وحشا بطنه وشرع يستلّ الأنفاس. سأل: «لماذا؟ بالتأكيد كانت تخاف. معلوم أنَّ الأمر مخيف لك». وضع الغليون بجانب المنقل مثل مبتدئ، وطوّق رقبة العمَّة وقال: «لكن خالتي العزيزة لا تخشى شيئًا. وهذه المرة أيضًا ستقبّل منخري المصاب بالليشمانيات. أليس كذلك خالتي العزيزة؟ لن ترضيْ بأن تريني على خشبة الإعدام. سيشكّون في كل شخص يذهب إلى السجن إلا فيك أنت».

رأت زَرِي كَرْبَلائِي عباس مارًا من أمام جُنَيْنَة النَّارَنج وتقدم صوب التخت وقال: «يا الله!» فألقت العمَّة شادورها على رأسها. توقف بجانت التخت ونادى على حميد وهمس في أذنه، فانتعل حميد حذاءه وانطلق على عجل. هاج قلب زَرِي وماج. هل حصل لطفلتيها مكروه؟ فكل ما يقال عن هذه المرأة يصدَّق. هل تكون قد أخفت البنتين في مكان ما كرهينتين ومثَّلت هي وابنها هذه المسرحية كي يساومانها؟ لماذا لم تفطن لذلك مبكرًا؟ لماذا سمحت لهما أصلًا بالذهاب إلى حديقة مأمور الأمن؟

ثم فكّرت بمرارة بأنَّ الأبطال الصُّلع كانوا هنا لكن الأطفال لم يكونوا ليستفيدوا شيئًا من مشاهدتهم. سألت العمَّةَ بصوت مرتعش: «تأخر الوقت، لماذا لم يعد الأطفال؟». صارت الآن مستعدة للقبول بأي عمل.. إذا كان لا بُد من الاختيار بين "الشجاعة" و"الأطفال" فمؤكد أنها سوف تختار الأطفال. نعم، سوف يأتي حميد الآن ويبدأ اللعبة. رمتها العمَّة بنظرة حادة وقالت: «لا تقلقي سوف تأتيان». ثم سرحت: «سأنتظر، القلق يعتصر قلبي عبثًا. الحمد لله أني أرسلت معهما خديجة». ثم استحضرت شعرًا كان يوسف غالبًا ما يقرؤه: «خوفهم ورعبهم من وحي الخيال... ». كلَّا. إنها غيّرت الشعر، أما الشعر الذي كان يوسف يقرؤه:

«سِلْمُهُم وحُرْبُهُم، مُحْضُ خَيَال مَجْدُهُم وخِزْيُهُم مَحْضُ خَيَال»

ارتقى حميد التخت رفقة امرأة مربوعة القامة تتلفع بشادور صلاة وتحكم إخفاء وجهها. ضحك وقال: «أمي، هل تريدين ضيوفًا؟». عرفت زَرِي المرأة على الفور، فقد سبق أن استقبلتها في بيتها بذات الشادور. قالت وهي لا تشعر «ملك سُهْراب خان!» ثم وضعت يدها على فمها. جلس سُهْراب ونزع الشادور. صار أكثر نحافة، وكان مغبرّ الرأس والأطراف، وذا لحيته عمرها بضعة أيام. ضحكت عِزَّت الدولة حتى نزّت قطرات دمع من طرفي عينيها. ابتسم سُهْراب ابتسامة باهتة وقال لزَرِي: «ذهبتُ إلى بيتكم أولًا، لم أجد أحدًا بالبيت».

أمسك رأسه بين يديه وقال: «ليت يوسف خان كان بالمدينة! كنتُ مخطئًا إذ لم أسمع كلامه».

أحضرت الخادمة إبريقًا وطستًا صفراوين يلمعان كالذهب، وعلى يدها كانت تحمل فوطة سميكة موشَّاة بورود، وصابونة كأنها إجاصة. الصابونة التي وضعوها لزَرِي في الحمَّام كانت تشبه التفاحة. هل ألقوا بأنفسهم في هذه المخاطرة من أجل هذه الكراكيب؟! لو كان سُهْراب حاضرًا في ذلك الوقت من الليل، كانت ستطرح الموضوع على نحو آخر. قالت عِزَّت الدولة:

«سُهْراب، لقد بدّلنا ماء الحمَّام حديثًا. لمَ لا تذهب إلى الحمَّام بالمرة؟».

«ربما اتصلوا بالهاتف. وربما أكون أنا الغلطان وهم لم يخدعونا. جئت رأسًا من ساحة الحرب. ذهبت أولًا عند العميد... حقًّا إنه أَعْسَرُ قوم يزيد. ظنّ أنه في السعودية، وسيصاب بالخيبة لو لم يقدر على محاكاة لورنس العرب. لم يستقبلني، وبعث لي أنه أصيب بنزلة برد. وهل يصاب المرء بنزلة برد في أربعينية الصيف؟! بعد ذلك قصدتُ زينْگر. قال ذلك الثعلب: "أنا رأسي مشغول، لا يستطيع أن يقبلك أنت". العجوز الخَرِف، بعد كل هذه السنوات لم يتعلّم الفارسية بعد... إن كانوا قد خدعونا فقد روينا الأرض بدماء إخواننا. ومع ذلك قال إنه سيتصل بالهاتف».

أومأت عِزَّت الدولة إليه برأسها ففهم الجميع الإشارة، فاضطرت لسؤاله:

«وهل ذهبت إليهم بشادور الصلاة هذا؟».

«كلَّا، بل لبست ملابس الضابط الفارس محمد كشميري كرماني. كانت بطاقة هويته في جيب السترة العسكرية. جردناه من ملابسه ثم ضربناه بطلق ناري في وريده. هاجمناه بعشرة رجال. بعد ذلك ذهبتُ إلى بيت الميرزا السيد حَنَّاسَاب وغيّرت ملابسي».

علا صوت الطفلتين في الساحة الخارجية فتنفست زَرِي الصعداء، واستأذنت مستعجلة. وهو ما كانت ترجوه عِزَّت الدولة فنادت: «يا فردوس، تعالي أحضري شادور أختي... وأحضري أيضًا سجّادة صلاتي.. انتبهي لطهارة يدك».

سأل سُهْراب: «ألم تسمعوا شيئًا في المدينة عن موضوع الحرب؟».

«لا، لم تنشر الجرائد أي خبر» أجابت زَرِي.

قال سُهْراب: «وهل تنشر الجرائد شيئًا؟ أشيع هناك أنهم سيحضِرون جثة العقيد والضباط الآخرين إلى المدينة وسيشيعونهم في جنازة رسمية»، ثم أردف: «ما عدا الآمال الكبيرة لم يكن لدينا أي تقصير. بعد الاصطدام بهذين الثعلبين الماكرين شعرت أنني سأجنّ لو بقيت لدقيقة أخرى بملابس ذلك الهالك».

أحضرت فردوس البقجة الحريرية المحتوية على شادور العمَّة الأسود وسجّادة صلاة عِزَّت الدولة. أثار انتباه زَرِي ملامحُ وجه حميد وقد التمعت عيناه وأشبعهما نظرًا من القدم إلى الرأس حينما انحنت فردوس لتضع سجّادة الصلاة أمام عِزَّت

الدولة. ومن تحديقه إليها انتبهت زَرِي إلى جمال رجلي فردوس وجسدها. كانت رجلاها في الجوارب الشفافة تماثل تمامًا قالبي سكر مقلوبين، وشادور صلاتها الأزرق الحريري ينزلق من على قميصها "الكريب دوشين" المزيَّن بالورود الحمراء والأوراق الخضراء، وينزاح جانبًا. ظلت أعضاء جسمها النافرة والغائرة في مكانها إذ لا يمكن لأحد أن يصدق أنَّ هذه المرأة أنجبت ثلاث مرات وأسقطت مرة واحدة.

غير أنَّ العمَّة لم تلمس البقجة ونادت: «السيدة فردوس، خذي للطفلتين شيئًا لتأكلاه وأبقيهما في الفناء الخارجي حتى نأتي، وقولي للخادمة أن تجمع بساط الغليون».

لم يكن لفردوس خبر عما يجري. ملأت الصحون بالبسكويت والفاكهة. كان واضحًا أنها لا تدرك سبب شزرات السيدة إليها. أزاحت السيدة طرف البساط وتيمّمت على السجّاد، ثم حركت حجاب رأسها للأمام والخلف عدة مرات حتى غطّت شعر رأسها الأخضر القاتم بالكامل، فاحتوى الوشاحُ محيط وجهها، وأي وجه؟ كأنه دُهن للتو بالنَّبِقَة. كانت تعاند حتى الله. فرشت سجّادة الصلاة بخشونة وجلست لإقامة الصلاة.

كانت زَرِي في قرارة نفسها تحس بالارتياح لأنها قاومت. ليت يوسف رجع مبكّرًا. لم يكن لديها قولٌ يروي الغليل، في أي وقت. فتجارب السجن ودار المجانين كانت مفيدة وجديرة بالحكي، لكن ليس

بالنسبة ليوسف. لطالما كان يخاطبها: «زَرِي، إني مشتاق، قولي شيئًا». وكم كانت هي تنبش دماغها حتى تجد ذكرى أو تجربة بهيجة ومطمئِنة. منذ فترة طويلة لم تعد تجد مثل هذا الكلام ومثل هذه الذكرى أو التجربة، ولم تكن قد حكتها ليوسف من قبل. كانت تعلم أنَّ حكيها صار

مكرورًا في الأيام الأخيرة، وزوجها يأنس فقط إلى سماع صوتها. والآن مرة أخرى، قاومت زَرِي.

كانت على يقين أنَّ عِزَّت الدولة ستواصل عروجها وسوف تطيل صلاتها قدر ما تستطيع تلافيًا لعنادهم، وأنهم سوف يسكتون للحظات احترامًا لصلاتها، لكنهم سوف يملّون وسوف يبدأ سُهْراب بالكلام. كانت أمواج اشتياقها لسماع مجريات الواقعة تتلاطم في روحها، وكانت تعلم أنَّ عِزَّت الدولة إذا لم تبدِ تبرمًا، فسيمكثان هناك حتى انتهاء شرح الواقعة. جاءت الخادمة ولملمت بساط الغليون.

قالت زَرِي: «سُهْراب خان، كنت تحكي عن ساحة الحرب... ».

«أنا كنت أنوي سرد كل التفاصيل لأصدقائي حتى يعلموا لمَ التجأت إلى الجبل متمرّدًا أو اختفيت بالمرة أو انتفض فيّ عرق عشيرتي وانتقمت منهم، وقلت فلتغرق السفينة وأنا معهم. ليتني أصغيتُ لكلام يوسف خان كما فعل أخي. هو كان يعرف. هو صديق لمَكْ مَاهُون، يجلسان سويًا يترجمان الشعر، ينشدان شعر أحد الشعراء الأشاوس.. ثم هزّ

رأسه وأنشد: أين أعلِّق قَبَائِي الخَلِق في هذه اللَّيلة الظَّلماء... ».

«... لكن زينْگر وعدنا. قال المحطة الأولى "سَمِيرَم"، المحطة الموالية "شيراز"، ثم "إصفهان" و"طهران". وكم كان بأسنا شديدًا! أنا أعترف أنَّ إخواننا ارتكبوا أخطاء فادحة. كم كانت حربًا قذرة!».

قال حميد: «أخي، قد أكون هُترًا، لكني لم أفهم كلمة واحدة مما تقول».

«أنت لا تعرف مَكْ مَاهُون هذا، الصحفي العسكري».

«لماذا تعقِّد الأمور إلى هذا الحد، احمد الله أنك صحيح معافى. ماءٌ أُهْرِقَ وجَرَّةٌ كُسِرَت! برأيي خذ لك غليون حشيش ينسيك كل هذه الأشياء. هل ترغب في أن آمرهم ليعدّوه لك؟».

«لستُ من طينة أولئك الذين ينوِّمون عروقهم بالأفيون. إذا لم أستطع التكفير عن ذنوبي فسأضع حدًّا لحياتي. إني الآن على استعداد للقيام بأي عمل».

قال حميد لامزًا: «وماذا لو اتصلوا بالهاتف؟ حينذاك ينسى المرء كل شيء، حتى الكبائر، أليس كذلك؟».

سرح ذهن زَرِي: « في عمرها بأكمله لم تتفوه بجملة محكمة كهذه».

أيّد سُهْراب كلام حميد قائلًا: «لو كانوا من أهل

التواصل، لكانوا فعلوا ذلك حتى الآن. إنهم يثقون بك وبأمك». ثم أردف:

«تمّ الترويج بأنَّ الروس، من أجل خمسة أفواج، احتاجوا إلى ثلاثين أو أربعين جنديًا إيرانيًّا.. أو ربما أكثر.. للخدمة في ما وراء الجبهة. أي من أجل المؤن. جنود مسلحون ببنادق حرّاس مخازن التموين والطرقات، يساعدون في الحمل والنقل والإخلاء أو في نقل الجرحى ومساعدتهم في المشفى الميداني في الصحراء. مؤكد أنَّ خصمهم، وإن كان في الواقع من حلفائهم، لا يريد –على قول يوسف خان- زرع نطفة لخلية شيوعية في إيران. أثاروا ضجّة بأنَّ الجيش الإيراني لم يتلق تكوينًا سليمًا.. وإنه لا يستطيع التغلب حتى على رهط من الأشرار في الداخل.. وقد تأكد لهم ذلك بشكل عملي في هذه الحرب».

سألت العمَّة: «إذا كنتم تعلمون هذا فلماذا حاربتم أبناء وطنكم؟».

ضحك حميد: «خالتي العزيزة، هؤلاء قتلى الحرب وموتاها. متعة الحرب تعادل عندهم متعة الصيد. لكني لا أرضى بتعذيب ولو نملة. سُهْراب هل تتذكرّ صيد ذلك الثعلب؟ كم كنتُ مسرورًا لأنَّ الثعلب خدعك ولم تستطع إطلاق الرصاصة. ومع أني كنت قد أغلقت أذني إلا أنَّ رجّة البندقية على ترقوة المرء تصيبني بالغثيان».

غير مكترث لحميد توجه سُهْراب ناحية العمَّة وقال: «كل هذه كانت شائعات، والحقيقة أدركُها

اللحظة. وأنا في الطريق، سمعت أنَّ مراقبًا روسيًا جاء إلى مرتفع "خُونْگاه" للتفتيش. لكن هم كانوا يقولون لنا جهّزوا تيجانكم فأنتم خلفاء الإخمينيين(11). كانوا يمدّوننا بالسلاح مهما كلّف الأمر. أغرنا عليهم مرتين، طبقًا لاتفاقنا المسبّق معهم. كانوا قد وضعوا البنادق والذخيرة في سيارة خاصة، وانطلقوا يقطعون سفوح جبال البختياري، وادّعوا أنها قطع نقدية فكّة ينقلونها من خوزستان إلى البنك الملكي في إصفهان. نفس العملية كانوا قد قاموا بها في الحرب الأولى لكن آنذاك استعملوا بغلًا وليس سيارة خاصة. وبحسب أوامرهم، هاجمناهم ليلًا وقصفنا سائقهم ومأمورهم بصاروخ ثم تركناهم قرب "جَارَة". كان السائق بانتظارنا، كان يشعل لنا أضواء السيارة العالية ويطفئها. لكننا صادرنا السيارة أيضًا».

قالت زَرِي: «لكني سمعتُ أنكم قتلتم مدير بنك وسطوتم على أموال البنك. أليست هذه الحادثة نفسها؟».

«لا، تلك واقعة أخرى. لكن في جميع الأحوال الإنسان يحتاج للمال من أجل مثل هذه العمليات. والأصدقاء ساعدونا. حميد والآخرون مدّونا بالسلاح..»، ثم تلفّت إلى حميد وأردف:

«عزيزي حميد، لقد نفعتنا كثيرًا الذخيرة الأخيرة رغم أنك احتسبت سعرها غاليًا جدًا... والمسدسات.. كم يزيد وزنها في الشمس!».

كان واضحًا أنَّ عِزَّت الدولة قد أتمّت صلاتها

لأنها اندفعت قائلة: «لماذا تقول هذا الكلام أمام الغرباء؟»، ثم سكتت لهنيهة وأردفت: «سلامتك أنت، نحن أيضًا وقعنا في الفخ، قُبض على أمِّ فردوس. واحسرتاه على صداقة الأخت لأختها في هذه الأيام! لا يمكن للإنسان أن يثق حتى في بؤبؤ عينه».

سأل سُهْراب: «من تكون أمُّ فردوس هذه؟ هل هي أم الفتاة الحسناء التي تخدمكم؟».

قال حميد: «هل خطفتْ قلبك، أنت الآخر، بهذه السرعة؟ حين كنت أقول لماما العزيزة، ماماتي الغالية، هذه المرأة ترسل من ذاتها شرارة تضرم نارًا مستعرة في قلب الإنسان، لم تكن تصدق».

مططت عِزَّت الدولة صوتها بأستغفر الله، ورفعت كلتا يديها إلى محاذاة الأذن. مؤكد أنها لم تكن قد صلت العشاء بعد، أو أنها مدينة لله بصلوات سابقة.

فجأة انتبه سُهْراب: «قالت زوجة الميرزا السيد حَنَّاسَاب إنَّ دليلكم قد سقط، لكني لم أكن أعرف أنَّ اسم دليلنا هو أمُّ فردوس. قالت إنَّ زوجها فرّ هاربًا. قبل كل شيء يجب أن نرسل زوجة الميرزا وأولاده إليه. حميد، اذهب أنت غدًا في الصباح الباكر أو الليلة عند زينْگر وقل له: إننا وقعنا في الفخ في سبيل تنفيذ خططكم، وانقل له على لساني أنَّ أمامهم مهلة أربع وعشرين ساعة كي يجيبوني. وإذا لم يفعلوا فأنا أدري أين زجاجة عمرهم. أُشهد الله أن آخذ عددًا من الفدائيين أمثالي و... نحن قمنا بكل هذه الأعمال حتى لا نسمح بأن يُخدش ظفر واحد

من صغارهم».

استوعبت زَرِي الدرس جيدًا. لو أنَّ أحدًا أذنب ونجح، فذنبه ليس ذنبًا في رأيه ورأي الآخرين، لكن إذا فشل فالذنب ذنب ويجب التكفير عنه. وأرادت أن تعرب عن ذلك. لكن من كان سيصغي لكلامها؟ حميد الذي لا يشغل فكرَه في هذه الدنيا سوى المرأة والويسكي والحمام؟ أم سُهْراب الذي أعمى بصرَه وأصمَّ أذنَه طلبُ الجاه والسؤدد؟ أم عِزَّت الدولة التي تلاجج الله؟ أم العمَّة التي غدا وردَ لسانها الرحيلُ إلى كربلاء وتركُ الإدمان؟ توجهت زَرِي له بالنصح كأم:

«سُهْراب خان، لم يفت الأوان بعد... انطلق من الآن إلى يوسف وتعاون معه كما فعل ملك رُسْتَم خان».

«كلٌّ له سجيّته، هو ترابيٌّ وأنا ريحيٌّ. أنا لست من أهل الصبر وتعليق الأمل على المستقبل البعيد. أريد أن أنقضّ على المستقبل من الآن. أريد أن يكون موتي مثل العقيد برصاصة أو ساطور وليس على فراش النوم. أريد أن أكون آخر من يلج القلعة، وليس بأقدامي أنا. أريد أن يجرجروني خارجًا ويطلقوا الرصاص على وريدي ويمزقوني بالساطور إربًا إربًا. أريد أن أحدّق في قاتليّ كمدًا كي يحسدوني، ويحاروا في لامبلاتي إزاء الموت والحياة».

قال حميد: «لقد فار عرقه العشائري من جديد!».

قالت زَرِي: «لم تكن جبانًا منذ طفولتك، وكنت شاعرًا أيضًا. أتذكّر أنك أنشدت لزوجتك الأولى... ».

قاطعها سُهْراب: «والآن هناك حاجة لشاعر شجاع». والتفت إلى حميد سائلًا: «لا أدري هل ذهبتَ من "شَهْرِضَا" إلى "سَمِيرَم" من جهة الجنوب الغربي؟».

«كلّا، لكن إذا كنت تتذكّر، ذهبنا معًا ذات مرة من السفح الشمالي الغربي لـ "دنا" إلى "سَمِيرَم". كنا ذاهبين لحضور زفاف ابن جناب اسْفَنْدْيار كَشْكُولي. أذكر أننا توقفنا عند نبع "سَمِيرَم"، فسقت فتاةٌ السائقَ من كوزها وكانت تشبه قمر الليلة الرابعة عشرة، ومن الكوز نفسه صبّت الماء في رادياتور السيارة. الشقية، يا لمشيتها! استقامة السَّرو، وتمختر الحجل، تمتنُّ على الأرض بمشيها عليها وترفع من شأنها بقدميها الناعمتين».

«وهل هذا وقت هذه الذكريات؟» قال سُهْراب.

قال حميد: «الوقت دائمًا مناسب لمثل هذه الذكريات»، ثم تنهّد واستدار ناحية العمَّة:

«خالتي العزيزة، أخطأتِ حين ألهيتِ فردوس بتلك العلبة. قلبي يتلهّف إلى قدح مشروب "جن" مع عصير الليمون»، ثم توجّه صوب سُهْراب وقال: «أتعلم أخي، لا طائل من وراء آمالك أنت وقبيلتك سوى المتاعب وقتل الناس! أما أنا فأبتغي من كل ما أفعله جني المال حتى أمتلك محاسن الدنيا وملذاتها؛ المرأة والخمر والسيرجي المصنوع في مانشستر».

وضع سُهْراب يده على ركبة حميد وقال له: «انتظر لحظة، كأني بالهاتف يرنّ»، ثم نهض. كان جرس

الهاتف يرنّ بالفعل. أحدهم رفع السمّاعة لأنَّ صوت الجرس انقطع. جاءت فردوس إلى الباحة فابتدرها الجميع بنظراتهم. كان سُهْراب واقفًا. قالت فردوس: «السيدة زهراء، جناب خُسْرو يسألك

هل ستأتين للعشاء أم نتعشّى نحن؟».

أجابت زَرِي: «في الحال»، ثم التفتت إلى العمَّة: «هل تتفضلين لنذهب؟».

جلس سُهْراب على حافة التخت وقال: «هذه المرة، لن أسمح للثعالب الحقيقية بخداعي». قال حميد: «من يكثر الجعجعة لا يرى طحنًا».

صرخت عِزَّت الدولة: «فردوس، أحضري شادور أختي. هل أنت صمّاء؟» هل عليها أن تستعجل مغادرتهما بعبارة أوضح من هذه؟ فشادور العمَّة موجود في البقجة أمام عينيها.

قال حميد: «إلى أين تذهبان، إنه أول الليل. أعرف أنَّ نفسيكما انقبضت لكثرة ما تحدثَ عن القتل والذبح. اسمحا لي بسرد قصة صيد ثعلبه، سوف تسليكما».

خجلت زَرِي من أن تقول إنها سمعت هذه القصة مرات عدة من ملك رُسْتَم نفسه، وتحملت حتى يحكيها حميد بتفاصيلها:

«كانوا يريدون الإيقاع بالثعلب، الذي يهاجم كل ليلة خمّ حميد، متوسلين بحيلة لكن الثعلب كان أذكى منهم. ذات ليلة مثلجة، أمسكوا دجاجة ميتة ووضعوها فوق تلة كي يأتي الثعلب لاصطيادها فيرميه سُهْراب بالرصاص. لكن الثعلب لم يقصد

الدجاجة مباشرة، بل حفر نقبًا يفضي إلى التلَّة المثلجة وسرق الدجاجة من أسفل التلَّة وتسلّل هاربًا. لم يفطنوا لهذه الحيلة إلا حينما اكتشفوا اختفاء الدجاجة والثعلب معًا».

على امتداد الطريق وحتى الوصول إلى البيت، كانت زَرِي مستغرقة في التفكير لمَ أصرّ على سرد هذه القصة بالذات؟ هل كان يريد تذكير سُهْراب بأنه لم يقدر حتى على قهر الثعالب؟ ثمّ فكرت: «يتظاهر بالسذاجة لكنه داهية من الدهاة!».

*

وصلن إلى البيت. وإلى أن يجهز طعام العشاء، جلست زَرِي أمام الراديو تدير زرّ الموجات لكن، رغم كل المحاولات، لم تفلح في ضبط موجة البرنامج الفارسي لإذاعة برلين. كانوا قد اقتنوا الراديو حديثًا ووضعوه في الصالة، وجرّاء الحر الشديد لم يكن أحد يذهب لتفقده، وبسبب ثقله لم يكن بالإمكان نقله باستمرار من هذا المكان إلى ذاك. حينما يكون يوسف حاضرًا، يذهب في مثل هذه الساعة إلى الصالة، يظل يلهو بالراديو، غير مكترث للحرارة، ويستخرج أصواته السمجة والخشنة من هنا ومن هناك بشكل محيّر إلى أن ينجح أخيرًا في ضبط موجة برنامج إذاعة برلين ويرهف السمع لصوت الرجل الذي يسبّ ويلعن من أعماق فؤاده. كان يخاطب كبار الرؤوس جميعهم باليهود، ويلعنهم وكأنَّ له -على قول يوسف- ثأرًا شخصيًا عندهم. وفي الصباح كان ينصت لبرنامج أسد الله وتروقه

قراءة الشَّاهْنَامَة(10). وخلال أيام الجمعة لمّا كان يوسف يذهب إلى القرية، كانت زَرِي تجتهد في إشغال التوأمين بقصص الصباح، رغم أنهما كانتا أكثر فورة وهيجانًا من أن تجلسا مركزتين لنصف ساعة كأطفال الناس.

بعد تناول العشاء ضبطت موجة أخبار إيران والعالم. لم تشر نشرة الأخبار إلى أي حادثة قد تكون وقعت في الجنوب. توجهت لمطالعة الصحف المحلية. أهم الأخبار الداخلية إعلانات مجالس الختم والتأبين. ثم راحت تبحث في الجرائد التي كانت تصلها من طهران، وكانت تجمعها لترسلها مرة كل أسبوعين للسيدة فتوحي في دار المجانين.

فتحت الجريدة الأولى: «حلّ وزارة التموين». «كوبون سكر قالب وسكر بودرة.. من الآن وصاعدًا يُحدّد كوبون سكر قالب وبودرة على النحو الآتي: ثلاثمائة غرام سكر قالب، وأربعمائة غرام سكر بودرة».

في الجريدة الثانية الخبر الوحيد الذي قد يكون له صلة بالأحداث التي تعنيها هو الآتي: «سكان فارس يتشكلون من الفرس المقيمين بطهران».

ثم: «توقيف رجل اليوم»، ومثل هذه الأخبار التي كانت تبدو عادية جدًا بالنسبة لزَرِي. لكنها لم تكن لتستسلم بسهولة، وكانت كل يوم تواصل البحث عن الأخبار إلى أن نجحت، بعد بضعة أيام، في العثور على الخبر التالي في الصفحة الثالثة من جريدة حديثة: «إمداد حامية "آبَادَة" و"سَمِيرَم"»، ثم قرأت

تفاصيل الخبر:

«بحسب الأنباء الواردة، هاجم أشرار من عشيرتي "بَوِيرْأَحْمَد" و"القَشْقَاي" شاحنات محمّلة بالمؤونة والمعدّات والألبسة كانت مرسلة من طرف الجيش لإمداد حامية "سَمِيرَم". ويوم 28 يونيو حزيران تعرضت حامية "سَمِيرَم" لهجوم استشهد على إثره عدد من الضباط والجنود. والقضية الآن رهن البحث في طهران، ويُتوقع دعم حامية آبَادَة وسَمِيرَم».

16

لمّا غادر كلو المشفى كان أضعف من أن تفي زَرِي بنذرها فترسله إلى القرية. حلقوا رأسه وعلّقوا صليبًا نحاسيًا على رقبته. كانت عيناه تدوران في محجريهما. وعند الوقوف كان رأسه يترنّح على رقبته ورجلاه ترتعشان. أخرجوه قبل الموعد. أمرت زَرِي بأن يخلد إلى النوم.

كان كلو يتحدث عن رجل ملتح يرتدي ملابس سوداء كليًّا، ويحمل كتابًا بيده، ويطوِّق عنقه بتميمة شبيهة بتلك التي أعطاها لكلو، مع فارق أنَّ سلسلة تميمته أطول. ظهر هذا الرجل، فجأة، صباح اليوم الذي كان ذاك الرجل الهندي المجاور لكلو يصارع سكرات الموت. مرّ من أمام سرير كلو وانصرف. بعد ذلك سمع كلو صوتَه وهو يتلو ورده. كان يتلوه بصوت عال. لم يكن كلو يفهم لغة الرجل الملتحي أثناء التلاوة، ولا لغة الرجل الهندي. في الواقع لا أحد هناك كان يعرف لغة أحد. كلَّا، يا إلهي، ماعدا تلك العجوز ذات الأسنان المتحركة وذاك الرجل الملتحي حينما لا يقرأ ورده، كانا يفقهان لغتنا.

ذات ليلة، جاء الرجل الهندي على رجليه يبحث عن كلو. قبَّل كلو بحرارة وكان يبكي وكأن كلو ابنه، ويردّد: "ساندرا! كيتو! كيتو! "، في الأساس كانت هذه الكلمات ورد لسانه أو ربما كان يتخيّل أنَّ اسم كلو كيتو أو ساندرا. كان كلو واقفًا عند رأسه في ليلته الأخيرة تلك، عندما كان يغرغر، تمامًا مثل أبيه، ويجحظ عينيه.

لكن الرجل، صاحب الثياب السوداء، كان يظهر كل صباح وكأن بيته كان هناك. في البداية ظن كلو أنه حضرة أبو الفضل جاء ليشفيهم، لكن حينما علم أنَّ جاره الهندي مات تيقّن من أنَّ الرجل

أسود الثياب ليس أبا الفضل. مهما يكن فالرجل ذاته الذي علّق التميمة على رقبة كلو قال بأنَّ عليه أن يقبِّل التميمة كل صباح، وأن يذهب إلى القرية ويأتي بعمّه كي يعطيه، هو الآخر، تميمة.

كان الرجل ذاته يقرأ قصة لكلو من كتابه ثلاث مرات. لكن كلو لم تعجبه غير قصة واحدة؛ قصة الطفل الراعي الذي كان أيضًا عازف ناي. كان الطفل صديقًا لابن الملك، وقتل غولًا بقوسه وبصخرة. كان الرجل أسود الثياب يردِّد كثيرًا أنَّ عيسى في كل مكان، وأنه كفّر بدمه ذنوب جميع الخلائق. ثم أمسك بيد كلو وأخذه إلى بيت عيسى؛ في غرفة كبيرة للغاية ومظلمة أثارت الرعب في كلو. ومهما فتّش كلو عن عيسى لم يجده. أراه الرجلُ أسودُ الثياب صورةَ صاحب البيت وأراه أيضًا صورة أم صاحب البيت، امرأة تحتضن طفلًا، تشبه "كُلْ دُوسْتِي" زوجة عمِّ كلو.

كم كان كلو يحب أن يعثر على عيسى، لكن عندما فهم من كلام الرجل أسود الثياب أنَّ عيسى راعٍ يبحث عن حملانه الضائعين، تيقّن من أنَّ عيسى ذهب إلى الصحراء وأنّى له أن يعثر على تلك البهائم؟

*

عاد يوسف من القرية في الصباح الباكر من يوم الأربعاء. متى خرج من هناك حتى وصل في وقت مبكر من الصباح؟ لمّا طرق الباب لم يدر بخلد زَرِي أنَّ الطارق قد يكون زوجها. كان قد حصل، مؤخرًا بعد جهد جهيد، على بطاقة المرور اللَّيلي. وكم استعملها سريعًا. كانت زَرِي قد رفعت للتو الناموسية قصد الخروج من السرير. ذهبت لاستقبال زوجها الذي ترجّل عن الأنثى وكان يرتدي القميص فقط، غير أنه لم يكن وحيدًا. كان رجل آخر مطبق العينين يجلس على الحصان الأحمر. دعكت عينيها ورنت إلى الرجل. كان يرتدي سترة يوسف على جسده العاري. كان يبدو أنه ميت لأنه كان مشدودًا بحبل إلى الحصان. ساعد غلام ويوسف الرجل في فكّ وثاقه وإنزاله على الأرض بكل أناة. لم يكن الرجل ميتًا لأنه فتح عينيه لينظر إلى ما حوله لكن كان واضحًا أنه لا يرى شيئًا. كان الدم قد تجمّد على صدغه الأيمن، ولحيته غير المشذّبة والمعفّرة بالتراب. وكان سرواله الداخلي ملطخًا ببقع حمراء متسخة. وضع الرجل يديه على بطنه العاري.

«هل الحمَّام ساخن؟» سأل يوسف.

«كلَّا، سأسخّنه الآن» أجابت زَرِي.

وما أن حمل غلام الرجل إلى الحمَّام حتى تفحّص يوسف جروحه في المشلح وطهَّرها بالماء الساخن والصابون ثم رشَّها بصبغة اليود. كانت جروحه سطحية، والرجل طوال هذا الوقت كان مغمض العينين.

جلسوا في الشرفة الخلفية للبناية على سفرة الإفطار فأخذ يوسف يوضح:

«حينما انطلقنا فجرًا وجدناه مرميًا على ضفة ساقيةٍ بالقرب من بوابة "زَرْقَان"، عاريًا إلا من سروال داخلي وجوارب ممزقة. في الأول خلت أنه حيوان أو شيء آخر، لكن حينما صوّبت إليه المصباح رأيت أنه إنسان. اعتقدت أنَّ لصًّا جرّده من ملابسه. ترجّلتُ.. كم كان يلتمس كي آخذه إلى المدينة... قال: "كنتُ أريد أن آتي إلى بستانك.. فلم تعد قدماي تُسعفانني، فسقطتُ هنا". قلتُ له: "اذهب الآن مع سيد محمد.. سيركبك على الحصان خلفه ويوصلك إلى البستان، وحين تشعر بتحسّن سوف آخذك إلى المدينة"، لكنه التمس كثيرًا كي آخذه إلى المدينة... قال: "سوف تفهم بنفسك كم هو ضروري أن تأخذني إلى المدينة". قال: "إذا لم تكن أنت ذاهبًا فاتركني في مكاني حتى يأتي من يوصلني". وبما أني دعوتُ اليوم بضعة ضيوف، قلت له سوف آخذك. في البدء، كان يركض بالفرس إلى جانبي خطوة بخطوة.. لكنه انهار وخارت قواه لمّا وصلنا إلى إدارة الجمارك ولم يعد قادرًا حتى على الإمساك بلجام الفرس. ربطته بحبل على الفرس. أظن أنه إما كان منهكًا أو مذعورًا. سوف نرى هذه الأيام مشاهد مماثلة كثيرة. كان طوال الوقت يتحدث عن شاحنة احترقت، قد يكون سائق الشاحنة أو شيئًا آخر... ».

جاء كلو وقبّل يد سيده. كان يبدو أنَّ قدميه تفتقدان الطاقة اللازمة، وكانت زَرِي تخشى من أن

يسقط. مسح يوسف على رأسه على عجل وكأنه لم يعرفه، فأوضحت زَرِي: «إنه كلو، لقد فرّ من قبضة عزرائيل!». ذهب كلو فقال يوسف: «حقًا لم أعرفه في بادئ الأمر. كم صار هزيلًا! كنت

أتوقع أنَّ هذا الولد سوف يصاب بالحمَّى الصفراء. جاءني رسول من "كُوَار" وقال إنَّ جميع أفراد عائلته مصابون. كنتِ محقَّة يا زَرِي، فراعينا كان مصابًا بالتيفوس، لقد استشرى في قرى المنطقة بأكملها. في هذا الجو الحار... قال الرسول: "وكأن أهل القرية غادروها ورحلوا"، لكنهم لم يرحلوا إلى أي مكان، فحين تزور البيوت تلفي أسِرَّة مفروشة وأهل القرية نائمين. لكن مع كل مشاغلي يجب أن أبحث لهم عن طبيب ودواء».

«أرى أنَّ من الصعوبة بمكان العثور على طبيب» قالت العمَّة.

قال يوسف: «سأرسل لهم أحد مساعدي الدكتور عبد الله خان». ثم نظر إلى زَرِي: «انهضي عزيزتي، أيقظي الأطفال أريد أن أراهم. أحضري أيضًا جرائد هذين الأسبوعين لأقرأها».

تأهبت زَرِي للذهاب فأردف يوسف: «زَرِي، سيزورنا اليوم بعض الضيوف، لا تتركي أحدًا يزعجنا عندما يأتون. اؤْمرهم كي يتركوا باب البستان مفتوحًا. سيأتون على متن السيارة».

في طريقها بمحاذاة حجرة المؤن اصطدمت زَرِي بغلام يحمل بيده صحن فستق وبندق طازجين. وكأن قشر الفستق الأخضر دُهن ببودرة، والبندقات

الطريات الشبيهة بورود اصطناعية قُطعت من أوراق رقيقة. قال غلام: «كانت في بردعة الأنثى».

أدركت زَرِي من النظرة الأولى أنَّ يوسف يشغله شاغل، وإلا فمُحال أن يأتي من القرية ولا يجلب لزوجته شيئًا من بواكيرها. الباكورة التي حين يقدّمها لها بيده وكأنه أهداها القرية بأكملها، بعطرها ومحصولها وينابيع عشاقها وبساتينها.

كان قلبها يهفو إلى سؤال زوجها لها حتى تقول له كل الكلام الذي ادّخرته. انتبهت إلى أنَّ يوسف يرتّب أجزاء من الجريدة ويضعها جانبًا. كانت تعلم أنَّ عينه سوف تقع، لا محالة، على خبر "دعم حامية آبَادَة وسَمِيرَم"، وكانت تتمنى من الله أن يستوضحها. رأى يوسف ذلك الخبر وقطّعه ووضعه جانبًا ولم يطلب توضيحًا.

بأمر من يوسف أركب غلام مينا ومرجان على الأنثى وركب هو خلفهما، وانطلق رفقة خُسْرو، الذي كان يمتطي سَحَرا، للتنزه في بساتين مسجد "وردي". أصرّ يوسف على اصطحاب كلو أيضًا، لكن خُسْرو لم يوافق على أن يمتطي سَحَر اثنان. وكلو لم يكن قادرًا على المشي على قدميه لذلك تقرر بقاؤه في الإصطبل والنوم في مكان غلام وعدم مغادرته إلا إذا نودي عليه. وخديجة كانت مشغولة للغاية وكانت تتمنى ألا تبرح المطبخ وأن تتحمل السيدة متاعب خدمة الضيوف. أما العمَّة فذهبت إلى الحوض كي تكمل دسّ الدنانير الذهبية في السترة الأخرى والخياطة عليها. والرجل الغريب

كان نائمًا في حجرة المؤن مثل صخرة. كان يوسف أحيانًا يذهب بنفسه ليستمع إلى تنفسه، وأحيانًا يرسل زوجته. أوصاها في حال استيقاظه أن تقدم له طعامًا وكل ما أراد ثم تلبسه وترسله إليه. كان تنفس الرجل منتظمًا مثل إنسان سالم، إلّا أنه كان مقطّب الجبين في نومته واضعًا يده على شفته.

كان يوسف يتمشّى في البستان والقلق بادٍ عليه، ولأدنى صوت يسمعه كان يحدّق في باب البستان. وفي نهاية المطاف دخلت سيارة خضراء بأضوائها المشغّلة. من الواضح أنَّ السائق نسي إطفاءها لأنَّ الشمس كانت قد شرّفت قبل الضيوف وراحت تقبّل أكتاف الأشجار.

وصلت السيارة إلى مدخل البناية الآجري وتوقفت عند حوض الماء. ترجّل السائق فانتبه إلى مصابيح السيارة المضاءة ورجع ليطفأها. لقد عَرَفت السائق. إنه مجيد خان، حليف زوجها، الذي اتفق معه على التحكّم في رغيف المدينة. الركاب الآخرون كانوا رجلًا وامرأتين مرتديتين شادورًا أسود. عرفت الرجل من شبهه لأخته، إنه فتوحي. وعرفت المرأتين حينما ترجّلتا وألقتا التحية؛ ملك رُسْتَم وملك سُهْراب اللذين كانا يحيلان شادوريهما أشدّ قتامة يومًا بعد آخر.

كانت القرائن تدلّ على أنَّ عملًا مهمًا بانتظارهم. لكن حينما أحضرت لهم الشاي سمعت صراخهم، ولمّا ولجت الصالة أدركت أنهم لن يصلوا إلى اتفاق بهذه السرعة. في البداية سكتوا جميعهم للحظة وهم

يفكّرون في تناول الشاي، ولم ينطقوا بكلمة شكر حتى. سُهْراب ورُسْتَم لفّا شادوريهما ورمياهما عند أقدامهما. أخذت الشادورين وطوتهما بتأن وكانت أذنها مصوبة على كلامهم خلال هذا الوقت. وضعت الشادروين على أريكة خالية. كان سُهْراب يقول:

«السيدة زهراء شاهدة، تعلم كيف كانت حالتي تلك الليلة. تلك المجزرة صارت بالنسبة إليّ كابوسًا، والآن أنا على استعداد لأن أقوم بأي شيء. سأدفع الدية من دمي. أليس كافيًا؟ مستعد أن أبتلع البارود وأسكب على نفسي البنزين وأضرم النار فيها بالقرب من أعمدة نفطهم. لا أخشى موتي. يوسف خان، ضع خطة سليمة لا تَقلُّ نسبة نجاحها عن ثلاثين في المائة... ».

التفت يوسف ناحية زَرِي وقال لها: «زَرِي قومي بإطلالة على ضيفنا الغريب. هلّا فعلت؟».

كانت تعلم أنهم طلبوا مغادرتها بشكل محترم، رغم أنها كانت تود البقاء. وقفت خلف الباب وأرهفت السمع. غدا صوت سُهْراب مستعطِفًا:

«عمِّي لا يزال متفائلًا، أنا جاهز كي أخدعه وآخذ منه مائتي بندقية على الأقل.. لكنك أهنتَني يا فتوحي.. في الوقت الذي تحشر أنفك في شؤون الآخرين، وإلا ما دخلك أنت حتى تفكر في فتح ستالينغراد وتحمل همَّ وصول الأسلحة إليهم أو عدم وصولها؟».

في الحقيقة، مع بطنها المنتفخ والأطفال الثلاثة الذين ينتظرون، ماذا كان بوسعها أن تقدّم أو تؤخر

حتى تظلّ واقفة تسترق السمع؟ لم تكد تمضي ساعة حتى بدأ القلق على أولادها ينخر كيانها، أتكون الأنثى أسقطتهما أرضًا؟ هل أصابتهم ضربة شمس في هذا اليوم المشمس الحار؟ مع أنها كانت تعلم أنَّ بساتين مسجد "وردي" مليئة بالظلال.

بينما كانت تجهّز الشيشة ليوسف كانت تفكّر أنه، في ظل أسلوب الحياة ونوع التربية اللتين أهَّلاها لمثل هذه الحياة، يستحيل على أي جبان أو شجاع أن يُقْدم على عمل تكون نتيجته قلب الأوضاع الراهنة. فعلى الشخص أن يكون على استعداد روحي وبدني لمواجهة الأعمال التي تفوح منها رائحة الخطر، وأن يكون استعداده بالضبط في الاتجاه المعاكس لأي نوع من الخطر. كانت تعلم

أنها لا تملك جرأة ذلك ولا طاقته. لو لم تكن متعلّقة، إلى هذا الحدّ، بزوجها وأولادها ربما كان الأمر مختلفًا. فالبواكير واللمسات والحوارات والعين في العين، في واد. وحضور العجائب، في واد آخر... ومثل هذا الإنسان لا يستطيع المجازفة. صحيح أنها دارت بشكل روتيني كما تدور عجلة البئر كل يوم كما في اليوم السابق. صحيح أنها أدارت عجلة الحياة، من الصباح إلى الليل، كما أدار حسين كازِرُونِي عجلة البئر برجليه ولم يفعل شيئًا لنفسه بيديه الطليقتين... أين قرأتْ أنَّ "اليد وسيلة الوسائل". لكنها كانت تحب الابتسامة والنظرة والكلمة واللمس ورائحة الإنسان. وكانت هذه مكافأتها. كلّ سنٍّ كان الأطفال يقتلعونه، كلّ حلقة جديدة كانت تراها في شعرهم، الأصوات التي كانوا يصدرونها في البدء

مثل العصفور والحمَام ثم انتهت بالكلمات، وتصفيف الكلمات بشكل صحيح وغير صحيح، وأول جملة صاغوها، وطريقة نومهم وكأنهم ملائكة، وبشرتهم الناعمة وكأنك تلمس أوراق النسرين. لا. حقًّا لم تكن قادرة على فعل شيء. الشجاعة الوحيدة التي كانت تتحلى بها هي ألا تحول دون شجاعة الآخرين، وتتركهم أحرارًا في أيديهم وأفكارهم... وأن يعملوا شيئًا بوسيلة وسائلهم.

ليت الدنيا كانت بيد النساء. النساء أنجبن، يعني أنهن خلقن ويعرفن قدر مخلوقهن، قدر التحمّل وقدر الصبر وقدر الروتين وقدر العجز عن القيام بأي شيء لأنفسهن. ربما لأن الرجال لم يكونوا في أي وقت خالقين، فهم لا يألون جهدًا من أجل أن يخلقوا شيئًا. لو كانت الدنيا بيد النساء، هل كانت حرب لتندلع؟

لكن ماذا لو انتزعوا منك النِّعم التي حباك الله بها؟ تذكّرتْ ذات يوم حين اشترى جناب الأخ سيارة جديدة. آنذاك لم تكن أي حرب، ولم يكن النزاع قد شبّ بين الإخوة بعد. وإن كان جناب الأخ، بين الفينة والأخرى، ينقم على يوسف، فبسبب أسلوب تدبيره لأملاكه واهتمامه بالبدو. ذهبوا للصيد على متن سيارة جناب الأخ. خُسْرو كان معهم أيضًا. اصطدم السائق، غير متعمد، بصغير غزال فصار كتلة لحم وعظم. ترجّلوا وأزاحوا كتلة اللحم والعظم عن الطريق. وصلت أمه يتبعها صغير آخر. دارت حول صغيرها مرات عدة ثم انطلقت واشتبكت بالسيارة.

لم تكن البكماء تعلم أنها من حديد. راحت ترمي بنفسها على جناب الأخ ويوسف وزَرِي، احتارت وكانت رجلاها الأكثر طولًا من يديها ترتعشان، فحدّقت فيهم واحدًا واحدًا بعينيها الواسعتين والمكتحلتين اللتين استحالتا بؤبؤًا بالكامل. وكأنها كانت تقول لهم لماذا؟ لماذا؟ غالبت الدموع جناب الأخ، فالطريدة أتت إليهم بنفسها وعلى رجليها، لكنهم عادوا أدراجهم.

وضعت جمرات ملتهبات على رأس الشيشة وسحبت نفَسًا، وقبل أن تحملها إلى الصالة قامت بإطلالة على الغريب الذي كان يخرخر في نومه. همّت بإيقاظه لكنها تراجعت. كان يبدو أنه رياضي.

واضح أنَّ الشِّجار كان مستمرًا. لم تتجاوز العتبة حتى تناهى إليها صوت سُهْراب:

«الآن وقد أمسكتُ برأس الخيط وصرت أعرف أين أضع أصبعي، لماذا تحول أنت دون مساعدة الآخرين؟ أنت تقول إني إنسان خطير وأطمح إلى الجاه، والويل من ذلك اليوم الذي أصل فيه إلى مقام ومنصب... ».

وضعتْ الشيشة أمام زوجها. كان جو الصالة مع أبوابها الموصدة حارًا جدًا، إذ لاحظت قطرات عرق تعلو جباههم وسطح أنوفهم. ورأت مجيد قد خلع سترته وفتح زرّ ياقة قميصه. انطلقت صوب الصوان وأخرجت المراوح ووضعتها على الطاولة وسط الصالة. ثم أخرجت الصحون والسكاكين والشوكات ورتّبتها فوق الطاولة. توخّت منتهى

الهدوء كي لا تحدث أدنى صوت. كان سُهْراب يقول:

«خطر هذا العمل سيتهدّدني أنا وحدي، وأعلم أنَّ المسافة الفاصلة بين موتي وحياتي لن تكون أكثر من خطوة واحدة. إذا لم أُقدِم على هذا العمل فإنَّ كوابيس تلك الحادثة سوف تجنّنني... تقول إنَّ هذا العمل بالذات هو نوع من المسرحية... يا رجل! أنا ذاهب على قدميّ لاستقبال حتفي».

رفع يديه إلى عينيه وفجأة أجهش بالبكاء. نظرت إليه زَرِي وفي نفسها ارتباك وحيرة وأخذت مروحة ووضعتها في حجره. وعلى الفور تحكّم سُهْراب في نفسه وضحك في وجه زَرِي وقال:

«حينئذ، يجب أن أظل بانتظارك كل يوم خميس كي تجلبي لي التمر والخبز والدخان». ثم صرف نظره نحو الجميع وأردف:

«السيدة زهراء مثل أختي تمامًا. أفشيت لها خططي قبل أن أعرضها عليكم. للأسف فإن أناسًا خبثاء غيرها وأخت زوجها قد سمعوا الكلام أيضًا. لكن ما خوفي من البلل وأنا الغريق. سوف أقوم بهذه المهمة حتى من دون مساعدتكم. يجب فقط أن يزوّدني أخي بالمسلّحين ويمدّني يوسف بالمؤونة. معي ثلاثون رجلًا من الثقات والفدائيين أمثالي».

عجبًا، فقد قطعت زَرِي بطيختين وكانتا كلتاهما صفراوين فجّتين. تطيّرت من نيء البطيختين. أما الثالثة فلم تكن سيئة. أرادت أن تشطرها أشطر مسنّنة، لكن فكّرت من سينتبه، الآن، لأفلاق البطيخة

المسنّنة؟

دلفت إلى الداخل ووضعت وعاء البطيخة على الطاولة، بجانب خريطة إيران التي فرشوها عليها. كانوا جميعهم معقوفين على الخريطة ينظرون بينما ملك سُهْراب يضع أصبعه على نقطة في الخريطة ويوضّح:

«إذا وصلنا إلى "يَاسُوج"، فالمسافة إلى "بَاشْت" قريبة، حينها ننطلق إلى "گَچْ سَارَان"..».

قال يوسف: «وحتى نضمّ إلينا الأهالي هناك، يلزمنا الكثير من الوقت، لكن ليس أمامنا خيار آخر، وما هذه إلا الخطوة الأولى... السيد فتوحي، يجب أن... أعمال الشغب الداخلية... ».

توجّه إلى زَرِي وقال: «لا تُحْدثي كل هذة الجلبة، يا سيدة».

«على عيني» قالت زَرِي مدركة أنَّ عليها الانصراف.

أثناء خروجها من الصالة سمعت مجيد يقول: «لا أعتقد أنَّ أتباعك من الكادحين سيؤيدون منطلق هذه العملية إلا إذا كنت أنت موافقًا فذاك كلام آخر».

بأمر من يوسف، فرشت سفرة الغذاء على طاولة الصالة فخلعوا جميعهم السترات والكرفتات وأمسكوا المرواح في أيديهم.

طلب يوسف شرابًا فأخرجت زَرِي زجاجتين حمراويين من الصوان. فكّرت أنهم توصلّوا إلى اتفاق أو شيء حتى يطلب يوسف شرابًا في حرّ تلك الظهيرة. عندما كانت تزيل السدادة الفلينية من فم

الزجاجة نُزع نصف السدادة وسقط نصفها داخل القنينة بفعل ضغط السحّاب. كان واضحًا أنَّ يوسف يراقب يدها لأنه قال لها: «لا تقلقي عزيزتي، كان الفلّين مهترئًا».

سكبت الشراب للجميع، ورفعوا أقداحهم إلى أفواههم وقالوا: «في صحة السيدة زهراء!». طأطأت رأسها وقالت في قرارة نفسها وما فائدة الصحة لوحدها؟

كانوا يتبادلون الحديث والمزاح وكأنَّ زَرِي لا تجلس بينهم. كانت مهمتها تقتصر على تقريب المملحة إليهم أو ملئ أقداحهم أو وضع حوصلة الدجاج في طبق مجيد لأنها كانت تعرف أنه يحبها، فيبادر مجيد إلى جواب يوسف بفم محشو: «الحق معك!».

كان يوسف يقول: «كان الأمر أهون على آبائنا، وإذا لم نتحرّك نحن فسيكون عسيرًا على أبنائنا. كان آباؤنا يواجهون خصمًا واحدًا، وللأسف استسلموا له. ونحن الآن نواجه خصمين وسينضم إليهما غدا خصم ثالث بنَفَس جديد، وبعد غد خصوم آخرون... جميعهم سوف... ضيوفًا على هذه المائدة... ».

قال ملك رُسْتَم : «وإذا لم نستطع القيام بأي عمل، فعلى الأقل أرشدنا أبناءنا إلى الطريق..».

قال ملك سُهْراب: «لن أولّي الدُبُر حتى لو كنت وحيدًا وكان العدو على قلب رجل واحد ويهاجم بالآلاف... ».

قال ملك رُسْتَم: «وستظل دماء الجميع تسيل

انتقامًا منا لآلاف السنين، أخي!». كرع قدحه وأردف: «دم سِيَاوَش(09) !».

قدّم يوسف قدحه لزَرِي، لكن رعبًا غريبًا كان ينتابها من حديثهم حتى إنَّ زجاجة الماء سقطت من يدها وانكسرت. كانت تفكّر: «يا إلهي، ما طينة هؤلاء الرجال؟ هم أنفسهم يعلمون ألا طائل يرتجى من وراء تحركاتهم، لكن لأجل أن يثبتوا وجودهم ورجولتهم وأنَّ الشهامة لم تمت في دواخلهم، ولأجل ألا يبصق أبناؤهم غدًا على قبورهم، فإنهم يحفرون بأيدهم الطليقة... أخرسني الله! لا قدر الله!».

كان يعتصر حلقها غصّة من أنها تمنع الدمعة التي كانت تريد أن تنهمر. انحنت لتجمع شظايا الزجاج المنكسر... وأي أشياء تتذكرها النساء، وفي أي أوقات. عبثًا، استحضرتْ ذات ليلة تنهّد يوسف في نومه، فاستيقظت وأشعلت ضوء الأباجورة، وظلت لفترة تحدّق في ظهر أذن زوجها تحت نور المصباح وكأنها نسيج مخملي وردي اللون مُسح على أهدابه من الجهة المعاكسة.

*

نام الغريب حتى مخايل الغروب ثم جاء إلى البستان بثياب نوم يوسف التي كانوا قد ألبسوه إياها منذ الصباح، وجلس على حافة الحوض، ثم غسل وجهه ونظر إلى لوحة النرد التي كان يوسف ومجيد يلعبانها. كان الضيوف الآخرون قد غادروا مساءً في عزّ لهيب ذلك اليوم الحار. حركات الرجل

غير المتكلّفة وأوامره ليوسف ومجيد: «سَكِّر الأقراص، لا مخرج أمامك، أظهر الأقراص المفردة» كانت تدلّ أنه ليس بسائق شاحنة.

جلبت له خديجة طعامًا. كم كانت شهيته عجيبة! إلى أن تحركت زَرِي وأحضرت له عصير القصب الذي طلبه، كان قد ازدرد الأكل.

نهض الغريب وجال بعينيه في البستان وقال: «تنعم بحياة جميلة، لكن خسارة، لأنك لا تملك أولادًا، على ما يبدو. ليت البستان كان يعج بعشرة أو اثني عشر طفلًا يتقافزون على أكتاف

بعضهم البعض».

«هل لديك أطفال؟» سألت زَرِي.

استلّ آهة وأجاب: «ولدان».

لزمه وقت طويل حتى استأنس الغريب واعترف أنه نقيب في الجيش، وأخذته الحماسة وراح يسرد ما حدث له. كان في منتصف حكايته لمّا جاءت التوأمان. سكت الرجل ونظر إليهما بحسرة. قبّل يوسف البنتين وأمر خديجة أن تأخذهما إلى السطح عند العمَّة وتنتبه لهما لئلا تسقطا أو تضعا يديهما في موقد النار. استأنف الرجل سرد حكايته. كان اندفاعه يفوق حماسة مستمعيه، وحين وصل خُسْرو وهُرْمُز اكتفى بالرد على تحيتهما.

17

«كنتُ أنا الدرّاج، قائد رتل شاحنات المؤونة الصفراء الذي انطلق من شيراز ووصل إلى "آبَادَة". في المجموع كان لدينا أربع عشرة شاحنة وخمسة وأربعون جنديًا وخمسة حرّاس برتب عسكرية مختلفة مكلفّون بحراسة الشاحنات. وكان معنا أيضًا ملازم ثالث تخرّج حديثًا من الكلية وكان تحت إشرافي المباشر. كان فتى في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره. ثلاث شاحنات كانت محمّلة بالمؤونة، وواحدة بالزي العسكري، وأخرى بالبنزين، وشاحنة أخرى محمّلة بالسلاح. كنا نتوفر أيضًا على سيارة إسعاف. وُجه إليّ أمر شفهي بأن أقود الرتل إلى "آبَادَة" وأنتظر هناك. لم يسلّمني أحد أي أمر مكتوب. وصلتنا برقية في "آبَادَة" تقول وقّروا احتياجات الجيش في إصفهان ثم انطلقوا إلى طهران. كنت أعرف جيدًا رَضْوَانِي نِجَاد ورافقته في عدة مأموريات سابقة. التعِس كان يعيل أربع عشرة فردًا وكان والداه ضريرين، وكان أخوه معنا أيضًا. كان الأخوان كلاهما برتبة عريف».

«قضينا الليلة في "آبَادَة". في آخر الليل لمّا كنت عائدًا من السَّمر، لفت انتباهي ضوء مصباح في إحدى الشاحنات، دخلت فوجدت رَضْوَانِي نِجَاد وأخاه جالسين. أعدّا شايًا وجلسا يحتسيانه مع الخبز. أشفقتُ عليهما وقلت لهما تعاليا لنذهب معًا لأضيّفكما. لنذهب لتناول الأرز بالكباب في المدينة ونشرب خمرًا. لو سكبتَ خمر هذه المدينة على

الأرض وأشعلت عود ثقاب لاشتعلت النار. قال: جناب النقيب، هل تظنّ أننا لا نعرف شرب الخمر؟ أو أننا لا نشتهي الملذّات والسَّمر مثلك؟ لقد وافقنا على هذه المأمورية كي نحصل على مائتي تومان علاوة حربية لنأخذها لأولادنا».

«تحرّكنا صباحًا، وعند الظهيرة أوقفنا الرتل على ضفة نهر. كان يجب أن نبقى هناك بانتظار المدرّعة. ترجّلتُ فوقعت عيناي على بضعة رجال عشائريين يعتمرون قبعات لبادية ذات حافتين ويضعون صُدرات على أكتافهم. كانوا في الضفة الأخرى من النهر يسقون خيولهم العارية. ما إن رآنا أحدهم حتى نطّ على حصانه وانطلق إلى الجبل ناحية اليسار. ذهبنا إلى البستان المحاذي للنهر لنتناول وجبة الغذاء. كان ثمة عددٌ آخر من أصحاب القبعات اللّبادية لكنهم يلبسون عباءات رهيفة رهافة وشاح زوجتي. لم ندرك أنهم جواسيس. لمّا وصل قائد المدرّعة وضّح لنا الأمر. قال يجب أن نتجهّز بعتادنا العسكري لأننا سوف نجتاز طريقًا محاصرة. كنا جميعًا نتصور، إلى تلك اللحظة، أنَّ مهمتنا بسيطة؛ الذهاب إلى حامية سَمِيرَم وتحويل المؤونة والأسلحة والرجوع سالمين».

قلت لقائد المدرّعة: «عزيزي، نحن لا نتوفر على قوّات، كيف سنعبر طريقًا محاصرة؟». قال: «إنهم لا يهاجمون خلال النهار. سوف نعبر في النهار. إذا تحرّكنا اللحظة سنصل إلى الحامية عصرًا. إذا استطعنا سنرجع أدراجنا وإلا سنبيت الليلة هناك

ونأخذ طريق عودتنا في الصباح الباكر».

«انطلقنا. عندما عرَّجنا في اتجاه اليسار تبيّن أنَّ الطريق تعرّضت للتخريب. كانت الشاحنات بعد كل عشرين مترًا تعلق في الحفر والمطّبات أو تنزلق في الماء. كان يستحيل التقدم حتى بخمسة كيلومترات في الساعة. لم نشغّل مصابيح الشاحنات وكانت تسير متقاربة من بعضها. لو نجحنا في اجتياز وادي "خُرُوسْ كُلُو" لكنا وصلنا إلى أولئك التعساء. المتاريس التي وُضعت على الطريق صمّمها أحد ضباطنا المنضم إليهم. وفيما بعد عرفنا أنه هو من خطّط لهيئتهم العسكرية بشكل عام. كان محكومًا عليه بالإعدام ففرّ لاجئًا إليهم. كانوا ينادونه بالعقيد، لكنه لم يكن عقيدًا».

«ارتفعت حرارة محرك المدرّعة، فتقدّمت عشرة أقدام وتوقفت. كان الجو قد أظلم فأوقدوا النار على رؤوس المرتفعات. كانت تلك خنادق عشيرتي "القَشْقَاي" و"بَويِرْأَحْمَد"، وكنّا نحن لا نزال في أول وادي "خُرُوسْ كُلُو"، وهم فوق رؤوسنا من الناحيتين، لكنهم لم يتعرضوا لنا. كانوا فقط يصدرون أصواتا مخيفة : لي لي لي. هوهوهو. لي لي لي. هوهوهو».

«قررنا فتح غطاء محرك المدرّعة لكي يبرد. لمَّا فتحناه وجدنا المضخة مثقوبة، فقررنا إصلاحها تحت ضوء الفوانيس. وفي انتظار إصلاح المضخّة، جمعتُ القوّات لنحفر خندقًا حول الشاحنات، من باب الحيطة، وليقوم الجنود بالحراسة وأقوم

أنا بدورية. أخبرتُ الجميع أنه ليس لنا الحق في الرجوع ولا نقدر على ذلك. كان جميع سائقي الشاحنات برتبة رقيب. اندفع الرقيب أول قائلًا: جناب النقيب، الجنود حصلوا على شارتهم العسكرية حديثًا، ولا يجيدون إطلاق النار. أمرتُه أن يوزّع أسلحتهم بين الضباط والرقباء. أصبح نصيب كل واحد منا بندقية وخمس عشرة خرطوشة. خصصنا ثلاثة رشاشات خفيفة لحراسة المدرّعة؛ رشّاشان على طرفيها وآخر خلفها».

«أخذنا أماكننا في الخنادق الانفرادية التي حفرها الجنود وجلسنا في حالة تأهب. كان لديّ مسدس تحت لباسي. لم نكن نتوفر على عشاء ولا ماء. كان الجو باردًا جدًا ولا طريق أمامنا للرجوع ولا نقدر على التقدم أيضًا. كان قائد المدرّعة وعدد من الأفراد تحت إمرته منشغلين بإصلاح مضخّة العربة العسكرية التي لم تُصلح في الأخير. وإلى حدود الساعة العاشرة ليلًا كانوا يردّدون لازمتهم: "لي لي لي. هوهوهو" ولم يهتموا لأمرنا. فَقَد قائد المدرّعة، وكان نقيبًا مثلي، الأمل في إصلاح المضخّة وأصابه الإسهال من شدة الخوف. كان يقول إنهم ألفا رجل؛ ألفٌ من قبيلة "القَشْقَايْ" على هذا الجانب من وادي "خُرُوسْ گُلُو"، وألفٌ من عشيرة "بَوِيرْأَحْمَد" على الجانب الآخر. كان يقول: سيمزقوننا إربًا إربًا... ليت المدرّعة... لم أدعه يكمل، قلت له إنك ستدمّر معنويات الجميع. اذهب إلى داخل المدرّعة وأغلق الباب واجلس».

«كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بكل تأكيد والأجواء يلفها ليل بهيم. لا ضوء ولا قمر ولا مصباح. لم نكن نجرؤ حتى على إشعال عود ثقاب. كنا نرى فقط نيرانهم الموقدة على طرفي الجبل في كل المرتفعات. قلت للرقباء لا تضيِّعوا الخراطيش، وما لم يكن الهدف واضحًا أمام الأعين فلا تطلقوا النار، بانتظار وصول المدد من "سَمِيرَم" أو "شَهْرِضَا". عندما التحق بنا قائد المدرّعة أخبرنا أنَّ رتلًا انطلق من "شَهْرِكُرْد" ويجب أن يكون الآن في "شَهْرِضَا"».

«مؤكد أنَّ الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة لمّا سمعتُ صوت خَبِّ الخيول من خلف الرَّتل. ربما كانوا اثني عشر فارسًا. قال الرقيب أول: جناب، لقد أتوا. من صوت سنابك الخيول خمّنتُ أنهم يبعدون عنا ثلاثين مترًا. اندفع الرقيب صاحب الرّشاش في خلفية المدرّعة: لقد جاؤوا. كان يهيمن صمتٌ مطبق وظلمة رهيبة. جاؤوا ليختبرونا ويروا إن كنا نائمين أم مستيقظين. صاح ثلاثة أو أربعة منهم "هوهو، هوهو"، ثم انطلق صوت الرصاص على الفلز قِيجْ، طَقْ. قِيجْ، طَقْ. كانوا يطلقون الرصاص على الشاحنات. أجبرهم سيل طلقات رشاشنا على الهروب».

«لاحت أولى تباشير الفجر حين رأيت على قمة الجبل الخيول والفرسان يظهرون تارة ويختفون. وفجأة انحدرت الخيول مع فرسانها من الجبل. كان تراب الخنادق باردًا. ومرة أخرى علا صوت قِيجْ، طَقْ. قِيجْ، طَقْ... كان الرصاص يرتطم بالشاحنات.

قلت لا تردّوا ولا تطلقوا النار حتى ينزلوا».

«كان الرقيب، سائق آخر شاحنة، عجوزًا. صاح آخ وسقط. ذهبتُ صوبه. كان إصفهانيًا. قال: جناب! انبطح، انبطح أرضًا، الرصاص. سحبتُ العجوز ناحية سيارة الإسعاف، وأرقدته على سريرها أنتظر مشيئة الله. بعد ثلاث دقائق شقّت رصاصة كتف أحد الجنود، ثم بطن وفخذ جندي آخر... حمل الجنود الجريحيْن وأرقدوهما على سرير سيارة الإسعاف. ثلاثة أسِرّة، هذا كل ما كانت تتوفر عليه السيارة. أسِرَّة قديمة وبنية تحمل شعار الأسد والشمس».

«كان أفرادهم يزحفون من الجبل ويهبطون. على بعد مائتي وخمسين مترًا من خنادقنا كان ثمّة بناء آجري لبستان. كانوا يوصلون أنفسهم خلف البستان ويتموضعون هناك. وبمجرد أن يصبحوا في مرمى نيراننا كنا نطلق الرصاص. قال الرقيب التركماني وكان سائق الشاحنة الأولى: سأسلك مسلكًا وعرًا إلى قمة الجبل لأراقب وضعهم هل... لم آذن له. كانت الساعة تشير إلى السابعة أو السابعة والنصف والضياء ساطع. كان حوالي ستين إلى سبعين فردًا يصيحون من أعلى الجبل "هوهو" وينادون: "يا عسكري! سلاحك على الأرض، استسلم. يا عسكري! سلاحك على الأرض، استسلم...". قلت: هراء، لن نستسلم. وإلى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف كان عدد إصاباتنا

اثنتي عشرة إصابة بالرصاص. سمعنا: "هجوم! هوهو!" فانحدروا من الجبل. أسرعنا إلى الشاحنات، وأراد السائق التركماني والرقيب

السائق الآخر إرجاع شاحنتيهما بأية وسيلة. لم يكن أمامنا حل آخر، كان علينا أن نترك المدرّعة ونؤمّن شاحنتي البنزين والسلاح، على الأقل. أخجل من قولها، لكننا تركنا وراءنا الجرحى أيضًا، وكانوا يبكون.. ليس جميعهم».

«هجموا. كانوا قرابة الألف بل أكثر. قفز السائق التركماني من خلف المقود إلى الخارج في الوقت المناسب، لكن السائق الآخر أصيب بطلقة. قُطع الطريق في وجهنا فاضطررنا للترجّل. كانوا يتقدمون زحفًا على الصدر ويطلقون النار. لم يبق معي سوى خرطوشة واحدة، في الوقت الذي كانوا هم على بعد عشرة أقدام منا. رفع رَضْوَانِي نِجَاد رأسه ليطلق النار لكنه سقط. نطق: "خَنْدَان" ثم سقط. أظن أنَّ "خَنْدَان" كان اسم ولده. التعيس كان يعول أربعة عشر رأسًا. هشّمت رصاصة دماغه. شاهدت بأم عيني بياض دماغه. هبّ أخوه لمساعدته فأصابوه. قصفوهما معًا بوابل من الرصاص. جلستُ أرضًا وأطلقت الرصاصة الوحيدة التي كانت بحوزتي على صدر قاتل الأخوين. ركض رفيق القاتل صوبه وصاح: بْوَامْ، ضرغام، هل قتلوك؟ بْوَامْ؟».

«زحفتُ إلى أسفل شاحنة السلاح، وسحبت نفسي رويدًا رويدًا إلى أحد الخنادق. كان العريف الذي في الخندق قد مات. استلقيت على الجثة مثل قتيل مضرّج بدمائه. كان فرسان "بَوِيرْأَحْمَد" ينطلقون جريًا ويطيرون فوق رأسي ويهيلون التراب عليّ.

بدأ أخذ الغنائم. في البدء صادروا الأسلحة، ثم تناهت إليّ أصوات زغاريد نسائهم وهتافاتهن: "لي لي هوهو". ثم صوت الصور والطبل. ومن كثرة ما سمعت نشيدهم حفظته:

«أَعْلَى القِمَّة، سَفْحُ القِمَّة مُخَيَّمُ الدِّيَارِ سُهْراب خَانْ شغِّل الكَامِيرَا وَانْظُرْ آلاف الدِّيَارِ

سَكْرَان سَكْرَان سَكْرَان كَاحِلُ الحُكُومَة بِيَدِي

سَكْرَان سَكْرَان بُنْدُقِيَّة البُرْنُـو بِيَدِي»

«وقف رجلٌ من "القَشْقَاي" على رأسي، وداس على كتفي بكعب قدمه وقال: "انهض يا ابن الكلب، أنت حي! أراك نائمًا. سلّم سلاحك. انهض، انهض". ثم لحق به رجل من "بَويِرْأَحْمَد"، أسود البشرة وقصير. سلّمتُ البندقية للقَشْقَايِي فاشتبك الاثنان مع بعض، ثم رأيت البَويِرْأَحْمَدِي قتل القَشْقَايِي واستحوذ على البندقية. تمدّدتُ، ثانية، في الخندق على الجثة. كان يوشك أن يغمى عليّ. كنت مرهقًا وعطشانًا ويكاد قلبي يتوقف حنقًا. وصلت نسوة "القَشْقَاي" و"بَويِرْأَحْمَد" ورحن يخرجن أكياس المؤونة من الشاحنة. كنّ يفتحن الأكياس أو يمزّقنها ويستخرجن محتوياتها من الشاي والسكر والأرز والحمّص والفاصوليا ثم يضعنها في أكياسهن. رأيت رجلًا من "بَويِرْأَحْمَد" استولى على بندقية الملازم ثالث، الذي تخرّج حديثًا من الكلية، وأجبره على التعرّي، كما ولدته أمه. أمسك الملازم ثالث قطعة كيس مؤونة وستر بها عورته الأمامية، لكن إحدى النساء انتزعتها منه ووضعت فيها بصلًا ثم عقدتها...

وفي نهاية المطاف جاء أطفال القرية ونساؤها على حميرهم وحمّلوا على أخراجها ما فَضَل من مؤونة».

«في سيارة الإسعاف كنّا قد أرقدنا ثلاثة رقباء مصابين بطلقات ومبقوري البطون. ومع أنَّ سيارة الإسعاف كانت تحمل شعار الأسد والشمس لكنهم لم يهتموا وأضرموا فيها النار. ظلت رائحة شيّ اللحم والعظم منبعثة لمدة. بعد ذلك أحرقوا أيضًا شاحنة البنزين».

«بعد ذلك جاء إليّ رجل قَشْقَايِي ووضع كاحل قدمه على كتفي وقال: "انهض واخلع كسوتك". نهضت واستجمعت كلّ قواي، ثم ألقيت بها تجاه شاحنة البنزين المشتعلة. اقترب مني فارس أسود ونحيل يحمل في يده هراوة مثبّتًا في رأسها سكين، وبندقيته معلقة في خصره. قال: "اخلع كسوتك. لن أقتلك حتى تغدو ملابسك بلون الدم". صارت سترتي وشارات رُتَبي وبوطي العسكري بحوزته. كانت شاراتي ذهبية. لمّا حصلت على الرتبة في العيد اشترت لي زوجتي الشارة. اقتلع ساعتي بسكينه، وانتزع سلاح حزامي بذات السكين... استولوا على شاحنتين لم تُلمسا وأخذوهما. كانتا محمّلتين بالزي العسكري والذخيرة. فيما بعد سمعت أنهم لبسوا الملابس العسكرية وهاجموا حامية سَمِيرَم».

«هربتُ إلى الجبل. سمعت صوت أنين. قلت سأنزع ملابسه وأرتديها. كان أحد العرفاء، سائق إحدى شاحناتنا، مضرّجًا بالدماء. سألته: "هل أصبت؟".

قال: "لا، سلّمتُ بندقيتي واختفيت في اللحظة المواتية". قلت له: "انهض وتعال معي". قال: "جناب النقيب، أترجّاك، حقيبتي، هداياي التي اشتريتها من شيراز". قلت له: "من الآن فصاعدًا لا تنادني جناب النقيب". وأثخنًّا في منحدر الجبل. عبرنا من أمام خنادقهم. كانت مبنية بالحجر الأبيض، وبداخل كل واحد منها أربعة أفراد وسط كمٍّ من أغلفة الخراطيش. سلكنا طريقًا وعرًا إلى آبَادَة. لمّا اجتزنا مرتفع الجبل رأينا أحد فرسان "القَشْقَاي"، فانبطحنا "گروب" "گروب" على التراب بجانب أحراش. وقف على رأسينا وقال: "هاي عسكري! أبناء كلاب! رأيتكما. انهضا. انهضا". وقال للعريف: "اسمع يا ابن الكلب! يا مِيرْزا حَسَن؟ أين بندقيتك؟".

شاهدت العريف وقد نهض من مكانه وتعرّى أمامه بشكل تلقائي وخلع بوطه العسكري. ولم يبق من لباسه سوى فانيلة وسروال داخلي. صرّ الملابس ووضعها في بقجة وعقدها ثم سلّمها للفارس القَشْقَايِي. قال الفارس: "آهاي يا ابن الكلب، كم صرت سمينًا! يا مِيرْزا حَسَن! ". قلتُ له: "كي تقتلنا يجب أن تبدّد خرطوشتين هباءً. لا تقتلنا! إنهم ينهبون الشاحنات في الجهة الأخرى من الجبل. جميعهم يستولي على الغنيمة؛ الأرز والحمص والفاصوليا والشاي والسكر والبصل والزيت والملابس العسكرية والخراطيش والبنادق". قلت له: "أسرع كي تصل في الوقت المناسب". التفتَ ناحية العريف وقال: "هل هو صادق يا مِيرْزا حَسَن؟". قال العريف: "نعم، أَخَوِي". أخرج الفارس من خُرجه

نعلًا وقال: "قشرة القرع هذه لك يا مِيرْزا حَسَن". كان صندلًا نسائيًا رخوًا. مؤكد أنهم جرّدوهم من ملابسهم. أجل فقد نسيت أن أقول إنَّ امرأة وزوجها وخمسة عشر مأمورًا حكوميًا ركبوا معنا من آبَادَة. وعندما انعطفنا جهة اليسار ترجّلوا. بالتأكيد عرَّوهم من ملابسهم في طريق "ايزَدْخَاسْت". أعاد العريف النعل للفارس وقال له: "لا يلزمني، خذه لـ"آبْجِي گُلَابِتُون" وأبلغها سلامي". قال الفارس: "سآخذ لـ "گُلَابِتُون" تنورة موشاة بورود ذهبية، سآخذ لـ "گُلَابِتُون" طوقًا من ذهب ومرآة". قلتُ للفارس: "انطلق بسرعة حتى تأخذ نصيبك من المؤونة". ولمّا انصرف سألتُ

العريف: "هل أنتم أبناء عائلة؟". قال: "نعم، إنهم أبناء عمومتي، لكن اسمي ليس "مِيرْزا حَسَن". إنهم يطلقون على اللص اسم "مِيرْزا حَسَن"».

«أظن حوالي الساعة الثانية بعد الزوال جاءت طائرة، وحلّقت بهديرها المدوّي حول الرَّتل العسكري. وفي الأسفل افتعل رجال "القَشْقَاي" و"بَوِيرْأَحْمَد" ضوضاء وجلبة. ثم انصرفت. كان هذا دعمًا جويًا عسكريًا!».

«بقينا نحن الاثنين، عطشانين وجائعين وحافيي الأقدام، بقميص وسروال داخليين، ونعل نسائي لا يسع قدم أيٍّ منا. انحدرنا من مرتفع الجبل. في الوادي كان الماء ينزّ. مسحنا على وجهينا بالطين. قال العريف: "لم أعد أقدر على التقدم، سأتمدّد هنا". قلت له: "كما تشاء، سأتركك وأواصل طريقي".

وانطلقتُ أسير متمهلًا. لمّا ابتعدت عنه مائة متر، ناداني ولحق بي وقال: "جناب النقيب، فكّرتُ أن أذهب إلى الخيمة السوداء عند "آبْجِي گُلَابِتُون"، ليست بعيدة من هنا. ماذا أخفي عنك، أحسست بالعار". لم أجبه بكلمة. خرجنا سويًّا من الوادي. رأينا بضع قرى وأناسًا يروحون ويغدون مثل النمل».

«وصلنا عند صبي يركب حمارًا وخلفه عجوز. كان عطّارًا جوّالًا، وكان يملك قرص خبز. أعطانا نصفه وقال لا ماء عندي. قلنا له: "نحن سائقان. أحرقوا شاحناتنا وجرّدونا من ملابسنا، كما ترى". قال: "النهر لا يبعد أكثر من فرسخ، لكن كونا على حذر، فهؤلاء لا يرحمون. انظرا إلى قمة الجبل. يقال إنَّ "القَشْقَاي" و"بَوِيرْأَحْمَد" تمرّدوا وحاربوا الحكومة في الناحية الأخرى من الجبل».

«مع الغروب وصلنا إلى حافة النهر وارتوينا، وقلت للعريف: "لا تشرب كثيرًا كي لا تنتفخ". استرحنا عشر دقائق ثم غطسنا في الماء وعبرنا النهر. رأينا رجلين من "بَوِيرْأَحْمَد" جالسين وقد شدّا وثاق فرسيهما إلى شجرة. أشعلا نارًا وانشغلا باحتساء الشاي. سألانا من أنتما؟ وإلى أين تريدان؟ قلت لهما إنَّ القَشْقَاي جرّدونا من ملابسنا ونحن سائقا شاحنات. قال العريف للذي كان

يدخّن الغليون: "أعطني غليونك لأدخن. نحن جائعان". أعطانا الغليون وأرجعناه خال من الدخان. رجّه على الأرض وقال: "ماذا بقي فيه؟". أعطانا قربته لنشرب الماء وقال: "انصرفا إلى حال سبيلكما، ليس هناك خبر».

«كان بضعة عمَّال يحملون فؤوسًا على أكتافهم متجهين إلى الجبل. لحقنا بهم ورافقناهم. سألونا: "من أنتما؟". قلت: "نحن سائقان وقد أحرقوا شاحناتنا و... و...".

انطلقنا إلى أن وصلنا إلى آبَادَة. دخلنا المدينة على الساعة الثامنة ليلًا. وجدنا العريف الدركي رئيس البريد. قال: "جناب نائب الرئيس في المقهى، أما جناب النقيب رئيس البريد فقد سافر إلى شيراز". اصطَحَبَنا إلى المقهى والتقيت بجناب نائب الرئيس، وقلت له: "تعال لأحكي لك". قلت له: "إنهم أوقعوا بنا في الفخ شر وقيعة". وشرحت له كيف هاجمونا ونهبونا وأضرموا النار وقتلوا وذبحوا. قدّموا لنا شايًا محلًّى ساخنًا ثم ذهبنا إلى المخفر. نادى جناب نائب الرئيس على مساعده وقال له: "هذا جناب النقيب، تعال واسمع ما يقول. ليس الأمر بالبساطة التي سمعنا، كان أسوأ من عبور الصراط، وحتى الجنود لم يكونوا يعرفون كيف يطلقون النار، كانوا مبتدئين، يبكون أمام جناب النقيب أننا لا نجيد إطلاق النار". ثم التفت إليّ وقال: "حين ذهب رتل الشاحنات من آبَادَة تنفستُ الصعداء. قلت لن يظل العقيد المسكين يلتمس خلف اللاسلكي أرسلوا المدد. كان الله في عونهم". بعد ذلك أمر مساعده بأن يغلق باب القلعة ويؤمن المكان، وانطلق هو إلى اللاسلكي يقدم التقرير لإدارة الدرك ويطلب الدعم. كان يقول: "سيأتون الليلة إلينا". وبقدر استطاعتهم وفّروا لنا، نحن الاثنين، ملابس وقدرًا من المال. ملابس الدرك الخلِقة وأحذيتهم كانت

لنا بمثابة نعمة كبيرة. قال جناب نائب الرئيس: "اغسلا يديكما ووجهيكما واذهبا هذه الليلة إلى بيت العمدة، لكن لا تكشفا أنكما ضابطان. لو عرفوا لن يصل الصباح حتى يقتلوكما". اجتزنا مع الدركي المرافق حظيرة الخرفان. خرج العمدة من غرفته. كانت لحيته حمراء. سار بنا إلى غرفة طينية بلا بساط. أخذ لحافين رثّين من على صندوق في ركن الغرفة ورماهما أرضًا وسأل: "هل تناولتما طعام العشاء؟" قلنا: كلَّا. بعد ذلك جاءت ابنته وجلبت لنا حليبًا قذرًا في إناء أسود ووضعته أمامنا، ثم فتحت قفل الصندوق الخشبي وأخرجت قرصي خبز أسود وناولتهما لنا لنأكلهما. فقلت

باب الصندوق. نمنا حتى الصباح كالصخرة. لم يعرفوا أننا ضابطان. في الصباح قدّموا لنا خبزًا أسود وشايًا وأكلنا. عدنا عند جناب نائب الرئيس. كان أكثر عطفًا من ليلة أمس. بقينا إلى الظهيرة ننتظر لعله يحصل لي على إذن بالرجوع إلى طهران. بعد الظهر وصل خمسة أنفار آخرين، جرحى وعراة وشبه عراة. وصلوا إلى آبَادَة بمساعدة العمَّال وجاؤوا إلى المخفر. كانوا من عناصر دورية حامية سَمِيرَم، وقالوا إنَّ الحرب الحقيقية بدأت عصر أمس».

«في الأخير اتصل جناب نائب الرئيس بإدارة الدرك. أمروه بتقديم يد العون لنا، لكنهم قالوا بصراحة إنَّ علينا جميعًا العودة إلى شيراز فورًا. تقرّر تجهيز حمارين أو ثلاثة والسير إلى قرية "دِهْ بِيدْ" ومن هناك ركوب أي سيارة خالية. طهّرنا جروح الجرحى وضمدناها، بقدر المتاح، وحصل

جناب نائب الرئيس من هذا وذاك على ملابس لائقة وأعطانا إياها لنلبسها. أعطاني أيضًا ثمانين تومانًا نقدًا. وفي هذا الخضمّ ظهر سائقنا التركماني راكبًا أنثى قَشْقَائِية. كان الوحيد الذي نجا سالمًا مطمئنًا. قال لنا: "إنَّ رجلًا قشقائيًا استولى على بندقيتي وترجّل عن حصانه وذهب للغنيمة. عهد إليَّ بحصانه وقال: يا ابن الكلب، احتفظ بفرسي حتى أعود. وفور ابتعاده امتطيت الأنثى وطرت إلى هنا على نفس واحد. ليلة أمس أيضًا نمتُ في مكان آمن وأكلت طبيخ الأرز ولبنًا. وصباحًا ذهبتُ إلى الحمَّام –سلامتكم- دلكوني وشربت ماء باردًا. وفي الزوال... ».

«أركبنا الجرحى على الحمير وتبعناهم نحن راجلين، وكل من تعب منا كان يتناوب على ركوب الأنثى القشقائية التي غنمها سائقنا التركماني. كان بحوزتنا أيضًا خبز وجبن وكوز ماء. وصلنا إلى قرية "دِهْ بِيدْ" في العاشرة ليلًا. على بوابة القرية وقف ضابط ينتعل بوطًا ويحمل بيده عصا صغيرة. ألقيت عليه نظرة وقلت: "أنا ضابط أيضًا". كان بوط الضابط برّاقًا وملابسه جديدة. حكيت له ما وقع باقتضاب وطلبت منه سيارة تُقلّنا إلى شيراز. قال: "هذه المنطقة باتت خاضعة لسيطرة قطاع الطرق واللصوص، وليس لأي سيارة الحق في العبور". اقتادنا إلى مخفر الدرك فاستقبلَنا رئيسُ الدرك وقال إنه كان ينتظر مجيئنا، أخبروه من آبَادَة. أحضر لنا دجاجًا محمّرًا وخمرًا ولبنًا وخيارًا. جلسنا لتناول الطعام بينما أخذ هو مكانه خلف اللاسلكي، فجأة

تقاطروا. لكن لم يكونوا هؤلاء من "القَشْقَاي" ولا من "بَوِيرْأَحْمَد"، كانوا من "دُشْمَنْ زِيَارِي". أُصيب رئيس الدرك بطلقة في مكانه خلف اللاسلكي.

إذا كانت أعمال النهب تحقق منافع لعشيرتين، فلم لا تجلبه لعشيرة أخرى. كنت لم ألتق بعد بالرفاق الآخرين. انسللتُ خلف قلعة المخفر وانحدرت في سفح الجبل، ثم ارتميت في أحضان مرتع رحب إلى أن اقتربت من شجرة جوز. فكرت للحظة أن أنام تحت الشجرة، غير أنَّ الجو كان باردًا ومظلمًا وصوت إطلاق الرصاص لا يفتر. في انتظار تباشير الفجر بدأت أخطو وأحيانًا أخبُّ. لا قمر ولا نجم ولا مصباح. لم يكن معي عود ثقاب حتى، لكن كان بحوزتي ثمانون تومانًا التي أودعها عندي جناب نائب رئيس درك آبَادَة. لو كنت أملك عود ثقاب كنت أوقدت نارًا ونمت بجانبها...

في الصباح قدم راعيان مع خرافهما. سلّمتُ عليهما وأخبرتهما أني سائق شاحنة تعرضت للسرقة ليلة أمس، وأنا الآن جائع. أوقد الراعيان النار وحلب لي أحدهما حليبًا في إناء أسود. جاء ولد الراعي، وكان ابن السابعة أو الثامنة. كان يحمل صرّة في يده، ناولها الراعي وقال: "ركضت الطريق كله، إنها ساخنة جدًا. كان محقًا، فالخبز الأسود كان لايزال حارًا". سُمع صوت إطلاق رصاص، وأصابت رصاصة وعاء الحليب. كانوا أفراد ليلة أمس. قصدتْ مجموعة منهم قطيع الخرفان، فاستنفروه وأخذوه. وفي اللحظة ذاتها أطلقوا النار على كلبي القطيع اللذين

كانا ينحدران من الجبل. وهاجمنا بضعة منهم وكبّلوا أطرافنا من الخلف قبل أن يخلوا سبيل الصبي. دفعونا إلى الأمام وهم خلفنا وساقونا إلى الخان الزعيم الذي كان جالسًا على كرسي قرب خيمته. في الطريق، كنت قد قلت للطفل حينما نصل عند الخان ارتم على قدميه وتوسّله، وقل له لأجل أولادك لا تُيتّمني ولا تقتل أبي وعميّ. قلتُ له لو قمت بهذا العمل وأخلوا سبيلنا سأعطيك شيئًا جميلًا. فعل الطفل ما قلت له، لكنهم احتفظوا بنا ستة أيام. ولمّا أرادوا المغادرة جرّدونا من لباسنا وتركونا. أما الثمانون تومانًا فقد أخذوها منذ اليوم الأول. ومرة أخرى انطلقت أمشي وأسير حتى وصلت إلى زَرْقَان فرأيتكم».

«لا أعرف حجم المصيبة التي نزلت بأولئك التعساء! المجزرة الحقيقية كانت في سهل "سَمِيرَم" وحاميتها. قال جنود الدورية إنهم كانوا يملكون جراية يوم واحد ليأكلوها في أربعة أيام. أعلم أنهم لا يمتلكون مقوّمات المواجهة. البنادق متوفرة لكن من دون ذخيرة. ونحن لم نستطع إيصالها لهم. قال الضابط صاحب البوط والعصا الصغيرة الذي رأيته على بوابة "دِهْ بِيدْ": "أرسل "القَشْقَاي" و"بَوِيرْأَحْمَد" رسالة إلى العقيد يقولون إنَّ مصيرك الإعدام إن لم تستسلم". كتب العقيد يجيبهم: "خيامنا ستكون مقابرنا! ". قال: "العقيد المسكين كان قد فقد الأمل في وحدات الجيش بإصفهان فاستعان بآبَادَة". قال: والآن لاسلكي حامية سَمِيرَم صامت».

«حكى لي أحد جنود دورية حامية "سَمِيرَم" ممن ضمّدتُ جراحهم في الطريق، أنهم شاهدوهم بالمنظار قادمين وقد حملوا ثلاثة مدافع رشّاشة على ثلاثة بغال. سألته عن المدرّعة. قال: "أضرموا فيها النار، ولمّا فررنا كانت لاتزال تحترق". قال: "لقد أخبرْنا العقيد المسكين". في البدء، اضطرَّنا لإقامة خيام في الجهات الأربع للنبع حتى لا نُحرم الماء، وأن نحصّن الخيام بالخنادق. أي أنه وضع خطة دفاعية دائرية. كان المسكين لا يكفُّ عن تشجيعنا على الصمود. كان يقول: "سوف نحصدهم باستخدام الرصاص البتّار للرشاشات الخفيفة والثقيلة". كان يقول: "أنا على يقين من وصول الدعم. لاسلكي آبَادَة أخبرنا أنَّ رتل الشاحنات في طريقه إلينا". وأمرَنا، نحن جنود الدورية، بإخباره فور رؤيتنا لطلائع الرَّتل وأخذ مكافأة إزاء ذلك. كان يقول: "هم لا يملكون سلاحًا ثقيلًا، ومدى بنادقهم لا يتجاوز الأربعمائة متر". ولمّا أخبرناه أنَّ الأشرار قادمون بثلاثة رشاشات على متن البغال، امتقع لون وجهه. قال: "لقد أغاروا على القوة المساعدة. يا للحسرة! ".

كان المسكين يتكلم مع الجميع كأب. لمّا يئس من مجيئكم اضطر لتغيير الخطة الدفاعية. قال: "إنهم سيأتون من "كُورِرَاه" خلف "خُرُوسْ گُلُو". وبسرعة، أعاد الترتيبات العسكرية وأخذ الجنود مواضعهم على مرتفعات الجبلين المشرفين على"كُورِرَاه". الجنود المساكين لم يكونوا يملكون في بنادقهم غير خرطوشة واحدة. كانت تغطي مرتفعات الجبلين

غابةٌ شبه ميتة من نبات الدَّوم وأشجار اللوز البرّي والسّدر. قبع الجنود في كمين تحت الأشجار ووسط الأحراش. نصبنا في سفوح التلال، على عجل، خيامًا للعلاج والمطبخ. لكن أي مطبخ؟!

وأي علاج؟! كنا نتوفر فقط على جراية أربعة أيام».

«كان مساعد دورية حامية "سَمِيرَم" يقول: هاجموا من ثلاثة محاور. كان صدى أبواقهم وطبولهم يتردّد في الجبال والوديان. هاجم أفراد "بَوِيرْأَحْمَد" من الشمال الشرقي لقرية "سَمِيرَم"، وعناصر "القَشْقَاي" من الشمال الغربي. ومجموعة مختلطة منهم تقاطروا من مرتفعات جبل "دِنا" وعبروا من بين الأشجار المثمرة والكروم وضيّقوا علينا الخناق. ذهبتُ أنا والنقيب الفارس وملازم أول المدفعية وعدد آخر من أصحاب الرتب إلى القلعة لنصرف العقيد عن المقاومة ونرفع الراية البيضاء. رأيت العقيد جالسًا خلف طاولته واضعًا يديه تحت ذقنه ويحدّق أمامه. أنصت لكلام النقيب الفارس وهزّ رأسه. ثم سأل: هل مع أحدكم سيجارة؟ هذه المرة، توسّل إليه النقيب الفارس وقال له: لم تعد هذه حرب. بهذا الشكل سنجلس لنشهد إبادة جماعية. قال العقيد بنبرة حزينة: قد يصل الدعم في آخر لحظة. استشاط النقيب الفارس غضبًا وقال: جناب العقيد، عشرة أيام وأنت تطرق هذا الباب وذاك، أين هي قوات الدعم؟ لأجل من؟ لأجل ماذا تقاوم وتدفع بالجميع إلى القتل؟ أجاب العقيد بذات النبرة الحزينة: أنتم لا أجبركم على البقاء، لكن أنا سوف أبقى. واطرد من رأسك فكرة الراية البيضاء.

خرجنا من القلعة فأُصبتُ أنا برصاصة. لففتُ منديلًا على ذراعي وأوصلتُ نفسي إلى قرية "سَمِيرَم". كان أهالي القرية يقولون: كان أفراد "القَشْقَاي" و"بَوِيرْأَحْمَد" يأتون ويستلمون طقم لباس عسكري، يرتدونه ثم ينطلقون. مؤكد أنهم اختلطوا بجنودنا وخال المساكين أنها قوات الدّعم التي انتظروها كثيرًا، كانوا حتى يهلّلون ويهتفون».

لمّا وصلت قصة النقيب إلى نهايتها نهض مجيد، وتثاءب وقال:

«عجبًا، ما أصغر هذه الدنيا!».

قالت زَرِي: «لا تلتقي الجبال بالجبال، لكن ما أسرع التقاء قلوب الرجال».

رماها يوسف بنظرة وقال: «عزيزة روحي، أنتِ الأخرى دخلت، شيئًا فشيئًا، إلى المعمعة».

غداة ذلك اليوم، ذهب الرجل الغريب -الذي لم يعد غريبًا- إلى مركز القيادة يرتدي ملابس يوسف الفضفاضة والقصيرة على بدنه، ولم يظهر بعدها إلى أن وصلت رسالته من طهران بعد أسبوع. شكرهم وتحدّث لهم عن محاكمة عسكرية كانت بانتظاره، وفتح ملف قضائي، وتحمل ذنب ذلك الحدّاد المشهور في بَلْخ، ودفع ثمن ذلك الصفّار المجهول في شُوشْتَر... وكتب أيضًا أنه قرر أن يستقيل من الجيش، وأن يهاجر إلى سويسرا مع زوجته وولديه مهما كان الثمن، لكنه لم يشر إلى مائتي تومان التي كان قد اقترضها من يوسف.

18

عصر يوم الخميس ذهبت زَرِي إلى دار المجانين. لم يكن السيد المدير موجودًا فرافقتها رئيسة الممرضات، المرأة التي كانت تشبه خادمتها خديجة. كانت تعلم أنَّ السيدة فتوحي سوف تضجّ بسبب الجرائد المبتورة هنا وهناك. لم يبق في جناح النساء من المريضات السابقات سوى المرأة المشلولة التي كانت تنام في الليل محتضنة الحذاء، والسيدة فتوحي. لكن المريضات الجديدات لم يكنَّ قليلات. كان يجلس على الأسِرَّة أربعة أنفار، وأُحيط أحد الأسِرَّة بستارة فاصلة. في وسط الغرفة افترش حصيرَ الأرض ثلاثُ مريضات كنّ يلعبن لعبة نطّة الغراب. دخلت زَرِي فاندفعت إحداهن قائلة: «خبز وتمر، نُط!» ابتسمت زَرِي. لحسن الحظ أنها أحضرت الخبز والفاكهة فوضعها غلام أرضًا. أردفت المرأة ذاتها: «السيدة الأميرة، نُط!». اشتبكن مع بعض، وشرعن بلعب الغُمَّيضة والشِّجار.

لم تسمح لها الممرضة المسؤولة بالاقتراب من السرير المحاط بستارة وقالت لها بصوت خفيض:

«أرسلوا لهذه المريضة قدرًا كبيرًا من الفاكهة والأزهار، لكن الطعام لا يتجاوز بلعومها. لقد حقنوها بحقنة الحليب. إنهم يجهزون لها غرفة خاصة. يقول أهلها إنَّ عقلها اختل جرّاء عملها في هذه الحرارة المفرطة. لكن الطبيب يقول: السبب هو الحمَّى الصفراء والضّعف. شافاها الله بحق علي». أضافت: «تأتي امرأة إلى هنا في آخر الليل بعد أن ينام

الجميع، وتتوضأ وتصلي عند رأسها صلاة حضرة فاطمة. أخبرتني عِزَّت، وكانت نوبتها ليلة أمس، إنَّ المرأة لم ترفع رأسها عن تربة الصلاة حتى قلقت عليها.. اقتربت منها فحمدت الله لسماع المرأة وهي تردّد: يا فاطمة أدركيني! الغوث، الغوث! لا أعلم كم مرة رددتها، خمسين مرة، مائة

مرة.. كم تضرعت إلى الله: الغوث، الغوث! ليلة أمس نامت المرأة هنا، وقد مرّ وقت طويل على سريان القانون العسكري. والدكتور عبد الله خان أجاز أكل لحم الحمير... إذا عثروا عليه. يجب أن تتوفر كل وجبة عشاء على لقمة من لحم الحمير علّها تفتح شهيتها للأكل».

انتهى تقسيم النذر فذهبت زَرِي إلى السيدة فتوحي، وكانت جالسة قبالة النافذة مولية ظهرها للمريضات. سلّمت عليها ووضعت الجرائد بجانب السرير ونأت بنفسها بعيدًا. كانت تعلم أنها بمجرد ما تفتح هذه الجرائد ستلقى نفس مصير الجرائد قبل أسبوعين. فجأة، نهضت السيدة فتوحي من السرير وقالت:

«جناب أخي! خطر بقلبي أنَّ جناب أخي سيأتي ويأخذني إلى بستان المائة وأربعة وعشرين ألف متر».

تطلعت زَرِي من النافذة إلى الخارج لكنها لم تر أحدًا. وغير مبالية بها انطلقت السيدة فتوحي تسير وتقول:

«عديمو التربية! أراذل بلا أهل ولا عمل... سوف أريكم الآن».

أجل، لم يمض وقت طويل حتى رجعت بمعية أخيها وجلست على السرير. كانت تذرف الدموع وهي تقول:

«لماذا جئت وحيدًا؟ جناب أخي؟ لماذا لم تأت معك أمي؟ هل بعد كل هذا الوقت جئت صفر اليدين!».

سلّم السيد فتوحي على زَرِي التي كانت تهمّ بالخروج لتخلي الجو للأخ وأخته، وقال:

«السيدة زهراء، أردتك في أمر».

غضبت السيدة فتوحي واندفعت: «دعها تغرب عن وجهنا. كل أسبوع تأتي بحزمة كبر وعجرفة لتتبختر عليّ!»، ثم سألته: «لماذا لم تأت معك أمي؟ خذني إلى بستان المائة وأربعة وعشرين ألف

متر... فإن قلبي قد ذبل في هذا القفص. أي نوع من الإخوان أنت؟ كان عليك، على الأقل، أن تحجز لأختك غرفة خاصة... ».

كانت تمسك يد أخيها بإحكام وتقبلها فتنهمر عبرات عينيها علي يديه السوداوين اللتين غزتهما العروق والتجاعيد، ثم تسأله، مرة أخرى، لماذا لم تأت أمها، وتداهمها الوساوس أنَّ الأعداء قد صادروا بستانهم... الأعداء الذين لا ينفكّون يصعقون جسدها بالتيار الكهربائي، ورجليها ويديها وقلبها، ويتوسلون بأي شيء كي يغيروا ضربات قلبها. أمسكت يد أخيها ووضعتها على قلبها وقالت: «انظر».

كانت الممرضة المسؤولة وغلام وكل المريضات

يتابعون. حتى المريضات اللواتي كنّ يلعبن نطّة الغراب قبل لحظات. وضع فتوحى قبلة على شعر أخته الرمادي المبعثر وقال:

«أختي العزيزة، أنت تعلمين أنَّ أمنا قد ماتت، كررتها لك مائة مرة!».

قالت السيدة فتوحي: «أرأيت جناب أخي؟ أنا أعلم أنَّ أمي لم تمت. لقد خدعتكم. حينما وضعتموها في التابوت تسلَّلت منه خلسة واختبأت. ومنذ ذلك الوقت وهي مختبئة في مكان ما في بستان المائة وأربعة وعشرين ألف متر، وأنت لم تذهب للبحث عنها». ابتلعت ريقها وقالت: «أقسم بالله أنهم جاؤوا ليلة أمس يحملون سكينًا بيدهم فاقتلعوا كبدي وأخذوه، وحشوا في مكانه التبن. من الصباح إلى الآن أحس بمذاق التبن في فمي».

قال فتوحي وقد نفذ صبره: «عزيزتي، من أين لنا ببستان مساحته مائة وأربعة وعشرون ألف متر؟».

قالت السيدة فتوحي: «أخرجني من هنا أكن لك خادمة ونعش سويًا ولا نهتم لأمر أحد. بأيدينا نزرع القمح في ذلك البستان الكبير، ونزرع التوت الأسود، والخيار، ونربّي خلية عسل. أنا بيدي

أعدّ فرن الخبز وأخبزه. نجلب ديكًا ودجاجة وننتج فراخًا. ولا نسمح لأحد بالدخول... نشتري شتلات زهر النرجس، وندسها في ثنايا القطن داخل ذلك الوعاء البيضوي... ».

دخلت ممرضة وهمست في أذن الممرضة المسؤولة فقالت الأخيرة بصوت عال: «حسنًا،

ضعي الأزهار في أرجاء الغرفة ورتّبي الفاكهة فوق الطاولة، ثم عودي لتساعدينا في أخذ المريضة. انتظري لحظة، خذي حقائبهم».

ذهبت الممرضة خلف البارافان وخرجت تحمل حقيبتين جديدتين. حمل غلام إحدى الحقيبتين وخرجا معًا من الغرفة.

وقفت زَرِي إلى جانب السيد فتوحي تحت صنوبرة متربة في جُنُيْنَة دار المجانين الخالية من أي أزهار. قال فتوحي:

«جئت إلى هنا لألقاك. لا بُد أنَّ جناب يوسف قد أخبرك بأني سآتي اليوم لأطلع الجميع، عن طريقك أنت، بقراري».

لا، لم يخبرها يوسف بأي شيء. قد يكون رغب في أن يبدو لقاءهما عاديًا وغير مرتب له. قال فتوحي:

«منذ أمس وأنا أدرس الأمر من كافة جوانبه، وصباح اليوم طرحت الموضوع في إطار قادة الحزب، بالطبع دون أن أذكر اسم أحد. يعني كمقترح من جهتي... الجميع كان معارضًا».

كان يروح ويجيء ويبتلع ريقه ويتكلم بكلام غير مفهوم. ومع ذلك واصل قوله:

«تعلمين أننا لم نعلن بشكل رسمي عن حزبنا بعد. ننتظر الوقت المناسب... لكن أن أنفصل عن الرفاق وأذهب إلى خوزستان رفقة عدد ممن أشاطرهم نفس الفكر... تعلمين أنني مسؤول عن الطلّاب. ففي منطقتي... مع قلة من الصبيان، ماذا بوسعي أن أفعل هناك؟».

قالت زَرِي بكل بساطة: «إذن كانوا هم على حق. استدعوك للحضور سدًى. ليس في قلبك لوعة على أقربائك مثلما لا تشفق على أختك».

انتابتها الحيرة من قسوتها، رغم أنَّ المقام لم يكن يدعو إلى الحيرة. كانت تكنّ لفتوحي البغضاء. قال لها من دون أن يبدو على صوته أي أثر للامتعاض:

«يجب أن نبني مجتمعًا لا تُجنّ فيه أخت أي أحد. جنون أختي دليل على مرض المجتمع. إذا كوّنا كتلًا كبيرة ونجحنا في الحصول على السلطة فسنقوم بإحقاق الحق».

ثم تمعّن قليلًا وأردف: «برأيي لم يحن بعد أوان هذا الأمر، ولن نجني من ورائه إلا الهرج والمرج، وليس بالبساطة التي يتصورها ملك سُهْراب. لست موافقًا بأن يسلّموا زمام أمرهم لشاب طائش شرير كملك سُهْراب، وأنا موقن بأنهم لن يفعلوا. جناب يوسف أكثر فهمًا منا جميعًا. هو قال بنفسه حتى نجاح هذه المخاطرة بنسبة أربعين في المائة يعتبر انتحارًا... ».

كان لايزال يتفوه بهذه الكلمات حين جاءت إليه السيدة فتوحي. كانت تلفّ على جسدها ملاءة بيضاء تتعثر فيها. صرخت: «اقتلني وأرحني! أَخرِج من جيب سترتك سكين البري واقتلني. لبست الكفن وأنا جاهزة!». وصلت عندهم وأرخت الملاءة. كانت عارية كما ولدتها أمها. التفّت حولها الممرضات، فضربت إحداهن بمرفقها، وكوَّرت قبضة يدها ولوّحت بها في وجه أخيها: «يا سارق العِرض!

الموعد تحت الصنوبرة، آ نعم؟». كانت تقهرهن جميعًا، يمسكن بها فتنفلت من بين أيديهن وتصرخ: «غصبتَ أملاكي، وبِعْتَ بستاني ذي المائة وأربعة وعشرين ألف متر كي تنفق على هذه العاهرة... ». كانت تركض حول حوض الباحة الفارغ من الماء وتصيح: «أيها الناس، اعلموا أنني أكبر نساء هذا البلد. أنا شاعرة! أنشدتُ خمسين ألف بيت. وشعري... هذه الساقطة... ». كانت تتوقف لتسترجع أنفاسها ثم تواصل: «هذه الساقطة أعطت شعري لجريدة "الشفق الأحمر" لتنشره باسمها. أنا ابنة الرسول. من حضرة فاطمة... طاهرة وطيبة وعفيفة مثل حضرة فاطمة... أخي أكل أموالي، قطع رأس أبي وأمي. كل أزهار النرجس التي ترونها... هي دمهما

الذي أُهرق وصار أخضر... صَفِّف الأزهار وضَعْها على رأس مزاري... ». وكانت تضج ببكاء ينفطر له قلب الحجر الصلد، وتقول: «أنا الملعونة... أنا المتعوسة الملعونة!».

قالت كلامًا كثيرًا حتى أرغت وأزبدت وانهارت. سترتها الممرضات بشادور صلاة، ثم تقدّم رجل شديد واحتضنها وحملها إلى المكتب.

كانت زَرِي منصرفة فلحقت بها الممرضة المسؤولة وقالت: «حمدًا لله أنَّ حالة السيدة مَسِيحَادَم تحسنت كثيرًا. نقلناها إلى الغرفة الخاصة، وصار بإمكانها استقبال الزوّار. تفضلي معي إلى هناك لأحضر لك قرصًا مسكّنًا».

إذن المريضة التي كان الجميع يطبّل ويزمّر

لها هي السيدة مَسِيحَادَم. ورغم أنَّ زَرِي كان قد دبّ فيها التعب وأصيبت في رأسها بالوصب إلا أنها قررت الذهاب للقاء المرأة التي طالما سمعت وصفها وذكرها. طرقت الباب ودخلت. كانت السيدة مَسِيحَادَم جالسة على السرير تحرّك رأسها إلى اليمين ثم إلى اليسار، وشعرها الأسود المجعّد يتطاير في الهواء ويحجب وجهها قبل أن ينزاح جانبًا، ثم... رُصّت جميع أرجاء الغرفة بباقات الأزهار والورود. بعض باقات الورد كانت هيأتها تنبئ بأنَّ بستانية قطفتها بيدها، ولفّتها بمقتضى ذوقها، أو أنَّ شخصًا ما جال وطاف في صحراء أو مزرعة حتى اجتلب باقة الورود البريّة تلك أو بالأحرى رزمة الزرع تلك. شدَّ انتباهها، على وجه الخصوص، باقة ورد، بُثَّت في وسطها بضع بتلات من البنفسج البرّي، الذي ينبت على ضفاف سواقي البساتين أو في حقول الزرع، وصُفِّفت على أطرافها بإتقان براعم ورد الجوري، وأحيطت من كل الجوانب بالبراعم والورود الحمراء المتفتحة، ووُضعت في آخر صف أزهار مسك الروم الدرني، وطوِّقت صفوف البراعم والورود بخيط من ألياف الجلجل مربوطٍ بإحكام.

كانت السيدة مَسِيحَادَم لاتزال تحرك رأسها يمنة ويسرة، ولا تلقي بالًا للزهور أو الحلويات الموضوعة في أطباق بلورية منتظمة فوق الطاولة. كانت الأطباق مسدودة، وقد خمّنت زَرِي أنها تحوي حلويات منزلية الصنع أعدّها أحد بيده في هذا الحرّ لأجل مريض.

تعبت السيدة مَسِيحَادَم، وكفَّت عن هزّ رأسها فانتبهت لوجود زَرِي التي بادرتها بالتحية. شخصت السيدة مَسِيحَادَم ببصرها في عين زَرِي لكن عينيها لم تكونا تريان شيئًا رغم أنَّ صاحبتهما في ريعان شبابها. كانت العينان غائرتين يأسًا، وصاحبتهما تبدو جدباء من شدة الهزال. عظام قفصها الصدري كانت بادية من تحت قميص نومها الأبيض الناعم، ونهداها وكأنهما انكمشا. كان لونها أشد اصفرارًا من أشعة الشمس القابعة على آخر رديف من الآجر في الجدار المقابل.

سألتها زَرِي: «سمعت أنَّ حالتك أفضل بكثير». كانت السيدة مَسِيحَادَم تقضم ظفرها وعيناها مسمّرتان عليها. قالت: «سبق أن سمعت هذا الصوت أيضًا في مكان آخر!»، ثم خرَّزت عينيها. وفجأة انفجرت ضحكًا والتمعت عيناها ببريق التمييز، وقالت: «عرفتك! عرفتك! أنت السيدة طَلْعَت!». وضعت يدها على قلبها وقالت: «كم كانت خشيتي شديدة! إذن أنت على قيد الحياة! كنت أعلم أنَّ الله سيستجيب دعائي. قلت لله خذ من عمري ستة أشهر ولا تقتلها على يدي. اقتربي أكثر حتى أراك بعيني».

كانت زَرِي تعلم أنه شُبِّه لها ومع ذلك لم تنبس بكلمة. لماذا تنزع البريق من عينيها والابتسامة من بين شفتيها لمجرد خيالها بأن صديقة أو أختًا أو مريضة نجت من الموت؟ جلست بجانبها على السرير. أمسكت السيدة مَسِيحَادَم بيد زَرِي

وضغطت عليها ووضّحت لها بتبصّر محيّر ومدهش:

«أثناء الولادة، إذا كان لونه حريريًا ورديًا، وإذا صرخ حتى تسمع الأم صرخته، وإذا تبوّل فشش..» وضعت يدها الأخرى على فمها، وضحكت ببراءة وأردفت: «حينذاك سوف يخرج التعب من جسم الإنسان، ويكون راضيًا على نفسه وكأنه خلق طفلًا بيده! لكن حينما قدم ولدك الأول، في الولادة الأولى، واي واي! لم يكن له لون. لم يكن بالحبل السرّي دم. ضربته وضربته ولم يصرخ. وكأني اقتلعت جبلًا. كان أول جنين أخرجه إلى الدنيا ميتًا. فجأة، رأيت أنَّ الدم لم يخرج منك أنت أيضًا. كنت أعلم أنَّ الدم ينزف في مكان ما في بطنك، وسيظل ينزف حتى ينتفخ بطنك مثل طبل. نقرتُ على بطنك. واي واي! غارت عيناك وتوقف نبضك وراح قلبك. سمعتُ صوت باب الزقاق، انطلقت أمك نحو الزقاق ودخل زوجك وقال: أقتلتِ كليهما معًا؟ وقال لي إنك

قاتلة!». بعد ذلك ضغطتْ على يد زَرِي بقوة أكبر وقالت مشتكية: «أنت لم تكوني ميتة. لماذا مثّلت عليّ ميتة غريبة؟ ها؟».

لم تجب زَرِي وواصلت السيدة مَسِيحَادَم كلامها: «تعلمين أننا، معشر الأطباء، ينبغي أن نتعوّد على الموت. لا يجب أن نخاف من أماراته، لكني خفت، وكأنَّ طوفانًا حلّ ومزّق كل أسلاك عقلي وشبّكها ببعض. أحسست بشيء في قلبي انكسر وانساب. هؤلاء يظنون أنني جُننت، لكني لست مجنونة، بل قلبي مضطرب وصدري منقبض».

حاولت زَرِي أن تنهض من أمامها لكنها لم تكن تطلق يدها. قالت: «رأيتُ بأم عيني أنَّ السقف قد انشق وهبط منه رجل طائر أسود الثياب وأخذك تحت جناحيه. إنهم لا يصدقون أنني التمست ذلك الرجل الطائر أسود الثياب، وقلت له إني على استعداد لتسليم عمري كاملًا شرط ألا تأخذ طَلْعَت. قال سآخذها إلى الجنة، تحت شجرة طوبى. قلت له خذني بدلًا عنها... والآن، قولي لي، يا موتي، كيف أرجَعكِ؟ ألم يكن في الجنة مكان شاغر؟!».

كانت تعصر يد زَرِي بشكل مؤذ وتواصل كلامها دون انقطاع. قالت: «والآن، هل أنت مستعدة لتسدي لي خدمة؟ تعلمين أنني قطعت وعدًا بأن أذهب بدلًا عنك».

قالت زَرِي : «بالطبع».

أدْنَت السيدة مَسِيحَادَم رأسها إلى أذن زَرِي وهمست:

«اشتري مثقالين من الأفيون الجيد، واهرسيه بلين ثم أوصليه إليّ قبل حلول الليل، قبل مجيء العجوز. لكن لا تخبري أحدًا بشيء. إذا كان العجوز هنا، ارمي الأفيون في ياقتي خفية وانصرفي. اتفقنا؟».

عضَّت زَرِي على شفتيها فأجهشت السيدة مَسِيحَادَم بالبكاء وقالت:

«أثناء الغروب أحسّ بضيق شديد... وكأنهم يكدّسون رزمة حديد فوق قلبي».

وبدأت مرة أخرى بهزّ رأسها. كان شعرها الطويل يصل إلى وجه زَرِي فتضطر إلى إرجاع رأسها

إلى الخلف، وكانت أيضًا تحاول استلال يدها من قبضتها. لكن هل كانت تستطيع؟ ناهيك عن الوجع الذي كان يشقّ رأسها...

وفي الأخير، دلف عجوز أشيب الرأس يحمل عصا في يده، فخمّنت زَرِي مغتبطة، أنه الدكتور عبد الله خان. جاء العجوز ناحية المريضة ووضع يده على كتفها وقال:

«عزيزتي، يبدو أنك بدأت من جديد!»

كان صوته قاطعًا، وكان مشفقًا لدرجة لا تتصور. توقف رأس المريضة عن الحركة، ونظرت إلى العجوز ضاحكة وقالت:

«احتفظت بها حتى تأتي أنت وترى بنفسك. أرأيت؟ لم يكن ثمة مكان فأرجعوها... ».

تلفّت العجوز إلى زَرِي وسألها بهدوء: «أكثرتْ من الترهات، أليس كذلك؟».

أجابت زَرِي بالنبرة الهادئة ذاتها: «بل على العكس، تحدّثت بتعقّل كبير».

صاحت السيدة مَسِيحَادَم: «أرأيت أيها العجوز الخَرِف؟ اسأل طَلْعَت عما يجري في نهاية الخط، وعما يجري في ما بعد نهاية الخط. لقد ذهبتُ حتى نهاية الخط ورجعت. كنت أتصوّر أنها صارت جزءًا من كوز الماء ذاك، فلم أكن أشرب الماء من شدة الخوف. كنت أتصور أنها صارت جزءًا من هذه الورود، فلم أعد أنظر إليها من شدة الذعر. من كثرة الخزعبلات التي تفوّهتَ بها، أيها العجوز الخَرِف، فقد شوَّهت دماغي»، ثم قلدت العجوز: «الموت

وحده حقيقة وما عداه كذب». يا طَلْعَت موتي، أخبريه أنَّ للموت أجنحة وقد حملك. يقول لي أهلكتِ نفسك وعرّضتها للوساوس!».

قالت زَرِي: «عليّ أن أذهب الآن».

رافق العجوز زَرِي وأسرّ لها: «أحضرتُ مقصًا كي أقص شعرها، إنه يحجب عن عينها النظر إلى أمها وأقربائها، وهي لا تسمح لهم بالاقتراب منها. هل تجيدين قص شعرها؟ فإنه يعرقلها بشكل فظيع».

«أعرف، لكن الوقت متأخر الآن، ولديّ ضيوف الليلة».

«لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق».

ربما تكون المريضة قد سمعت ما أسرّ به العجوز أو خمّنت ما قاله، لأنها صرخت: «هل جننتَ أيها العجوز؟»، ثم أمسكت شعرها بيديها بإحكام.

قال العجوز: «عزيزتي، سيصير شعرك أطول بكثير في ظرف شهر، وإلى ذلك الحين تكونين قد تعافيت تمامًا. أريد أن أنثر على رأسك حلويات عرسك بيديّ هاتين. عجّلي عزيزتي فقد صرتُ عجوزًا هرمًا».

يا لحنان صوته! كان يستطيع، بصوته ذاك، أن يروّض أي شخص، حتى الشخص المستعجل، وحتى الشخص الموَسوَس. أشارت السيدة مَسِيحَادَم إلى زَرِي وقالت: «اقتربي، أريد أن أهمس لك بشيء»، ثم التفتت إلى العجوز: «اذهب أنت إلى أقصى الغرفة وأغلق أذنيك». اضطرت زَرِي للتراجع وتقريب رأسها من أذنها، فهمست لها: «أثناء حلقك لرأسي اغْرِزِي رأس المقص الحاد في وريدي، اتفقنا؟».

وجلست طيّعة حتى بلّلت زَرِي شعرها ومشّطته وقصّته مثل الأطفال الصغار. بعد ذلك سلّمت زَرِي المقص بيد العجوز وحدّقت في عينه البرّاقة رغم كبر سنه، فهزّ العجوز رأسه ونظر نظرة تبصّر، فأدركت زَرِي أنه اطلع على السرّ الذي كان بينهما. دسّ العجوز المقصَّ في جيب سترته. ودّعت زَرِي من دون أن تعرف سرّ لمعان عيني العجوز، أهو انعكاس لبياض شعره وحاجبيه أم هو بريق التجربة والوعي؟ كانت السيدة مَسِيحَادَم محدّقة فيهما، لكن فجأة صرخت:

«اذهبي واغربي عن وجهي، اذهبي إلى أي داهية سوداء تريدين، اذهبي إلى آخر الخط... »، وأخذت من جديد تهزّ رأسها ذات اليمين وذات الشمال.

لم تكد زَرِي تضع قدمها خارج الغرفة حتى دخلت الممرضة المسؤولة، وناولتها قرصًا ملفوفًا في قطعة ورق، وقالت: «اشتريته لك من خارج الدار»، وأردفت: «ذهب السيد المدير منذ الصباح إلى المشفى من أجل حصة الدواء، ولم يرجع بعد. لا نملك حبة دواء واحدة. إذا لم يصل الدواء الليلة، مع هؤلاء المجانين... »، لم تكمل كلامها وذهبت إلى ركن الغرفة وجلبت كوب الكوز. أخرجت زَرِي القرص من ثنية الورق. قال العجوز: «انتظري يا سيدة زهراء، ليس هناك وصفة تجيز المسكّنات للمرأة الحامل».

حدجته بنظرة تشي بالحيرة وقالت: «هل تعرفني؟»، ثم فكّرت قليلًا وقالت: «أنا أيضًا عرفتك.

أنت الدكتور عبد الله خان».

ونظرت إليه مرة أخرى. كانت تقاسيم وجه العجوز توحي بأنه واقف على أسرار الدنيا كلها. فكّرت في نفسها: «لو لمست أصابعه جبهتي... هذا هو الرجل الذي عالج آلام الناس العمر كله، قدم لهم المواساة، حافظ على أسرارهم، وأفشاها لأجل مصلحتهم...».

كانت زَرِي على عجلة من أمرها. كان عليها أن تذهب إلى البيت في وقت مبكر. والآن رأسها يكاد ينفجر وجعًا، وقلبها ليس أقل انقباضًا من قلب السيدة مَسِيحَادَم. كان مَكْ مَاهُون مدعوًا لتناول العشاء معهم، وكانت تدعو الله ألا يكون قد وصل حتى تستطيع أن تتمدّد ولو نصف ساعة في الظلمة.

كان غلام جالسًا جنب سائق العربة يدخّن غليونًا. لمّا رآها ترجّل وأزاح غليونه ناحية الأرض وساعدها على الركوب. كم كانت العربة تسير ببطء، تْلَقْ تْلَقْ! وكم كانت الأحصنة تنفر عند الاقتراب من السيارات، فيضطر سائق العربة التزام أقصى المسير حد إحساس زَرِي بأنها لن تصل إلى البيت، لكنها وصلت.

كان يوسف ومَكْ مَاهُون جالسين على الكراسي الحصيرية جنب مدخل البناية الآجري. وكانت مينا ومرجان في حضن مَكْ مَاهُون منحنيتين على الطاولة وهو يحرسهما بيد ويتصفح كتابًا باليد الأخرى، والطفلتان تنظران. حين اقتربت منهم زَرِي صفقت الطفلتان وضحكتا. كان الرجلان والبنتان فرحين. لكنها كانت تدرك لو أنها جلست

بجانبهم سوف تكدّر صفوهم بما حُمِّلت به من هموم وأحزان. ومع وجع الرأس الذي داهمها لم تكن لتجد الطاقة اللازمة للتظاهر والابتسام. أنزل مَكْ مَاهُون الطفلتين بحذر واستوى واقفًا لاستقبال زَرِي. تصافحا، فقالت زَرِي: «عذرًا على تأخري. سوف أطل على المطبخ وأرجع».

قصدت غرفة النوم رأسًا وهوت على السرير بملابسها وحذائها وجواربها ودفنت رأسها في المخدة. ألمّ بها الوجع وطوّق عينيها واستشرى حتى أذنها وفكّها الأيسر، فكرت: «إذا لم تسترح فسوف تفسد عليهم ليلتهم». قررت، في لحظة، أن تتناول قرصي اسبرين، لكنها تذكرت كلام الدكتور عبد الله خان فتراجعت. لم يشتعل رأس العجوز شيبًا في معالجة أهالي المدينة من أجل لاشيء. كان العجوز محيطًا بالأسرار. كيف علم بسر حمل امرأة بنظرة واحدة من تلك العينين البرّاقتين؟!

دخل أحدهم وأدار مفتاح الكهرباء. قالت زَرِي آمرة: «أطفئه».

سمعت صوت يوسف يسألها: «هل نمت؟».

«أرجوك أطفئ المصباح».

أطفأ يوسف المصباح واقترب منها وجلس أسفل السرير وسألها: «هل حدث أمر؟».

«رأسي يؤلمني».

نزع يوسف حذاء زوجته ووضعه بهدوء على الأرض، ثم اقترب منها أكثر ودعك قفاها وصدغيها، وقال لها بلطف: «أتودين أن أحضر لك الخلّ

لتستنشقيه؟».

«لا، لكن إذا ذهبتَ سأكون مرتاحة».

انصرف يوسف وعاد بعد فترة. أشعل ضوء الأباجورة وقال: «أعطيني رأسك حتى أبدأ العلاج، أراهن أنَّ حالتك سوف تتحسن». استدارت زَرِي. كان يوسف يحمل في يده صينية وضعها فوق كرسي صغير رباعي القوائم بجانب تسريحة الماكياج. كان بالصينية وعاء ماء ساخن يرتفع منه البخار. بلّل فوطة صغيرة بالماء الساخن واعتصرها ثم وضعها على وجه زوجته. مرتان.. ثلاث مرات.. بعد ذلك ضمّ رأسها إلى حضنه وقال: «حاولي أن تشربيها كاملة»، كانت شربة العسل بالليمون الحامض. ثم قبّل جبينها وفوق عينيها وصدغيها، وقال: «والآن نامي، وأغمضي عينيك». وضع قطنين مرطّبين بماء الورد على عينيها المغمضتين وسألها:

«لماذا تتعبين نفسك إلى هذا الحد؟».

فجأة ضجّت زَرِي بكاء، وأخذت تشهق وتقول: «لماذا يجب أن تكون كل هذه المآسي؟».

التقط يوسف قطعتي القطن اللتين سقطتا على المخدة وبلّلهما من جديد بماء الورد، اعتصرهما ثم وضعهما على عيني زَرِي وقال: « لستِ المسؤولة عن هذه المآسي!».

نهضت زَرِي وجلست فسقط القطن على حجرها وقالت: «أنت أيضًا لست مسؤولًا، لماذا إذن تلقي بيدك إلى التهلكة؟»، أمعنت قليلًا ثم أردفت: «التقيت فتوحي. اعتذر عن التعاون معكم».

«الآن فهمت. وأنت خفت فأصابك وجع الرأس».

«ليس هذا فقط. هاجمتني أخته، واشتبه الأمر على السيدة مَسِيحَادَم فظنَّت أنني إحدى مريضاتها التي ماتت إثر الولادة... يا إلهي، كل هذا الشقاء! وكل هذه الوحدة!».

«على أحد أن يتحرك... ».

«وإذا توسّلتُ إليك ألا تكون أنت ذلك الـ "أحد"، هل ستقبل؟».

«انظري عزيزتي، إذا بدا عليك القلق والارتباك فإنَّ تركيزي سوف يختل».

رمت زَرِي بنفسها في حضن زوجها وقالت: «لدينا ثلاثة أولاد والرابع في الطريق. إني خائفة جدًا».

«هل تريدين أن أجرّب لك فأل حَافِظ(08)؟ دعينا نَتَنَبَّأ بمستقبلنا؟».

«كلَّا».

«هل أحضر لك الراديو إلى هذه الغرفة لتستمعي إلى الموسيقى؟».

«لا، عِدْني فقط ألا تكون أنت ذلك الشخص. أعلم أنكم تنوون الذهاب إلى خوزستان لتنفيذ عملية خطيرة».

«خطرت ببالي فكرة جيدة، قصة مَكْ مَاهُون طُبعت، سأطلب منه القدوم إلى هنا ليقرأ لك قصته. أعلم أنها سوف تدخل البهجة إلى قلبك».

«حسنًا، فليكن. أَسْنِد ظهري بالمخدّات، سوف أجلس، حالتي الآن أفضل». لكنها كانت تتظاهر فقط.

جاءت خديجة أولًا لتحمل الصينية، قالت: «أماتني الله، وقذف ألمك في روحي. لقد ذُعر سيدي، خُيّل إليه أنك أصبتِ بنفس المرض الشائع في المدينة». ثم ذهبت ورجعت وأحضرت المنضدة المستديرة من ركن الصالة إلى غرفة النوم، ثم ذهبت وعادت ثانية وأثثت المنضدة بالأواني وبساط الشراب. كانت زَرِي قد أعطت أوامرها في الصباح. حتى طبخة الدجاج أعدتها بنفسها قبل ذهابها عصرًا إلى دار المجانين وأوصت خديجة بوضعها فوق بئر النبع تحت السّلة لتظل باردة.

«ألم تحضر السيدة العمَّة بعد؟».

«لا، لم تأت بعد». تنهّدت خديجة ثم أردفت:

«أسأل الله ألا يحرمني نصيبي! ليتها تتذكرني وتحصل لي، أنا أيضًا، على جواز مهرّب من الرجل. لن أذهب الآن، سوف أخفيه إلى أن يستدعي الإمام أمته المذنبة هذه!». توقفت قليلًا ثم واصلت: «حلال إن شاء الله. كسرتُ بيضة لأجلك فطلعت باسم السيد(07). هو من أصابك بالعين بنفسه».

ذهبت خديجة وجاء خُسْرو وهُرْمُز. طوّق خُسْرو رقبة أمه وقال لها: «أمي أنت جميلتي!»، ثم سألها: «أتريدين أن أروِّح عليك؟» ثم سألها ثانية: «ماذا أفعل حتى تغادري السرير؟». تبسّم هُرْمُز وسألها عن حالها وهو واقف. ألصق خُسْرو وجهه بوجه أمه وقال: «هل تأذنين لي أمي بأن أتناول العشاء مع هُرْمُز في غرفتي؟».

«لماذا عزيزي؟».

«قررنا أن نقاطع الضباط الإنجليز، ولا شأن لنا أيضًا بجنودهم الهنود».

«لكن مَكْ مَاهُون ليس إنجليزيًا، إنه إيرلندي».

قال هُرْمُز: «وماذا يفرق؟».

«هو صحفي وليس ضابطًا».

«مؤكد أنه جاسوس، وإلَّا لماذا لا يتزيّا شاب مثله بزي الضباط في وقت الحرب. فهو أصغر من زينْگر. أنا على يقين أنَّ زينْگر دفع به إلى هنا ليستلّ الكلام من لسان جناب عمُّو».

قالت زَرِي بنبرة أم مشفقة وحنونة: «لا يجدر بالمرء أن يصدر مثل هذه الأحكام على أشخاص لم يعرفهم».

كانت تودّ لو تكمل وتقول إنه حتى يحلم باستقلال وطنه وينشد شعر شجرة الاستقلال، لكنها أحجمت ووافقت على تناول عشائهما في غرفة خُسْرو. لم تكن بمزاج يسمح لها بالشرح والدفاع.

قالت زَرِي أثناء مغادرة الولدين: «خُسْرو قل لخديجة أن تطعم البنتين وترقدهما».

جاء يوسف فأدار مفتاح المصباح مع أنَّ الأباجورة لم تزل مضاءة فوق الطاولة. كان الضوء يؤذي عيني زَرِي لكنها لم تبد شيئًا. ولمّا جاء مَكْ مَاهُون مدّ يده وأشعل ضوء تسريحة الماكياج وجلس على الكرسي الصغير رباعي القوائم بجانب التسريحة ذاتها. لم تنتبه زَرِي قبل تلك الليلة إلى أنَّ وسطى يد مَكْ

مَاهُون اليسرى مبتورة، ولاحظت أنَّ التجاعيد قد غزت جبينه رغم أنه بات أكثر سمنة من السابق. قالت:

«سمعت أنَّ قصتك طُبعت. أنا سعيدة جدًا».

ابتسم مَكْ مَاهُون وقال: «سوف أقرؤها عليك، رغم تخوفي من أن يزداد رأسك وجعًا»، ثم التفت إلى يوسف وأردف: «هل شرابك خاضع للجراية؟». كان يتحدث بإنجليزية بطيئة ومحسوبة. ربما أصلح لهجته الإيرلندية أو كان يسعى لئلا يستخدمها.

ارتشف جرعة وبدأ. كان صوته يشبه الهدهدة فأطبقت زَرِي عينيها، بينما يوسف جالس بجانب السرير.

19

لملم العجوزُ، صاحب العربة، من بين يديه ورجليه لحيته البيضاء، ذكراه منذ ملايين السنين، ثم كنس بها عربة الشمس الذهبية. بعد ذلك تناول المفتاح الذهبي المعلق في حزامه، وانطلق صوب المشرق. أجل، إنه الوقت المناسب. كانت الشمس على وشك الوصول متعبة خائرة القوى. أدخل المفتاح وفتح باب المشرق. وصلت الشمس متأخرة. كانت معفّرة بالتراب وتتثاءب. مسح صاحب العربة بلحيته البيضاء الكثة غبار الطريق من على وجه الشمس ورأسها فالتمعت أشعتها. ركبت الشمس العربة كي تبدأ سفرها في السماء، بيد أنَّ صاحب العربة لم ينطلق من فوره بل مكث ينتظر. قالت الشمس:

«إنَّ الربّ بعث لك رسالة، وهو ما أخّرني».

«هو صاحب الأمر والنهي!» قال العجوز صاحب العربة.

أردفت الشمس: «أقرأَك السلام وقال لك: "أريدك، في هذا اليوم، أن تنفض غبار صندوق السماء وتجمع كراكيبه وخردته وتحرقها أو ترميها بعيدًا"... والأهم من هذا كله هو الأمر التالي: "أن تُخرج نجوم العباد من الصوان وترسلها لهم إلى الأرض. أريد أن يصبح كل إنسان مالكًا لنجمه».

أخذ العجوز صاحب العربة يغمغم ويقول: «وهل نَفْض صندوق السماء بالأمر الهيّن؟ منذ خمسمائة ألف سنة، بل أكثر، والأمتعة تُخزّن في هذا الصندوق

بدون توقف. لم يعد فيه موضع إبرة من كثرة الكراكيب».

«أنت تعرف الربّ حين يصدر أمرًا. أعلم أنَّ إرادته قد عمَّت كل شيء» قالت الشمس.

انطلقت الشمس وانصرف العجوز صاحب العربة إلى صندوق السماء وهو يغمغم. كان يتمتم:

«استأصلْ سلالتهم من الأرض، واقض على الجميع، فهؤلاء ليسوا أهلًا للإنسانية. خسارة فيهم شرارات نار قلبك التي أودعتها صدورهم! وعونك لهم ومددك الذي لا يفتر لعَقِبهم ونسلهم النذل المارد. أي بلاء بقي لم ينزلوه ببعضهم وأنت قائم فوق رؤوسهم، فما بالك الآن وأنت تريد أن تسلّمهم زمام الأمر بأيديهم؟ كم تدلّلهم! كم تجترئ عليك عفاريت الأرض هؤلاء؟! مذ أن استووا على أقدامهم والفرح والسرور يتملّكانك، ولا تنفكّ تتحدّث عن عنصرهم الإنساني الشريف. أنا أعرف عنصرك الإنساني الشريف. حسب ما وصلني فهم لا يجيدون شيئًا آخر غير القتل والتقتيل وقهر الضعفاء... ».

كان يتمتم بينما يواصل سيره. ذهب طويلًا حتى وصل إلى صندوق السماء. في الأول بحث في صندوق السماء عن ألواح التقدير؛ ألواح من صلصال وحجر نُقشت عليها من قبل أقدار العباد بخطوط عجيبة وغريبة. أخذ جميع الألواح وكسّرها أو قذف بها في الفضاء. رمى الكثير من الخردة وسقط المتاع من قبيل الأجنحة البالية المتعلقة بالملائكة والملائكة المقربين، والنجوم المحترقة، وأعمدة

الشهب التي لم تصل إلى وجهتها. بعد ذلك انبرى للملفات المتعلقة بالآلهة القديمة. يا للملفات المكدّسة فوق بعض! جمع كل الملفات في ركن من الصندوق وذهب إلى القاعة المجاورة ليبحث عن النماذج التي صنعت وفقها. كانت هذه القاعة خاصة بنماذج الآلهة القديمة. نماذج آلهة الأشجار والحيوانات والطيور، والحيوإنسان، والثعابين، والنجوم والقمر والشمس، وفي الأخير الآلهة الآدمية كليًا ذات الأجنحة والمجردة منها. وقعت عينه في ركن القاعة على ساطور، أخذه وانهال يحطم الإلهين "آشور" و"شيفا". كم من صيد سقط بيد هذا النوع من الآلهة! رأى "جلجامش" وانتابه التعجّب وقال: «ما هذه الفداحة! أنت أيضًا حشرت نفسك بين الآلهة؟». وفي لمح البصر أحاله إلى غبار ونفخه. حين وصل إلى الآلهة الرشيقة والممشوقة توقف وتذكّر أيام الشباب. تلك العصور حين كانت الآلهة "عشتار" و"إيزيس" و"ناهيد" و"أفروديت" يمازحنه ويمطرنه

بالدعابات والمرح أو ينثرنه بغمزات العين. أو لمّا كانت "ناهيد" تعطيه كوز مائها وكان يرتشف جرعة فيفيض سرورًا. حين كان يحطّم هذه الآلهة تجمعت الدموع في آماقه. لم يكسر كوز ماء الإلهة "ناهيد". وإذا أردتم الحقيقة، فقد كان يدكّ بلوعة "مردوخ" و"ميترا" و"كوتل" و"أبولو" ويصنع منهم مشروب الخاكشير. فهؤلاء الآلهة في عز صولتهم لم يكونوا قساة على عبادهم، بل إنهم كانوا يشفقون عليهم. أما الإله "بنو"، الذي خطّط معظم ألواح التقدير بيده، فقد وضع حدًا لنفسه بنفسه في ذات الوقت الذي

كان صاحب العربة يكسر الألواح.

شعر بالحرّ فخرج من القاعة ونظر إلى السماء. كانت الشمس قد وصلت بعربتها الذهبية إلى كبد السماء. عاد إلى الصندوق فأخرج الوثائق المتعلقة بالمدن والجبال المقدسة. الوثائق الخاصة بالمدن: "أور"، و"نينوا" التي صارت تسمى فيما بعد "كربلاء" ، و"بيناريس"، و"تشيتشن إيتزا"، و"أروشليم"، ومدن أخرى مقدسة. ثم الوثائق ذات الصلة بالسلاسل الجبلية: "الهيمالايا"، و"زاغروس"، و"الألب"، و"الأنديز"، و"جبل الطور"، و"هضبة الجلجثة"، و"جبل حراء"، وكل الجبال المقدسة الأخرى التي كانت موطنًا للآلهة القديمة، أو الجبال الأخرى التي كانت أرضًا لميعاد الرب مع عباده المحبوبين. وضع وثائق المدن والجبال فوق ملفات الآلهة القديمة.

لم يتبق في صندوق السماء غير ملفٍ واحد تخصّ بضعُ ورقات فيه الأشجار المقدسة كشجرة المعرفة، والشجرة الطيبة، وشجرة السدر، وأشجار أخرى. والأوراق الأخرى كانت تتضمن معلومات بشأن الطلاسم والألغاز والتسالي التي صنعها الرب لعنصره الإنساني الشريف خلال هذه الخمسمائة ألف سنة. حمل العجوز، صاحب العربة، تحت إبطه كل الوثائق والمستندات وكل الملفات الموجودة في صندوق السماء، وخزّنها في ركن السماء. ضرب يديه ببعض فأوجد شرارة أشعل بها جميع الوثائق والملفات.

لم يتأخر في مشاهدة اشتعالها وذهب إلى الصوان

الذي كان يقصده، لحظة بلحظة، في صباح كل يوم قصد كنس النجوم بمكنسته السماوية وإرجاعها إلى الصوان وقفل بابه. لو لم يخبئ النجوم في مكان آمن، كانت ستتشتت في السماء، وكان من الممكن أن يأتي أي عابر ويلعب بها لعبة الحصيات(06)، الشمس على سبيل المثال أو الملائكة العاطلين عن العمل أو أطفال الملائكة. أخرج من ياقته مفتاح باب الصوان الذهبي، وفتح الباب ونادى: «آهاي، يا أولاد تعالوا وساعدوا!». ارتدّ طنين صوته في السماء وفي كل ركن وزاوية فتقاطر عليه ملايين صغار الملائكة. وفي طرفة عين كانت أنواع وأقسام من الأكياس والرزم جاهزة لسكان المدن والقرى والبوادي في كل بلاد، وأنواع وأقسام من المراقي التي كانت درجاتها مصنوعة من قطع أشعة الشمس. بدأ عمل صغار الملائكة. وكانوا يحبون كثيرًا هذا العمل. فكان أحد صغار الملائكة يقرأ لائحة أسماء البشر، والآخر يُبقي رأس الكيس مفتوحًا، والآخر يصبّ النجوم في الكيس بحسب ترتيب الأسماء. عند امتلاء الأكياس بالنجوم كان العجوز صاحب العربة يحكم إغلاق رأسها بيده، ويمهرها ويُشمِّعها ثم يودعها بيد صغار الملائكة. كل واحد منهم كان يستلم كيسًا مع لائحة بأسماء البشر ويسلِّم إزاءه وصلًا. عيَّن على رؤوسهم مسؤولًا عامًا وخمسة معاونين تحت إمرته، ثم أمر برصّ المراقي إلى الأرض.

كان المنظر يغري بالمشاهدة. تصوروا ذلك، ملايين المراقي الشعاعية مع ملايين صغار الملائكة يحملون

على أكتافهم أكياسًا ملأى بالنجوم ويهبطون من السلالم مثل الخذاريف الدوّارة. لقد رأى في حياته مشاهد رائعة كثيرة، لكن لم يسبق أن رأى مثل هذا المشهد... من جملة ما رأى... رأى ذات يوم ملكًا ناريًا وقف أمام الرب فأسمعه ترهات فغضب وانصرف... وفي يوم آخر رأى أجنحة جبريل وهي تحترق... وفي يوم آخر رأى الرّب يأمر بأن تتفتّح جميع أزهار النيلوفر في جميع بحيرات الأرض، وأن أرسل نور المعرفة لذلك الرجل الذي كان مقرفصًا تحت الشجرة... وفي يوم آخر لمّا أرسل الربّ تلك الحمامة إلى الأرض... وفي يوم آخر لمّا سافر رفقة أحد محبوبيه...

كانت مهمة صغار الملائكة في الأرض هي أن يطرقوا أبواب المنازل ويسلّموا كل شخص نجمته ويقولوا له: «من الآن فصاعدًا، أنت تعلم بنفسك!». كانت لهم الحرية، كان بإمكانهم تغيير ظاهر

الرسالة حسب اجتهادهم.

حان الآن موعد تشييع العجوز صاحب العربة للشمس إلى المغرب. ترجّلت الشمس من عربتها الذهبية وعهدت بها إلى صاحب العربة وقالت له: «سَلِمْت!».

قال العجوز صاحب العربة: «يجب أن أفكر في حل لقَبَاء الرب، فخلال هذه الليلة والليالي المقبلة أيضًا، وإلى أن يجد الفرصة المواتية لخلق نجوم جديدة، سيظل قباؤه من دون نجوم».

قالت الشمس: «وما تقصيرك أنت؟»، ثم ودّعته

بفتور وانصرفت.

كان العجوز صاحب العربة مبتهجًا بانتهاء عمله. مسّد على لحيته التي كانت تشبه القطن تمامًا ثم قال في قرارة نفسه: «والآن لننعش وجهنا ورأسنا طالما أنَّ الفرصة مواتية». يا للخسارة! محاسن بتلك الحسن والجمال، وكانت تمتدّ حتى بنان القدمين، حلقها من الجذر، وجزّها كما القطن وغطّى به السماء برمتها. جلب كوز ماء "ناهيد" وكسره وسكبه فوق رأسه ونظّف جسده، وعاد شابًا بالكامل، وامتلأ نهر المجرّة السماوي بهذا الماء.

كانت غيوم السماء تبدو واضحة من الأرض. وُسمع دويّ الرعد أيضًا ولمع البرق كذلك، وهطلت الأمطار، لكن صغار الملائكة لم يكونوا خائفين لأنهم كانوا يعلمون أنَّ العجوز صاحب العربة قد كسر كوز ماء "ناهيد".

ذهبت الشمس وجاءت ثلاث مرات ولم يظهر أثرٌ لصغار الملائكة ومديرهم ومساعديه. في كل يوم، كان صاحب العربة يجلس في ركن من السماء ويسمّر عينيه إلى كرة، كانت تبدو من الفضاء مثل خذروف يدور حول الشمس. وشيئًا فشيئًا تسرّب إلى نفسه شعور بالقلق: «هل أضاعوا الطريق؟! هل ابتلّت مراقيهم الشعاعية بماء كوز "ناهيد" واحترقت؟!». أحس بأنَّ ثقلًا يجثم على صدره فأوشك أن يمزّق طوقه. كانت السماء خالية؛ خالية من النجوم، خالية من صغار الملائكة. والربّ طوال هذه المدة لم يبعث بأي رسالة.

صباح اليوم الرابع سمع أصواتًا آتية من مكان بعيد جدًا. أصوات شبيهة باصطكاك الأجنحة، وأصوات شبيهة بهزيز النسيم. ثم صارت الأصوات أكثر وضوحًا. شبيهة بدويّ السماء، أصوات تتعالى من حركة الكرات والمنظومات... أقاموا المراقي إلى السماء وتراءت صغار الملائكة. ابتسم صاحب العربة. كم كَبُر صغار الملائكة، وكم تطاولت قاماتهم خلال هذه المدة القصيرة!

جاء لاستقبالهم وراح يبحث بعينيه عن مديرهم ومساعديه، غير أنه لم ير أيًّا منهم. معظم صغار الملائكة لم يتعرّفوه من النظرة الأولى، أما أولئك الذين عرفوه قالوا بصوت واحد: «لمَ صرتَ بهذه الهيئة؟ جئنا لأننا اشتقنا للعب بلحيتك».

كانوا جميعهم يتحدثون في وقت واحد عن تجاربهم في الأرض فأحدثوا ضجة ولغطًا واختلطت الأصوات. زمجر صاحب العربة بقوة أعلى من أصواتهم: «لقد أوجعتم رأسي!». وبعد أن سكن الجميع سألهم:

«أين المسؤول الذي أرسلته معكم؟».

تقدّم صغير ملاك كان يفوقهم جميعًا طولًا وقال:

«لم يأت معنا. ظلّ مقيمًا هناك، عيّنني مسؤولًا في مكانه».

«وماذا عن المساعدين؟» سأل صاحب العربة.

«هم أيضًا أقاموا هناك» قال المسؤول الجديد، ثم أردف:

«أتعلم أنَّ مائة وثمانين ألفًا وثلاثمائة وخمسة وعشرين صغير ملاك ظلوا في الأرض، وإذا أضفنا إليهم المدير ومساعديه يصير العدد مائة وثمانين ألفًا وثلاثمائة وواحدًا وثلاثين نفرًا... ».

«لماذا؟ وأي خبر في الأرض هناك؟».

قال صغار الملائكة جميعًا بصوت واحد: «الأرض مثيرة للغاية، كل شيء هناك حي».

أمسك صاحب العربة بأذنيه وقال: «لقد صممتم أذني. ليتكلم واحد. تحدث أنت أيها المسؤول. احك لي».

قال المسؤول الجديد: «أتعلم؟ إنَّ للأرض أصلًا حقيقيًا، ليس خيالًا أو رؤيا، ليس سحابًا وريحًا وأثيرًا. إنَّ لها جسمًا. الأقدام تطأ مكانًا صلبًا. ليس كل شيء وكل شخص أقدامه في الهواء».

«وكيف هو شكل البشر؟».

«لهم أشكال متعددة، لا يشبهون بعضهم البعض، لكنهم كلهم حقيقيون، من دم ولحم. أتعلم؟ كل شيء هناك ينمو. كل شيء يتغيّر. كل شيء تابع لقانون التكوين والتكامل والفناء. لا أحد هناك أبدي ولا شيء سرمدي».

«حينما رأيتكم أدركتُ ذلك. والآن تحدث عن مهمتك».

«كان الأمر ممتعًا. انبسطنا في أفراحهم. كانت لهم حروب أيضًا. وكان الفقر والمرض، بكينا لأجلهم».

«وماذا فعلتم بنجومهم؟».

«أخذنا النجوم ووزعناها عليهم فردًا فردًا، أطفالًا وشيبًا وشبابًا. سلّمني المساعدون تقارير عملهم عن كل قارة، وقمت بتلخيص التقارير كلها لك».

أخرج من تحت جناحه الأيمن ورقًا مثنيًا وقرأ التالي:

«كما أمرتم كان عمل صغار الملائكة يتمثل في تسليم كل شخص نجمته ومخاطبته بما يلي: "نسلمك اللحظة نجمتك بيدك كي تعلم أنك صرت من الآن حرًا. أنت سند نفسك وعونها". وكان رد فعل البشر كالتالي: "التمعت أعين أطفالهم من رؤية نجومهم، فأمسكوها ولعبوا بها". لمّا انطلقنا كانوا لا يزالون يلعبون. أما العجزة فقالوا: "لقد فات الأوان كثيرًا. لكن أنصتوا للرجال ومتوسطي الأعمار الذين يتحكمّون في زمام أمور عمل الأرض". حصل جميع أفراد هذه الفئة على نجماتهم،

لكن معظمهم لم يدركوا حكمة ربّ السماء، رغم الشروح التي قُدمت لهم. فبعضهم أضاع نجماته بسرعة، وبعضهم أخفى نجماته في ياقته وابتسم لأن له نجمة في طوقه. لكن عددًا محدودًا من الشباب ومتوسطي الأعمار أدركوا الأمر جيدًا... قال عدد من هذه الفئة: "نحن من البدء كنا هكذا. لم يكن لدينا توقّع من أي نجم، سواء في السماء أو في الأرض. لم نعتقد قط بقدر، ولم نسقّه قط أحدًا بسبب طالعنا الحسن أو السيء... ».

تكلّم هؤلاء بكلام ثقيل ومتحذلق، ولم يفهم صغار الملائكة كلامهم على نحو جيد. كما أنهم لم يكونوا

يفهمون لغتهم الأرضية...

«وقال عدد آخر من نفس الفئة: "ما أسعدنا بسطوع قلوب الناس بنجماتهم! ". كان هؤلاء مضحكين، وفي كل بلد كان يوجد منهم عدد. بعضهم كانت له لحية، لكن ليس بطول لحيتك... لحيتك السابقة. فهؤلاء لم ينتظروا كثيرًا وهبوا إلى قواميسهم وحذفوا منها الكثير من المفردات. كلمات من قبيل: القدر، والبخت، والحظ، والمصير، ومكتوب الجبين، والحكم والأحكام، وكل ما يرادف هذه الكلمات أو يشرحها أو اشتق من جذرها. والآن ونحن في طريق العودة، انشغلوا بالبحث عن مفردات أخرى من جذع الحرية».

تبسّم صاحب العربة وقال: "سوف أزور الأرض عما قريب، فكما يُقال فهناك الكثير مما يمكن مشاهدته».

*

سكت مَكْ مَاهُون. فتحت زَرِي عينيها وكأنها أفاقت من حلم جميل. قالت:

«قصة عجيبة!».

«هل فهمتها كاملة؟» سأل يوسف.

«كنت أضيف من خيالي ما لم أكن أفهمه»، واتجهت نحو مَكْ مَاهُون وقالت: «في الواقع، كنت في أول الأمر أنتظر قصة أطفال».

أوضح مَكْ مَاهُون: «توأماك نثرتا بذرة هذه القصة في ذهني... رسخ في مخيلتي منذ البدء كنس السماء والأكياس المملوءة بالنجوم في الصوان

المظلم. لكن لا أخفي عليك، حاولت كثيرًا أن أكتب قصة لهما وللأطفال عمومًا حتى أؤدي ما بذمتي تجاههما لكني لم أستطع. هكذا استوت القصة على النحو الذي سمعتماه».

ضحك يوسف ووقف ثم سكب الشراب لمَكْ مَاهُون وناوله القدح. ارتشف مَكْ مَاهُون جرعة وقال: «إنه شراب جيد، من أين يمكن شراؤه؟».

قال يوسف: «أتعلم، بعد سماعي لقصتك للمرة الثانية خطر ببالي أنَّ هذا نفس موضوعك المفضّل الذي تكرره في أشعارك أيضًا».

لم يعلّق مَكْ مَاهُون بشيء فأردف يوسف: «عملك يكفّر عن الذنوب التي يرتكبها الآخرون».

لم تلتقط زَرِي مغزى كلام زوجها، ففتحت فمها كي تسأله عن قصده فإذا بها تسمع صوت جناب الأخ وهو قادم من الصالة:

«أين اختبأتم يا أصحاب الدار؟»، ثم ظهر. رفّت عيناه وقال:

«سمعت أنَّ هذا البيت يقدّم الصدقة في هذه الليلة، فجئت».

20

في الأيام الأخيرة بعد أن تحسّنت حالة كلو، صنع قوسًا وسهمًا وصار يقضّ مضاجع عصافير البستان فلا تلفي ملاذ راحة على غصن، ومع ذلك فالشكر واجب لأنه لم يكسر من زجاج المبنى برمته سوى زجاجة حجرة التخزين. يومئذ ضربت زَرِي على يده بقوة وقالت له: «لقد ضقتُ بك ذرعًا». جلس كلو تحت أشجار النَّارَنج يضجّ بالبكاء والعويل وينادي على أمه وأخيه من جديد.

كان كلو، قبل سطوع شمس صباح كل أحد، ينهض ويتعرّى ثم ينطّ في الحوض بالصليب النحاسي المعلّق على رقبته، ويوقظ زَرِي. بعد الحوض يرتدي ملابسه الجديدة، ويتناول ما يشبه وجبة فطور ثم ينطلق إلى مشفى "المرسلين" عند الرجل أسود الثياب. وكان يعود حوالي الظهيرة، ومع دخوله، وعوض إلقاء السلام، كان يقول: «أنا مسيحي»، لكن قبيل الزوال ينسى ذلك فيقسم بأبي الفضل العباس. لكن في يوم الأحد الأخير عاد كلو إلى البيت متأخرًا عن العادة. كانت زَرِي في المطبخ تعدّ زاد الطريق ليوسف حتى إذا وصل إلى زَرْقَان ليلًا، تكون وجبة عشائه جاهزة. ذهب كلو إلى المطبخ وظل لمدة يتحدث بلهفة لزَرِي وخديجة عن المسيح. كان يتحدث عن يهودا، وسأل زَرِي هل يمكن أن يعثر على هذا النذل كافر النعمة في حارة اليهود؟ ثم تنهّد وقال: «أنا حَمَل المسيح الضائع!». ألصق يديه ببعض ورفعهما بمحاذاة شفتيه وتابع:

«أيها المسيح في السماوات! تعال، وإن كنت صادقًا اعثر عليّ وخذني إلى أمي!».

نهرته خديجة وقالت: «ولد أحمق. قل أستعفر الله. اذهب وطهّر فمك».

قالت زَرِي آمرة: «لا دخل لك به!».

قال كلو: «منذ الليلة سأدعو السيد المسيح، وأتحدّاه أن يأتي إليّ. أيُّ نوع من الرعاة هذا الذي يترك حملانه ويذهب إلى السماء ليجلس هناك؟ إذا كان صادقًا فلينزل، وليأخذني... لو أخذني سوف أعطيه ناي أبي الذي خبّأته تحت الأفرشة، وإذا لم يأخذني فليَقْسِم أبو الفضل العباس ظهري! إذا تمكّنتُ منه سأرميه بسهم وحجر في جبينه».

أرسل يده في جيب سترته وأخرج ثلاثة صلبان نحاسية وأراها زَرِي وقال:

«أعطتني تلك العجوز صاحبة الأسنان المتحركة هذه التمائم، واحدة لأمي، والثانية لعمّي، والثالثة لزوجة عمّي، سآخذها لهم هدايا». أمسك أحد الصلبان أمام خديجة وقال: «قبّليه!». نحّت يده وقالت: «يا ابن الحمار، اذهب إلى حضن أمك». فكّرت زَرِي في نفسها: «لا أحد منهم نظر إليه كفرد ينتمي إلى هذه العائلة، في أي وقت، ولا حتى أنا، ولا السيدة العمَّة».

واصل كلو كلامه: «قالت العجوز صاحبة الأسنان المتحركة: المسيح موجود في كل مكان. موجود في قريتنا أيضًا. قالت كل طفل ينادي على السيد المسيح، يجيبه على الفور نعم بنيّ، لكني كبرت ولا

يمكن أن أسمع نداءه».

عصر اليوم ذاته ذهب كلو مع يوسف إلى القرية وظلت زَرِي تفكر: «ماذا يظن الآن؟ هل يظن أنَّ المسيح عثر عليه؟».

كاد الولد يطير من شدة الفرح حتى إنه نسي قوسه وسهمه، رغم أنه كان يعلم أنه لن يذهب إلى أهله على الفور. كان عليه أولًا أن يذهب مع يوسف إلى زَرْقَان حتى يجد أحدًا يأخذه إلى المصايف. المسكين كان يتصور أنه إذا خرج من باب البستان، حيثما توجّه سوف يكون أقرب إلى قريته...

ذهبوا وبقيت زَرِي وليالي الكوابيس والأحلام السَّمجة. الليالي التي يبدو أنها لا تسفر عن صباحات. ومع مرور الزمان كان بالها يزداد جزعًا وأحلامها ارتجاجًا.

كانت العمَّة ماهرة في تعبير الرؤى. الجميع كان يعلم ذلك، حتى الغرباء. كثيرًا ما كان يتصل بها أناس لا تعرفهم ولم ترهم من قبل، يروون لها أحلامهم وتردّ عليهم "خيرًا إن شاء الله"، ثم تعبّر رؤاهم مبتغية في ذلك الأجر ونيل الثواب. كان لديها أيضًا مخطوط لتفسير الرؤى كانت ترجع إليه متى عجزت. ورغم بحثها المطوّل في كتاب تعبير الرؤى لم تجد تفسيرًا لرمز تلك الأحلام. ففي رأي العمَّة، هذا هو السبب في تكرار ذلك الحلمين، باستمرار، في نوم زَرِي.

كانت زَرِي ترى في منامها أنها تقف عارية تمامًا وسط ساحة مجهولة وآلاف النسوة والرجال

واقفون حول الساحة يتفرجون عليها. كما كانت تحلم بأنَّ الموعد موعد امتحان وهي تقف أمام ممتحن متجهّم ذي سحنة سوداء، لكنها لا تنجح في الإجابة عن الأسئلة رغم كل الجهد. رغم الضغط على الأعصاب وسكب العرق وارتفاع دقات القلب لا تجد جوابًا لأي سؤال. وحين تستيقظ في الصباح لا تتذكر الأسئلة.

أمرتها العمَّة أن تتسوّل لقمة خبز من متسوّل وتأكلها علّها تتذكّر الأسئلة.

ذات ليلة، رأت زَرِي في ما يرى النائم أنَّ تنينًا برأسين ابتلع زوجها هو والأنثى حينما كان يمتطيها ويركض بها، ولمّا أمعنت النظر لاحظت أنَّ التنين ثنائي الرأس كان شبيهًا بسِرْجِنْت زينْگر، يرتدي سروالًا أسكتلنديًا منكمشًا وتنورة مطرّزة بالورود من جميع الجهات. لم تجد العمَّة أدنى صعوبة في تفسير هذا الحلم، وقالت بأنَّ زينْگر سيصير أضحوكة بين العام والخاص، لكن يوسف في بطن الحوت، يتعلّم الصبر والتحمّل مثل يونس، والظلمة في بطن الحوت تهبه الضياء حدّ إدراك أسرار الدنيا كلها.

بعد بضع ليالٍ رأت حلمًا آخر، رأت أنَّ الحاكم بنفسه قذف بيوسف في تنور مخبزة، فتفحّم يوسف، وخرج من التنور يترنّح. فسّرت العمَّة هذا الحلم على أنَّ النار هي نفس نار إبراهيم خليل الله التي انقلبت إلى رياض من بستان، وخروجه من النار يعني اجتيازه للامتحان. ومع أنَّ كلام العمَّة

ذكّر زَرِي بقصة سِيَاوَش إلا أنها لم تعلِّق بشيء. في آخر تلك الليلة، في خيمة العشيرة... تلك الليلة التي راهن ملك سُهْراب زَرِي على بندقية البُرْنو، وخسرت زَرِي الرهان ولم تسدده مطلقًا. ليلتها تحدثوا عن سِيَاوَش كثيرًا وسخروا من زَرِي لكونها تعرف يحيى المعمّدان ولا تعرف شيئًا عن سِيَاوَش، فبيّنوا لها أنَّ سِيَاوَش نجح في اجتياز النار فسمتْ منزلتُه...

أكملت العمَّة تعبير الحلم:

«والتنور أيضًا واضح، إنه التنور ذاته الذي خبّأت فيه زوجة خولي أبناءَ مسلم(05). والتفحّم أمارة على الشرف، لأن حلم المرأة طبعًا فاقد للاعتبار».

وفي الليلة الأخرى، مع نسائم الصبح الأولى، رأت زَرِي رؤيا أخرى، رأت أنَّ كلو رمى يوسف بسهم وحجر في وسط جبينه. لم تفسّر العمَّة هذا الحلم على الإطلاق، وقالت إنَّ حلم الصباح لا تفسير له.

*

انقضت عشرة أيام على ذهاب يوسف، وشاعت في المدينة أخبار بأنَّ ملك سُهْراب قد تمرّد. الجميع يتحدث عن ذلك. جاء غلام وقال: «لجأ إلى الجبال رفقة ألف مسلّح، واختبأ في مكان لا تصل إليه يد بشر!». ثم جاء خُسْرو وقال: «وصل إلى تخوم "يَاسُوج" مع ألفي رجل محارب. لكنه لم ينزل من الجبل بعد... ». وحين ظهر هُرْمُز قال هو الآخر: «زوجة جناب عمُّو، تعلمين أني أحب الشجاعة، لكن الرجل الشجاع يجب أن يتحلى أيضًا بالكياسة». جاء أبو القاسم خان وراء هُرْمُز وكان يستعجله في

مرافقته للمثول بين يدي معالي الحاكم، لكن زَرِي أصرّت على بقائه وقدّمت له أعتق شراب أعدّته السيدة طاووس-على حد قول جناب الأخ نفسه- وكم بالغت في ضيافته ومداهنته حتى انتزعت منه هذا الكلام:

«سمعتُ أنَّ بي بي هَمْدَم ذهبت إلى مقر القيادة... فتحت باب مكتب رئيس أركان الجيوش بلا استئذان، وبسراويلها الفضفاضة تلك ارتمت على قدمي اللواء... طلبت الأمان لملك سُهْراب. قالت سأذهب بنفسي لأحضره... قال لها اللواء كلما أسرعتِ كان أفضل. أخرجت بي بي هَمْدَم من صدرها مصحفًا وقالت: أَقْسِمْ بهذا القرآن أنك لن تتعرّض له إذا رجع... فضرب اللواء ببوطه تحت يد المرأة العجوز... ».

لكن سُكَيْنة، الخبّازة، قالت عند عودتها: "أجّرت بي بي هَمْدَم أربعين مقرئًا ليقرأوا بصوت واحد ومرتفع سورة الأنعام في كل يوم. إنَّ شَعْر المرء ينتصب. إلهي أستحلفك بعصمة الصدِّيقة الطاهرة إلا أرجعت هذا الولد لأمه! وبحق الصدقة في الخفاء، خلِّص ولد أَمَتك المذنبة هذه من شرّ نظام الخدمة الإجبارية! ".

دفع اليأس زَرِي لاستئناف إدمان قراءة الجرائد، لكنها لم تعثر في أي جريدة على أدنى شيء يشير إلى ملك سُهْراب أو حتى يذكر اسمه. وقد أوصلها هذا الإدمان إلى قراءة خبر نُشر في أشهر جريدة محلية. عصر ذلك اليوم كانت وحيدة في البستان، واستلمت الجريدة بنفسها من يد موزِّع الجرائد.

والآن يمر أسبوعان على غياب يوسف.

"شكر وتقدير"

«حضرة السيدة المبجّلة عِزَّت الدولة... من السيدات الخيِّرات والمحسنات، كُلِّفت من طرف جمعية نسائية بمهمة زيارة حارة "مَرْدِسْتَان" وسجن النساء. وتحت إشرافها تم تنظيف جميع المنازل الواقعة في الحارة المذكورة وتعقيمها، كما أنَّ هذه السيدة المحسنة أدّت من كريم مالها الخاص كل الغرامات المفروضة على امرأة سجينة كانت، بدافع الجهل، تتكسّب بطرق غير مشروعة، وهيأت بذلك موجبات حرية هذه المرأة المعيلة والمشرّدة.

تتقدم محافظة فارس إلى هذه السيدة العطوفة والمحبّة بالشكر والتقدير لقاء خدماتها الجليلة».

مع أنها لم تُفاجأ بقراءة هذا الخبر إلا أنها استشعرت انقباض قلبها. كمشت الجريدة ورمتها في ركن ثم احتمت بجُنَيْنَة النَّارَنج. راحت تتمشّى تحت أشجار النَّارَنج وهي تحس أنها لم تعد تطيق أي عمل يحتاج إلى التفكير. قررت أن تذهب إلى الإصطبل وتسأل غلام هل سمع أخبارًا جديدة عن ملك سُهْراب؟ لكنها تباطأت وفكرت: «الرجل يملك قميصًا واحدًا، وأكيد أنه خلع قبعته. وفي هذا الحرّ... قد يكون عاريًا، وربما يدخّن الغليون». وفي لحظة، خطر ببالها أن تقوم بزيارة خاطفة لبي بي هَمْدَم، لكنها تراجعت، لأنها لن تطيق سماع أصوات القرّاء المتشابكة، ولأنها تعلم أنَّ بي بي هَمْدَم سوف تضجّ نواحًا وشكوى بمجرد أن تراها، وسوف تسألها

عن الحل: «والآن قولي لي أنت ماذا أفعل؟». لو كانت زَرِي تدري ما العمل لم تكن واجفة إلى ذلك الحد. كان الجميع يعلم مدى تعلّق بي بي هَمْدَم بملك سُهْراب، وأنَّ ملك سُهْراب، بقده وقديده، ليس إلا طفل صغير أمام أمه.

فكّرت أن تذهب إلى بيت مِهْري وراء العمَّة والبنتين، لكن مع ذلك الحر الشديد لم تكن لتتحمّل ارتداء الملابس الطويلة ووشاح الرأس، لاسيما وأنَّ زوج مِهْري الثاني، محسن خان، كان متشدِّدًا.

كانت تعلم أنَّ قلقها وكدرها إنما كانا بسبب التعب والإرهاق. كانت متعوّدة على قضاء أسبوعين أو ثلاثة في القرية في كل صيف، فكانت تستعد لاستقبال الخريف والشتاء بتغيير الأجواء وممارسة رياضة المشي وركوب الخيل، لكن في صيف هذا العام، صيف المرض والقحط والحرب والحمل المباغت، غدت أسيرة البيت والسجن ودار المجانين. تبادر إلى ذهنها أن تقيم ضيافة أسبوعية لزميلات الدراسة القديمات... ضيافة مسائية... وفكّرت أن تكون هي المستضيفة الأولى ثم بعدها مِهْري... لأن مِهْري مستعدة بعد أخذ إذن محسن خان. لم يكن زوج زَرِي وزوج مِهْري منسجمين، وإلا فهي ومِهْري صديقتان كما كانتا في السابق، التقيتا أم لم تلتقيا.

ذهبت تبحث في درج صوان غرفة النوم عن المغزل والصوف حتى تفتل بالمغزل خيوط اضطرابها وسأمتها، غير أنها لم تعثر لا على المغزل ولا على الصوف. وقعت عيناها على علبة ترتر،

فجلبتها إلى الشرفة مع علبة إبر وكبّة خيط، وجلست على البساط تلصق الترتر. ألقت نظرة على البستان، فتراءى لها فاقدًا لطراوته المعهودة؛ اغبرّت الأشجار، ومَحَلت أوراقها واحترقت. خُيّل إليها، لهنيهة، أنَّ الأشجار بُهِتت وراحت تحدجها بنظرات بربرية. ثم انتبهت إلى أنها ترتجّ وتحرك رؤوسها ثم تهمد ساكنة. فكّرت في نفسها: «إنها تتهيّأ للنوم!»، لكن العصافير صاحية فوق الأغصان تشتكي بعضها مثل ثرثارات حمّام النساء.

كانت أشعة الشمس قد فارقت البستان نهائيًا حينما سمعت صهيل الفرس؛ كان صهيل الأنثى وليس صهيل سَحَر. حمدًا لله لأن يوسف عاد من القرية. حقًا إنَّ القلب على القلب، كما يُقال. يرجع وحيدًا، مثلما كانت زَرِي وحيدة في غيبته. قررت هذه المرة ألا تُشعره بطول غيابه، وبمدى قلقها وتشوّشها، وبحجم شعورها بالوحدة وهي تستأنس بالأوهام والوساوس والشائعات المريعة!

خرج غلام من الإصطبل. دلف سيد محمد، خادم يوسف، ممتطيًا الأنثى ويجرّ من خلفه الحصان الأحمر. ضاق صدر زَرِي فنهضت، سقطت على الأرض علبة الترتر، التي كانت في حجرها، فانفتحت وتبعثر محتواها على البساط. حسنًا، مؤكد أنَّ يوسف ترجّل في الطريق لغرض ما. ترجّل سيد محمد وناول غلام لجام الحصانين، وأسرّ له بشيء فنزع غلام قبعته ورماها أرضًا، وقال له سيد محمد مجددًا كلامًا آخر، فانطلق غلام بالحصانين إلى

الإصطبل. ركضت زَرِي صوب سيد محمد وسألته وهي تزفر: «أين سيدك؟».

«إنه قادم في سيارة ملك رُستَم، لا تجزعي، لم يحدث أي شيء».

كانت تصرفات غلام وسيد محمد تخفي سرًا، فغلام خرج من البستان يركض من دون قبعة، بينما قصد سيد محمد حوض الماء وغسل يديه ووجهه ثم أخرج من جيبه مشطًا ومشّط شاربه الكثّ، واقتلع قطعة حجر من ممر البستان وطهّرها ثم وضعها على الأرض العارية ووقف لأداء الصلاة. إنه لم يكن من أهل الصلاة. وأي صلاة هذه؟ من دون وضوء صحيح وتام، وحتى إنَّ المؤذن لم يرفع بعد أذان المغرب رغم أنَّ النهار كان في نهايته.

دخلت العمَّة أولًا. كان أمرها غريبًا. لم تنبس لأحد ببنت شفة، وقفت في الشرفة لأداء الصلاة بشادور الخروج ذاك ومن دون سجّادة الصلاة. لم تحضر معها الطفلتين أيضًا. مرّ وقت طويل حتى دخلت سيارة تقلّ جناب الأخ. أيقنت زَرِي أنَّ أمرًا ما قد حدث، لكنها لم تشأ أن تسأل. لم تملك الجرأة على ذلك. واشتبك الاثنان: الأخ والأخت.

لمّا دلفت سيارة ملك رُسْتَم الخضراء وركنت جنب الحوض، باتت تعرف ما الذي حصل، لكنها لم تكن لتصدّق إلا بعد أن ترى بأمِّ عينها. ترجّل ملك رُسْتَم ومجيد، وكانت تعلم أنَّ زوجها لن يغادر السيارة. كانت تعلم أنه لن يركب مجددًا ولن يترجّل. أين قرأت أنَّ فلانًا ركب حصانًا خشبيًا؟ كان يوسف

ممدّدًا على جنبه في الكرسي الخلفي للسيارة، وعباءته على كتفه والقبعة تحجب عينيه. سمعت صوت العمَّة وهي تقول:

«السلام عليك، عوفيتَ أخي، عدتَ إلى البيت... » وزمجرت.

كان صدى صرخات جناب الأخ يصل حتى جنبات البيت السبعة. وضعت زَرِي يدها على يد يوسف وكانت باردة جدًا. سحبت أصابعه وفكّتها عن بعض، كانت جافة. نظرت إلى وجهه الممتقع وعينيه المطبقتين وذقنه المربوط بمنديل والدم المتخثّر والمتجمّد. كانت ترى ذلك لكن لا تصدّقه. سألت مذهولة: «من دون وداع؟». أطلق غلام صيحة، وسألت زَرِي مجددًا: «وحيدة؟». وضجّ الجميع بالنواح بينما كانت هي تفكر من أي مكان في حناجرهم يخرجون هذه الصرخات ولمَ لا تستطيع هي؟ كانت ترى العمَّة وقد شقّت جيبها وافترشت الحصى على حافة الحوض. بينما زَرِي تردِّد: «لماذا؟ لماذا؟». بعد ذلك دارت من حولها السيارة والأشجار والناس وحوض الماء. داروا وداروا وابتعدوا عنها بعيدًا.

لمّا فتحت عينيها وجدت نفسها ملقاة فوق بساط الشرفة. جميع أضواء البستان كانت متقدّة. هل كان لديهم ضيوف؟ كانت رائحة مخلوط الطين والتبن تصل إلى المشام، والعمَّة تدلك كتفها. كان جسمها مبتلًا ووجهها ورقبتها أيضًا، والأصوات تتعالى من كل ناحية.

أرقدوا يوسف على تخت خشبي بجانب الحوض، وخلف ظهره كان غلام يعتني به، يتحرّك ويردّد: «سيدي! سيدي!» كان بلا قبعة. وكان الحاج محمد رضا الصبّاغ يحاول جاهدًا بيديه الأرجوانيتين نزع بوط يوسف، لكنه لا يستطيع. كان جناب الأخ يقف على رؤوسهم. قال: «حاجي، مزّق البوط» وصرخ: «أحضروا سكينًا». لم تكن العباءة على كتف يوسف، ولا القبعة. خُيِّل إلى زَرِي أنها تحلم، فلطالما رأت أحلامًا مشوّشة في الأيام الأخيرة. وهذا حلم آخر مضطرب... تخيّلت أنها تحلم برجل أقعدوه على التخت غصبًا ويمزقون بوطه بالسكين، لكنها لا ترى وجه الرجل... تحلم أنها ترى ملك رُسْتَم ممسكًا بالبوط الممزّق ويصرخ: «يا ويلتاه، يا ويلتاه!» فكّرت: «ما اسم هذا الصراخ المنبعث من أعماق القلب؟ صيحة؟ صرّة؟ ولولة؟ لا، كان اسمه جميلًا لكني نسيت الآن». بعد ذلك تخيّلت أنها تحلم بمجيد وقد وضع رأسه على عباءة يوسف التي كانت ملقاة على التخت، وهو يشهق بكاءً حارقًا. ربما لم تكن تحلم، لأنَّ عينيها كانتا مفتوحتين بالكامل.

قدِم جناب الأخ إلى الشرفة. أخرج منديلًا أبيض من الجيب، وأمسك على أنفه وكأنه أصيب بنزلة برد. كانت عيناه محمرّتين وأنفه الطويل أيضًا. أرمش وقال:

«زوجة أخي، ما أسرع ما ترمّلتِ! لم تبلغي الثلاثين بعد! هق. هق».

قالت العمَّة: «تمالكْ نفسك يا رجل، المرأة حامل، لا

تلهبها أكثر».

«حامل؟».

كانت زَرِي تصدّق حملها، لكن دماغها توقف كليًا عن تصديق الحادثة التي وقعت. سألت:

«كيف عرفتِ؟».

«من عينيك» أجابت العمَّة.

أحست زَرِي ثانية أنها تحلم. تحلم برجل انكمش ونام على التخت، وسجّوه بعباءة يوسف في هذا الحرّ. لكنها لا تعرف من يكون الرجل... تحلم بثلاثة رجال جلسوا على أسِرّة الأطفال يتحدّثون عن الرجل المنكمش. كانت تميّز أصواتهم:

صوت أبو القاسم خان: «أختي محقّة، لم يكن الزمانُ زمانَه. أخي، إذا كانت روحك حاضرة هنا، فأَحْلِلْني. كم كنت أودّ لو كنتُ بمستوى فهمك وشعورك ومعرفتك. ولأني لم أكن كذلك فقد كنت أسخر منك. أخي، أنت حرّ مثل شجر السَّرو... ».

صوت مجيد: «نعم، لا تنزعج الآن. كان يعلم بنفسه أنَّ زمانه وزمان أمثاله لم يحن بعد، لكنه كان يقول، وقال لي شخصيًا مرات عدة، إنَّ واجبنا هو أن نسرّع وتيرة وصول هذا الزمان».

وصوت ملك رُسْتَم: «أعلم أنهم سيقبضون على أخي المتعوس سُهْراب اليوم أو غدًا. إنهم ينصبون المشانق في الميدان وسوف يذهب الجميع للتفرج».

تداخلت الأصوات واختلطت بالنواح: «أتخالون أنَّ المرء لا تحدِّثه نفسه بقول الصواب وفعل الصواب؟

لكن حين يسقط في المنحدر، فقد سقط، ويجب أن يذهب إلى أبعد مدى... » صوت من كان هذا؟

كانت أصوات أقدام تسمع على حصى ممر البستان. لمّا كانت تقترب من الشرفة تتوقف ثم تتواصل من جديد. وكانت زَرِي مغمضة عينيها وتحسّ وكأنها رمانة معصورة، أخرجوا من بدنها عصارة روحها بالكامل. كانت تحس بأنَّ أفعى تسلَّلت من بلعومها إلى باطنها والتفّت على قلبها، وشجّت رأسها لتنبشه. وكانت تعلم أنَّ هذه الأفعى سوف تظل متربصة بقلبها العمر كله، وكلما تذكرت زوجها سوف تتعمَّق في نبش قلبها.

بإصرار من العمَّة نهضت من مكانها. أمسكتها من تحت إبطها وأخذتها إلى الصالة. كانت النساء في جميع أنحاء الصالة جالسات على الكراسي أو على السجّاد، ومعظمهن يروّحن على أنفسهن بالمروحة ويتهامسن. وفي الغرف الأخرى كان الرجال. كانت تسمع أصواتهم، وكأنهم كانوا جميعًا

ينتظرون خلف باب البستان وصول جثمان زوجها بدمه الذي يسيل من تحت القبعة من فروة شعره الأصفر ويمتد إلى شاربه الأشقر، وقد تجمّد وتخثّر، ليدخلوا بعد ذلك. وقفت النساء للقائها بيد أنها لم تكن ترى أيًا منهن بوضوح حتى تتعرفهن. لكن عِزَّت الدولة كانت حالة استثنائية. كانت مثل مروّضة الأفاعي. للحظة تسمّرت عينا زَرِي على وجهها وشعرها الأخضر الداكن، ثم اختلطت أمام عينيها التراتر الصفراء والحمراء والزرقاء والسوداء، والتمعت وتشكّلت.

معظم النساء كنّ يمعنّ فيها النظر ويحركن رؤوسهن ثم يبكين. ومن الغرف الأخرى كان يرتفع صوت الرجال مختلطًا بصوت نشيج جناب الأخ. كان يقول: «لو كان أحد يعرف فليخبرني... أنا محتار... ». أما آماق زَرِي فقد جفّت ولسانها قد تيبّس؛ لا دمع ولا كلام.

جاءت إلى الشرفة وجلست على البساط. دلف خُسْرو من باب البستان راكبًا سَحَر، وهبّ مسرعًا إلى الشرفة. أرخى الحصان واقترب من أمه وسألها: «هل صحيح؟». أطرقت الأم رأسها وأخذت تجمع الترتر من على البساط. سألته: «هل نجحت؟». كانت جميع المصابيح متّقدة. كيف لم ير جثة أبيه المنكمشة تحت عباءته، فراح يسألها مكررًا: «هل صحيح أمي؟»، فكانت تجيبه أمه: «كم جئت متأخرًا!»، فيوضح لها: «نجحت فأردت أن أشتري للشباب مشروب الفالوذج، فجاء حمّالنا وقال لي اتصل عمّك وقال أطلقوا الرصاص على أبيك، لكنه جرح فقط، وركب فرسه بنفسه وذهب رأسًا إلى البيت. هل صحيح؟ أين هو الآن؟ في المشفى؟».

ضمّت ابنها إلى صدرها وقبّلته، فانهمرت إذَّاك دموعها.

ثم تقاطر عليها جمع غفير وطوّقوا عنقها وبكوا لحالها بصوت عال. بكوا لترمّلها مبكّرًا، ولأنها يجب أن تربي أربعة أطفال أيتام. بتلك السرعة علم الجميع بوجود الطفل الرابع. جاءت عِزَّت الدولة أيضًا، لكن لم تربِّت عليها ولم تبك لحالها بل اكتفت

بالقول:

«آمل أن يكون هذا آخر أحزانك. حسنًا، لقد ترك لك ما يكفل تنشئة أبنائك بشكل يصون كرامتك»، وانطلقت دون وداع. وضعت يدها على خصرها ونزلت السلالم بصعوبة بالغة. قصدت ملك رُسْتَم الذي كان جالسًا على كرسي حصيري بجانب الحوض. وقف ملك رُسْتَم وجلست هي. كان واضحًا أنَّ عِزَّت الدولة هي من تتكلم وملك رُسْتَم يستمع. كان يبدو أنه يبكي لأنه كان يمرِّر على عينيه منديلًا باستمرار. علا صوت بالقول: «العربة جاهزة». قامت عِزَّت الدولة يمسك بذراعها ملك رُسْتَم وسارا معًا إلى منتهى البستان.

بعد مرور ساعات تمدّدت زَرِي على سرير في القبو والسيدة الحكيمة عند رأسها. كانت نافورة القبو مشغّلة، وكانت تحس برطوبة المنديل وبرودته على جبينها وألم إبرة الحقنة. حقنة واثنتان وثلاث... كانت ترى السيدة الحكيمة تضع سمّاعة خشبية باردة على بطنها وتنصت. سمعتها تقول:

«الجنين يكون سالمًا والليلة وقت الدفن».

«أنت قومي بمعالجتك. هل ارتكب أخي جرمًا حتى ندفنه ليلًا» أجابتها السيدة فاطمة.

ثم صوت السيدة الحكيمة وهي تسأل:

«لماذا أنتِ يكون مريرة؟ الأطفال الثلاثة كلهم يكونون على يدي، والرابع يكون على يدي أيضًا».

أدركت زَرِي أنَّ السؤال التالي موجه إليها: «لماذا مراجعتكِ لم يكن في وقت مبكّر؟».

لم تجب زَرِي، واندفعت العمَّة بفظاظة: «هذا ما هو كائن... "كائن" و"يكون" هذه، هي التي خرّبت بيوت الجميع... ليتك...».

«ليتكِ غربتِ عن وجوهنا» أحد ما ردّد هذا الكلام في ذهن زَرِي لأنَّ العمَّة لم تكمل جملتها. ومع ذلك، وكأنَّ السيدة الحكيمة سمعت كلام ذاك الشخص في ذهن زَرِي. قالت معاتبة بصوت مرتعش:

«أهكذا يكون جزاء الخدمة والوفاء؟ نكون بعيدًا عن الأخ والأخت والصديق، في مدينة غريبة وجو جاف. الدواء يكون بالمجان، والعلاج بالمجان».

ضجّ ذاك الشخص في ذهن زَرِي صارخًا هذه المرة: «اذهبي واغربي عن وجهي. اذهبوا جميعكم واغربوا عن وجهي».

انصرفت السيدة الحكيمة، ورأت زَرِي خُسْرو يمسك بيده مروحة ويستشعر على وجهه نسيمًا هادئًا وباردًا. نطقت بين شفتيها: «خُسْرو»، فأدنى رأسه منها. قالت له: «قم بعمل لأجل أمك... غدا في الصباح الباكر اذهب إلى الدكتور عبد الله خان.. قل له المصيبة التي... قل له أن يقوم بإطلالة علي».

نهض خُسْرو وقال: «سوف أذهب في الحال».

«لا يا عزيزي، فلتذهب غدًا في الصباح الباكر».

دخلت العمَّة وسمعتها زَرِي تقول: «قم يا ولد وتناول عشاءك، ثم اذهب لتنام. قم يا ولدي بحقّ روح أبيك». فكّرت كم صار الناس يقسمون بسرعة بروح الأب! بعد فترة سُمع صوت خديجة: «أتى

رجل، يقول إنه جاء ليقدم يد المساعدة لوجه الله. يقول حلم ليلة أمس بأنَّ أحد خدّام الإمام علي دخل إلى مدينة الله... ».

كانت تعلم أنهم نصبوا خيامًا حول الحوض وينوون غسل جثة زوجها في مائه. كانت تعلم أنهم سيسحبون جسده الليلة تحت ماء الحوض، وسيسيّرون الماء إلى جنائن البستان، وسوف ترتوي الأشجار بالماء الذي غسل جسد زوجها وطهّر دماءه المتيبِّسة. وسوف يُشغِّل حسين كازِرُونِي عجلة البئر في منتصف الليل، ليعوّض ماءُ البئر الماءَ المنسكب.

أرهفت أذنها إلى سيد محمد الذي كان يقول: «ماذا عساي أقول؟ ماذا أقول والإمساك عن القول أفضل؟» من كان يجيب؟ فتحت زَرِي عينيها. كان سيد محمد جاثيًا على عتبة القبو يفتل لفافة تبغ والعمَّة جالسة عند قدمي زَرِي على التخت. جناب الأخ وخُسْرو كانا أيضًا. رطَّب سيد محمد ورق التبغ بشفته وأشعل عود ثقاب وقال:

«ماذا أقول؟ قسمًا بالله لم يعرف أحد شيئًا. فالبدو كانوا يفتدون سيدهم بأوراحهم. لا أعرف. ربما رجال الدرك، ربما رجال آخرون. أما ما يُشاع من أنَّ عمّ كلو جاء من كُوَار، ورمى سيدي برصاص بندقيته ثم رجع مسرعًا، فهذا هراء. إنه تمويه وتلفيق للقضية، بل هي إهانة. هذه شائعة روّجها المتورّط في دمه. ركبتُ الحصان لأذهب إلى أسفل السهل فجاء كلو يعترضني ويقول: أنا من رميت سيدي. قلت له: بماذا رميته؟ قال: بالقوس والسهم.

ثم سعمته يقول بالنبدقية. ثم قال عمّي ضربه. أعلم أنهم لقّنوه. يخدعون الطفل. رغم كل البحث لم نعثر على أثر لعمّ كلو في القرية. كيف يمكن أن يكون قد أتى ولم يره أحد؟ نعم، كان عمّ كلو يملك بندقية صيد. كان قد اشتراها له سيدي بنفسه بعد موت أخيه».

... «في الصباح الباكر ذهبنا إلى المخازن ممتطين الخيول. كسر سيدي بنفسه أقفال المخازن وأزال شمعها ووزّع القطاني والتمر والدقيق على البدو. كان يمزح معهم ويلاطفهم. كان يقول للنساء: "لو فكّرتن ببيع المؤونة وشراء أسورة الذهب أو فكّرتن بالزيارة، فهذا فراق بيني وبينكن". وكان يقول للرجال: "هل تجرؤون على بيع سلعكم لتجديد الأسِرَّة والزوجات... لا تسمحوا بحدوث شرخ في صفنا. كان الجميع منبسطًا ومسرورًا، وكان سيدي أكثرهم انشراحًا وفرحًا».

قبل الظهيرة ذهبنا إلى الحجرة العلوية في القلعة. جلس سيدي على الفراش. كنا من قبل قد أقمنا النّاموسية. جلب إلياس الشيشة ووضعها أمام سيدي. سألته:

«هل أخلع بوطك؟».

«كلّا. سوف أدخّن الشيشة ثم ننطلق نحو أسفل السهل» قال سيدي، ثم سألني:

«هل جاء الحادي؟».

«ها، نعم».

«سيدي، لقد جاء دلّال زينْگر مرة أخرى» قال

إلياس.

قاطع صوت جناب الأخ كلام سيد محمد، ففكرت زَرِي: «كيف يتكلم الرجل هكذا وهو كان يصرخ بتلك الطريقة؟!».

قال جناب الأخ: «كل من جاءني الليلة، همس في أذني: هس، هس. اكتموا صوتكم فالأمر خطير. القضية من فوق... ».

ارتفع صوت العمَّة متأججًا ولم تدع جناب الأخ ليكمل كلامه: «ما أسعدني! الآن، يريدون لدم ذلك المغدور أن يذهب هدرًا. جناب الأخ، أنصت إلى الكلام، وكِّل محاميًا. إن لم تفعل أنت فأنا لم أمت بعد».

ردّ عليها جناب الأخ مُسفِّهًا: «أختاه، ألم تكوني تريدين الذهاب لمجاورة كربلاء؟».

علا صوت العمَّة باكيًا: «الآن كربلائي هنا!»، ثم أضافت: «طوبى لدم مرّت عليه ليلة، مع أن الليلة لم تنته بعد».

قال جناب الأخ برقة: «أختاه، أنتن النساء لا تعرفن تدبير الأمور. فلنفترض أنني وكّلت محاميًا، تظنين على من سيلقون القبض بتهمة القتل هذه؟ كلو وعمَّه... أم بضعة قرويّين تعساء آخرين... أو ربما سيد محمد هذا الحي الحاضر؟ سوف يتصرفون بشكل يدفعنا إلى العفو عن القاتل المزعوم، أو يلفقون تهمة القتل لكلو الذي لم يبلغ سن الرشد بعد. هل أنا أكذب يا سيد محمد؟».

قال سيد محمد: «إذا كانت المحكمة ستتصرف

هكذا من دون إقامة العدل وإحقاق الحق، فأنا مستعد لأن أذهب وأحرِّك جميع البدو ليثوروا، في كل القرى... ».

قال جناب الأخ: «وما الفائدة؟ سوف يُهدر مال تافه من أجل هؤلاء اليتامى. لكن ماذا لو قُبض عليك أنت قبل الجميع؟ ألا يستطيعون؟».

قال خُسْرو: «جناب عمُّو، آنذاك سأتحرك أنا وهُرْمُز لتأجيج القرويين، وسيساندنا السيد فتوحي أيضًا. وإذا راح مالنا، نحن اليتامى، هدرًا فليس مهمًا. سوف أكسب قوتي من عرق جبيني... لكني الآن لا أستطيع، وريثما أكبر سوف تشتغل أمي في الخياطة لتكسب لقمة عيشنا»، ثم فجأة نشج بالبكاء.

كانت زَرِي تودّ لو تنسلّ من تحت التخت لتعانق ولدها ويبكيان معًا، غير أنها لم تكن قادرة. لم تقدر حتى أن تفتح فاها لتقول له: «لا تبك يا عزيز قلبي!». ما الذي فعلته بها حقن السيدة الحكيمة؟!

سبّت العمَّة ولعنت وقالت: «إلهي، لمَ خلقتني بوشاح على رأسي؟ لو كنت رجلًا، لأريت الجميع معنى الرجولة!».

كانت زَرِي تنتظر انسحاب جناب الأخ لكنه قال معاتبًا لكن بلطف: «قرِّعيني وقولي أنا لست رجلًا! لكن هل هناك مخرج غير الرضا والتسليم؟»، ومرت لحظات حتى أردف: «حسنًا، هذه أمور سأنظر فيها لاحقًا. أمهلوني حتى أرى ما يمكنني فعله».

قال خُسْرو لسيد محمد: «أليس دلّال زينْگر هو ذاك

البدين مُجَدَّر الوجه؟».

«بلى، هو بعينه»، ثم أردف: «صعد إلى أعلى وقال: "سِرْجِنْت زينْگر يقرؤكم السلام ويسأل عن أحوالكم". قال له سيدي: "هذه التفاتة منه". قال الدلَّال: "أمرني أن أعرض على جنابكم أن تترجّلوا عن حمار الشيطان. ما الفائدة من تقسيم القمح على الخُدَّام؟ لن يفكر الخُدَّام في مستقبلكم. سوف يذهبون ويبيعون القمح في السوق السوداء بأضعاف أضعاف سعره". ضحك سيدي... كانت آخر مرة يضحك فيها... قال له: "اذهب إلى زينْگر وقل له: دع الخُدَّام يغتنون بدلًا عنك وعن أمثالك ممن يزدادون سمنة وبدانة يومًا إثر يوم". قال الدلَّال: "سِرْجِنْت زينْگر يقول: من مصلحتكم ألا تتصرفوا في البقية". فقال سيدي: "متى طلبتُ من زينْگر رأيه؟".

كل الكلام كان في أذني... قال الدلّال: "يقول سِرْجِنْت زينْگر بمقدورنا تكسير أقفال المخازن وأخذ القمح. ليس القمح والشعير فحسب، بل يلزمنا أيضًا القطاني والتمر. لدينا أمر مكتوب من الحاكم. يا سيدي العزيز، قالوا لك سوف ندفع لك نقدًا، هل هذا سيء؟"... قال الدلّال: "قالوا في أسوأ الأحوال نستطيع أن نشتري من الخُدَّام، ولن نخسر في هذه التجارة أيضًا، فالحكومة سعّرت الليرة بضعف قيمتها...".

بعد ذلك انثنى وقرّب رأسه من أذن سيدي وقال له كلامًا لم نفهمه نحن، لكن سيدي تأجج غضبًا

واحتدم. قال: "فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، ولا تهدّدني بالدركيين فإني لا أخشاهم. لو كنتم رجالًا اذهبوا مع الدركيين واكسروا الأقفال. والأمر بين أيديكم". ثم هدأ سيدي وقال: "لم تعد للمؤونة الآن علاقة بحربهم، الآن هناك شركة، والشركة تتاجر في الغلة". مسح الدلّال عرق جبينه بمنديل ثم قال: "سيدي العزيز، فداك روحي، لا تعاند، لا تشتبك مع هؤلاء، سوف تخسر". ثم قال: "ألسنا نحن أبناء وطن واحد؟"، قال له سيدي: "بلى للأسف". قال الدلّال: "إنهم لا يحتاجون قمحك ومؤونتك، لكنهم يخشون من أن تعلّم المجنون الرمي بالحجر". قال سيدي: "وهذا هو قصدي أنا، الناس في همدان أقفلوا الدكاكين ولم يسمحوا بخروج حبة قمح واحدة من بوابة المدينة، وهنا خرّبوا بوابة القرآن...". وللمرة الثانية انحنى الدلّال على أذن سيدي وهمس له بكلام لدقيقتين أو ثلاث دقائق. لمّا أكمل كلامه استغرق سيدي في التفكير. تغيّر لكنه لم يغيّر موقفه. اكتفى بالقول: "أنا أعطي سُهْراب المؤونة ولا أعطيه السلاح...".

أخذتُ طريقي لأسلكه، ولم أكد أضع قدمي على عتبة الباب حتى لعلع صوت الرصاص. رجعت، فوجدت الشيشة على الأرض وسيدي مُلقًى والدم خطَّ طريقه. ركض محمد مهدي وإلياس إلى الداخل... ساعداني. لكن الدلّال لم يتزحزح من مكانه. صرختُ عليه اذهب واغرب عن وجهي».

علا صوت خُسْرو: «قد يكون دلّال زينْگر هو من

أطلق الرصاص!».

علا صوت سيد محمد: «الدلّال الذي أعرفه جبان لدرجة إذا قيل له بخ يصل حتى جزر الوقواق... »، ثم واصل:

«أزحنا سيدي عن الفراش. رفعت الفراش فإذا بثقب تحته بحجم قبضة اليد. كان لا يزال في سيدي رمق. فتح فمه ليقول شيئًا لكنه لم يستطع. قرّبت رأسي. قال: كلو... كلو... خذه وأودعه عند... عند أهله... زَرِي. زَرِي. أولادي».

«أرسلتُ رجلًا إلى كُوُار للبحث عن ملك رُسْتَم، وأرسلت معه كلو قبل أن يمزّقه الناس الجُهّال إربًا إربًا. اصطحبتُ معي إلى أسفل السهل الحادي والميرزا السيد حَنَّاسَاب، وانتظرت إلى أن شحنوا المؤونة على ظهر الجمل. استلمت الوصل من الميرزا وعدت أدراجي. هذا هو الوصل. لا أعرف هل قمت بالعمل الصحيح أم لا؟ لكني أعلم لو كان سيدي حيًا لقام بالعمل ذاته».

علا صوت العمَّة: «ما الذي جاء بالميرزا السيد حَنَّاسَاب إلى هناك؟».

اندفع سيد محمد: «جاء رفقة الحادي من قِبل ملك سُهْراب».

حاولت زَرِي أن تستوي على رجليها لتجلس فنجحت. قالت: «كنت أريد أن أربيّ أولادي على المحبّة وفي بيئة هادئة، لكني ها أنا ذا أربّيهم على الحقد والانتقام وأسلّم البندقية لخُسْرو».

قال جناب الأخ: «لديك كل الحق. لقد أنهوا أمرنا

بشكل مريع. لكن الدم لا يُطهَّر بالدم بل بالماء. يجب أن نتريث حتى نتبيّن الأمور!».

تمدّدت زَرِي ونامت ورأت في المنام شجرة غريبة نبتت في بستانهم وغلام يسقيها دمًا بمرشّة صغيرة.

21

كانت زَرِي مستيقظة. كأن أحدًا كان يتحدث في ذهنها. كانت تتفوه باستمرار بكلام غير مترابط؛ كلام كانت تدرك أنها سمعته بأذنها أو قرأته في مكان ما؛ جمل وعبارات متراصة لم تكن تتوقعها. أين علقت في ذاكرتها كي تنثال الآن على لسانها؟

«واي، واي... عشّاق الأولياء قد رحلوا جميعهم عن هذه المدينة!».

«ظلام، وظلام، وظلام! في أوج حرّ حرارة منتصف النهار... أنا إيلان الدولة، أنا ويلان الدولة. اشتعلتُ نارًا، اشتعلتُ نارًا، اشتعلتُ نارًا. النار على رأسي أنا... أما أنت الصغير فلا تطيق ذرة صبر. الفتنة تقطر من هذا الطاق المقرنس... ».

ضغطت على عينيها كي تصدّ هجوم الجمل المزعجة. ساء الوضع أكثر، الآن ترتسم أمام عينيها اللوحة التي رسمتها تلك المجنونة في دار المجانين. اللوحة التي تظهر محل جزارة. حتى تقاسيم وجه حضرة علي والجزّار الشاب مبتور اليد كانت منعكسة على جدار الدكان. كان الدكان مليئًا بخطاطيف الجزارة، أينما ولّيت وجهك تجدها، لكن بدل أبدان الخرفان، كانت هياكل الناس معلقة في الخطاطيف من أرجلهم والدم يقطر من حلاقيمهم.

فتحت عينيها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشر ليلًا إذ لم يكن لديهم كهرباء فأوقدوا شمعًا. رمقت جناب الأخ جالسًا على السجّاد محتضنًا ساقيه، والعمَّة قبالته. وخُسْرو هناك أيضًا، وبالمثل

ملك رُسْتَم، بينما كان سيد محمد واقفًا على عتبة القبو. كانت روائح الحشيش ودخان التبغ والكحول والفحم مختلطة. كانت زَرِي تسمع صوت خادم زوجها وهي متأرجحة بين النوم والصحو. كان يتحدث عن مجلس التأبين وقد بُحّ صوته وجُشّ صدره، وكأنه نزل للتو من جبل "مُرْتَاض عَلِي" يحمل على كتفه قنينة خمر ويتجه صوب مزار "هَفْتْ تَنَان". يفتح سدادة القنينة ويرتشف حتى تقطر من شاربه الكثّ قطرات حمراء على قبور مجهولة. يضع القنينة تحت شجرة سرو ويستسلم للنوم فوق صخرة باردة. متى ستتحول قنينة الشراب إلى "شرابًا طهورًا" ؟ في وقت السحر أم مع طلوع الشمس؟

فكّرَت زَرِي: «لقد ولّى الزمان الذي كان الناس يحصلون على "شرابًا طهورًا" فيرتشفونه ويصبحون مثل "حَافِظ". أما الآن فيجب أن يتجرعوا "شرابًا باردًا". لقد ولّى الزمان الذي كان الناس يقتعدون حافة ساقية، يتفرّجون على مضي العمر ويترنمون بـ"أَمَان أَمَان"، ويكتفون من الحياة برمتها بوجه حسن. أما الآن فيجب أن يجلسوا، العمر كله، في مجرى السيول كي يغمر وجوههم السيلُ فيتذكّروا ربهم ونبيّهم... حقًّا، ما كان اسم الصرخات التي يخرجها المرء من أعماق قلبه؟ كلمة تناسب مثل هذه الصرخة... يجب أن تكون مفردة تحمل معنى النقب. أي أنَّ الإنسان إذا لم يستطع أمام السيل والصاعقة وصفعة الحياة أن يُخرج تلك الصرخة فسوف يُثلم قلبه، وحينذاك سيتقاتل الناس

الذين نُقبت قلوبهم ويقضي بعضهم على بعض، ثم يدخلون إلى السجن، أو يُجنّ جنونهم، فتأتي امرأة مدلّلة وغبية ومُؤْثرة للغير وتوصل للسجناء والمجانين نذر الخبز والتمر كل ليلة جمعة. والآن ربما تلك المرأة نفسها تصارع حدّ الجنون لأنَّ ذهنها يعمل على هذا النحو كما تعمل الساعة، لدرجة لا تملك هي نفسها أن تضع حدًا لنشاط ذهنها».

ومرة أخرى أصابها الذعر: «هل أنا أُجنّ؟». أرادت أن تنهض لتقعد، لكن كأنما خيطت إلى الفراش.

كانت في غيبوبتها ترى أحلامًا، وفي صحوها إما أنَّ أحدهم كان يتكلم في ذهنها بكلام غير مترابط، أو أنَّ أحداثًا تتسلّل من صندوق ذاكرتها وتستحيل أمام عينيها المطبقتين حيّة وكأنها

تجري الآن، أو ترتسم أمام ناظريها ولا تتذكّر متى سمعتها ولا أين رأتها. جدّت في إبقاء عينيها وأذنيها مفتوحتين كي ترى وتسمع العمَّة وخُسْرو والآخرين الذين تعرفهم وتسمع كلامهم. لكن الأذن والعين والذهن يبقون تحت تصرفها لمدة، ولا يلبثوا طويلًا حتى ينفصلوا عن الواقع.

كانت تسمع العمَّة وهي تقول: «كيف استطاعت عِزَّت الدولة أن تأتي مع آلام رجلها؟ لا شكَّ أنها جاءت لتستطلع الأخبار. كانت عيناها تلتمعان وهي تنظر إلى زَرِي، حتى قلت في نفسي عجبًا لك زَرِي بتِّ تدخلين السرور على قلوب الأعداء!» ثم ضجّت بكاءً.

ثم سمعت صوت ملك رُسْتَم وهو يقول: «سألَتْني

عن سُهْراب. في الأول قالت إنها سمعت أنه حوصر. قلت لها من أين علمت؟ جمدت في مكانها. ثم قالت سوف يقبضون عليه في النهاية، وآنذاك كان الله في عون بي بي هَمْدَم، فكل ما يعانيه المرء بسبب الأولاد. وبكت. ظننت أنَّ لديها أخبارًا بحكم العلاقة التي تربطها بأسرة الحاكم، فحاولت أن أعرف منها أين سمعت أنَّ سُهْراب محاصر؟ تحاشت الجواب وقالت: "متى قلت أنا هذا الكلام؟" قالت: "ما قلته هو أنَّ المحيطين به وشوا به"... قالت كلامًا متناقضًا... قالت إنّ ملك سُهْراب قد تعب، والخبز والماء لا يصلانه، وهو من وشى بنفسه. ولمّا كنت أُركبها العربة قالت: "سمعت أنَّ بي بي هَمْدَم تلقّت تحذيرًا صارمًا من حضرته وذهبت على قدميها لتحضر ولدها إلى مقتله...". كدتُ أجرجرها من شعرها المستعار وأوسعها ضربًا. قلت لها: "السيدة عِزَّت الدولة لو كان لديك خبر صحيح أخبريني". استحلفتُها بروح حميدها المدلّع. قالت: "كل ما قلته مجرد شائعات". ركبتُ معها في العربة ذاتها وأسرعت إلى بيت بي بي. لم يُفتح لي رغم طرقي الباب مطولًا. هل قطعوا وعدًا صوريًا بالعفو، ويريدون، لا قدر الله، نقض العهد... ».

ارتفع صوت أبو القاسم خان: «اسمحوا لي أن أقول التالي... بالنظر إلى تلك النار التي أضرمها ملك سُهْراب في حرب سَمِيرَم، أستبعد أن يعفوا عنه. حكايته مثل حكاية ذلك الزوج الذي قالت لزوجته: أنا قلت لك ارقصي لكن ليس بهذا الجمال والإتقان».

لكن زَرِي كانت ترى بوضوح في النوم أو اليقظة أنَّ: «الوقت فجر، والناس يحملون سجاجيد على أكتافهم ويقصدون منتزه "بَاغْ تَخْت". النساء ملتحفات بشواديرهن ومتنقبات أو مبرقعات وجوههن، والرجال يزحفون. يا إلهي، وكأنَّ أهالي المدينة فقدوا عقولهم! ألم تكن المدينة ذاتها التي قبّلت الملائكةُ أرضَها؟! كان لها اسم جميل. يجب أن أتذكّر من الذي وصف شيراز... لقد كان محمد بن يوسف الثقفي. حفظت عبارته عن ظهر قلب؛ "هنا الأرض التي سوف تنجب بضعة آلاف من أصحاب الكرامات. موطئ قدم المتصوفة –مركز الولاية- ينبوع عجين فقر آل بيت الطهارة...". واعجبًا! أين هم إذن؟ أين هؤلاء الناس لمَ لا يأتون؟ فأنا سمعت مائة مرة أنَّ عشّاق أولياء الله قد رحلوا عن هذه المدينة... قيل للزرزور لمَ لا تأتي في الشتاء؟ قال: وأي ورود نثروها على رأسي في الصيف؟!

وهذه أمُّ فردوس تحمل فوق رأسها بساطًا محشوًا في سطل حمّام. وهذه أيضًا عِزَّت الدولة وقد أمسكت بها فردوس من تحت إبطها، تمشي مشية عرجاء. آي واي، انظر. عِزَّت الدولة تسبق جميع خلائق الله وتجلس على البساط. عِزَّت الدولة سافرة وشعرها بلون الترياق. كلَّا، كأنها وضعت على رأسها شعرًا مستعارًا يشبه عمامة. وهذا أيضًا حميد خان، ولدها. إنه رجل، يمدّ يده إلى نهدي فردوس فيمسك بهما ويسحبهما سحبًا. تنهض فردوس لتقضي مآربها. رجلاها في الجوارب الشفّافة تبدوان كقالبي سكّر مقلوبين. كل الناس ينظرون بذهول إلى عِزَّت

الدولة وابنها وفردوس ويضحكون ملء أشداقهم.

أين كان زوج عِزَّت الدولة حتى وصل اللحظة؟ لقد هرب من القبر بالطبع. فهو ميت منذ وقت طويل. انظر ماذا لبس في هذا القيظ، جبة كشميرية وقبعة بلا حافة. قبعته ضيقة للغاية عصرت جبهته. وفي ركن القبعة ثمة ثقب مدبَّس... الآن فهمت. جاء ليقتل مسعود خان دَنْدَانْ طَلا من جديد. يدسّ يده تحت جبته الكشميرية ويستخرج من جنبه مسدسًا طويلًا ويصوبه تجاه مسعود خان دَنْدَانْ طَلا.. طَاقْ.. طَاقْ.. طَاقْ.. ويجرجر جثته على الأرض ويسحبها ثم يطلقها وسط حقل الخضروات المحاذي لمرقد سيد أبو الوفا. لكن يبدو أنَّ مسعود خان لم يمت... إنه يتدحرج وسط الخضروات، بين ثنايا أوراق الخيار والقرع والباذنجان، ويفتح عينيه ليتفرّس في وجوه خلائق الله

الذين هجموا للتفرج عليه. يتأوه ويصيح «ماء!». المدينة محشر الآن. مات مسعود خان. في حضن السيد الحاج وسط العربة. من ذا الذي سيهدِّئ روع الناس؟ إنهم يغيرون على حارة اليهود. هاجموا المنازل. الناس يرتقون سطوح البيوت مستعجلين ويرفعون أعلام الإنجليز على بوابة بيوتهم ليقولوا نحن في حمى حكومة الإنجليز العظيمة. يا للبلاء! فالناس الذين كانوا على السطوح ينزلون بعشوائية وكل واحد منهم يحمل فوق رأسه طشتًا. يضعون الطشوت على الأرض. في كل طشت رأس مقطوع يقطر دمًا. يا للضوضاء والصخب!

... أوثقوا يدي ملك سُهْراب من الخلف بينما هو يضحك حتى إنه يكاد ينفجر. يترنح يمنة ويسرة. يقتفي أثره الأطفال ويصفقون ويهتفون: «أحضروه، أحضروه.. بيد العروس سلّموه».

إنهم الآن يقيمون مشنقة وسط منتزه "بَاغْ تَخْت". يا للجلبة التي يحدثون! لماذا لم يقوموا بهذا العمل من قبل حتى لا يبقى ملك سُهْراب منتظرًا كل هذا الوقت؟ حواجب الرجال استطالت حد حجب الرؤية عن أعينهم! الرجال يسدلون بأيديهم شعر حواجبهم إلى الخلف كي يروا بوضوح، والنساء جلسن على البسط يسترقن النظر. المكان متوفر للجميع، لكن الجميع يشكون من نقص في أعينهم. كم يتململون! ربما غارت أعينهم في جماجمهم. كلَّا، فأعين الرجال تحت حواجبهم، أما النساء فقد لففن أنفسهن في الشوادير بحيث لم يعد يظهر لأعينهن أي أثر.

اقتادوا ملك سُهْراب إلى المشنقة. لكن عوض أن يلفّوا الحبل حول رقبته، جاء جندي يحمل بندقية على كتفه وقيّده بحبل إلى خشبة المشنقة. نظر ملك سُهْراب إلى الجندي نظرة ذهول وقال له:

«على رسلك، لا تُحكم الرباط فإن رجلي تؤلمني»، ثم بعد ذلك قال: «الآن أفضل».

يضحك ويضحك حتى تتردد جلجلة ضحكته في كل أنحاء "بَاغْ تَخْت". يهم الجندي نفسه بعَصْب عيني ملك سُهْراب بمنديل أسود فيقول له ملك سُهْراب:

«لا داعي لذلك على الإطلاق. اذهب بسرعة

واضغط على الزناد، في الصدغ، بين العينين. في القلب، في أي مكان تريد. سدِّد رميتك، بسرعة أو على مهل لا يهم. أنا واقف هنا. منذ مدة طويلة وأنا بانتظارك هنا. بمقدورك أيضًا أن تمزّقني بالساطور قطعًا صغيرة».

آي واي، أي أفاعٍ صارت الأحبال! بالله لقد جاء الحاج محمد رضا الصباغ، ولفّ على يديه اللّباد، وأمسك برؤوس الأفاعي، واحدة واحدة، وشجّها على الأرض.

وهذه أيضًا بي بي هَمْدَم بسراويلها الفضفاضة. ما كان عليها أن تأتي. لمَ يشهد الإنسان شنق ولده؟ ربما سُحبت إلى هنا عقابًا لها على ما فعلته بزوجة ملك سُهْراب الأولى... ألم يكن ملك سُهْراب وزوجته الأولى عاشقين؟ بلى، كانا.. بعد ذلك راحت بي بي هَمْدَم تتحدث عن العقم وحرمة الأهل. المقرؤون حضروا أيضًا. لا حاجة للعد فأصواتهم متناسقة وهم يتلون سورة الرحمن...

المسكينة زوجة ملك سُهْراب كانت تقول:

«بي بي هَمْدَم، لو توقفي لسعات لسانك المتواصلة، قد لا نفكر في الأمر بتاتًا وقد لا نضطر لتخريب حياتنا السعيدة. وحكت لها قصة المرأة التي لم تكن تلد... ».

عجبًا لتلك الليلة! كانوا في القرية، وكانت زَرِي حامل بالتوأمين. وكان حملها يذكّر بي بي هَمْدَم بماضيها ويحرّك بداخلها لوعة الشّوق. من شدة الحر لم يكن النوم يطرق جفون أيًا منهن. كانت يدا زَرِي

ورجلاها تحترقان بلفح الحرارة. كانت تخرجهما من الناموسية فيهجم بعوض الدمّل. وكانت توشك على الهلاك من شدة العطش. وفي الناحية الأخرى كان ملك سُهْراب وزوجته الأولى ينامان في ناموسية أخرى، وبي بي هَمْدَم تنام في الغرفة. وكم كان الصخب شديدًا. في الأول ضجيج لطم صدور المعزّين وهتافهم: يا حسين يا حسين، وبعد ذلك أصوات نباح الكلاب. ثم أصوات الأجراس المعلقة على رقاب الخرفان. كانت البهائم تحلم وتتحرك في حلمها. بعد ذلك تشاجرت الغربان على

طلوع الشمس من عدمها. بينما كانت زَرِي تفكّر طوال الوقت في الحكاية التي قصّتها زوجة ملك سُهْراب...

«قصدت امرأة تتوق للإنجاب درويشًا فقال لها عليك بصيام أربعين يومًا، وفي اليوم الأربعين تصعدين إلى شلال الجبل وتغتسلين لكن شريطة ألا تفكري في القرد حينما تكوني في الشلال. فكري في كل ما تشائين، لكن تذكَّري، لا تفكري في القرد فقط. وصلت المرأة إلى الجبل خمس مرات. وفي كل مرة، بعد صيام أربعين يومًا، تذهب تحت الشلال لكن لا تستطيع منع نفسها من التفكير في القرد. في كل مرة يخطر بذهنها قرد قبيح الخلقة مشعَّر. وفي النهاية ذهبت إلى الدرويش وقالت له: وصفتك لم تفدني. لو لم تذكر أنت القرد ما كنت لأفكر فيه لمائة سنة. لكن الآن... ».

... وهذا أيضًا سِرْجِنْت زينْگر بتنورته القصيرة المنكمشة، التي طرّز حواشيها بالورود بيده، يجلس

إلى ماكنة الخياطة "سنجر" ويشرع بالخياطة... وهل هذا وقت الخياطة؟ كم يدوس بسرعة! وعيناه تتقافزان من طرف هذا القماش إلى طرفه الآخر. إنه يخيط الزكزاك. كلَّا، بل الشبكة. غزت القماش الثقوب كما غزت الثقوب نبات بلسم الكُمثري. والآن وقف ليلقي كلمة: «سيداتي سادتي، تَصدَّقوا فإننا أهديناكم الحضارة»، تقع عيناه على زَرِي فيبتسم ويقول: «السيدة مدّت يدها لك، أنتِ يقبِّل يد السيدة».

الناس يصفقون لكن ليس على زينْگر، بل على صغار الملائكة الذين ينزلون عبر سلالم شعاعية بأكياس ملأى بالنجوم. صغار الملائكة يتوجهون صوب الناس ويسلِّمون كل واحد نجمته في يده. زَرِي أيضًا تتسلّم نجمتها. يقول صغير الملاك: "الآن، أنت التي تدرين. تعب رب السماء. إنه منهك للغاية"، بيد أنَّ زَرِي ضيعت نجمتها وتبحث عنها الآن في كل مكان. تفتّش في كل الأصونة والصناديق، ترمي كراكيب المخزن وخردته، تبحث في كل الصناديق والعلب في مخزن البيت لكنها لا تعثر على نجمتها. تجلس في البستان محتارة. تبحث فوق الأكوام وتنظر تحت الأشجار. تسأل خديجة: "ألم تري نجمتي؟".

يعلو صوت باكٍ بالقول: «إذا لم تعثري على زعفران فاطبخي حلوى الكلس»، كان صوت العمَّة.

وانطلق صوت حزين يتنهد: «يمكن تحضير حلوى الكلس لكن لا يمكن أكلها»، كان هذا صوت ملك

رُسْتَم.

ثم صوت العمَّة التي تلجلجت: «خديجة اذهبي وحضّري حلوى الورد الأصفر... بالنسبة لوردي الأحمر فقد ذَبُل وغدا أصفر... يا عجبًا! ذهب نحيبي وبقي عجبي».

ارتجّت الباب ودلف أحدهم إلى الداخل ففتحت زَرِي عينيها. قال سيد محمد:

«لقد ردّ على الهاتف. قال حضرة القطب: بإمكانكم إقامة التأبين في "بَيْت عَلِي" فباب "بَيْت عَلِي" مفتوح في وجه الجميع».

ثم صوت جناب الأخ: «وكيل المدينة ولا يقوى على إقامة مجلس تأبين لأخيه في مسجد "وكيل"... حسنًا، اكتب يا خُسْرو... ما تاريخ بعد غد؟».

«الثاني والعشرون من أغسطس».

«اكتب بمناسبة وفاة الشاب المغدور...».

ارتفع صوت العمَّة: «وفاة؟ اكتب استشهاد...».

«أختاه، لو سمحت لنا بإتمام عملنا كان أفضل. بعد ألف منّة رضي بطبع إعلان التأبين لكن مع ألف شرط وشرط... أحد الشروط...».

ثم علا صوت ملك رُسْتَم: «أنا أيضًا أوافق على كتابة استشهاد...».

يا للرائحة التي كانت تنتشر في الجو! ليت عابرًا مرّ من هناك ورمى خارجًا منقل النار، وليته سأل:

«ما الذي أصاب سقيمكم هذا حتى سُجّي على السرير مثل جيفة أو جثة؟ دعوني أحمله إلى

البستان تحت شجرة البواكر السبعة تلك، فالسماء ملأى بالنجوم في الخارج».

كان قلب زَرِي يخفق بشدة ويضطرم نارًا ثم يخفق ثم يتأجج نارًا. كانت تغمض عينيها فترى شاحنة شبّت فيها النار واحترقت، وضابطًا يأتي وينام فوق جندي مقتول في خندق.

ومجددًا صوت العمَّة الذي يعلو: «إنها فضلات القطة. تركتم باب مخزن الفحم مفتوحًا ثانية، ذهبت إلى هناك ونجّست المكان. خديجة تعالي وخذي المنقل، لم يعد لي حاجة إليه».

ثم صوتها مرة أخرى: «هل كنست كل الغرف؟ هل فتحوا منفذ ماء الحوض؟ هل كنس غلام البستان؟».

... واللحظة ترى زَرِي: فتاة تقف، بشعرها المضفور المشدود بخيط، على عتبة دكان العطار في تقاطع "مشير". بأمر من مدرّس الفيزياء تحتاج إلى سبع مواد كي تصنع دهان أحذية أسود. الدهان الذي لن يكون دهان أحذية أبدًا. فتصنع شيئًا يشبه جلًا أسود. ولا يُعرف من المخطئ هل الفتاة أم مدرس الفيزياء أم العطّار. ذهب العطار إلى مخزن الدكان ليحضر المواد السبعة. كان الوقت ظهرًا وكانت تستعجل الذهاب إلى المدرسة كي تحضّر الدّهان للساعة الرابعة. فجأة يصل فارس يمتطي صهوة الفرس بتحكم كبير، وكأنه ملك الجن بعينه! عينان خضراوان... كان لون الفارس تحت الشمس أخضر زمرديًا، وصار أخضر ترابيًا حين وقف الآن في الظل.

يسألها:

«بنيّتي العزيزة، هل تعرفين من أين الطريق إلى حارة "سَنْگ سِيَاه"؟».

استولى على الصبية الذعر. في تلك الظهيرة لم يكن أحد غيرها في الأنحاء، ومع ذلك سألته:

«هل تريد الذهاب إلى قبر سيبويه؟».

«كلّا عزيزتي، أريد الذهاب إلى الخانقاه».

«هل أنت درويش؟ أتريد الذهاب إلى "بَيْت عَلِي"؟».

يضحك الفارس فتلتمع أسنانه البيضاء ويقول:

«كلّا عزيزتي، لست درويشًا. خادمي هو الدرويش. لقد مرض وهو الآن طريح الخانقاه، وأريد الذهاب لعيادته».

«حسنًا، اذهب في طريقك مستقيمًا، ثم انعطف ناحية اليمين، ثم ناحية اليسار، بعد ذلك ناحية اليسار أيضًا... لكنك لن تستطيع الذهاب ممتطيًا الحصان، فالزقاق مملوء بالحصيّ المدبّبة».

لماذا لا ينطلق الفارس وقد دلّته على العنوان؟ لماذا يتفحّصها من قمة الرأس إلى أخمص القدم؟ نعم، أعرف. يستغرب لماذا هذه الفتاة سافرة من بين كل تلك النساء والفتيات؟ «يجب أن أوضّح وإلا فسيعتقد أني أرمينية». تقول:

«كان أبي الميرزا علي أكبر خان كافرًا. أوصى بألا أرتدي الشادور أبدًا».

يخلع الفارس قبعته. كانت قبعة عجيبة ذات حافة،

لكنها لم تكن بهلوية. يحيي الفتاة تحية تعظيم ويقول لها: «أنا لم أسألك لمَ أنتِ سافرة»، ثم ينطلق شاقًّا طريقه.

لكن أي وصية؟ أي شيء؟ عصر ذات اليوم-حيث ظل الجل الأسود على يد الفتاة- سينتشر خبر الفوضى التي عمّت المدينة. رصّت مديرة المدرسة الإنجليزية كل البنات على خط واحد وقالت لهن: «ضعن براقعكن السوداء في المحافظ، سيحضرون لكن النقاب من بيوتكن» لكن على غير العادة، لم تنكّد المديرة هذه المرة فتقول: «هذا الشعب غير مؤهل للتحضّر». بعد ذلك وقعت

عيناها على فتاة بشعر مضفور مشدود بخيط فسألتها: «زَرِي هل تعرفين كيف ترتدين الشادور؟»، لكن زَرِي تعرف أنها لا تملك أحدًا يحضر لها شادورًا ونقابًا. السيدة الحكيمة بترت ثدي أمها وهي طريحة الفراش في مشفى المرسلين، ومن المستبعد جدًا أن تتحسن حالتها عمّا قريب؟ وأخوها ذهب للخدمة العسكرية، والله وحده يعلم متى سيعود. أما خادمتهم العجوز البلهاء فكيف لها أن تدري بما يجري في المدينة فتشغّل عقلها وتحضر لها الشادور؟ حسنًا، بعد أن ينصرف الجميع سيذهب نَظَر عَلِي بِيْگ، بوَّاب المدرسة الهندي، ويحضر لها الشادور والنقاب. لكن متى ينصرف الجميع؟!

جاء الخدم وأحضروا النُّقُب للفتيات فوضعنه على وجوههن وانصرفن، بينما لزمت هي مكانها تترقب. بقيت وحيدة مع نَظَر عَلِي بِيْگ، لكن الوقت أظلم

الآن، وهي تخاف. لنَظَر عَلِي بِيْگ شاربان طويلان، أحدهما مرتفع والآخر نازل، ووجهه معوجّ إلى حد ما. قال لها إن الأوباش والرّعاع هجموا على الزقاق والسوق يمزقون براقع الناس وقبعاتهم، وسوف يصلون إلى هنا ويكسرون جميع الأبواب والشبابيك. إنها تخشى نظرات نَظَر عَلِي بِيْگ لأنه لا ينفك عن تكرار: «آنسة، جميل آنسة!» لكنها أيضًا لا ترغب في أن يذهب هو لجلب الشادور وتظل هي وحيدة في هذه المدرسة الفسيحة. فجأة، تنبهت الفتاة وقالت: «سوف أهاتف منزل القطب لتحضر لي مِهْري الشادور». ابتهجت لهذه الفكرة التي خطرت على بالها ودعت الله أن يكون فارس الظهيرة لم يزل موجودًا في منزل القطب. اتصلت ثم جلست على حافة الحوض تنسج الخيالات؛ راحت تتخيل أنها ركبت خلف ملك الجن نفسه، وهما الآن يعدوان تجاه مرقد "ابن باكويه"، وهي تنشد له:

لم يَكُن يَجْدُرُ خَلْقَ هَذَا الجَمَال شِفَاهَ حَسْنَاوَاتِ "خِيتَانَ" وَأَسْنَانَهَا

... طرقوا باب المدرسة. أجل، إنه هو بنفسه. ضحكت الفتاة لرؤيته. لكن هذه المرة جاء راجلًا وبلا قبعة، ويحمل علبة في يده ملفوفة في ورق الجرائد. قدّم العلبة للفتاة وقال:

«خذي البسي. أنا سأوصلك إلى البيت».

قال نَظَر عَلِي بِيْگ : «صاهب، جميل صاهب!».

لا تعرف الفتاة كيف تثبِّت الشادور على رأسها ففي كل مرة ينزلق. يتوجّه الرجل صوب نَظَر عَلِي بِيْگ

ويسأله: «هل لديك دبوس قفل؟». يدسّ نَظَر عَلِي بِيْگ يده في خلفية ياقة سترته وينزع دبوسًا عاديًا.

ينطلقان سويًّا، فلا ترى الفتاة الأرض بوضوح وتوشك على الوقوع. تسأله:

«لماذا أرسلوك أنت؟».

«لم يكن هناك أحد غيري، فالدراويش قصدوا حفرهم. التمستني السيدة مِهْرانْگِيز، ابنة أخي القطب، أن أوصل لك في طريقي هذا الشادور. قالت: اسمك زهراء. أنا يوسف».

كانت مديرة مدرستهم الإنجليزية في المدينة قد علّمتهن في حال التعارف أن يمددن أيديهن ويبتسمن ويقلن: «تشرفت!». لكن كيف يمكنها مدّ يدها؟ كلتا يديها مشغولتان. واحدة بالشادور والأخرى بالكتب.

واصل الرجل كلامه: «كنت أعرف والدك، درست عنده الإنجليزية لغاية ذهابي إلى الخارج. كان إنسانًا جليل القدر، وكان يزرع في قلوب طلّابه آمالًا كبيرة».

ظلت الفتاة صامتة بينما تابع الرجل القول: «قالت السيدة مِهْري إنَّ أمك يروقها رؤية المشرط على جسدها. وتستمتع بقطع جزء من بدنها ورميه بعيدًا. في كل يوم تختلق عذرًا جديدًا لتذهب إلى مشفى المرسلين؛ فتارة تدعي أنَّ إبهام رجلها قد تورّم، وتارة تقول إنَّ بثرًا نما في ثديها... ».

سألته الفتاة: «هل معنى هذا أنَّ مِهْري تقول إنَّ أمي ليست مصابة بالسرطان وأنها تقدّم نفسها للجراحة هباءً؟ أسأل الله أن تكون كذلك».

كانت نظرات الفتاة مصوبة على حذاء الرجل. فجأة، توقفت وقالت: «فُتح خيط فردة حذائك اليمنى... » فانثنى الرجل ليربط خيط حذائه.

كم انسجمت مع رجل غريب بسرعة وكأنها تعرفه منذ سنوات! ماذا يدور في خلد الرجل بشأنها؟ ترافقه بهذه البساطة وتفضفض له أيضًا. حمدًا لله أنها ترتدي الشادور وتشدُّ النقاب على وجهها فلا يستطيع أحد أن يتعرَّفها. حمدًا لله أنَّ حارة اليهود خالية. هل يظن الرجل أنها قد تكون نصبت له فخًا لتوقع به؟! في الحقيقة إنها نصبت له فخًا ومِهْري أدركت ذلك وساعدتها. سألته:

«وجه مِهْري يشبه ورقة وردة، أليس كذلك؟».

«أنا لم أر وجهها، فقد كانت متسربلة بشادور صلاتها» قال الرجل متبسِّمًا.

«كنا زميلتين لغاية الصف السادس ابتدائي. كنا نجتمع، في كل يوم، حول المدفئة فكانت تدرِّسنا القرآن والفقهيات. بعد ذلك تحكي لنا قصصًا قرأتها من ألف ليلة وليلة. صوتها نديّ. كانت تقرأ لنا المثنوي(04). ومما قرأت لنا: فَأَنَا أَعْرِفُ المَلِكَ فِي كُلِّ لِبَاس... نسيت شطر البيت الأول».

فأنشد الرجل:

«أَنْشُدُ عَيْنًا تُمِيِّزُ الشَّاهَ بَيْنَ النَّاس حَتَّى تَتَعَرَّفَ المَلِكَ فِي كُلِّ لِبَاس».

حاولت الفتاة كثيرًا كبح اندفاعها. كان على طرف

لسانها وكانت تود أن تقول له: «أنا عرفتك!»، وهي في الأساس قرأت الشعر لهذا الغرض.

«هل قال لك أحدٌ من قبل إنَّ صوتك ناعم مثل المخمل؟» سألها الرجل.

لم تتفوه بشيء.

«طيب، كنتِ تحكين عن السيدة مِهْرانْگيز...».

«لا شيء... تركتْ المدرسة وتزوجت... ولا أعرف لمَ طلّقها زوجها بعد سنة، كما أنه مات في ريعان شبابه. يقال إنَّ القطب دعا عليه... ».

«هل يملؤون رؤوسكن بهذه الخرافات في المدرسة الإنجليزية؟».

غضبت الفتاة فلزمت الصمت، ثم عاد الرجل ليسألها:

«في أي صف تدرسين؟».

أجابت مغتمّة: «الصف الثامن فارسي، والتاسع إنجليزي».

كانت الأزقة والدروب خاوية مقفِرة ومصابيح ناصية الطرق مطفأة. كانت الفتاة تودّ لو تنزع نقاب وجهها لكنها لم تكن تجرؤ. ما يطمئنها أنها كانت تحفظ الطريق إلى بيتها وتعرف كل الحفر والمطبّات لدرجة يمكنها السير إلى البيت مغمضة العينين.

«السيدة مِهْرانْگيز تتحدث عنك كثيرًا. قالت إنك أفحمتِ المديرة، ذات مرة، بسبب قراءة شعر "عذاب شمشون" على هيأة موفدي الشرق... ».

«ذاك الشعر انساب على لساني تلقائيًا، ولم أكن

أقصد إفحام المديرة أو شيئًا آخر».

«أنت أصيلة!» قال الرجل ضاحكًا.

وصلا إلى البازار ولاذ كلاهما بالصمت. كان ثمة بضعة مصابيح زيتية مضاءة موضوعة على مصطبات الحوانيت، لكن الدكاكين موصدة. كان سبعة أو ثمانية أنفار من الحراس يتسكعون في البازار. وكان يُسمع صوت جلبة آتيًا من ناحية بازار السيّافين. غير أنَّ داخل البازار كان به نفر قليل يمضون في حال سبيلهم.

«مدّدوهم مجددًا!» قال الرجل ولم تدرك الفتاة ما يرمي إليه أو ربما لم تسمع كلامه جيدًا.

وصلا تحت الطاق، وكان أشد حلكة من باقي الأمكنة. أمسك الرجل ذراع الفتاة فأحست بسخونة تسري في كل بدنها لم يسبق لها أن جربتها في عمرها قط... وصلا إلى باب البيت، وجاملت الفتاة الرجل بدعوته لتناول شربات، وفي سرّها كانت تتمنى ألا يدخل. لم يدخل الرجل.

«أتذكّر كان لديكم في بيتكم شجرة ورد الجبل».

«ما زالت موجودة».

«تنمو بصعوبة، لكن إذا استوت على ساقها، تمتلئ كل سنة بالورود... ويا لها من ورود عبقة ودائمة!».

كانت تودّ لو يغادر الرجل ولا تودّ ذلك في الآن نفسه. سألته سؤالًا خارج السياق:

«هل أديت الخدمة العسكرية؟».

«سوف أؤديها في هذا الخريف».

«تستغرق سنتين أليس كذلك؟».

«حاولي أن تكبري بسرعة».

لم تفهم زَرِي قصد الرجل مجددًا. ولمّا حكت الواقعة لأمها لاحقًا أكدت لها أنَّ الفارس مرسول الله أرسله لينقذ ابنتها... وبعد ذلك... بعد مرور ثلاث سنوات تقدّم الرجل لخطبتها...

يا للصّخب! كانت تحلم أحلامًا جميلة وترى خيالات حلوة. وكأن حالها تحسّنت وفارقتها الكوابيس وهجرها الهذيان. هناك من يزعق في البستان: «يا هو، يا حق، يا علي!». إنه صوت سيد محمد، ثم يأتي صوت غلام: «خديجة أين عصير الليمون؟». فكّرت زَرِي: «لقد ثمل»، وقالت بصوت

عال: «خذوه إلى مزار "هَفْتْ تَنَان"». جاءت العمَّة ناحيتها وقالت: «هل أيقظك؟». فتحت زَرِي عينيها. لم يبق أحد في القبو سوى العمَّة. قالت زَرِي: «سيوقظون الأولاد. الأولاد يخافون».

«اطمئني، مِهْري أبقت الطفلتين عندها هذه الليلة، وستبقيان معها غدًا أيضًا. وخُسْرو أرقدته في السطح بعد ألف قَسَم وآية».

لم تسكن الجلبة في البستان لحظة واحدة. صوت تلاوة القرآن يطرق الأذن منسجمًا من مكان ما وكأنه زمزمات، وصوت شخص يستفرغ ويقيء، وصوت سباب يعلو مرتفعًا:

«أنت الذي جلست هناك في الأعلى تتفرج. لو كنت صادقًا انزل إلى تحت قدمًا واحدة. تعال وتذوق من هذا الحساء الذي طبخته للجماعة... أيها المقبور يا

ابن القوّاد!».

وصوت يترنّم: «مَنْزِلٌ مُتْرَعٌ بِالسُّكَارَى.. سُكَارَى فِي مُقْتَبَلِ العُمْر!».

وضعت العمَّة يدها على جبين زَرِي وقالت: «جلسوا معًا وشربوا الخمر حتى ثملوا جميعًا»، ثم أردفت بحنان: «حاولي أن تنامي».

«أخشى أن يستيقظ خُسْرو ويسقط من السطح! ليتك أرسلته إلى بيت مِهْري هو أيضًا...».

«هُرْمُز ينام على جانب منه ومجيد على الجانب الآخر... ».

«يا هو. يا حق. يا علي!» كان هذا صوت سيد محمد يقرع أذنها من بعيد. وعلى مقربة منها قطع نومَها وشرودَها صوتُ بكاء رجل رتيب، فكانت زَرِي تحس أنَّ هذا البكاء لن يهدأ أبدًا. فتحت عينيها، فشاهدت ملك رُسْتَم يمسك رأسه بيديه ويغرق في نوبة بكاء عنيفة. وبجانبه يجلس جناب الأخ وقد امتقع لونه. بحسب ما فكّرت زَرِي فجناب الأخ هو الميت...

اندفعت العمَّة: «ملك رُسْتَم خان، لا تبك! لأجل هذه المرأة المتعوسة، سوف تستيقظ».

قال جناب الأخ: «قلت للسيدة الحكيمة أن تحقنها بحقنة كي تنام. قلت لها إذا ظلت يقظة فلن تصمد حتى الصباح. سوف تقضي عليها هذه الغصّة. ليتها حقنتني أنا بواحدة».

لم ينقطع نشيج البكاء بيد أنَّ ذهن زَرِي انقطع عن

التفكير في التعاسة والحزن... باتت ترى نفسها بين يدي يوسف وهما يجتازان حقل قمح سنابله ذهبية ملأى بالحَب، ونسيم الغروب أحنى رؤوسها. يصل يوسف وزَرِي إلى ساقية ويجلسان بانتظار حلول الظلام... يجلسان في تلافيف الظلمة ممسكيْن بيدي بعضهما، فيجتاح زَرِي إحساس بأنَّ هذه الدنيا خِلوٌ من البشر إلا منها ومن يوسف. تضع رأسها على كتفه وتصغي إلى نبض دقات قلبه. كم من الوقت جلسا معًا في الظلام من دون أن يتبادلا كلامًا؟ ليلتها جلسا على حافة الشبّاك ينظران إلى البستان وهو سادر في العتمة...

تلك الليلة في مرقد "ابن باكويه"، تفأل لهما بابا بفأل حافظ الشيرازي فقرأ هذا الشعر: «لَيْسَ كُلُّ هَذَا حَاصِلَ المُلْكِ وَالمَلَكُوت!» إلى آخر الغزلية. قال: «كلمحٍ بالبصر، لا يبعد إلا كما تبعد الشفة عن الفم». بعد ذلك ذهب بابا إلى غرفته بينما جلس يوسف وزَرِي في العتمة ينظران إلى المدينة. نزلا من الجبل في حلكة الليل يمسكان بيدي بعضهما...

تلك الليلة في غرفة التوأمين، أخذ يوسف رزمة المفاتيح من وسادة مرجان وأطفأ المصباح ثم أمسك بيد زَرِي ووقفا معًا في العتمة ينصتان إلى صوت تنفس البنتين...

تلك الليلة، ناما معًا في الناموسية عاريين تمامًا، فأيقظا خُسْرو. نادى خُسْرو على أبيه فارتدى يوسف ملابس نومه بسرعة وذهب إليه وقال: «نم يا عزيزي، لا شيء هناك». عاد فجلسا معًا في العتمة

وسط الناموسية، وكان قلبهما يخفق بشدة لدرجة كانا يسمعان خفقان قلبيهما، وظلّا كذلك إلى أن سمعا صوت تنفس خُسْرو وقد انتظم.

وتلك الأيام والليالي التي ذهبت وجاءت...

علا صوت العمَّة مجددًا بيد أنها لم ترد أن تسمع. كانت تحلم وتتخيّل أشياء جميلة لكن الصوت فرض نفسه عليها:

«أنا لدي وشاح أسود وملابس سوداء أما زَرِي فلا. تلك البئيسة تكره اللون الأسود. لمّا توفيت أمها لم تمكث باللباس الأسود أكثر من أربعين يومًا. اضطررتُ لأن أعطي وشاح زَرِي وملابسها للحاج محمد رضا كي يصبغها بالأسود الليلة. أعطيته أيضًا كل الملاءات. قال سأبيت الليلة أصبغ الملاءات والقمصان. الجو حار وإلى الصباح سوف تجفّ».

صوت جناب الأخ: «الملاءات؟».

صوت العمَّة: «أريد أن أجعل كل الغرف سوداء. سوف أفرش الملاءات السود على الفُرُش في كل أرجاء الغرفة... ».

لكن زَرِي في القرية وليست في قبو بيتهم. هي في القرية وتعلم أنهم اليوم يحصدون آخر مزرعة في قرية "دِهْ بَالَا"، ويوسف ينتظرها قرب الطّاحونة. يفترض أن تلتحق به قبل أن تغادر أشعة الشمس سماء المزرعة، وإلى هناك أمامها طريق طويل. تخرج من بيت العائلة. نساء القرية جالسات بشوادير صلاتهن على ضفة جدول الماء المنساب من بيت العائلة يغسلن الكؤوس والأطباق. يسلِّمن

على زَرِي فتبادلهن التحية والكلام. تشير إلى بطن أم كلو وتقول لها: «ملأتِ قدرك من جديد!»، ثم تحدّق في گُلْ دُوسْتِي زوجة عمّ كلو، العروس الجديدة، وقد لطّخت وجهها بالمساحيق الحمراء والبيضاء وكحَّلت عينيها، وتقول لها: «من الواضح أنك تقضين أوقاتًا سعيدة!». كلو حاضر أيضًا ويحوم من حولها. تمسّد زَرِي شعره المجعّد وتقول له: «اركضْ إلى سيد محمد وقل له أن يجهّز سرج الحصان». يضحك كلو وينصرف راكضًا.

تمتطي زَرِي الحصان وتعبر من أمام المزارع المحصودة؛ أكياس القمح مرصوصة فوق بعض مثل سيل ذهبي، والرجال منشغلون بتكديس التبن وربطه بالحبال السوداء وشحنه على ظهور

الحمير. حيثما مرّت يبادرها بالسلام الرجال في المزرعة، فتردّ عليهم «سَلِمْتُم!» ثم تواصل سيرها. تصل إلى قرية "دِهْ بَالَا". تتعجب لأبواب البيوت على حدود المصيف وقد أُغلقت بجدران طينية، وكأنَّ القرية مهجورة. كلّا، إنها ترمق بضع نسوة عشائريات يمضين في حال سبيلهن. أهل العشيرة ذهبوا إلى المصايف. هي رأتهم يغادرون. توقفوا في قرية "دِهْ بَالَا" لبضعة أيام ثم انصرفوا...

تمر من أمام النساء والرجال والمزارع. بالفعل لقد وصلت إلى المزرعة الأخيرة قبل مغيب الشمس. الرجال لم يزالوا يحصدون، والنساء اللَّواقط جلسن مصطفّات بجانب المزرعة ورؤوسهن صوبها. جميعهن يضعن وشاحًا أسود على رؤوسهن. إنها

تعلم أنَّ يوسف يوصي الرجال دائمًا:

«احصدوا بشكل عشوائي حتى يفضل للَّواقط شيء يجمعنه».

ولهذا السبب تُحضر كل واحدة من اللَّواقط معها خُرجيْن.

إنها ترى يوسف جالسًا على بساط أمام الطّاحونة يدخّن الشيشة وقد رمى على كتفه عباءة رهيفة. يوسف يراها أيضًا ويتقدّم لاستقبالها بعباءته تلك. يحضنها وينزلها من فوق الحصان ويقول:

«تعالي تحت عباءتي، لقد تعرّقت وأخشى أن تصابي بالزكام»، ثم يقول: «لقد لفحت أشعة الشمس شعرك، لون شعرك يبدو من بعيد أصفر مائلًا للاخضرار».

جلست زَرِي على البساط تحت عباءة يوسف. زرع الطّحان في جُنَيْنَة قرب الطاحونة ثلاث بتلات من زهر شبّ الليل ويسقيها الآن مع الغروب بمرشة حلبية. إنه مُبيضّ بالدقيق من الرأس حتى القدم، حتى إنَّ الدقيق يغطي حاجبيه ورموشه وشعر رأسه.

تقدَّم الطّحان ووضع صينية حلبية على البساط؛ قرصي خبز من خَبْزِ يده، وقدحًا من اللبن المخيض مَخَضَه بنفسه، وقبضة بصل أخضر، كما وضع قليلًا من الملح والفلفل على قطعتي

ورق. تناولت زَرِي لقمة كبيرة وقدّمتها ليوسف. ضحك وقال لها: «أعلم أنك جائعة، قطعت كل هذه الطريق، أنت كلي». كم كانت جائعة...

خلف الطاحونة تقع مزرعة العائلة المخصصة لمحصولات الصيف وتُسقى بالماء الذي يدير عجلة الطاحونة. نهض يوسف وذهب ثم عاد بحجر عباءته ممتلئًا. أحضر الطحّان منقل جمر فوقه إبريق مسوَدّ وكُسورُه مرقّعة، ثم وضعه بجانب البساط. نزع يوسف قشر كومة من الذرة وأزال الإبريق ووضع الذرة على النار ثم شرع ينفخ الجمر بعلبة مقواة أعطاها له الطحّان.

... ذهب يوسف وزَرِي يبحثان عن النسوة اللَّواقط. أخراجهن مملوءة عن آخرها. ربطن كل خُرجيْن بحبل، وساعد الرجال على رفع الأخراج ووضعها على أكتاف النساء. رافقت زَرِي امرأة متوسطة العمر كانت آخر واحدة تنطلق وسألتها:

«أمَّاه، لمَ تضعين وشاحًا أسود على رأسك؟».

وكأن المرأة لم تسمع سؤالها، فعوض أن تجيب دعت لها: «أطال الله عمرك وزادك عزة، يا عزيزة أمَّاه».

أعادت زَرِي طرح سؤالها: «لماذا غطيتن رؤوسكن جميعًا بأوشحة سوداء؟».

هذه المرة سمعتها المرأة وقالت: «أفتدي قامتك وقدك عزيزتي. الليلة ليلة سُووَشُون. وغدًا يوم حداد. إذا حضر بَلَدْچِي خان سننطلق كي نصل مع طلوع الفجر... مع وصولنا تُضرب الدفوف وتُقرع الطبول... ».

«أين سُووَشُون؟» سألت زَرِي.

لم تسمع المرأة سؤالها بوضوح فاندفعت: «لا

يا عزيزتي، سنذهب على البهائم. أحضر غلامكم محمد تقي بهائم وهو ينتظرنا تحت "شجرة الشَّعر". سيستلم منا أجرته خُرجًا مملوءًا».

توقفت المرأة وانتفخ شدقاها مواصلة كلامها: «حينما نصل سوف نجلس حول الساحة، وسيقدِّمون لنا شايًا ساخنًا وخبزًا من النوع الطويل وخبز الزنجبيل، وشربات الورد... وعنب "ريش بابا"... ويوم سُووَشُون وليلته يقدّمون وجبة الغذاء والعشاء أيضًا... جمعوا الحطب في وسط الساحة كي يشعلوا النار. وفي اللحظة التي ترى فيها الليل وقد امتقع لونه، والشمس –أفتديها بنفسي- لم تطلع بعد يتراءى هو على قمة الجبل ممتطيًا جواده، وكأنه كان يصلي وهو على صهوة فرسه. يضع مصحفًا فوق رأسه ويدعو لكل المسلمين: اللهمَّ... أسود الثياب وفرسه أسود أيضًا. يأتي ويعبر فوق النار. نشرع نحن العورات بالزغاريد والابتهاج والرجال بإنشاد المواويل والشبان بالتصفير... فتُضرب الدفوف وتدقّ الطبول. وما هي إلا هنيهة حتى ترى الشمس وقد استلّت سيفها والساحة قد انقشعت تحت سطوع أشعتها».

أُعجبت زَرِي بحديث المرأة فسألتها: «طيب، وماذا يحدث بعد ذلك؟».

كانت المرأة قد تأخرت عن ركب اللَّواقط وهي ترقبهن بعينيها، انتبهت زَرِي لذلك وقالت لها:

«انطلقي كي تلحقي بالأخريات، سوف تتأخرين».

«إلى أن يحمّلن أثقالهن ويُركبن أطفالهن أكون قد

لحقت بهن» قالت المرأة، ثم أردفت:

«فداك نفسي، أنت ولية نعمتنا... سأحكي لك ما تودين معرفته».

«حسنًا، لننطلق معًا وأنت تحكين لي في الطريق» قالت لها زَرِي.

تحركتا معًا من جديد، وراحت المرأة متوسطة العمر تسرد: «أفتديه بروحي، يَقْدُم إلى بطحاء الميدان وحيدًا، ويطوف حوله بتؤدة حزينًا مغمومًا. كيف لفرد واحد أن يحارب كل أولئك الأعداء الملاعين؟! تصل ملائكة التراب إلى البطحاء من جهة من جهات الساحة ويستأذنونه لمساعدته».

سألتها زَرِي: «ملائكة ماذا؟».

أجابت المرأة: «تأتي جماعة يحملون في أيديهم التراب ويغطون رؤوسهم بقبعات ورد وبتلات بنية اللون، هؤلاء هم ملائكة التراب. وجماعة أخرى يحملون مراوح يروّحون على أنفسهم. هؤلاء هم ملائكة الريح. وجماعة أخرى سود الثياب يمسكون مشاعل في أيديهم. هؤلاء هم ملائكة النار. يأتون من الجهات الثلاث في الميدان لتقديم المساعدة. وفي الأخير يصل من جهة الميدان الرابعة درويش يلهج بذكر "يا علي"... ».

تنهدت المرأة: «آه، يا علي يا روحي... لا تدع أَمَتَك وحيدة... بحق... »، ثم واصلت: «إناء الدرويش طافحٌ بشربات الورد. يمسك الدرويش بخطام حصانه ويقول له: ارتشف جرعة واحدة على ذكر لسان الحسين الظمآن. لكنه يهرق الشربات على

الأرض، ويأذن لجميع الملائكة بالانصراف ويبقى بمفرده ينتظر أولئك الملاعين ممتطيًا فرسه لا يملك سيفًا ولا سهمًا. أشعة الشمس تغمر الميدان برمته. يبدأ الملاعين هجومهم متقاطرين على خيولهم من الجهات الأربع. ينقضّ على رأسه المبارك ثلاثون أو أربعون ألف مقاتل. يحاربون... يُقرع الطبل ويُقرع ثم يُقرع بخفّة... حدّ اقتلاع قلب المرء من جوفه».

«وفي الأخير يقطعون عرقوب حصانه ويسقطونه من فوقه. يطوقون رقبته المباركة بلجام الحصان ويضعون سرجه على ظهره. يربطون كتفه وطرفيه لكنه لا يحرّك بالألم ساكنًا. يظل فرسه الأسود العاري ثابتًا في مكانه يصهل حتى يعمّ الساحة صهيله. يتقدّم أحد فرسان أولئك الملاعين مرتديًا ملابس الغضب ويمسك لجام الفرس الملقى على رقبة حضرته. يطوف بالأسير الغريب الوحيد أرجاء الميدان بكاملها على قدميه، فيسقط وينهض ثم يسقط وينهض مجددًا. فيتعفّر وجهه ورأسه، وتتمزق ملابسه السوداء وتتلطّخ بالتراب... لكنه لا يتألم ولا يقطّب جبينه».

بكت المرأة متوسطة العمر ومسحت عينيها بحاشية وشاحها الأسود ومخَّطت منخرها، ثم تابعت والدموع تغالبها: «يترجّل ذلك الملعون عن حصانه ويضرب بسيفه على حلقه المبارك. يغطي وجهه مثل خروف ويضع رأسه على حافة الطشت... يحدُّ سكينه أمامنا... لكن سكينه لا يقطع بقدرة الخالق. بعد ذلك يمدّده على وجهه ويضع السكّين

على رقبته. يتعالى صوت المزمار بلحن حزين ومبرح. وفجأة ترى حصانه تلطّخ بالدم من تلقاء نفسه، وتضرّج عنقه بالكامل. يحكي أكابرنا أنَّ حصان حضرته الأسود، في إحدى المرات في عهد القهر والغضب، لم يستطع التحمّل وانفجر من شدة الحسرة وهلك. وأنا رأيت بأم عيني دموع الحيوان البكم».

... «نحن العورات نفرغ حزننا على رؤوسنا. ورجالنا يمسكون قطع الآجر الخام ويفركونه فيتساقط الطين والتبن على أرجلهم. ثم يرفعون القطع الآجرية ويهرشونها فوق رؤوسهم فيتساقط الطين والتبن على رؤوسهم... ».

أحسّت زَرِي بحرارة تُلهب جفونَها فأوشكت على احتضان المرأة متوسطة العمر ومشاركتها البكاء، لكنهما وصلتا أخيرًا إلى "شجرة الشَّعْر". دعت المرأة لها وودعتها، فتقدّم محمد تقي وساعد المرأة على إنزال خُرجيْها عن كتفها وحملهما على بغلته...

... ركبت زَرِي ويوسف الحصان وراحا يركضان على إيقاعه. سألت زَرِي يوسف:

«هل تعرف أنت معنى سُووَشُون؟».

«هو نوع من الحداد، جميع أهالي قرية "دِهْ بَالَا" سيغادرون الليلة».

«ألهذا السبب أقفلوا أبواب منازلهم بجدار طيني؟».

«أجل، فسفرهم يستغرق بضعة أيام».

قالت زَرِي وقد ارتسمت على وجهها غلالة حزن: «قريةٌ منازلها من دون أبواب، يتواعد أهلها تحت "شجرة الشَّعر" كي يذهبوا معًا إلى سُووَشُون!».

قال يوسف: «يعني عزاء سِيَاوَش. أهالي قرية "دِهْ بَالَا" يذهبون كل سنة بعد الحصاد ويرجعون في موسم الدَّرس».

ران عليهما الصمت، وحلّ الظلام بالمصيف. كانا يسوقان الحصان وهما يحدّقان في الأمام. جفون زَرِي ساخنة وحارة. رويدًا رويدًا أخذت عبرات تنثال على خديها في سكون كي لا يعلم يوسف... لكنها لم تلبث أن ضجّت بالشهيق فراحت تبكي وتنوح بألم وحرقة.

امتدّت يدٌ ومسحت دموعها. كانت يد العمَّة. قالت: «أستحلفك بروح يوسف ألا تبكي».

استوت زَرِي جالسة وقالت: «كنت أبكي لأجل سِيَاوَش... لم أكن أعرفه في بادئ الأمر، وكنت أكرهه. أما الآن فصرت أعرفه جيدًا وقلبي ملتاع له... كنت واقفة تحت "شجرة الشَّعر" أبكي سِيَاوَش. يا للخسارة! فأنا لا أملك شَعْرًا، وإلا كنت قد قصصته وعلّقته على الشجرة مثلما تفعل الأخريات».

ما الذي تفوّهت به حتى انتحى الجميع سبيل الصمت وحدّقوا فيها؟ فمثل ذلك الذهول والصمت لا يمكن تحملهما. أحسّت زَرِي بأنَّ شيئًا ما قد تكسّر بداخلها وتلاشى بالفعل. من الذي حكى لها بأنَّ: «طوفانًا قد غمر مزرعة بدني؟».

وضع جناب الأخ يده على خصره وهبّ واقفًا

وذهب ناحيتها وقال:

«كم مرة قلت لذلك المغدور لا تسمح لهذه المرأة الضعيفة الهشّة بالتردد كثيرًا على دار المجانين! لم يكن في صالحها... ».

قالت العمَّة: «لا إله إلا الله. يا رجل لا تستعجل بالحكم وأنت لا تعلم».

قالت زَرِي: «كان أحدهم يسرد عليّ قصة سُووَشُون، لمّا كان وحيدًا والأعداء بالآلاف.. بالطبع لم يكن ليتغلّب عليهم وهو فرد واحد... ».

قال ملك رُسْتَم وهو جالس في مكانه: «السيد أبو القاسم خان، تفضل بالجلوس»، ثم همس بكلام، لكن زَرِي كانت تسمعه: «لا تخف، إنها لم تجنّ. ألا يحقّ لأحد أن يبكي سِيَاوَش؟!».

لطم جناب الأخ على رأسه وقال: « أيُّ سِيَاوَش؟ وأي "شجرة شَعْر"؟ دارت الدنيا وانقلبت على رأسي أنا. تحت أنقاض التراب... يا للحسرة.. وا حسرتاه!».

قال ملك رُسْتَم: «أنا بنفسي ذهبت إلى سُووَشُون مرارًا. حينما مُنعت التعزية منعوا سُووَشُون أيضًا. و"شجرة الشَّعْر" معروفة في المصيف برمته».

قالت زَرِي موضّحة: «حينما رأيت "شجرة الشَّعْر" للمرة الأولى، خلتُ، من بعيد، أنها الشجرة المقدسة. علّقوا عليها خرقًا بالية سوداء وصفراء وبنية، وحين اقتربت تبيّنتُ أنهم علّقوا عليها ضفائر الشعر؛ شعر نساء شابات مات أزواجهنّ في مقتبل العمر أو أبناؤهن أو إخوانهن... ».

لماذا ذُعر جناب الأخ ولم يصدّق كل ما سمع في نهاية المطاف؟ لماذا شكّكت العمَّة ولم تنبس بعدها بحرف؟ لكن ملك رُسْتَم أيد جواز البكاء من أجل سِيَاوَش. من جديد وضعت زَرِي رأسها على الوسادة وراحت تفكّر: «لو أنهم سمحوا لي لكنت مرتاحة مع خيالي، كنت، في خيالي، سأعدو بحصاني، وأدك المزارع المحصودة تحت أقدامي، وأجلس واضعة يدي في يد يوسف إلى جانب أكوام القمح. كنت سأضع رأسي في حضن يوسف وهو يداعب صدغيّ بأصابعه ويقول: أراهن أنَّ حالتك سوف تتحسّن كثيرًا».

22

في النهاية تحرّرت زَرِي من وطأة الذعر والكوابيس الليلية، ومع أولى نسمات الفجر أفاقت ونهضت من مكانها. كانت ركبتاها فاقدتين للطاقة وفمها مرًّا مثل ذنَب الحيّة. مضت نحو البستان وأصاخت السمع لخرير الماء المنساب من الرأس الصخري باتجاه الحوض. غسلت يديها ووجهها. انتعشت واستردت صحوها ووعيها بفضل برودة الجو، ونظافة البستان وطراوته، ورائحة تراب الجُنَيْنَات، وزقزقة عصافير الصباح الباكر، والحوض الذي انتصف بالماء النقي.

كانوا قد وضعوا التخوت في ظل البناية وبجانب الحوض وألقوا فوقها الأفرشة. جاءت خديجة تحمل بيدها صينية ووضعتها على أحد التخوت. سلّمت على زَرِي وقالت:

«كنت أعلم أنَّ حالتك سوف تتحسن مع طلوع الصباح. حمدًا لله! فقد فقصتُ من أجلك البيض وأحرقت البخور، وكم قدَّمت من نذور!».

فرشت السفرة على التخت ورتّبت فوقها السكاكين والشوكات ثم ذهبت لتجلب المرجل. أحضرت المرجل الفوّار وحضّرت الشاي. جلست زَرِي إلى السفرة، كانت تشعر بجوع شديد. قالت خديجة:

«ليلة أمس بحثنا كثيرًا عن رزمة المفاتيح ولم نعثر عليها. مؤكد أنَّ السكر والشاي والزعفران يوجد بالمخزن. أعلم أننا نتوفر على زجاجة عصارة السكر... على فكرة سيدتي، نحتاج أيضًا إلى مزيد

من المراوح».

سألت زَرِي: «أين يقرأ المقرئ القرآن؟ هل صوته آت من ناحية النبع؟».

استوت خديجة واقفة وحدّقت فيها وقالت: «لقد وضعوا النّعش على رأس النبع وسط أكياس الثلج، فهو المكان الأكثر برودة».

قالت وهي واقفة تتفرّس في زَرِي: «في ليلة واحدة، كأنهم أخذوك وجاؤوا بامرأة أخرى... »، ثم أكملت كلامها على هذا النحو: «يا إلهي، لقد أهلكتِ نفسك. وجهك غدا كأصبعين اثنين... هل تتذكّرين الخال قزيم الذي دخّن الحشيش؟ أنا من أنقذته. كانت حالته مثل حالتك الآن تمامًا».

دلف من باب البستان المفتوح غلام أولًا يتبعه الحاج محمد رضا الصبّاغ. كان غلام يحمل في يد مكواة وفي اليد الأخرى قميص زَرِي ووشاحها الأسود. كان الحاج محمد رضا يرتدي قميصًا طويل الأكمام أسود اللون، ويراقب بعناية قماشًا كبيرًا ممتلئًا كان يحمله فوق رأسه. استلمت زَرِي القميص والوشاح من يد غلام وتوجهت إلى غرفة النوم. لبست القميص بصعوبة بالغة، كان ضيقًا للغاية. دسّت يدها في جيب القميص الأيمن فوجدت ورقة نقدية من فئة تومانين منكمشة ومسودّة. نظرت إلى المرآة من دون أن تشعر فلم تتعرَّف نفسها. أدارت مفتاح المصباح وأمعنت النظر؛ لقد وخط الشيب بضع شعرات من رأسها، وتشقّقت شفتاها وتقشّرتا وأحيطتا بخط، وارتسمت تحت عينيها خدور غائرة

بنفسجية. سرحت: «يكذبون حينما يقولون إنَّ فلانًا ابيضّ شعره في ليلة واحدة».

توجهت صوب الصالة وكانوا قد أزاحوا كل زينتها حتى الراديو أخرجوه خارجًا. كان غلام والحاج محمد رضا منهمكيْن في تغليف الأفرشة المصفوفة في كل جنبات القاعة بملاءات سوداء. برؤيتها هبّ الحاج محمد رضا واقفًا ونكّس رأسه وحيّاها مكروبًا. فكّرت زَرِي: «المسكين سهر الليل كله ليصبغ كل هذه الأقمشة»، وكأنَّ الحاج محمد رضا قرأ ما يدور في ذهنها لأنه ألقى نظرة ارتياح ورضى على المجالس كلها وقد اكتست بحلة سوداء.

جاءت إلى البستان وكانت العمَّة تسلّم من صلاتها وجناب الأخ وخُسْرو يتناولان وجبة الفطور. كان خُسْرو يرتدي قميصًا أسود مسدلًا على سرواله الرمادي. جلست زَرِي في صدر السفرة بجانب المرجل. سكبت لنفسها الشاي ولمّا أتت العمَّة سكبت لها أيضًا. كانت يداها ترتعشان ورأسها دائخًا. فقصت العمَّة بيضيتين وأفرغت بياضهما في الكأس الذي تحت المرجل بمنتهى الدقة، وأصفرهما في فنجان. أضافت قليلًا من السكر وأخذت تخلِّط. كانت زَرِي تتابع بعينيها خُسْرو الذي غادر وخرج من باب البستان. وغير قاصدة نطقت بما كانت تفكّر فيه: «المسكين سهر الليل كله يصبغ أشياءنا كلها!». وهي تخلِّط أصفر البيض رفعت العمَّة رأسها وأرادت صرفها عن الموضوع قائلة: «زوجة أخي، هل عثرت على رزمة مفاتيحك؟».

سألت زَرِي ساهمة: «رزمة المفاتيح؟» ثم ابتسمت وقالت:

«قبل لحظات جمدت خديجة في مكانها لرؤيتي، وقالت إني صرت مثل المدمنين الذين أُنقذوا للتو من الموت. قالت إني شخت في ليلة واحدة وكأنها ألف سنة. كلَّا، لم تقل هذا. نسيت ما قالت... أنا لم أعرف نفسي في المرآة».

«خديجة غلطانة! لا يجدر بها هذا التطفّل والفضول» قالت العمَّة.

نظر جناب الأخ إلى زَرِي وحدّق فيها ثم هزّ رأسه وقال: «ألم أقل لك أختاه؟ قلتِ لي ليلة أمس أني أحدّق في جميع أشيائكم وأختلق الكلام».

نطقت زَرِي بما يجول في فكرها مجددًا: «أظن أنَّ خُسْرو ذهب عند الدكتور عبد الله خان».

عضّت العمَّة على شفتها وقالت: «سوف يكون على ما يرام ما إن يمتصّ التراب حنين قلبه». وعلى عجل سكبت الحليب فوق أصفر البيض وخلّطته ثم ناولته زَرِي. فجأة، فطنت زَرِي لما يرمي إليه جناب الأخ فجرى الدم في مُحيّاها وشرع قلبها بالخفقان، ثم أحسّت ثانية بأنَّ شيئًا ما في داخلها قد انكسر وتلاشى.

قالت موضّحة: «إنَّ أول ما يتفوه به أي مجنون في دار المجانين أنا لست مجنونًا وقد أتوا بي إلى هنا عبثًا. لكن يا جناب الأخ، اطمئن فإني لم أُجن... إنَّ... يوسف فجأة... » ولم تكمل كلامها. لم تكن تثق في كلامها. أتكون قد جُنّت بالفعل وهي لا تدري؟

لفّ شغاف قلبها رعبٌ أشد من رعب ليلة أمس وكوابيسها، وخوفٌ أعظم من كل خوف جربته في حياتها. تثلّجت زَرِي ونضح كفّا يديها عرقًا. كان عليها أن تبرهن لجناب الأخ أنها لم تجنّ، والأهم، أن تثبت لنفسها ذلك... تناولت فطورها برقّة رغم أنها لم تعد جائعة. شكرت العمَّة على الحليب والبيض رغم أنه لم يكن يهبط من بلعومها. بعد ذلك نهضت ونادت على خديجة وغلام. أرسلت خديجة لتستعير المرواح من الجيران وتمر على بيت مِهْري وتحضر رزمة المفاتيح من عند البنتين. وأرسلت غلامًا ليبحث عن السكر والشاي.

عادت خديجة بحجرها مملوءًا بالمراوح وقالت: «كانت السيدة مِهْري وجناب محسن يتشاجران فلم أجرؤ على الدخول». ورجع غلام وقال: «وصلت إلى نهاية الشارع، لم يفتح أحد دكانه بعد!».

طوال هذا الوقت كانت زَرِي مسمّرة عينها على باب البستان بانتظار قدوم الدكتور عبد الله خان. في الأول دخل حسين آقا العطّار وأخوه حسن آقا، صعلوك ناصية الزقاق، وقد ارتديا السواد من مفرق الرأس إلى أسفل القدم. وبعدهما وصل اثنان من الجيران، مُقطِّرا الورد، مع أثقالهما وهما يتصببان عرقًا. كان هذان الأخيران يربطان على ساعديهما العاريين قطعة ثوب أسود ويرتديان كالمعتاد سروالًا داخليًا وفانيلة داخلية. وضعا حملهما قرب حوض الماء، وفتحا رباط الأكياس وأوصلوها من الخارج بأنبوب. كانا يتناوبان على وضع حفنتيهما تحت

الرأس الصخري ويملآنهما بالماء ثم ينضحان الرذاذ على الورود الحمراء وأزهار النسرين المحشوة في الأكياس فينتشر عطرها في أرجاء مدخل البناية الآجري. كانت زَرِي ترمق الورود وهي تفكّر: «لقد قطعا طريقًا طويلة... وباتا الليل كله يقطفان الورد في الظلام... كم من شوك انغرز في يديهما؟ لماذا لم يرافقهما الأخ الأصغر؟ هل يكون قد أصيب بالحمَّى الصفراء؟».

ذهب غلام برأسه العاري إلى حسين آقا وقال له: «أخي، ذهبت إلى دكانك لكنه كان مقفلًا. هلّا تكرّمت وأسديت لنا معروفًا وأرسلت لنا الشاي والسكر والزعفران؟». انطلق حسن آقا وحسين آقا ومُقطِّرا الورد. وفي ممر البستان التقوا الجار العجوز، مُقطِّر الورد، الذي كان يرتدي بدلة غلام القديمة ويلفّ على رقبته شالًا أسود. توقفوا وتكلّموا مع العجوز ثم عادوا جميعًا أدراجهم من الطريق ذاته التي جاء منها العجوز.

توقفت عربة على عتبة باب البستان فأزمعت زَرِي على أن تهرع لاستقبال الدكتور عبد الله خان وتجعله يقنع الجميع بأنَّ «السيدة زهراء لم تصب بالجنون، لكن حالتها مضطربة وحواسها مشتّتة. لا تبتدروها بأعينكم كثيرًا ولا تحدّقوا في فمها، وإلا سوف تتسببون لها بالجنون!»، لكن فردوس هي من ترجّلت من العربة تمسك بيد عِزَّت الدولة التي وضعت رجلها على ركاب العربة. ترجّلت عِزَّت الدولة بصعوبة واستندت على فردوس وشقّت طريقها

في ممر البستان تعرج إلى أن وصلت عند زَرِي التي كانت تقف مندهشة أمام مدخل البناية الآجري في البستان. كان الصباح في أوله، وما أن همّت زَرِي بالخروج من حالة الدهشة التي انتابتها لرؤية عِزَّت الدولة في هذا الصباح الباكر حتى طوّقتها من عنقها وراحت تقبّلها وتقول:

«كان وقع الخبر ليلة أمس مفاجئًا أفقدني تركيزي فانصرفت دون أو أودعك. لم أعرف أساسًا ما قلتُ وما فعلتُ؟ نام الجميع لكني لم أعرف للنوم طعمًا. أنت مثل ابنتي. كنتُ أنا وأمك المرحومة روحًا واحدة في جسدين. كانت دومًا تقول لي: عِزَّت الدولة أنا راحلة، سأعهد بابنتي إليك. واحسرتاه، وا أسفاه!».

جلست على ذات التخت الذي كان جثمان يوسف مكوّرًا فوقه ليلة أمس، وقد فُرش الآن. دلكت رجلها وسألت: «أين أختي؟». كانت تلبس السوداء من الرأس إلى القدم؛ القفازات، الوشاح، الجوارب... متى سنحت لها الفرصة لصبغ شعر رأسها بالأسود؟ ما الداعي لذلك أساسًا؟ أردفت عِزَّت الدولة:

«قلت لفردوس، لنتحرك في الصباح الباكر... قد نقدم يد مساعدة أو شيئًا... ما جدوى الأخوّة إذن؟».

تعقّلت زَرِي وركّزت على ألا تتفوه بما يجول في فكرها. لو اتهمتها هذه الأخرى بالجنون فأمرها منته. فكّرت بغصّة: «سوف تدّخر كلامها عن عائلة الحاكم لأسبوع آخر».

قالت عِزَّت الدولة: «عزيزتي، فداك روحي! ما هذه

الثياب التي تلبسينها؟ ملابس ملوّنة ولامعة. أمام الناس عيب! إنها ضيقة عليك أيضًا».

كانت زَرِي محدّقة في الباب ولم تجبها. تابعت عِزَّت الدولة كلامها: «بنيّتي العزيزة، لمَ حواسك مشتّتة؟ اذهبي واخلعي قميصك –كما تفعل السيدات الجميلات- وأعطيه لفردوس كي توسّعه. القميص بالتأكيد قابل للتوسيع. سوف تفتقه... ».

فكّرت زَرِي في نفسها: «إنها تميّز كل شيء بعينها الحولاء هذه» لكنها لم تتحرك من مكانها. قالت عِزَّت الدولة: «كدت أنسى، لقد أحضرت لك شيئًا سوف يدخل السرور على قلبك. تذكار زوجك المرحوم... لا، أنت لست منتبهة وغير مركزة معي تمامًا... انظري».

اضطرت زَرِي لتزيح عينها عن باب البستان والنظر إليها. أخرجت عِزَّت الدولة من محفظة يدها علبة صغيرة كانت ملفوفة في ورق أبيض وأعطتها لزَرِي. أمسكت زَرِي العلبة في يدها ولم تعرف ماذا تصنع بها، ثم عادت للتحديق في باب البستان من جديد. قالت لها عِزَّت الدولة ساخرة: «افتحيها!».

مزقت زَرِي الورق بكل تلقائية. كانت علبة مخملية سوداء. فتحتها، كانت أقراطها تلمع داخل العلبة. انقبض صدرها. قرطاها اللذان علقهما يوسف بيده في أذن زوجته ليلة زفافهما. كان لون يوسف في الضوء كلون الزمردتين تمامًا.

ابتسمت عِزَّت الدولة وقالت: «كنت أعلم أنك سوف تفرحين. ذهبت ليلة أمس من هنا رأسًا إلى بيت الحاكم. قلت أنا فرّطت في قرطي ابنتي وعليَّ

أن أسترجعهما».

قالت زَرِي: «من تخدعين!»، ثم أطبقت عينيها. كانت تشعر بدوار في رأسها.

لم تكترث عِزَّت الدولة ولم تتفوه بكلام بذيء أو غليظ. نادت: «يا فردوس، ابنتي مشوّشة البال بفعل الصدمة. مسكينة! خذيها إلى الغرفة فالملابس الضيقة مضرّة بالمرأة الحامل». رفعت يديها إلى عينيها وبكت ثم هدأت وأرشدت زَرِي بعطف أموي: «زَرِي، ضعي الأقراط في مكان آمن فهذا المكان سيكون مزدحمًا اليوم».

انطلقت زَرِي مثل إنسان آلي تغيّر مكان زنبركه وعلاه الصدأ وتراخت قطع غياره. أمسكتها فردوس من يدها كي لا تسقط. ذهبتا إلى غرفة النوم. خلعت ملابسها ووضعت العلبة المخملية على تسريحة التجميل ثم تمدّدت على السرير.

«أين علبة الخيط والإبرة؟» سألت فردوس.

قالت زَرِي: «لا أعلم». كانت تشعر بدوار في رأسها واضطراب في بطنها. فكّرت: «مؤكد أنَّ بداية الجنون تكون على هذا النحو!».

كانت تودّ لو تظل فردوس صامتة، لكنها كانت تتكلم. قالت: «السيدة زهراء، جيد أن نكون وحيدتين. كل ما يمكن أن تقوليه عن هؤلاء فهو صحيح».

فكّرت زَرِي: «ليتك انكتمت!».

«هل أنت معي؟» سألت فردوس.

«لا».

«أريد أن أقول لك، وأنت في وعيك، أنَّ الأم وابنها لم يناما ليلة أمس، كانا يعدّان خطّة لك. أنا جلست على السطح متيقّظة وفتحت أذني. الله أكبر! في منتصف الليل صبغت شعر رأسها وخضّبته بالحناء... حمدًا لله أنهم لا يدّعون الألوهية».

لم تقل زَرِي شيئًا لكنها كانت متنبِّهة. عثرت فردوس على علبة الخيط والإبرة وشرعت في فتق ثنايا القميص. فكّرت زَرِي: «يا لها من امرأة شاطرة!».

واصلت فردوس كلامها وهي منشغلة بالفتق والرتق: «لمّا جاءت السيدة قبّل حميد خان يدها ورجلها وقدّم لها فروض الطاعة والولاء.. المهم قال لها: «أمي، يجب أن أحصل على هذه المرأة مهما كان الثمن... أستغفر الله كان يقول: كان يفكّر بك في كل ليلة ينام فيها مع زوجته. كان يقول إنه أنجب أطفاله الثلاثة وهو يفكّر فيك. العياذ بالله! العفن المنتن كان يتغزّل فيك. لو تعلمين ما كان يقول فيك...».

لم تكن زَرِي تريد أن تعرف لكن فردوس قالت: «حسنًا، لن أطيل عليك بالتفاصيل... لم توافقه السيدة. قالت إنَّ فألكِ سيء. وقالت: هل يسمح أخو زوجك لحميد خان بأن يضع يده على ممتلكاتك؟ قالت إنك حامل ولا يستطيع أحد أن يعقد على حامل. قال حميد خان سوف أنتظر...».

لو لم يأت غلام ويطرق باب غرفة النوم ويخبر

بوصول الدكتور عبد الله خان لكانت زَرِي قد استفرغت. قالت لغلام: «لينتظر دقيقة حتى أغيّر ملابسي»، وقالت لفردوس: «السيدة فردوس أسرعي».

«في الحال» لكنها لم تكن لتكفّ عن الكلام. تركتها زَرِي تكمل فالدكتور عبد الله خان جاء الآن وأراح بالها سواء هنا أو هناك.

قالت فردوس: «توسّل إليها كثيرًا حتى رضيت في النهاية. قال: إذن تحرّكي أمي من الغد... يا للكذب! يا للكذب الذي لفّقته أمام عيني. قطعوا سرّتها بالكذب. كم تصنّعت من حبّ وعطف تجاهك. لا تنخدعي بها! إنها متعطّشة لدمك... انتهى الأمر».

ناولت زَرِي القميص فارتدته وتنفست الصعداء. ربما كانت تشعر بالدوّار بسبب ضيق قميصها...

تطلّعت فردوس إلى زَرِي تتصفّح قامتها بعينيها، وأكملت كلامها: «هي لم تذهب رأسًا إلى بيت الحاكم. أجبرها حميد خان على الاتصال بابنة الحاكم بالهاتف. عوّضوها عن الأقراط بطقم مجوهرات واستلموا الأقراط. زوجي الديّوث كَرْبَلائِي عباس هو من نفذ عملية التبادل».

قالت زَرِي: «سلمت يداك، والآن اذهبي وأخبري الدكتور أني جاهزة».

دلف الدكتور عبد الله خان متكئًا على عكّازه. كان يبدو أكثر انكسارًا من ذلك اليوم الذي رأته فيه في غرفة السيدة مَسِيحَادَم. أو لربما لم تره زَرِي، يومذاك، بشكل جيد. جلس الدكتور على السرير إلى

جانب زَرِي وأمسك يدها بيده وقال لها:

«أختاه، ما فائدة أن يصل المرء إلى عمري؟ فحينما يموت شاب لطيف مثل زوجك فإني أُبغظ نفسي وأقول لها: يا عجوز، أنت تتمسّك بالحياة بكلتا يديك والشباب يموتون... ».

قالت زَرِي بكمد: «زوجي لم يمت. قتلوه».

«أعلم، لقد حكى لي ابنك كل شيء في الطريق. أبارك لك هذا الولد الذكي، بوسعه أن يملأ عليك خلأ أبيه. وفقكما الله». أمعن قليلًا ثم أردف: «أنا العجوز لا يجب أن تطأ قدمي بيتًا فَقَدَ مثل هذا الشاب. لقد تلاشيتُ وخارت قواي. لأصحاب العزاء كل الحق في أن ينظروا إلي ويهزّوا رؤوسهم ويقولوا لي من دون لغة: أيها العجوز، أنت حيّ وشابّنا شهيد».

«لا أحد ينظر إليك هكذا. أنت بركة الزمان!».

رفع الدكتور عبد الله خان يد زَرِي التي كان يمسك بها وقبّلها فسحبت يدها منه خجلًا. تنهّد العجوز وقال بنبرة هادئة وعميقة:

«لا أعرف أين قرأت أنَّ الدنيا مثل غرفة مظلمة أدخلونا إليها بأعين مغمضة. من الممكن أن يكون أحدنا فاتحًا عينيه، ومن الوارد أن يحاول عدد منا فتح أعينهم بكل ما أوتوا من جهد، أو من الممكن أن يُقبل الحظ السعيد على أحد فيسطع، فجأة، نور من منفذ يتيح له أن يرى للحظة ويفهم. زوجك من أولئك الأشخاص النادرين الذين نسوا منذ البداية إغماض أعينهم. ظلت عيناه وأذناه مفتوحتين. خسارة لأنَّ فرصته كانت قصيرة!».

كان يتحدث مثل شخص فهم كل شيء وأدرك كنهه. فلو كان للإله وجود فقد تجلّى له، خلال عمره الطويل، وإن لمرة واحدة...

أردف العجوز: «قلت للسيدة قُدْس السَّلْطَنة مرارًا إنَّ أخاك هذا إنسان من معدن أصيل، وصل إلى الإدراك والمعرفة».

«أنتَ أيضًا تتمتع بالمعرفة و... ».

قاطعها الدكتور عبد الله خان: «الآن احكي لي ما أخبارك؟ كان ولدك يترجّاني لمعاينتك. قلت: له ولدي العزيز أنا مستعد أن أذهب إلى أقصى الدنيا من أجل زوجة رجلٍ مثل أبيك. فضلًا عن ذلك فأنا أحب أمك... هي أيضًا امرأة عظيمة... ».

لم تجد زَرِي في نفسها من أجل قول الحقيقة للدكتور عبد الله خان خوفًا ولا إباءً ولا خجلًا. قالت:

«منذ ليلة أمس وأنا مضطربة، لا أدرك حواسي. أخشى أن أُجنّ... تجتاحني الوساوس من أن أقلّد حركات المجانين الذين زرتهم»، ثم نشجت بالبكاء وقالت باكية: «قضيت ليلة أمس أسيرة الكوابيس. حقنتني السيدة الحكيمة بثلاث حقن، لكن من دون فائدة. لم يغمض لي جفن. كانت ترتسم أمام ناظري مشاهد مرعبة، وكنت أهذي. ومنذ الصباح إلى الآن أشعر بدوار في رأسي».

نهض العجوز ووقف بجانب النافذة وألقى نظرة إلى البستان، وقال وهو مولٍّ ظهره لزَرِي:

«لا أريد أن أسمعك ترددين هذا الكلام ثانية. لو كنت مضطربة أو حتى كنت تهذين فلديك كامل

الحق. والسيدة الحكيمة لم يكن بمقدورها أن تحقنك بالمسكّنات. لقد حقنتك بالكافور لتقوية قلبك، والحقنتان الأخريان كانتا ماء مقطّرًا... ».

عاد وجلس بجانب زَرِي فسألته ببراءة: «أنت تقول إني لم أُجنّ؟».

«على الإطلاق».

«ولن أُجنّ؟».

«أعدك بذلك».

حدّق في عين زَرِي وأردف بنبرة مواسية: «لكنك تعانين من مرض خطير علاجه ليس بيدي. مرض معدٍ. يجب أن تجتثيه قبل أن يصير مزمنًا. أحيانًا يكون وراثيًا».

سألته زَرِي: «السرطان؟».

«كلّا عزيزتي، لماذا لست منتبهة؟ مرض الخوف. الكثير يعاني منه. قلت إنه معدٍ».

أمسك بيد زَرِي مجددًا وأضاف مثل قدّيس: «لقد وصلت شمسي إلى حافة السطح، لكن عزيزتي اسمعي من هذا العجوز. كل شيء في هذه الدنيا بيد الإنسان نفسه، بما في ذلك الحب والجنون والخوف. فالآدمي، لو شاء، يستطيع أن يزحزح الجبال وأن يُيبِّس المياه. يستطيع أن يخلّ بنظام الكون والفضاء. فالآدمي حكاية، ويمكنه أن يتلون بألوان كل الحكايا؛ حكاية حلوة، حكاية مرّة، حكاية قبيحة... وحكاية بطولية... بدن الآدمي ليّن لكن لا وجود في هذه الدنيا لقوّة تضاهي قوته الروحية

شريطة أن يتمتّع بالإرادة والمعرفة».

تأمل هنيهة ثم دسّ يده في جيبه وأخرج زجاجة خضراء ذات سدادة بيضاء، وناولها زَرِي وقال:

«هذه الزجاجة تحوي نوعًا من الملح. ضعيها في جيب لباسك وكلما أحسست باضطراب افتحيها واستنشقي منها. واشربي كوبًا من عرق البيدمشك والحلوى». استوى واقفًا وقال: «أعلم أنك سيدة، سيدة واقعية. وأعلم أنك من القوة والشجاعة بحيث لا تفرين أمام الواقع المرّ. أريدك أن تبرهني على أنك كنت جديرة بمثل هذا الرجل».

تناول عكّازه، الذي كان قد علّقه على حافة السرير، وقال: «إذا كان هذا الخبر سيفرحك، فافرحي إذن. أول أمس غادرت السيدة مَسِيحَادَم دار المجانين. تحسّنت حالتها كثيرًا وإلى أن يحين موعد وضع حملك ستكون في أفضل حالاتها».

غدت زَرِي مثل طائر أطلق سراحه من القفص؛ فقد ناداها عالمٌ بالأسرار وبشّرها، فأضاءت في ذهنها ألف نجمة بدل واحدة. صارت تعلم أنها لن تخشى أي أحد أو أي شيء في هذه الدنيا.

ذهبا سويًّا إلى البستان. كان جناب الأخ جالسًا على سرير الأولاد مع ملك رُسْتَم ومجيد خان. لمّا رآهما استوى واقفًا وجاء ناحيتهما. أرمش وقال:

«حسنًا دكتور، ماذا رأيت؟ وماذا فهمت؟».

«إذا كنت تقصدني بالسؤال فزوجة أخيك قد أبانت عن قدرتها على الوقوف على رجليها. اضطرابها واختلالها أمر طبيعي بالكامل.

وهل الموضوع مزحة؟ فقط أنتم المقربون لا تضايقوها؟».

شيّعت زَرِي الدكتور حتى باب البستان وكانت تبحث في ذهنها عن الكلمات التي تليق بشكر العجوز لكنها لم تجدها. ربما أدرك العجوز ضعفها، أو ربما أراد أن يحثّها على التحمّل، أو ربما لأجل قلبه هو، اندفع مترنّمًا بهذا الشعر:

«اصْبِرْ يَا قَلْبُ وَصَابِرْ فَمَا كَانَ لِلحَقِّ أَنْ يَدَع دُرَّةً مَكْنُونَةً مِثْلَ هَذِه بِيَدِ شَيْطَان»

كانت زَرِي تعلم أنَّ الدكتور عبد الله خان ينتمي إلى جماعة الحافظيين الذين يُحيون ليلة كل جمعة في مزار حافظ بقراءة الشِّعر. أجل إنهم يحتسون الخمر أيضًا، ويُهرقون فضلة على قبر حافظ. لديهم أيضًا الموسيقى والطنبور...

قالت بهدوء: «اقرأ المزيد من الشعر. الشعر الذي يمنحني قوة القلب». افترت شفتا العجوز بابتسامة وأنشد:

«لِنَشْحَذ عَزْمَنَا عَمَلًا وَإلَّا لَقِينَا -يَوْمَ نَشُدُّ الرِّحَالَ إلى العَالَمِ الآخَر- خَجَلا»

توقف تحت شجرة الدَّرْدار في منتهى البستان ليستردّ أنفاسه، وقال مُوضِّحًا: «لم أقرأ هذا الشعرَ لك، بل لنفسي».

قالت زَرِي: «أنت شحذت عزيمتك في هذه الدنيا بالعمل. حكايتك حكاية بطولية، لكن حكاية زوجي المتعوس كانت حكاية حزن غير مُنتهية». واتكأت على الشجرة مسلوبة الإرادة، ووضعت يدها على

جبينها وأجهشت ببكاء هادئ. انهمرت عبراتها الحارّة على وجهها وعلقت بقفاها.

23

جاؤوا لتشييع الجنازة. وصل أولًا أهل العشيرة والأقارب والمعارف. خُصص القبو للنساء والصالة للرجال. كانت عِزَّت الدولة جالسة في صدر المجلس وفردوس تقوم بالخدمة وقد ارتدت قميصًا أسود ملتصقًا يصفُ جسدَها، واتخذت مظهرًا حزينًا. كل من كان لا يعرفها يظنّ أنَّ عِزَّت الدولة هي صاحبة العزاء، إذ لم تكن تفتر عن توجيه الأوامر، وكلما وقعت عينها على وافدة جديدة تشرع بالكلام؛ عن شباب يوسف ومصيبته، عن جماله وإدراكه، عن تحدُّثه بالإنجليزية مثل بلبل، عن رحيله عن أولاده الأبرياء وزوجته. كانت تحكي وتحكي وتبكي بصوت عال. أحيانًا كانت تلطم صدرها، لكن بهدوء... كانت زَرِي في كل آن تشتمُّ من الملح الذي أعطاها إياه الدكتور عبد الله خان حتى لا يغالبها البكاء بعد كلام عِزَّت الدولة. لم تكن العمَّة موجودة. ولمّا شرعت عِزَّت الدولة بترديد: أمي أمي! بنيّ بنيّ! وبالحديث عن شجرة سرو قُطعت جذورها وانقلبت فوق الأرض... خرجت زَرِي من القبو.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف صباحًا حين وصل أصدقاء جناب الأخ. لم يعُد بالصالة مكان شاغر، فجلسوا على أسِرَّة الأولاد في الباحة. وقبالتهم جلست زَرِي على التخت بجانب أكياس الورد الأحمر والنسرين الموضوعة على حافة الحوض. كان الحوض، ساعتها، مُترعًا بالماء الزُّلال.

دخل حسين آقا وحسن آقا يحملان على كتفيهما

كيسين وعبرا من أمام أصدقاء جناب الأخ بحثًا عن مسلك يفضي إلى حجرة التخزين. كان يتبعهما الجاران المُقَطِّران يحمل كل واحد منهما على كتفه قنينة زجاجية. ومرة أخرى لم يكن معهما الأخ

الأصغر. بعد ذلك دخل ثلاثة رجال يحملون على أكتافهم أوعية نحاسية فارغة. اغرورقت عينا زَرِي لرؤيتهم.

خرج جناب الأخ من الصالة وانضم إلى أصدقائه. كان رجل أسود البشرة بدين يتحدث بهدوء والآخرون يتابعونه والقلق بادٍ على وجوههم، ومدير جريدة المدينة يهزّ رأسه، والوكيل السابق يُمرّر خرزات السِّبحة بسرعة.

قصدَتْ فردوس زَرِي بصينية مملوءة بكؤوس الشربات، وقالت لها: «اشربي أنت أولًا. فهذا كأس عرق البيدمشك مُضافًا إليه مسحوق الحلوى... أرأيت كيف تردد "يا أمي أنا غريبة!" والآن صارت تتظاهر بالإغماء».

تناولت زَرِي كأس الشربات وسألتها: «كيف عرفت أنَّ عليّ شرب عرق البيدمشك والحلوى؟».

«أرسلتني السيدة لأسترق السمع. تُريد أن تعرف فيمَ تفكّرين... أنت لست مثلي لا مُورِّث لك... سألتني ماذا كانت السيدة زهراء والدكتور يقولان طوال هذا الوقت؟ قلت لها: سيدتي أنا لم أستوعب حرفًا واحدًا من كلامهما. كانا يتهامسان. ما فهمته أنَّ الدكتور كان يقول إنَّ الدنيا مثل بيت مُظلمٍ صورها كلها معكوسة، ونحن فيها جميعًا حيارى

وتائهون... قالت السيدة: قتلك الله وأراحني من رأسك الحماري. يا لخسارة الوقت الذي أضاعته امرأة جليلة ومُبجَّلة مثلي في تربيتك... السيدة زهراء، لو بقي في عمري يوم واحد فقط سوف أنتقم لنفسي منهم. كانت الفرصة مُواتية لمّا كانت أمي في السجن...».

قاطعتها زَرِي: «خذي الشربات للرجال، سوف يذوب ثلج الشربات».

اتجهت فردوس صوب أصدقاء جناب الأخ. قال أمين السِّجلات، الذي كان يُشبه الصينيين، لفردوس كلامًا ضحكت على إثره.

ذهب غلامٌ ليستقبل رجالًا سودَ الثياب لم تكن زَرِي تعرفهم. فتحوا الطريق وأفسحوا المجال لحمَّالَيْن اثنين كانا يحملان فوق رأسيهما الشَّمعدان والثُّريا، فتقدَّما ينضحان عرقًا، حتى وصلا إلى الحوض فساعدهم الرجال على إنزال حِملهما على أحد التخوت. دلف رجلٌ شبه عارٍ، كان يحمل على كتفيه "لوحة العزاء"(03) موشّاة بأزهار وشقائق وشالات حريرية تترجرج أمام اللوحة، وانحنى باحتراس شديد وأدخل اللوحة من باب البستان. كان الرجال يتابعون المشهد من شبابيك الصالة، فيما النساء خرجن من القبو للتفرُّج، لكن عِزَّت الدولة لم تكن بينهن.

وإلى حدود الساعة التاسعة إلى التاسعة والنصف كان البستان قد امتلأ عن آخره بالرجال سود الثياب وما زالوا يتقاطرون على شكل هيآت. كانت

آخرها هيئة أصحاب السلاسل وأصحاب حِجْلَة القاسم(02)، وبرؤيتهم همَّت زَرِي بالنُّواح لكنها تمالكت نفسها وأخرجت من جيبها قارورة الملح وانشغلت بفتح سدادتها.

قصدَها أصحاب جناب الأخ؛ كان الوكيل السابق قد قصَّ شعر رأسه الأبيض ولم تعُد السِّبحة في يده. وأمين السِّجلَّات كان بحق يشبه الصينيين. أما مدير الجريدة فأمسك بيد زَرِي وقال إنهم جميعًا مُضطرون للذهاب إلى مقر المحافظة للمشاركة في اجتماع تشاوري حول خبز المدينة، واعتذر لها عن البقاء إلى حين تشييع الجنازة، لكنهم يتقاسمون الحزن مع زَرِي وأبو القاسم وحضرة السيدة المُبجَّلة قُدْس السَّلْطَنَة، ويتمنون للبقية طول العمر ونهاية الأحزان... كان الآخرون يُنصتون، ولمّا أكمل كلامه انصرفوا جميعًا. غير أنَّ مدير الجريدة لم يطلق يد زَرِي وقال لها هامسًا:

«يجب أن تعذريني إذ لم أنشر خبر الحادثة في الجريدة، وقد نشرت إعلان التأبين إكرامًا لوجهك البهي وتقديرًا لصديقي أبو القاسم».

سحبت زَرِي يدها من يد مدير الجريدة وقالت بمرارة: «إعلان التأبين مسموح به دائمًا».

لحظات بعد ذلك، جاء جناب الأخ وجلس بجانبها. كان لونه مُمتقعًا بشكل فظيع وأطراف منخريه ترتعش. رقَّت عيناه بصعوبة هذه المرة وقال: «زوجة أخي، أنت أعقل منهم جميعًا. من أجل

مرضاة الله تحركي وقولي شيئًا لهؤلاء الحمقى. أختي الخرقاء

لا تعي شيئًا، إنها تلهب نارهم. تقول: أريدكم أن تحوِّلوا مدينة أشباه الكلاب هذه إلى كربلاء، فيردّ عليها أوباش المدينة بالتهييج والتحريض». ولأنها لم تلتفت لكلامه اندفع بالتماس: «زوجة أخي، بحق روح ذلك المغدور، تحرّكي».

ذهبا معًا إلى غرفة خُسْرو حيث اجتمع أوباش المدينة -على قول جناب الأخ-. كان ملك رُسْتَم ومجيد بربطتي عنقهما السوداوين واقفين أمام باب الغرفة. نظرت زَرِي إلى الحاج محمد رضا الصبّاغ الذي كان مقرفصًا على عتبة الباب وطالت نظرتها الآخرين أيضًا. كان سيد محمد وحسين وحسن مولين ظهورهم إلى النافذة. تعرّفت ما شاء الله قَرّي الذي كان طويل القامة ومربوعها. لم يكن فتوحي يضع ربطة عنق وكان السيد مُرْتَضَاپي يرتدي ملابس الملالي خاصته. كان هؤلاء الثلاثة جالسين على سرير خُسْرو. وكان هناك أيضًا نفر من حلفاء يوسف مع بضعة رجال سود الثياب لم تكن زَرِي تعرفهم، كانوا جالسين على الكراسي التي جلبوها من الصالة. كانت السيدة فاطمة واقفة خلف طاولة خُسْرو مشرئبة بوشاحها الأسود الذي ربطته على رأسها، تمامًا كالمقنعة. لم يكن واحد من الرجال حالقًا لحيته.

قال جناب الأخ: «هذه زوجة المرحوم، نفِّذوا كل ما تأمر به. لقد عطّلتم البازار وأقفلتموه. أمَّا أن نطوف بالجنازة حول ضريح "شَاهْ تْشِرَاغ"، وتقيم الهيئات مراسم اللطم على الصدور والضرب بالسلاسل في

صحنه، ويؤم السيد مُرْتَضَاپي الناس في صلاة الجنازة ثم يقف في الشرفة ليلقي موعظة، فلا تفكّروا في ذلك أبدًا. العياذ بالله. مع تواجد الجيوش الأجنبية في المدينة... ستندلع الفتنة... أحضرتم هؤلاء الناس إلى هنا بلا جدوى...».

تلفّت مجيد إلى زَرِي وقال: «السيدة زهراء، أنت تعرفين أننا تعاهدنا مع يوسف. لقد قتلوه الآن، ويريدون منا أن نقف مكتوفي الأيدي ولا نشيّع جنازته حتى. أنتِ أيضًا...».

لم تدعه زَرِي ليكمل كلامه فقالت: «لقد قتلوا زوجي برصاص الغدر والجور. أقل ما يمكن فعله هو مراسم العزاء، فالعزاء ليس ممنوعًا. كنا في حياته نخاف ونحاول إيخافه، لكن الآن ممَّ نخاف وهو ميت؟ بالنسبة إليَّ فالسيل قد بلغ الزبى...».

كان صوتها يرتعش. أدنت زجاجة الملح من أنفها وتنشّقت الرائعة المنعشة.

قال جناب الأخ: «أحسنت يا زوجة أخي... يا للعجب، لقد بيّضت وجهنا! لماذا لا تستوعبين يا امرأة؟ حين تتحرّك كل هذه الحشود ويؤجج أحدهم شرارة الفتنة، من الذي يستطيع أن يوقفهم بعد ذلك؟».

قالت العمَّة: «جناب الأخ، هذا أنت وهذه جنازة أخيك. لا تقعد وتتفرّج على دمه يُداس تحت الأقدام». نظرت إليها زَرِي مستحضرة حضرة زينب.

قال جناب الأخ: «لديّ معلومات مؤكدة أنهم سيوقفونكم، آنذاك ستحدث مجزرة. أنا لن أسمح

بذلك. ذلك المغدور لم يكن ليرضى بإيذاء نملة حتى. كان يعامل خُدَّامه كأنه أخوهم الأكبر... لا تعذّبوا روحه!».

استلّت زَرِي آهة وقالت: «إذا كنتُ أنا قد عشت معه أربع عشرة سنة فإني أعلم أنه كان على الدوام... عن الشجاعة... عن الحق...».

رفعت الأفعى، التي تسلّلت إلى قلبها يوم أمس والتفّت عليه، رأسها لتلسع، فاعتصر حلقها غصّة لم تستطع معها إكمال صياغة جملتها، لكن مصابيح ذهنها كانت مضيئة وكانت موقنة بألا أحد في هذه الدنيا سوف يستطيع إطفاءها. ابتلعت ريقها وقالت:

«قوموا بكل ما تريدون القيام به، وفي هذا اليوم... إذا لم تفعلوا اليوم فلن تكون هناك فرصة أبدًا».

تأملت قليلًا ثم أردفت وهي تنظر إلى جناب الأخ: «لقد وصلتُ اليوم إلى هذه النتيجة، يجب أن نكون شجعانًا في الحياة ولأجل الأحياء... لكن للأسف لم أدرك هذا إلا في وقت متأخر. إذن لكي نعوّض عن هذا الجهل، فلتسمحوا بأن نبكي بحرارة وحرقة على موت الأبطال».

همهم سيد محمد: «الرحمة على أسدك الطاهر!».

اندفع الرجال سود الثياب الذين لا تعرفهم: «أحسنتِ!».

قال مُرْتَضَايِي: «وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَاب».

قال فتوحي: «هكذا سوف نبرهن على أننا لم نمت

بعد، وأننا نعرف قدر الدم الذي أريق».

قال ملك رُسْتَم: «غدًا أو بعد غد يحين دور أخي. سوف يقبضون عليه في تلك الجبال القائظة القاسية، وسوف يجرجرونه إلى المدينة بالبوق والنّفير، وسوف يشنقونه بتهمة التمرّد ويذهب الجميع للتفرّج».

أفرغ جناب الأخ سمومه كلها على ملك رُسْتَم أمام الملأ: «تتحدّث وكأنَّ أخاك ابن نبي من أنبياء الله. بالتأكيد سوف يعدمونه. لم ينس أحدٌ مجزرة الإخوة في سَمِيرَم، وكم من أموال نُهبت من أموال الدولة! وكم قُتل من أناس أبرياء! لو كان حكم القصاص يجري في هذه الدنيا، فعليه أن يؤدي ثمن تلك المجزرة... ». رقّت عيناه بصعوبة بالغة ثم واصل: «إلى هذا الحد يحب الجاه والوجاهة ويطلبهما! كل يوم يتقلّب في لون؛ فيوم هو غلام للألمان، ويوم ثان خادم للإنجليز، ويوم آخر ضدهم! مثل شمر ذي الجوشن(01)...».

قاطع ملك رُسْتَم كلامه: «إذا أدرك الإنسان الحي خطأه فإنه يكفّر عنه... لكن لا الوقت مناسب الآن لمحاكمة ملك سُهْراب، ولا أنت القاضي الذي سيحاكمه».

قال جناب الأخ مُتهكّمًا: «أما أنت فقد بدوت أمام الناس بمظهر تافه ومنحطّ، لو كنتُ مكانك لتلفّعت بشادور صلاة وتسلّلتُ إلى الجبل عبر باب البستان الخلفي...».

فار الدم العشائري في عرق ملك رُسْتَم واندفع

بخشونة: «لكن هناك من يتلفّع بشادور أسود ليذهب لملاقات القنصل في القنصلية. أما أنا وأخي فنتخفّى في شادور الصلاة عن أعين أعوان القنصل وأنصاره».

قال فتوحي: «أيها السادة! ليس الآن وقت هذه المزايدات. نحن هنا لنقرّر في شأن تشييع الجنازة. السيدة زهراء موافقة على...».

قال جناب الأخ: «لكني أعارض. طبعًا أنا ولي الأمر القسري عن أبناء أخي. زوجة أخي، تعقّلي واسمعي الكلام».

لم تقدر زَرِي على البقاء واقفة أكثر من هذا القدر فجلست على السرير بجانب فتوحي وقالت: «نعشه لا يزال فوق الأرض ولا أرغب في جدالك، لكن قيد حياته كنتَ أنت تنشب مخالبك في عنقه وكانوا هم يخنقون صوته، وكان هو يرفعه أعلى وأعلى حتى أودى بنفسه إلى الهلاك، والآن... دعوا الناس يثبتون في جنازته أنه كان على حق... ومع ذلك فالحق والحقيقة لن يموتا بموته، فهناك أيضًا آخرون...».

أرمش جناب الأخ وقال بحنق: «النساء أمثالك اللواتي يؤيدن كل ما يتفوّه به أزواجهن كالحملان الوديعة، هن من يُلقين بأيدي أزواجهن إلى التهلكة وهم في عز شبابهم».

أجابت زَرِي بمنتهى برودة الدم: «جناب الأخ، لا تدفعني للكلام، لكن هذا الدم يقع على عاتق الكثير، ومن جملتهم أنت. من الوارد أن أكون أنا أيضًا مقصِّرة».

صرخ جناب الأخ بحنق أكثر من السابق: «أنت أيضًا أطلقت العنان للسانك؟ ما أسعدني! سأقولها أمام الملأ. وضعت يدك على مال مجاني ونسيت أنَّ المرأة بِطانَة والرجل ظِهارَة، فالبِطانة هي

التي يجب أن تحافظ على قيمة الظِّهارة. وأنت طبّلتِ وزمّرتِ لكل ما قاله ذلك المغدور».

أحسّت زَرِي بأنَّ الأفعى التي أفاقت في باطنها هي التي تتكلم، ثم فكّرت: «لسان الأفعى!». قالت:

«أنت قلق على وكالتك، وتفكّر في خططك التي رسمتها لفترة وكالتك؛ إجراء عملية جراحية لعينك. وتغيير طقم أسنانك بالكامل لدى الدكتور اشتمپ... ألم تقل ذلك بنفسك؟ ولربما الزواج أيضًا».

شزرها جناب الأخ بنظرة تشي بالدهشة والحيرة وقال: «تف!»، فجأة هدأ وأردف: «أنت لم تعرفيني... أنا ذاك الرجل الذي لمّا ماتت زوجته... ست عشرة سنة كاملة بلا زوجة أو حبيبة، وحيدًا على فراش النوم...».

أرادت زَرِي أن تقول له: «وماذا عن زوجات متعتك، مثنى وفرادى... وماذا عن تلك المرأة الإسكافية التي تدهن بدنها بالعقار في الحمَّام كي تسمِّنه...».

كانت قد تنازلت عن حياتها، وكانت في حالة لو أعطوها بندقية وتجيد طريقة استخدامها لما تردّدت في الضغط على الزناد. نهضت وقالت:

«قبل لحظات فقط... أمين سجلَّاتكم...».

توسَّط مجيد خان وقال: «أرجوكما... أتوسّل إليكما... السيد أبو القاسم خان، السيدة زهراء، هل

هذا أوان هذا الكلام؟».

أشار فتوحي على الجميع بالسكوت وقال: «لا تضيّعا وقت الجميع في النبش في الحياة الخصوصية لكل واحد منكما. اسمحا لي أن نطرح القضية بطريقة أخرى، فقتل يوسف خان بالنسبة لكما موضوع خصوصي، لكنه بالنسبة لنا قضية اجتماعية...».

قاطع أبو القاسم خان كلام فتوحي قائلًا: «أحفظ البقية. تريدون أن تستغلوا هذا القتل وتحقّقوا أكبر قدر من المكاسب الممكنة. تريدون إثارة الفوضى في المدينة واقتياد الناس الأبرياء إلى نحورهم. هناك على الجادّة ركنت بضع شاحنات غاصّة بالجنود، ومع الجيوش الأجنبية التي في المدينة… أنتم أدرى بالعاقبة».

*

أُغرق النَّعش بالورود الحمراء وأزهار النسرين وتقرّر أن يُحمل على أكتاف حسين آقا وحسن آقا ومجيد خان والسيد فتوحي ويتحرّك من ممر البستان. أصرّ ملك رُسْتَم على المشاركة بحمل النّعش بوضع كتفه تحته لكن زَرِي صرفته عن ذلك، وقالت له:

«من بين كل ما قاله، كان كلامه هذا صحيحًا، أنت بدوت بين الناس بمظهر تافه ومنحط»، ثم أقسمت عليه: «حينما ننطلق خذ شادور صلاة خديجة ولفّه على رأسك واخرج من باب البستان الخلفي بحثًا عن ملاذ آمن لك».

«لم يعد يهمّني أي شيء، فليحصل ما يحصل» قال ملك رُسْتَم.

التمس أبو القاسم خان من النساء البقاء لتناول الغذاء فبيت الدرويش لا يعدم لقمة خبز مع قطعة جبن، لكن ليس من المصلحة أن يشاركن بتشييع الجنازة، وقال لهن إنَّ حضرة السيدة الجليلة عِزَّت الدولة ستمكث في البيت.

تقدّم النَّعشَ لوحةُ العزاء والشمعدان والثّريا، متبوعًا بحِجلة القاسم. التصق أبو القاسم خان بذراع أحد حلفاء يوسف ثم أخرج من جيبه منديلًا أسود وكان يرفعه بين الفينة والأخرى إلى عينه، وزَرِي والعمَّة ترافقانه.

كان باب الإصطبل مفتوحًا. الحصان الأحمر رأسه محشو في المَعلف، أما الأنثى وسَحَر فكانا يقفان هادئين في المعبر الفرعي وخُسْرو وهُرْمُز يمسكان بلجاميهما. انتاب زَرِي الحزن لمّا رأت الخيول والأولاد.

كانت الأنثى قد زُيّنت بأثواب فخمة. غلّفوا سرجها بالكامل بقماش أسود، وعلّقوا على الأثواب الفخمة قبعة يوسف وعلى رقبتها بندقيته كأوسمة. ووضعوا على متن سَحَر ملاءة بيضاء صُبغت في مواضع منها بعصارة الخزامى، وكأنها كفن ملطّخ ببقع دم. لمّا وقعت عين الأنثى على النَّعش مطّت أذنيها ودكّت الأرض بحوافرها وكأنها تقرع طبلًا. أحسّت زَرِي كأنها تقرع قلبها ثم أطلقت صهيلًا لمرتين. بدا لزَرِي وكأنَّ الدمع انثال من عين الأنثى وسرى على

منخرها الذي اتسعت أطرافه. تذكّرت كلام المرأة متوسطة العمر التي سردت لها قصة سُووَشُون قبل سنوات عدة.

اقتاد خُسْرو وهُرْمُز الحصانين خلف حِجلة القاسم. أوصل جناب الأخ نفسه إلى الحصانين وسحب الكفن المخضّب بالدّم من على ظهر سَحَر. كوّره ورماه تحت شجرة دَرْدار. ثمَّ صفع هُرْمُز على أذنه حتى طارت النّظارة من عينيه وسقطت أرضًا وصرخ عليه: «ما هذه الترّهات! هل كل الأمور صارت بأيدي الأطفال والنساء! خذا الحصانين إلى الإصطبل، أحمقان! اللعنة... أستغفر الله، تُخرجون المرء من الملّة».

وصلت لوحة العزاء إلى باب البستان. انحنى الرجل شبه العريان. كان كتفه وظهره يلمعان عرقًا. كان الجميع وقوفًا. التقط هُرْمُز نظارته من الأرض، انتزع شظايا الزجاج من النظارة اليمنى ثم وضعها على عينه. أطلقت سيارة زامورها وتوقفت عند باب البستان. ترجّل منها جندي هندي وأخرج باقة ورد أبيض على شكل صليب مزيّنة بشريط أسود. دخل إلى البستان وتقدّم نحو الجنازة وأراد أن يضع باقة الورد على التّابوت. وقف الرجال حاملو النَّعش على أطراف أصابع أرجلهم وأبقوه في الهواء بعيدًا عن متناوله. أرخى خُسْرو لجام سَحَر وقصد الجندي الهندي وأخذ منه باقة الورد. انتزع كل الورود من الصليب ورماها للخيول فتنشّقتها ولم تأكلها. ألقى الجندي الهندي نظرة بعينيه المكوّرتين إلى

جمع سود اللباس، ولفَّ الجميع صمت وكأنَّ أحدًا غير موجود. وضع أبو القاسم خان يده على كتف الجندي ورافقه إلى السيارة وهمس له بشيء. كان واضحًا أنَّ الجندي الهندي لم يفقه شيئًا من كلامه إذ كان يرطن بلغة لم يكن يعرفها أحد ويرفع عقيرته بكلام يسمعه الجميع.

أطلقت السيارة الكلاكسون وانطلقت. وفي الأثناء دخل الابن الأصغر لمُقطِّر الورود راكضًا وهو يتفصد عرقًا ويحمل في حجره وردًا صحراويًا. أمسك خُسْرو الورود واستنشقها. انحنى حاملو النَّعش فوضع خُسْرو الورد الصحرواي على التّابوت.

أغارت أشعة الشمس على كل ركن وزاوية. خرجوا من البستان فلاحظت زَرِي أنَّ جميع الدكاكين في المعابر الفرعية مقفلة، كما استرعى انتباهها الحاج محمد رضا الذي علّق على قطعتي خشب ثوبًا صبغه بالأسود وغطّى به جانبي الزقاق بالكامل. وكان دائمًا ما يعلّق قبالة أشعة الشمس أثوابًا ذات ألوان حمراء وزرقاء وخضراء وبرتقالية، وأحيانًا أثوابًا حريرية أو قطنية مصبوغة.

كان الموكب لم يصل إلى أقصى المعبر الفرعي حين رأت زَرِي غلام من دون قبعة مع التوأمين. لمّا وصلت إليه، بصق أرضًا وقال: «اتصل محسن خان فذهبتُ لإحضارهما... ». تنحّت زَرِي والعمَّة جانبًا لتفسحا للجماعة بالمرور، لكن الجمع انتظر حتى انحنت زَرِي وقبّلت الطفلتين. كانت رزمة المفاتيح بيد مينا فناولتها أمها وقالت: «والآن خذينا معك

لنتفرج! يا إلهي، ما هذه الأضواء! ما أكثر النجوم!».

تراجع جناب الأخ القهقرى وكان قد تقدّم بضع خطوات وقال: «سوف تُسحقان تحت الأرجل. أختاه، خذيهما للسيدة عِزَّت الدولة».

قالت زَرِي: «كلَّا، يا عمَّة، اتركيهما مع فردوس».

شرعت الطفلتان بالبكاء ولم يُجْد تضرّع العمَّة والتماسها نفعًا. احتضن غلام مينا واحتضنت العمَّة مرجان وفتحت الجموع لهم الطريق ليسلكوا.

في الشارع الرئيس كان رجال الحرس إما يقفون متفرقين، أو يجوبون الشارع مثنى مثنى. وفي الزقاق الفرعي المقابل للشارع كانت تربض هناك شاحنة غاصّة بالجنود. لمّا رأى رجال الحرس هيئات المشيّعيين توقفوا أولًا للمشاهدة، ثم عندما أرادت الحشود الانعطاف إلى الجادّة صفّر رئيس الحرس فهرع رجاله واصطفّوا في الجادّة وشكلوا حائط سدّ في وجه المشيّعين، لكن لوحة العزاء

كانت قد انعطفت إلى الشارع الرئيس وراح من في المقدمة يحيّي الحشود الغفيرة التي تجمهرت على سطوح الحوانيت وعلى جنبات الطريق. أي مكبّر صوت أتى بأهالي المدينة إلى الشارع بهذا الشكل؟

جاء رئيس الحرس وصرخ على رؤوس الجمع: «أيها السادة، على الجميع أن ينفضّ باستثناء أقارب المرحوم»، وظلّ ينتظر. بينما كان جناب الأخ واقفًا موليًا ظهره للجموع. التفتت زَرِي خلف ظهرها. كان الرجال سود الثياب لا يزالون يخرجون من باب البستان جماعة تلو جماعة. علا صوت: «لا إِلَهَ إِلَّا

الله»، فاندفعت الحشود تردّد كلمة التوحيد بصوت واحد.

صرخ رئيس الحرس باسم أبو القاسم خان: «أتسمعون أم لا؟ إنَّ حضرة أبو القاسم خان من وقع الصدمة لا يستطيع أن يتكلم ليشكركم... الجو حار، إنه يستودعكم الله».

ارتفع صوت هادئ من وسط الحشود: «كلنا أهل ذلك المرحوم وأقاربه».

أشار حسين آقا الذي كان يسند النَّعش بكتفه إلى سيد محمد ليعوّضه، ثم تقدّم أمام رئيس الحرس وقال له: «جناب، لقد اغتالوا شابًّا برصاص الغدر. سوف نُقيم عزاءً في جنازته. هذا كل ما في الأمر».

صدح رئيس الحرس بصوتٍ عال: «إني أخاطب السَّادة بلغة جميلة، وأقول لكم تفرّقوا. اذهبوا إلى حال سبيلكم. افتحوا دكاكينكم. وإذا لم تفعلوا فسوف يسحبون رخص تجارتكم. هذا أمر. هل تستوعبون؟ إذا لم تنفّذوا فسنضطرّ لاستخدام القوة...».

تقدّم هذه المرة ما شاء الله قَرّي وقال: «جناب، أنت تعرف أخاك. حينما يتكلّم يثبت على كلامه. نحن لا نبتغي فتنة. أقمنا عزاءً لابن بلدتنا. تصوّر أنَّ هذا المكان كربلاء وأنَّ هذا اليوم عاشوراء، هل تريد أن تكون الشِّمر؟!».

صدح أحدهم: «يا حسين!»، فأطلقت الجموع صرخة مدوّية وردّدت بصوت ممطوط: «يا حسين!».

فكّرت زَرِي بغصّة: «أو اعتبر أنه سُووَشُون، وأننا

أقمنا عزاءً لسِيَاوَش».

انتفض رئيس الحرس غضبًا وضجّ: «قلت تفرّقوا. سأضرب ثريّاكم وأكسرها»، وقام بحركة تجاه الثريّا التي كان يحملها رجل فوق طبق على رأسه. كان الرجل يقف مصطفًّا بجانب صفّ الحرس في الجادّة. ضرب مرافق حامل الثريّا بمرفقه على يده وهمس في أذنه، فتحرّك الرجل ناحية اليمين وتوقّف جنب ساقية الماء الجافة حتى أصدرت الحلقات الزجاجية صوت "جْلِنْك جْلِنْك".

تراجع رئيس الحرس ولوّح بيده إلى شاحنة الجند الرابضة في الزقاق المقابل. جأر محرّك الشاحنة فانطلقت. دارت وتوقّفت في أعلى الجادّة أبعد من لوحة العزاء محدثة ضجيجًا وجلبة. حدّقت الحشود في حركة الشاحنة. ترجّل منها ضابط سمين يتفصد وجهه عرقًا، يحمل ثلاث نجمات على كتفه. اقترب من رئيس الحرس وتوقف أمامه وقال:

«يشهد الله أني لا أريد أن يسيل دم أنف أيٍّ منكم. نحن أيضًا لدينا زوجات وأولاد. انطلقوا إلى عملكم وتجارتكم».

اكتسبت الحشود مزيدًا من الحيوية والطاقة من مرونة الضابط. تقدّم ما شاء الله قَرِّي وقال: «جناب الرائد، أنت تعرف أخاك. طالما أخوك معهم فلن يسمح بأن تُمسّ شعرة واحدة من رؤوس أخواته وإخوانه. سوف نحمل الجنازة إلى "شَاهْ تْشِرَاغ"، ونطوف بها، ونؤدي هناك مراسم اللطم على الصدور والضرب بالسلاسل...».

نطَّ الضابط من مكانه بسرعة خاطفة: «"شَاهْ تْشِرَاغ"! مخّ المدينة؟ ومن أعطاكم هذا الإذن؟ ألا تعون الكلام الليّن؟ هيّا انطلقوا إلى أعمالكم».

سار بضع خطوات في الجادّة وبإشارة من يده طلب من الجنود التحرك. ترجّل الجنود واحدًا واحدًا ببنادقهم في أيديهم واصطفّوا خلف رئيس الحرس. رجع النقيب إلى الحشود وطأطأ رأسه وسكب بيده على الأرض عرق جبينه، ثم قال: «ما شاء الله على سيد أشرف! عزاء في موته وعزاء في حياته أيضًا!(00)».

ظنت زَرِي أنها الوحيدة التي سمعت إهانة النّقيب لزوجها، لكن حسين آقا تلفّت ناحية أبو القاسم خان وقال: «أتسمح بمثل هذه الإهانة ونعش ذلك المغدور لم يوارى الثرى بعد؟». انهال النّقيب بصفعة على خد حسين آقا حتى طار من أنفه الدم، وأرعد:

«دعك من المواساة أنت الآخر».

أخرج أبو القاسم خان من جيبه علبة سجائر فضية اللون. فتحها وقرّبها من النقيب. أرمش وقال:

«جناب النّقيب، أرجوك. تبدو لي مألوفًا. ألستَ ابن السيد ميرزا مهدي، حمّال خان تجّار الزيت؟ أبوك كان يرعى للأموات حرمتهم...».

صرخ النّقيب ساخطًا: «وهل الوقت مناسب الآن للبحث في سجّلات نسب أمي وأبي؟ لماذا تجسِّر الدّهماء وتستحثّهم؟»، ثم التفت إلى الجموع وزمجر: «قلت لكم اغربوا عن وجهي!».

جمع حسين آقا راحتيه وأمسكهما تحت أنفه، وسأل: «من أي وجهة؟ لقد سدّوا الطريق في وجوهنا». صفع النّقيب قفا حسين آقا عدة صفعات وقال: «مرة أخرى فتحت فمك بالكلام كبلبل؟ ألم أقل لك انكتم؟»، والتحما ببعض. أمسك ما شاء الله قَرّي يدي النّقيب من الخلف، فصفّر رئيس الحرس وهجم رجاله والجنود على الناس، وانهالوا عليهم بالهراوات وأسفل البنادق يضربون يمنة ويسرة. فرّت الجموع نحو الجادّة. ترك الجنازةَ فتوحي وحسن آقا أولًا ثم تبعهما مجيد وسيد محمد واضطروا لوضعها على الأرض بمحاذاة المعبر الفرعي والالتحاق بالحشود في الشارع الرئيس.

سُكّرت كل الطرق المفضية إلى الجادّة وازدحمت السيارات خلف بعضها من الجهتين، وجفلت خيول بضع عربات. اختلطت أصوات أصحاب العربات التي علت بالسبّ واللّعن مع وقع الأسواط

على رقاب الخيول وزامور السيارات وأصوات محركاتها وهي تحاول عبثًا التراجع إلى الخلف مع أصوات السلاسل التي شرع حاملوها بجلد أنفسهم مع صيحات الناس وهتافاتهم.

أراد حامل الثريّا على رأسه أن يعبر من جدول الماء الفارغ ويوصل نفسه إلى الرّصيف، لكنه اصطدم بزحام الناس فسقطت الثريّا من الطبق الذي على رأسه وتكسّرت، فجلس أرضًا بطبقه الخالي فوق رأسه يجمع شظايا الثريّا، لكن أصحاب لوحة العزاء نجحوا في الفرار والوصول بها إلى الرصيف

وإسنادها على حائط. فيما ساعد نفرٌ آخرون وأفسحوا الطريق لحِجلة القاسم وأوصلوها إلى البستان.

تجمهر كل المشيّعين في الجادّة وتركوا النَّعش في المعبر الفرعي غارقًا في الورود بجانب جدار. ولم يبق رفقته سوى زَرِي وجناب الأخ. ومن دون أن يكلّم أحدهما الآخر تعاونا على رفع النَّعش. كان ثقيلًا وكانت الورود الحمراء وأزهار النسرين قد ذبلت، لكن الورود الصحراوية ظلت بطراوتها المعهودة. سمّرت زَرِي عينيها في الجادّة بحثًا عمَّن يقدّم يد المساعدة. لعلع صوت الرّصاص فتراجع الرجال والنساء الذين كانوا قد اتخذوا من سطوح الدكاكين خنادق للتفرّج.

وقعت عين زَرِي على خُسْرو وهو يصرخ: «اتركني!». كان أحد عناصر الحرس قد أمسك بكلتا يديه، وكان هُرْمُز، بنظارته ذات العين الواحدة، يلكم على صدر عنصر الحرس بقبضته المكوّرة. بادر الناس لنقل الجرحى المضرّجين في دمائهم وحمل المغشيّ عليهم على الأكتاف. كانت ملابس معظمهم ممزّقة، والبعض الآخر منزوع الثياب أو مكشوفة بعض أعضائه. وأي غبار وأتربة تعالت في السماء! لم يكن ثمّة من يساعدهم على رفع النَّعش من على الأرض، ولم توافق زَرِي جناب الأخ على سحب التّابوت على التراب وإيصاله إلى البستان، فهاج قلبها وماج. وبعد هنيهة تذكّرت زجاجة الملح.

هرعت أربع حافلات مطلقة العنان لأبواقها وفرّقت

الحشود وشقّت طريقها ومرّت من أمام شاحنة الجنود الفارغة، واحتكّت بصعوبة بالرصيف الذي كان قد خلا نسبيًا من المتفرّجين، واضطّر من بقي هنالك إلى إخلاء المكان. توقفت الحافلات تواليًا في نقطة أبعد من لوحة العزاء. أطلّ الجنود الهنود برؤوسهم من النوافذ. ومرة أخرى تجمّعت الحشود التي كانت قد تراجعت إلى الخلف وشبَّت نار الفوضى من جديد.

تقدّم النّقيب ناحية زَرِي وجناب الأخ وقال للأخير: «برأيي اذهبا أنتما وادفنا الميّت. سأعثر لكما على سيارة. حينما تُهيّج الدّهماء... »، أخرج منديلًا من جيبه وجفّف عرق وجهه.

قال جناب الأخ: «لديّ سيارتي».

ترجّل ضابط هندي من الحافلة الأولى وشقّ طريقه إلى أن وصل إلى النّقيب. ألقى التحية وقال:

«هل تأذن هي، الجنود زيارة "شَاهْ تْشِرَاغ" هي، فقط يومان إجازة هي».

قال النّقيب بصوت عال: «ألا ترى أنَّ الطريق مقفلة؟».

قال الضابط الهندي: «قمع! قمع!».

لكن زَرِي كانت تعلم وكانت على يقين من أنَّ النّقيب يعلم أنَّ الطريق التي جاؤوا منها مسدودة ولا سبيل أمام أي زائر للوصول إلى"شَاهْ تْشِرَاغ" على الإطلاق.

وقعت عيناها على مجيد والحاج محمد رضا

الصبّاغ يمسكان بيدي خُسْرو وهُرْمُز، ويشقّان طريقهما صوب المعبر الفرعي. ساعدا جناب الأخ وحملوا النَّعش على الأكتاف، ولكنهما لم يطلقا يدي الولدين. تبعت جماعة زَرِي وأتوا وراءهم إلى البستان حتى وضعوا الجنازة عند بئر النّبع. أرسل جناب الأخ الحاج محمد رضا ليجلب الثلج من جديد ودعا الله ألا يرجع صفر اليدين. كان البستان يعجّ بالجرحى. تمدّد بضعة رجال على الأسِرَّة، صدورهم مكشوفة ومضرّجون بالدماء أو مغشي عليهم. وكان رجلان يغسلان وجهيهما بماء الحوض، ويشربان منه رغم أنه لم يعد زلالًا كما كان.

نزلت زَرِي إلى القبو على أمل أن تجد التوأم هناك. كانت عِزَّت الدولة مطروحة على سرير وفردوس جالسة أسفله تروّح عليها. كانت نافورة القبو مشغَّلة. لم يكن بالمكان غيرهما.

عثرت على العمَّة والتوأم في غرفة النوم. كانت ستائر الغرفة مسدلة حتى أظلمت قليلًا، ومع ذلك تمكّنت مينا من رؤية زَرِي. نهضت من السرير التي كانت جالسة عليه بجانب العمَّة وفردت يديها وارتمت في حضن أمها. قبّلت زَرِي على عينيها، كانت رموشها لا تزال مبتلّة، أما مرجان فكانت جالسة في حضن العمَّة. لم تتزحزح من مكانها ورمت أمها بنظرة من عينيها المدوّرتين.

قالت مينا: «أمي، العجوز لم يقل: نرجسي، نارنجي. كان يردّد فقط: آخ آخ! لقد شُجّ رأسه وسال دمه... ».

قالت زَرِي: «ألم نتفق على أن تبقيا في منزل الخالة مِهْري؟».

كانت مينا محدّقة في ستارة الشبّاك المطل على الشرفة، قالت: «لماذا سمحت لهؤلاء بالدخول إلى البيت؟ سوف يأخذون حصان أخي وحصان بابا ويذهبون... ذلك الولد أُصيب بجرح هنا» ووضعت يدها على ذراعها.

سألت زَرِي مجدّدًا: «قلت لماذا لم تمكثا في منزل الخالة مِهْري؟».

أشارت مينا إلى مرجان، التي ظلّت كما كانت جالسة في حضن العمَّة، وقالت:

«هذه الطفلة الجبانة بكت. قالت أريد أمي... لم تسمح لنا عمّتنا العزيزة بالمشاهدة... أخفت رأسها تحت الشجرة. سال الدم...».

صمتت قليلًا ثم طوّقت رقبة أمها وقالت: «الخالة مِهْري وبابا محسن تشاجرا حتى بكت الخالة مِهْري. قال بابا محسن: أنا أخاف، ثم ضرب الخالة مِهْري، فبكت هذه الطفلة الجبانة هي الأخرى...».

قالت العمَّة: «لم أكن أريد أن تسير الأمور هكذا، ولم أكن أظن أنها ستكون هكذا».

قالت زَرِي: «لكني لست نادمة... وعلى قول يوسف، لا يجب أن تخلو مدينة من رجال».

تنهّدت العمَّة وقالت: «كنت أريد أن يقيموا عزاء لذلك الشهيد لكني لم أكن أريد أن تنجرّ الأمور للضرب والجرح وسفك الدماء. وعلى قول المرحوم

السيد الحاج: كل حرب طرفاها خاسران».

قالت مينا وهي تطوّق رقبة أمها بيدها: «سوف يأتي بابا وينزعج. وسوف يقول أخي: أين حصاني إذن؟ سوف أقول له: أخي سَحَر جُرح ومات. مفهوم؟».

باتت رزمة المفاتيح بحوزة زَرِي الآن، وباستطاعتها أن تذهب وتخرج صندوق الأدوية من الصوان وتضمّد جروح الجرحى. لم يهمد الهرج والمرج ولم يهدأ صوت الرصاص. وفي أوج هذه المعمعة رنّ هاتف البيت بشكل مريع. ذهب جناب الأخ ليردّ. مؤكد أنهم كانوا يريدونه شخصيًا لأنه أطال الكلام، وحين كان يذرع البستان بدا مستعجلًا. وبعد لحظات خرج هُرْمُز أيضًا من البستان. أما مجيد فكان لا يزال ممسكًا بيد خُسْرو، ويجلس على السرير بجانب زَرِي التي كانت تدلّك بالزيت معصم يد خُسْرو الأخرى الذي تورّم وازرقَّ وبقيت آثار أصابع عنصر الحرس مرتسمة عليه. سألته:

«هل يوجعك كثيرًا؟ أظن أنه انحرف».

قال خُسْرو: «كلَّا أمي، لستُ أعزّ من أبي... لمّا أُصيب هو بالرصاصة... ». لم يكمل كلامه وضحك في وجه أمه وقال: «إذا اشتدَّ ألمه سيتحسّن».

ابتسمت زَرِي وقالت: «الآن صرت رجلًا بمعنى الكلمة».

*

في الليل انتزعوا النَّعش من بين أكياس الثلج بجانب بئر النّبع ووضعوه في صندوق سيارة جناب

الأخ. جلست العمَّة وزَرِي وخُسْرو وهُرْمُز وجناب الأخ في السيارة، وعبروا من أمام مزار "سيد حاجي غريب" بنية الطواف. كانت السيدة فاطمة تبكي وتقول: «فداءً لغربتك!»، لكن زَرِي لم تكن تجد دموعًا. لم تعرف ماذا تقصد العمَّة، هل غربة ضريح الوليّ أم غربة يوسف؟ كانت تفكّر:

«ليتني كنت أملك دموعًا وأعثر على مكان آمن فأبكي كلَّ الغرباء وكلَّ المُغرَّبين في الدنيا، أبكي كلَّ أولئك الذين قُتلوا برصاص الغدر ووُوروا الثّرى خلسة تحت جنح الظلام!».

كان القبر جاهزًا في مقبرة "جَوَانْ آبَاد". دفنوا الميّت تحت نور لمبة كان غلام يحملها. أراد سيد محمد أن يقرأ على الميّت التراتيل والأدعية لكنه لم يكن يعرف. وبإشارة من غلام ترك خُسْرو رأس أبيه ورفع يديه إلى عينه وأجهش بالبكاء. أهال غلام وسيد محمد التراب على يوسف بيديهما، بينما كانت العمَّة تبكي وتنوح: «شهيدي هنا، أخي هنا. لأجل ماذا أذهب إلى كربلاء؟!».

أما زَرِي فقد ضاق قلبها بكل شيء، حتى بالموت. موت بلا طواف، وبلا صلاة جنازة وبلا تشييع. فكّرت: «لن أكتب شيئًا على شاهد قبره».

لمّا عادوا إلى البيت وجدوا بضع رسائل تعزية. من بين كل تلك الرسائل راقتها تعزية مَكْ مَاهُون فترجمتها لخُسْرو وللعمَّة: «أختاه لا تبكي. سوف تنبت في بيتك شجرة، وفي مدينتك أشجار وفي وطنك الكثير من الأشجار».

«وسوف توصل الريح رسالة كل شجرة إلى الشجرة الأخرى. وسوف تسأل الأشجار الريح: ألم تري سَحَرًا في طريقك وأنت قادمة؟!».

سيمين دانشور

ولدت سيمين دانشور عام 1921م في مدينة شيراز. بدأت الكتابة منذ عام 1935م عندما كانت لا تزال تلميذة في المدرسة. درست الأدب الفارسي في جامعة طهران وحازت منها على درجة الدكتوراه. عملت في راديو طهران كاتبة لأحد البرامج الأدبية. كما عملت كاتبة ومترجمة في بعض الصحف. جرّبت كتابة القصص، وكتبت قصة النار المُطفأة في عام 1948م وهى في السابعة والعشرين.

تعرفت على جلال آل أحمد، الكاتب الروائي المعاصر المشهور، خلال رحلة من شيراز إلى طهران، ثم تزوجا في العام 1950م.

وفى سنة 1961م نشرت دانشور مجموعتها القصصية الثانية مدينة كالجنة. وفي نفس الوقت تعد ترجماتها لأعمال تشيكوف وشو وهاوثورن وشنيتسلر وسورايان إلى الفارسية إضافة قيمة لمجموعة الأعمال الأجنبية الموجودة في إيران.

كانت رواية سووشون أول رواية تكتبها كاتبة إيرانية وذلك في عام 1969م. كتبت مجموعة من القصص القصيرة، ونشرت مجموعة منها في المجلات ثم تم جمعها أخيرا في عام 1980م. وفي عام 1981م أتمت مقالها عن جلال آل أحمد رحيل جلال وقد كانت هذه أكثر القطع التي كتبتها تأثيرا وهى أيضا أفضل عمل يصف شخصية أحد زعماء إيران الأدبيين.

أحمد موسى

من مواليد تطوان بالمغرب في العام 1973م. أستاذ باحث بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة. حاصل على دكتوراه اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران في العام 2003م. له أبحاث ومقالات وإصدارات متنوعة. ترجم عن الفارسية مجموعة من الإبداعات من أهمها روايات چشمهايش لبزرك علوي، عن منشورات الربيع بالقاهرة، وسيمفونية الموتى لعباس معروفي عن منشورات المتوسط. كما ترجم المجموعة القصصية آبشوران للروائي والقاص علي أشرف درويشيان. وأصدر أيضًا أنطولوجيا القصة القصيرة الإيرانية تحت عنوان ربيع كتماندو الأزرق عن منشورات الربيع بالقاهرة. من ترجماته أيضًا رواية جن إيراني للروائي الإيراني الرائد بهرام صادقي، وصدرت عن منشورات الربيع بالقاهرة. وعن نفس الدار صدرت للمترجم أحمد موسى ترجمته لرواية امرأة طهران لفريبا وفي، كذلك نشر لدى دار نثر بمسقط، رواية عشق هادئ للروائي الإيراني البارز نادر إبراهيمي.

من مؤلفاته في مجال الدراسات اللغوية الفارسية، كتاب الدروس الأساسية في اللغة الفارسية، وصدر عن دار باب الحكمة للنشر بتطوان في المغرب. وكتاب مدخل إلى اللغة الفارسية، مباحث في تاريخ اللغات الإيرانية وصدر عن دار كوبي باج بالجديدة في المغرب.

(34) رُسْتَم بن زال هو بطل أسطوري فارسي خيالي، تغنّى الشاعر أبو القاسم الفردوسي ببطولاته في الشّاهنامة، ومآثره ملأت القصص الفارسي.

(33) مرحب بن أبي زينب، يُسمى في بعض المراجع التاريخية الإسلامية مرحب اليهودي، أحد أشهر فرسان يهود خيبر، وصاحب حصن مرحب المنيع.

(32) شمر بن ذي الجوشن من قبيلة بني كلاب، كان ممن بايع علي بن أبي طالب وشارك في معركة صفين، لكنه تمرد عليه، وبعد ذلك شارك في قتل الحُسين.

(32*) فضة هي خادمة عاشت في بيت الرسول (ص)، وبعد أن احتاجت فاطمة الزهراء لخادمة تساعدها في أمور بيتها أهداها إليها أبوها، بقيت مع أهل البيت إلى ما بعد واقعة كربلاء.

(31) لطفعلي خان زند، آخر ملوك السلسلة الزندية. حكم إيران من 1789 إلى سنة 1795م.

(30) قطعة مشهورة ألفها الموسيقار الإيراني الراحل رحيم فتحعلي زاده.

(29) القشقاي قبائل من التركمان يستوطنون مدن شيراز وإصفهان في جنوب إيران.

(28) خمار أسود تغطي به المرأة الإيرانية رأسها وكامل جسدها. شادور الصلاة: كان هناك أكثر من شادور، وشادور الصلاة يكون عادة أبيض مزينًا بالزهور.

(27) عبارة باللغة الروسية تعني: "لا، لا"

(26) عبارة باللغة الروسية تعني: "جيد، جيد"

(25) أشكبوس أحد أبطال شاهنامة الفردوسي حاربه رُسْتَم وقتله بسهم. إسْفَنْدْيار من أبرز أبطال الشاهنامة أيضًا، وقاتل

رُسْتَم فقُتل على يديه. سُهْراب من أبطال الشاهنامة أيضًا، وقصة رُسْتَم وسُهْراب مشهورة. قتله أبوه في الحرب ولم يعرفه إلا لحظة احتضاره.

(24) سِيَاوَش أو سِيَاوُوش، من الشخصيات الأسطورية البريئة في الشاهنامة. بطل شاب ومليح الوجه ونجل بطل قوي اسمه كاووس. سياوش إحدى الشخصيات المظلومة والحزينة في الشاهنامة.

(23) من قبائل عشيرة القشقاي.

(22) من قبائل عشيرة القشقاي.

(21) شَاهْ تْشِرَاغ هو مسجد يضم ضريح الأخوين أحمد ومحمد ابني موسى الكاظم، وشقيقي علي الرضى. والاثنان لجآ إلى مدينة شيراز حوالي العام 900 للميلاد.

(20) إحدى أشهر الحدائق في إصفهان خلال العصر الصفوي.

(19) حكاية طويلة في "منطق الطير" لفريد الدين العطار، تتعلق بالشيخ صنعان الذي كان يقطن مكة مع أربعمائة من مريديه، وكان على قدر كبير من الصلاح والتقوى، ثم رأى في منامه أنه رحل إلى بلاد الروم وسجد للصنم. فأسرع بالذهاب إلى بلاد الروم مع مريديه، وهناك أغرم بفتاة مسيحية غرامًا شديدًا...

(18) الأخت بالتسمِّي: اتخاذ الأخت بالتسمِّي عادة شائعة في إيران بين الطبقات الفقيرة، وتتم بعد عدة طقوس.

(17) ميور: نوع فاخر من أنواع القماش الذي كان يستورده تجّار مدينة شيراز قديمًا من الهند. وكان يلبسه الأعيان والأثرياء. وصار يُطلق على من يتصرّف بغرور وكبرياء "أبناء الميرزا ميور".

(16) السلطان محمد خان القاجاري (1742-1797م) هو مؤسس الدولة القاجارية في إيران.

(15) مجلس تعزية تقرأ فيه أشعار تخلد لذكرى استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه.

(14) هكذا وردت هذه الآية في النص الفارسي، وضبطها الصحيح كالتالي: (فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين) سورة يوسف، آية 64.

(13) محمد بن موسى الكاظم، يشتهر في مدينة شيراز باسم سيد مير محمد. هو ابن الإمام السابع موسى بن جعفر. انطلق من المدينة واستقر في طوس هو وأخوه أحمد بن موسى في خلافة المأمون العباسي. فرّ إلى شيراز واختفى بها على إثر الحرب الذي جمعته بجيش قتلع.

(12) قصة مشهورة في الأدبين الفارسي والتركي. ذكرها الفردوسي في الشاهنامة ثم نظمها الشاعر نظامي الكنجوي وخسرو الدهلوي ونظمها بالتركية شيخي وعطائي وأهي.

(12*) إحدى الشخصيات الخبيثة في شاهنامة الفردوسي التي حاربها رُسْتَم.

(11) الإخمينيون هم أول سلالة إيرانية قوية حكمت إمبراطورية فارس وأسسها كوروش الكبير (529-559 ق م).

(10) الشاهنامه ملحمة فارسية ضخمة تقع في نحو ستين ألف بيت، من تصنيف أبو القاسم الفردوسي المتوفى 329هـ، وتُعتبر أعظم أثر أدبي فارسي في جميع العصور.

(09) مراسم عزاء سِيَاوَش واسم لأماكن في إيران تقام فيها هذه المراسم. وسِيَاوَش من الشخصيات الأسطورية البريئة في الشاهنامة. شاب وسيم ونجل بطل قوي اسمه كاووس. وهو إحدى الشخصيات المظلومة والحزينة في الشاهنامة. ما زالت هذه المراسم منتشرة في بعض قرى وبلدات إيران رغم مرور أربعة عشر قرنًا على نفوذ الإسلام إلى إيران.

(08) شمس الدين محمد حافظ الشيرازي (792 هـ) الملقب بـ«خواجه حافظ الشيرازي» والشهير بـ«لسان الغيب» من أشهر الشعراء الإيرانيين ونجم ساطع في سماء الأدب في إيران. يعتبر أشهر شعراء الفرس الغنائيين. مرقده بشيراز.

(07) كان الناس في إيران وخاصة في مدينة شيراز يعتقدون

بأن كسر البيض يدفع العين.

(06) عبارة عن لعبة تستعمل فيها خمسة حصيات ويتداول اللعب فيها لاعبان أو أكثر، كانت منتشرة في بعض محافظات إيران.

(05) خولي بن يزيد الأصبحي قُتل عام 66 هـ، هو أحد أفراد جيش عمر بن سعد الذي حارب الإمام الحسين في واقعة كربلاء. وأولاد مسلم بن عقيل هما محمد وإبراهيم، وقد سُجنا في الكوفة بعد شهادة الحسين.

(04) المثنوي المعنوي هو ديوان شعري باللغة الفارسية لجلال الدين الرومي، يعني بالعربية النظم المزدوج الذي يتّحد فيه شطرا البيت الواحد ويكون لكل بيت قافيته الخاصّة، وبذلك تتحرر المنظومة من القافية الموحدة.

(03) قطعة لوح أو فلز أفقية مع قضبان وشفرات موصولة باللوحة بشكل عمودي. تحمل اللوحة في مراسم عزاء عاشوراء.

(02) حجلة القاسم، وهو أحد أبناء الإمام حسن المُجتبى. تُحمل في مراسم عزاء عاشوراء.

(01) * شمر بن ذي الجوشن من قبيلة بني كلاب، كان ممن بايع علي بن أبي طالب وشارك في معركة صفين لكنه تمرد عليه، وبعد ذلك شارك في قتل الحسين في كربلاء.

(00) * هذا المثل الشيرازي يُضرب للأشخاص الأشرار الذين يتسببون للناس في المتاعب سواء قيد حياتهم أو في موتهم. يحكى أنَّ رجلًا في شيراز كان يدعى سيد أشرف. وكان قيد حياته يزعج الناس ويؤذيهم ولمّا مات أقاموا له عزاءً فصار يُضرب به المثل فيقال: سيد أشرف عزاء في موته وعزاء في حياته..